الجواب الصحيح

لمن بدل دين المسيح

لشيخ الإسلام

أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني

المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

تحقيق

خيري سعيد

المجلد الأول

المكتبة التوفيقية

أمام الباب الأخضر . سيدنا الحسين

٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

الجواب الصحيح

لمن بدل دين المسيح

لشيخ الإسلام

أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني

المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

تحقيق

نخبة سعيد

الجزء الأول

المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٠٤١٧٥ ٥٩٢٢٤١٠

التجهيزات الفنية
دار التوفيقية للطباعة

المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo - Egypt
Add : in front of the Green Door Of El Hussen
Tel : (00202) 5904175 -5922410
Fax : 6847957

إشراف
توفيق شعلان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين.

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾(١).

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ...﴾(٢).

والله أكبر، الله أكبر، لا إله إلاَّ الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾(٣).

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾(٤).

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ

(١) سورة الأنعام: ١.
(٢) سورة الإسراء: ١١١.
(٣) سورة الكهف: ١-٥.
(٤) سورة سبأ: ١، ٢.

وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحى القيوم، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم:

﴿ ... لَّهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾(٢).

الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، الأول الآخر الظاهر الباطن الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، أرسله بالحق بين يدى الساعة بشيراً ونذيراً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً، أرسله إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وأنزل عليه:

﴿ ... أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾(٣).

كتاب أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم:

﴿ ... إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ... ﴾(٤).

هداهم به إلى صراط مستقيم، صراط الله الذى له ما فى السمٰوات وما فى

---

(١) سورة فاطر: ١، ٢.
(٢) سورة البقرة ٢٥٥.
(٣) سورة الزمر: ٢٣.
(٤) سورة إبراهيم: ١، ٢.

الأرض، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهو دين الله الذى بعث به الرسل قبله.

كما قال -تعالى-:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾(٢).

وقال فى الآية الأخرى: ﴿... وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(٣).

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٥).

وقال -تعالى-:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٦).

أنزل عليه الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه فصدّق كتابه ما بين يديه من كتب السماء، وأمر بالإيمان بجميع الأنبياء، كما قال -تعالى-:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

(١) سورة الشورى: ١٣.
(٢) سورة المؤمنون: ٥١، ٥٢.
(٣) سورة الأنبياء: ٩٢.
(٤) سورة المؤمنون: ٥٣.
(٥) سورة الأنبياء: ٢٥.
(٦) سورة النحل: ٣٦.

وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١).

وهيمن على ما بين يديه من الكتاب، وذلك يعم الكتب كلها، شاهدًا وحاكمًا ومؤتمنًا، يشهد بمثل ما فيها من الأخبار الصادقة.

وقرر ما في الكتاب الأول من أصول الدين وشرائعه الجامعة، التي اتفقت عليها الرسل: كالوصايا المذكورة في آخر الأنعام، وأول الأعراف، وسورة سبحان، ونحوها من السور المكية.

قال -تعالى-:

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة: ١٣٦، ١٣٧.

(٢) سورة الأنعام: ١٥٠-١٥٣.

(٣) سورة الأعراف: ٢٩-٣٢.

وقال -تعالى-:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٣٥﴾ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴿٣٦﴾ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾(١).

فدين الأنبياء والمرسلين دين واحد، وإن كان لكل من التوراة والإنجيل والقرآن شرعة ومنهاج، ولهذا قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ : **«إنّا معاشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بينى وبينه نبى»**(٢).

فدين المرسلين يخالف دين المشركين المبتدعين، الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيَعًا.

قال -تعالى-:

---

(١) سورة الإسراء: ٢٣-٣٩.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥)، وأبو داود (٤٦٧٥).

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾(٣).

وقد خص الله -تبارك وتعالى- محمدًا ﷺ بخصائص ميزه بها على جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شرعة ومنهاجًا، أفضل شرعة وأكمل منهاج.

كما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس، فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله من جميع الأجناس، هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم، وجعلهم وسطًا عدلاً خياراً، فهم وسط فى توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفى الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه من الأمر والنهى والحلال والحرام.

فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث لم يحرم عليهم شيئًا من الطيبات كما حرم على اليهود، ولم يحل لهم شيئًا من الخبائث كما استحلتها النصارى، ولم يضيق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيق على اليهود، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى، فلا يوجبون الطهارة من الجنابة، ولا الوضوء للصلاة، ولا اجتناب النجاسة فى

---

(١) سورة الروم: ٣٠-٣٢.

(٢) سورة المؤمنون: ٥٠-٥٣.

(٣) سورة الشورى: ١٣.

الصلاة، بل يعد كثير من عبادهم مباشرة النجاسات من أنواع القرب والطاعات، حتى يقال في فضائل الراهب: «له أربعون سنة ما مس الماء»، ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل عليه السلام[(١)] وأتباعه.

واليهود إذا حاضت عندهم المرأة، لا يؤاكلونها ولا يشاربونها، ولا يقعدون معها في بيت واحد، والنصارى لا يحرمون وطء الحائض[(٢)].

وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة، بل إذا أصاب ثوب أحدهم قرضه بالمقراض[(٣)] والنصارى ليس عندهم شيء نجس يحرم أكله أو تحرم الصلاة معه.

ولذلك المسلمون وسط في الشريعة، فلم يجحدوا شرعه الناسخ لأجل شرعه المنسوخ كما فعلت اليهود، ولا غيروا شيئًا من شرعه المحكم، ولا ابتدعوا شرعًا لم يأذن به الله كما فعلت النصارى، ولا غلوا في الأنبياء والصالحين كغلو النصارى، ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود، ولا جعلوا الخالق -سبحانه- متصفًا بخصائص المخلوق ونقائصه ومعايبه: من الفقر والبخل والعجز كفعل اليهود، ولا المخلوق متصفًا بخصائص الخالق -سبحانه-، التي ليس كمثله فيها شيء كفعل النصارى، ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود ولا أشركوا بعبادته أحدًا كفعل النصارى.

وأهل السنة والجماعة في الإسلام -كأهل الإسلام في أهل الملل، فهم وسط في باب صفات الله -عز وجل-، بين أهل الجحد والتعطيل، وبين أهل التشبيه والتمثيل- يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسله، من غير تعطيل ولا تمثيل، إثباتًا لصفات الكمال، وتنزيهًا له عن أن يكون له فيها أنداد وأمثال، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل.

---

(١) أخرج البخاري (٣٣٥٦) ومسلم (٢٣٧٠) عن أبي هريرة مرفوعًا اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم».

(٢) أخرج مسلم (٣٠٢)، وأبو داود (٢٥٨)، والترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي (١/١٥٢)، وابن ماجه (٦٤٤)، والدارمي (١٠٥٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (٧٦-بترقيمي) عن أنس قال «كانت اليهود إذا حاضت امرأة منهم لم يؤاكلهن ولم يشاربوهن ولم يجامعوهن في البيوت، فسئل النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى﴾، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يؤاكلوهن ويشاربوهن، وأن يكونوا معهن في البيوت، وأن يفعلوا كل شيء ما خلا النكاح...» الحديث.

(٣) المقراض: المقص. «المعجم الوسيط» (٧٢٧).

كما قال -تعالى-: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...﴾(١).

رد على الممثلة: ﴿... وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ...﴾(٢).

رد على المعطلة.

وقال -تعالى-:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(٣).

فالصمد: السيد المستوجب لصفات الكمال، والأحد الذى ليس له كفو ولا مثال. وهم وسط فى باب أفعال الله -عز وجل-، بين المعتزلة المكذبين للقدر، والجبرية النافين لحكمة الله ورحمته وعدله، والمعارضين بالقدر أمر الله ونهيه وثوابه وعقابه.

وفى باب الوعد والوعيد، بين الوعيدية الذين يقولون بتخليد عصاة المسلمين فى النار، وبين المرجئة الذين يجحدون بعض الوعيد، وما فضل الله به الأبرار على الفجار.

وهم وسط فى أصحاب رسول الله ﷺ، بين الغالى فى بعضهم، الذى يقول بإلهية أو نبوة أو عصمة، والجافى فيهم: الذى يكفر بعضهم أو يفسقه. وهم خيار هذه الأمة.

والله -سبحانه- أرسل محمدًا ﷺ للناس رحمة، وأنعم به نعمة يا لها من نعمة.

قال -تعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٤).

وقال -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾(٥).

وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، فإرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده. يجمع الله لأمته بخاتم المرسلين وإمام المتقين وسيد ولد آدم أجمعين ما فرقه

---

(١)، (٢) سورة الشورى: ١١.
(٣) سورة الإخلاص.
(٤) سورة الأنبياء: ١٠٧.
(٥) سورة إبراهيم: ٢٨.

في غيرهم من الفضائل. وزادهم من فضله أنواع الفواضل، بل أتاهم كِفْلين[(١)] من رحمته، كما قال -تعالى-:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[(٢)].

وفى الصحيحين عن ابن عمر، وأبى موسى، عن النبى ﷺ أنه قال: «**إنما أجلكم فى أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لى إلى نصف النهر على قيراط قيراط؟**

فعملت اليهود إلى نصف النهار، ثم قال: من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟.

فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال: من يعمل من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين؟.

ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس، ألا لكم الأجر مرتين.

فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء!

فقال الله -تعالى- فهل ظلمتكم من حقكم شيئًا؟ قالوا: «لا. قال الله -تعالى-: فإنه فضلى أعطيه من شئت»[(٣)].

أما بعد: فإن الله -تبارك وتعالى- جعل محمداً ﷺ خاتم النبيين، وأكمل له ولأمته الدين، وبعثه على حين فترة من الرسل وظهور الكفر وانطماس السبل، فأحيا به ما درس من معالم الإيمان، وقمع به أهل الشرك من عباد الأوثان والنيران والصلبان، وأذل به كفار أهل الكتاب أهل الشك والارتياب، وأقام به منار دينه الذى ارتضاه، وشاد به ذكر من اجتباه من عباده واصطفاه، وأظهر به ما كان مخفيًا

(١) الكفل: النصيب. «المعجم الوسيط» (٧٩٣).
(٢) سورة الحديد: ٢٨، ٢٩.
(٣) صحيح: أما حديث ابن عمر فأخرجه البخارى (٥٥٧)، والترمذى (٢٨٨٠).
وأما حديث أبى موسى الأشعرى فأخرجه البخارى (٥٥٨).

عند أهل الكتـاب، وأبان به ما عـدلوا فيه عن مـنهج الصواب، وحقـق به صدق التـوراة والزبور والإنجيل، وأمـاط به عنها مـا ليس بحـقهـا من باطل التحـريف والتبديل.

وكان من سنة الله -تبارك وتعالى- مواترة الرسل وتعميم الخلق بهم، بحيث يبعث في كل أمة رسولاً ليقيم هداه وحجته، كما قال -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ... ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(٢).

وقال -تعالى-: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا... ﴾(٣).

وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴿١٦٤﴾ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾(٤).

ولما أهبط آدم إلى الأرض قال -تعالى-:

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾(٥).

وقال -تعالى- عن أهل النار:

---

(١) سورة النحل: ٣٦.

(٢) سورة فاطر: ٢٤.

(٣) سورة المؤمنون: ٤٤.

(٤) سورة النساء: ١٦٣-١٦٥.

(٥) سورة طه ١٢٣-١٢٧.

﴿ ... كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾(١).

وقال -تعالى-: ﴿ ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾(٣).

• • •

(١) سورة الملك: ٨-١٠.
(٢) سورة الإسراء: ١٥.
(٣) سورة الأنعام: ١٣٠، ١٣١.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(١).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾(٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾(٣).

أما بعد... فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

وبعد، فهذا هو كتاب *«الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»* تصدره «المكتبة» فى صورة جديدة بعد أن عزّ وجوده، وهو من الدرر البهية التى ألفها شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية -رحمه الله تعالى- جوابًا على شبهات النصارى على دينهم المحرف والمبدل، وإظهاراً لنور الإسلام على ظلام الشرك والكفران.

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٢) سورة النساء: ١.

(٣) سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١.

قال تعالى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

فقام رسول الله ﷺ بهذا البيان وهذه الهداية أتم قيام، وكان الواجب على ورثته من العلماء أن يقفوا أثره نحو هذا الواجب، وقد فعلوا -رحمهم الله تعالى- فكان هذا الكتاب القيم لشيخ الإسلام ابن تيمية الذى أسأل الله أن يجعله نوراً يخرج به من الظلمات إلى النور، ويهدى به إلى صراط مستقيم.

وأسأل الله عز وجل أن يجعل عملى فيه -وهو قليلٌ- مباركًا نافعًا، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، ويجزى كل من شارك فى إخراجه إلى النور جزاءً حسنًا، إنه سميع قريب.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

خيرى سعيد

٤ من ذى الحجة ١٤٢٠هـ

١٠ من مارس ٢٠٠٠م

---

(١) سورة المائدة: ١٤-١٦.

ترجمة شيخ الإسلام(*)

* اسمه ونسبه ومولده:

هو الإمام شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم بن تيمية الحرانى، ثم الدمشقى الحنبلى، تقى الدين أبو العباس بن شهاب الدين ابن مجد الدين.

ولد شيخ الإسلام يوم الاثنين فى عاشر ربيع الأول سنة (٦٦١هـ) بحران.

* طلبه العلم:

تحول به أبوه من حران سنة (٦٦٧هـ) فقدم به مع أهله إلى دمشق، فسمع الحديث من ابن عبد الدائم، وابن أبى اليسر، وابن عبدان، والشيخ شمس الدين الحنبلى، والشيخ شمس الدين بن عطاء الحنفى، والشيخ جمال الدين بن الصيرفى، ومجد الدين ابن عساكر، وجمال الدين البغدادى، والنجيب بن المقداد، وابن علان، وخلق كثير.

وقرأ بنفسه الكثير وطلب الحديث ولازم السماع بنفسه مدة سنين، وقل أن سمع شيئًا إلا حفظه، وحصل الأجزاء، ونظر فى الرجال والعلل وتفقه، وصنف ودرس وأفتى، قال الحافظ الذهبى: ولعل فتاويه فى الفنون تبلغ ثلاثمائة مجلد بل أكثر.

* مصنفاته:

من أشهر مصنفاته:

١- منهاج السنة النبوية.

(*) مصادر الترجمة:
١- «البداية والنهاية» (٧/ ٥٣١، ٥٣٦).
٢- «الدرر الكامنة» (١/ ١٤٤-١٦٠).
٣- «شذرات الذهب» (٦/ ٨٠-٨٦).

٢- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. (وهو كتابنا هذا).
٣- كتاب الإيمان.
٤- الواسطية فى العقيدة.
٥- الحموية فى العقيدة.
٦- الحسنة والسيئة.
٧- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.
٨- درء تعارض العقل والنقل.
٩- شرح حديث النزول.
١٠- رفع الملام عن الأئمة الأعلام.
١١- السياسة الشرعية.

إلى غير ذلك من المصنفـات والفتاوى التى تبلغ -فيمـا قاله الحافظ الذهبى- ثلاثمائة مجلد(١).

* محنه:

وقد كان شيخ الإسلام عَلَمٌ فى هذا الباب، وهو محن العلماء، فسيرته كما أنها سيرة لنصرة دين الله وسنة نبيه ﷺ كانت سيرة للمحن والابتلاءات. فما زال فيها -رحمه الله- ينتقل من محنة إلى أخرى إلى أن وافته المنية.

فمن صور هذه الابتـلاءات ما ذكرها الحافظ ابن حجر فـقال: وأول ما أنكر عليه من مقالاته فى شـهر ربيع الأول سنة (٦٩٨هـ) قام عليه جماعـة من الفقهاء بسبب الفـتوى الحمـوية، وبحثـوا معه ومنع من الكلام، ثم طلـب ثانى مرة سنة (٧٠٥هـ) إلى مصر فتعصب عليه بيبرس الجاشنكير، وانتصر له سلار، ثم آل أمره أن حبس فى خـزانة البنود مدة، ثم نقل فى صفـر سنة (٧٠٩هـ) إلى الإسكندرية ثم أفرج عنه وأعيـد إلى القاهرة، ثم أعيد إلى الإسكندرية، ثم حـضر الناصر من الكرك فأطلقه، ووصل إلى دمشق فى آخر سنة (٧١٢هـ).

قال: ثم قامـوا عليه فى شهر رمضان سنة (٧١٩هـ) بسـبب مسألة الطلاق، وأكد عليه المنع من الـفتيا، ثم قامـوا عليه مرة أخرى فى شعـبان (٧٢٦هـ) بسبب

---

(١) وهذا بتقدير المجلد فى عصر الحافظ الذهبى وهو أقل بكثير مما فى عصرنا هذا.

مسألة الزيارة، واعـتقل بالقلعة فلم يزل بها إلى أن مات فى لـيلة الاثنين العشرين من ذى القعدة سنة (٧٢٨هـ).

*** ثناء أهل العلم عليه:**

قال الشيخ علم الـدين البرزالى: كان ذكيًّا كثيـر المحفوظ فصـار إمامًا فى التفسير وما يتعلق به، عارفًا بالفقـه، فيقال: إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا فى زمـانه وغيره، وكـان عالمًا باختـلاف العلماء، عالـمًـا فى الأصول والفروع والـنحو واللغـة، وغير ذلـك من العلوم النقلية والعـقلية، ومـا قطع فى مـجلس ولا تكلم معـه فاضل فى فن مـن الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفًا به متقنًا له.

قال: وأما الحديث فكان حامل رايته وحافظًا له مميزًا بيـن صحيحه وسقيمه، عارفًا بـرجاله متضلعًـا من ذلك، وله تصانيف كثيـرة وتعاليق مفيـدة فى الأصول والفروع، كمل منهـا جملة وبيضت وكتـبت عنه وقرئت عليه أو بعضـها، وجملة كبيرة لم يكملها وجملة كملها ولم تبيض إلى الآن.

قال: وأثنى عليـه وعلى علومه وفضـائله جماعـة من علماء عصـره، مثل القاضـى الخوبى، وابن دقيق الـعيد، وابن النحـاس، والقاضى الحنفـى، وقاضى قضاة مصر ابن الحـريرى، وابن الزملكانى وغيرهم، ووجدت بخط ابن الزملكانى أنه قال: اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها، وأن له اليد الطولى فى حسن التصنيف وجودة العبارة، والترتيب والتقسيم والتدين.

وقال الحافظ الذهبى: له باع طويل فى معـرفة أقوال السلف، وقل أن تذكر مسألة إلا ويذكر فـيها مذاهب الأئمة الأربعة، وقد خـالف الأئمة الأربعة فى عدة مسائل صنف فيها واحتج لها بالكتاب والسنة... وأقام عدة سنين لا يفتى بمذهب معين.

وقال أيضًـا: بصيرًا بطريقة السلف، واحـتج له بأدلة وأمور لم يسبق إليـها وأطلق عبارات أحجم عنها غيره.

وقال أيضًـا: كان يقـضى منه العجب إذا ذكـر مسـألة من مسـائل الخلاف واستدل ورجح، وكـان يحق له الاجتهاد لاجـتماع شروطه فيـه، وما رأيت أسرع

انتزاعًـا للآيات الدالة على المسألة التى يوردها مـنه، ولا أشد استـحضاراً للمـتون وعزوها منه، كـأن السنة نصب عينيـه وعلى طرف لسانه، بعبـارة رشيقـة، وعين مفـتوحة، وكـان آية من آيات الله فى التفسـير والتـوسع فيه، وأمـا أصول الديانة ومعرفـة أقوال المخالفين فكان لا يشق غـباره فيه، هذا مع ما كـان عليه من الكرم والشجاعة والفراغ عن ملاذ النفس.

قال: وكان قوالاً بالحق لا يأخذه فى الله لومة لائم، ومن خالطه وعرفه فقد ينسبنى إلى التـقصير فيـه، ومن نابذه وخالفه فقـد ينسبنى إلى التغالى فـيه، وقد أوذيت من الفريقين، من أصحابه وأضداده.

ويقول أيضًا: ولم أر مثله فى ابتهاله واستغـاثته وكثرة توجهه، وأنا لا أعتقد فيه عصـمة بل أنا مخالف له فى مسائل أصـلية وفرعية، فإنه كان مع سـعة علمه وفرط شجاعته وسيلان ذهنه وتعظيمـه لحرمات الدين بشراً من البشر، تعتريه حدة فى البحث وغـضب وشظف[1] للخصم، وتزرع له عـداوة فى النفوس، وإلا لو لاطف خصـومه لكان كلمـة إجمـاع، فإن كبـارهم خاضـعون لعلومه مـعتـرفون بشنوفه، مـقرون بنذور خطائه، وأنه بحر لا سـاحل له، وكنز لا نظير له، ولكن ينقمون عليه أخلاقًا وأقبالاً، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك.

وقـال أيضًا: كـان محـافظًا على الصلاة والـصوم مـعظمًا للشـرائع ظاهراً وباطنًا، لا يؤتى من سوء فهم، فإن له الذكاء المفرط، ولا من قلة علم، فإنه بحر زخار، ولا كان متـلاعبًا بالدين، ولا ينفرد بمسائله بالتشـهى، ولا يطلق لسانه بها اتفق، بل يحـتج بالقرآن والحديث والقـياس ويبـرهن ويناظر أسوة من تقـدمه من الأئمة، فله أجر على خطئه وأجران على إصابته.

وقال جمال الدين السرمرى فى «أمـاليه»: ومن عجائب ما وقع فى الحق[2] من أهل زماننا أن ابن تيمـية كان يمر بالكتاب مطالعة مـرة فينتقش فى ذهنه وينقله فى مصنفاته بلفظه ومعناه.

وقال الأتشـهرى فى حق ابـن تيميـة: بارع فى الفـقه والأصول والفـرائض والحساب وفنون آخر، وما من فن إلا له فيه يد طولى.

---

(١) الشظف: الشدة.

(٢) كذا فى «الدرر الكامنة» ولعله الحفظ.

وقــال الطوفى: كــان يتكلم على المنـبر على طـريقة المـفسـرين مع الفـقـه والحديـث، فيورد فى ساعة من الكتــاب والسنة واللغة والنظر ما لا يقدر أحد على أن يورده فى عدة مجالس كأن هذه العلوم بين عينيه.

وقال أبو الفتح اليـعمرى فى حقه: ألفـيته ممن أدرك من العلوم حظًا، وكان يستوعب السنن والآثار حفظًا، إن تكلم فى التفسـير فهو حامل رايته، أو أفتى فى الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر الحـديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالملل والنحل لم ير أوسع من نحلته فى ذلك ولا أرفع من درايته، برز فى كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه.

وقال الحـافظ ابن حجر: تفـقه، وتمهر، وتميـز، وتقدم، وصنف، ودرس، وأفتى، وفاق الأقران، وصـار عجبًا فى سرعة الاستحـضار وقوة الجنان، والتوسع فى المنقول والمعقول، والإطالة(١) على مذهب السلف والخلف.

وقال الحافظ ابن كثير: وبالجملة فقد كان -رحمه الله- من كبار العلماء وممن يخطىء ويصيب، ولكن خطـؤه بالنسبة إلى صوابه كـنقطة فى بحر لجىٍّ، وخطؤه أيضًا مـغفور له، كـما فى «صحيح الـبخارى»: «إذا اجتـهد الحاكم فـأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» فهو مأجور.

وقال الإمام مالك بن أنس: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر(٢).

※ صفته:

قال الحافظ الذهبى: كـان أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشـيب، شعره إلى شحمة أذنيه، وكأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهورى الصوت، فصيحًا، سريع القراءة، تعتريه حدة، لكن يقهرها بالحلم.

※ وفاته:

كان شـيخ الإسلام -رحـمه الله- يتنـقل فى حيـاته من محنة إلى مـحنة، وكانت آخر محنه بسبب مسألة الزيارة وشد الرحال إلى قبر النبى ﷺ، وقد اعتقل

(١) أى الاطلاع.
(٢) أى رسول الله ﷺ.

بسبـب هذه الفتوى بـقلعة دمـشق، فلم يزل بها إلى أن مـات فى ليلة الاثنين فى العشرين من ذى القعدة سنة (٧٢٨هـ).

وقام الحـافظ المزى وجمـاعة من كـبار الصـالحين الأخـيار بتـغسيـل شيخ الإسلام، ثم حـملت الجنازة إلى الجامع الأمـوى، للصلاة عليه، وكـان ذلك بعد صلاة الظهر، فصلـى عليه هناك أخوه عبد الرحمن، ودفن وقت العـصر أو قبلها بيسير إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله بمقابر الصوفية.

وكان يوم جنازته يومًا مشهودًا ضاقت بجنازته الطريق، وانتابها المسلمون من كل فج عميق، يتمسكون بسريره حتى كسروا تلك الأعواد، وأقل ما قيل فى عدد من حضر جنازته أنهم خمسون ألفًا رحمه الله وقدس روحه.



فصل

[بيان أن دين الإسلام هو دين الرسل جميعًا]

وكان دينه الذى ارتضاه الله لنفسه هو دين الإسلام: الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، ولا يقبل من أحد دينًا غيره: لا من الأولين، ولا من الآخرين.

هو دين الأنبياء، وأتباعهم، كما أخبر الله -تعالى- بذلك عن نوح ومن بعده إلى الحواريين.

قال -تعالى-:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(١).

وقال -تعالى- عن إبراهيم:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٢).

وقال -تعالى- عن يوسف الصديق:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(٣).

---

(١) سورة يونس: ٧١، ٧٢.

(٢) سورة البقرة: ١٣٠-١٣٢.

(٣) سورة يوسف: ١٠١.

وقال -تعالى- عن موسى أنه قال:

﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾(١).

وأخبر -تعالى- عن السحرة، أنهم قالوا لفرعون:

﴿ ... وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾(٢).

وقال -تعالى- عن بلقيس ملكة اليمن:

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٣).

وقال -تعالى- عن أنبياء بنى إسرائيل:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا... ﴾(٤).

وقال -تعالى- عن المسيح:

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(٥).

وقال -تعالى-:

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾(٦).

فهـذا دين الأولين والآخرين من الأنبـياء وأتباعـهم هو دين الإسلام، وهو عبـادة الله وحده لا شـريك له، وعبادته -تـعالى- فى كل زمان ومكـان، بطاعة رسله -عليهم السلام-.

فلا يكون عابداً له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله: كالذين قال فيهم:

(١) سورة يونس: ٨٤.
(٢) سورة الأعراف: ١٢٦.
(٣) سورة النمل: ٤٤.
(٤) سورة المائدة: ٤٤.
(٥) سورة آل عمران: ٥٢.
(٦) سورة المائدة: ١١١.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ...﴾(١).

فلا يكون مؤمنًا به إلا من عبده بطاعة رسله، ولا يكون مؤمنًا به ولا عابدًا له إلا من آمن بجميع رسله وأطاع من أرسل إليه، فيطاع كل رسول إلى أن يأتى الذى بعده، فتكون الطاعة للرسول الثانى.

قال -تعالى-:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾(٢).

ومن فرق بين رسله فآمن ببعض وكفر ببعض كان كافرًا كما قال -تعالى-:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٣).

فلما كان محمد ﷺ خاتم النبيين، ولم يكن بعده رسول ولا من يجدد الدين، لم يزل الله -سبحانه وتعالى- يقيم لتجديد الدين من الأسباب ما يكون مقتضيًا لظهوره، كما وعد به فى الكتاب، فيظهر به محاسن الإيمان ومحامده، ويعرف به مساوىء الكفر ومفاسده.

[ظهور الإيمان بظهور المعارضين]

ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين، وبيان حقيقة أنباء المرسلين، ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين.

كما قال -تعالى-:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ

(١) سورة الشورى: ٢١.
(٢) سورة النساء: ٦٤.
(٣) سورة النساء: ١٥٠-١٥٢.

بالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[١].

وقال -تعالى-:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[٢].

وذلك أن الحق -إذا جحد وعورض بالشبهات- أقام الله -تعالى- له مما يحق به الحق ويبطل بـه البـاطل من الآيات البـينات بما يظهـره من أدلـة الحق وبراهينه الواضحة، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة.

فالقـرآن لما كذب به المشركـون، واجتهـدوا على أبطاله بكل طريق -مع أنه تحداهم بالإتيان بمثله، ثم الإتيان بعشر سور، ثم بالإتيان بسورة واحدة- كان ذلك مما دل ذوى الألباب على عجزهم عن المعارضة مع شـدة الاجتهاد وقوة الأسباب، ولو اتبـعوه -من غـير مـعارضـة وإصرار على التـبطيل- لم يظهـر عجـزهم عن معارضته التى بها يتم الدليل.

وكذلك السحرة لمـا عارضوا موسى عليه السلام وأبطل الله ما جاؤا به، كان ذلك مما بين الله -تبارك وتعالى- به صدق ما جاء به موسى عليه السلام وهذا من الفروق بين آيات الأنبياء وبراهينهم التى تسـمى بالمعجزات، وبين ما قد يشتـبه بها من خوارق السحرة وما للشيـطان من التصرفات، فإن بين هذين فروقًا متـعددة، منها ما ذكره الله -تعالى- فى قوله:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[٣].

ومنها مـا بينه فى آيات التحـدى، من أن آيات الأنبياء -عليـهم السلام- لا يمكن أن تعـارض بالمثل فـضلاً عن الأقـوى، ولا يمكن أحـدًا إبطالها، بخـلاف خوارق السحـرة والشياطين، فإنه يمكن معـارضتها بمثلهـا، وأقوى منها، ويمكن إبطالها.

---

(١) سورة الأنعام: ١١٢-١١٥.

(٢) سورة الفرقان: ٢٧-٣١.

(٣) سورة الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢.

[دعاوى أعداء الأنبياء من أسباب ظهور الإيمان]

وكذلك سائر أعداء الأنبياء من المجرمين شياطين الإنس والجن: الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً -إذا أظهروا من حججهم ما يحتجون به على دينهم المخالف لدين الرسول، ويموهون فى ذلك بما يلفقونه من منقول ومعقول - كان ذلك من أسباب ظهور الإيمان الذى وعد بظهوره على الدين كله، بالبيان والحجة والبرهان، ثم بالسيف واليد والسنان.

قال الله -تعالى-:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١).

وذلك بما يقيمه الله -تبارك وتعالى- من الآيات والدلائل التى يظهر بها الحق من الباطل، والحالى من العاطل، والهدى من الضلال، والصدق من المحال، والغى من الرشاد، والصلاح من الفساد، والخطأ من السداد، وهذا كالمحنة للرجال التى تميز بين الخبيث والطيب، قال -تعالى-:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٣).

والفتنة هى الامتحان والاختبار، كما قال موسى عليه السلام:

﴿... إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ...﴾(٤).

أى امتحانك واختبارك، تضل بها من خالف الرسل، وتهدى بها من اتبعهم.

---

(١) سورة الحديد: ٢٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٩.

(٣) سورة العنكبوت: ١-٤.

(٤) سورة الأعراف: ١٥٥.

والفتنة للإنسان كفتنة الذهب إذا أدخل كير[(١)] الامتحان، فإنها تميز جيده من رديئه، فـالحق كالذهب الخالص، كلمـا امتحن ازداد جـودة، والباطل كالمغـشوش المضىء، إذا امتحن ظهر فساده.

فالدين الحق كلمـا نظر فيه الناظر، وناظر عنه المناظر، ظهـرت له البراهين، وقوى به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره فى صدور العالمين.

والدين البـاطل إذا جادل عنه المجـادل، ورام أن يقيم عوده المـائل، أقام الله -تبارك وتعـالى- من يقذف بالحق على الباطل فـيدمغه فـإذا هو زاهق، وتبين أن صاحبه الأحمق كاذب مائق[(٢)]. وظهر فيه -من القبح والفساد، والحلول والاتحاد، والتناقض والإلحـاد، والكفـر والضلال، والجـهل والمحال -مـا يظهـر به لعمـوم الرجال، أن أهله من أضل الضلال، حـتى يظهر فيه من الفساد مـا لم يكن يعرفه أكثـر العبـاد، ويتنبه بذلك من سنـة الرقاد، من كان لا يـميز الغى مـن الرشاد، ويحـيى بالعلم والإيمان من كـان ميت القلب لا يعـرف معـروف الذين أنعم الله عليهم مـن النبيين والصـديقين والشـهداء والصـالحين، ولا ينكر منكر المغـضوب عليهم والضالين، فإن ما ذم الله به اليهـود والنصارى فى كتابه -مثل تكذيب الحق المخالف للهوى، والاستكبار عن قبوله، وحسد أهله، والبغى عليهم، واتباع سبيل الغى، والبخل والجبن وقسوة القلوب، ووصف الله -سبحانه وتعالى- بمثل عيوب المخلوقين ونقائصهم، وجـحد ما وصف به نفسه من صفات الكمـال المختصة به، التى لا يماثلـه فيهـا مخلوق، وبمثل الغلو فى الأنبـياء والصالحـين، والإشراك فى العبادة لرب العـالمين، والقول بالحلول والاتحاد الذى يجعل الـعبد المخلوق هو رب العبـاد، والخروج فى أعمال الدين عن شـرائع الأنبياء والمرسلين، والعـمل بمجرد هوى القلب وذوقه ووجده فى الدين، من غير اتباع العلم الذى أنزله الله فى كتابه المبين، واتخاذ أكابر العلماء والعباد أربابًا يتبـعون فيما يبتدعونه من الدين المخالف للأنبياء -عليهم السلام- كما قال -تعالى-:

---

(١) الكير: جهاز من جلد أو نحوه يستخدمـه الحداد وغيره للنفخ فى النار لإشعالها. «المعجم الوسيط» (٨٠٧).

(٢) المائق: الأحمق. «المعجم الوسيط» (٨٩٢).

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١).

ومخالفة صريح المعقول وصحيح المنقول، بما يظن أنه من التنزلات الإلهية والفتوحات القدسية، مع كونه من وساوس اللعين، حتى يكون صاحبها ممن قال الله فيه:

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾(٣).

إلى غير ذلك من أنواع البدع والضلالات التى ذم الله بها أهل الكتابين -فإنها مما حذر الله منه هذه الأمة الأخيار، وجعل ما حل بها عبرة لأولى الأبصار.

وقد أخبر النبى ﷺ أنه لابد من وقوعها فى بعض هذه الأمة، وإن كان قد أخبر ﷺ أنه لا يزال فى أمته أمَّة قائمة على الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة(٤)، وأن أمته لا تجتمع على

---

(١) سورة التوبة ٣١.

(٢) سورة الملك: ١٠.

(٣) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٤) أخرجه مسلم (١٩٢٠)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذى (٢٢٣٦)، وابن ماجه (١٠)، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله، وهم كذلك»**.
وله شواهد كثيرة، منها عن:-
١- المغيرة بن شعبة: أخرجه البخارى (٧٣١١) ومسلم (١٩٢١).
٢- جابر بن سمرة: أخرجه مسلم (١٩٢٢).
٣- جابر بن عبد الله: أخرجه مسلم (١٩٢٣).
٤- عقبة بن عامر: أخرجه مسلم (١٩٢٤).
٥- سعد بن أبى وقاص: أخرجه مسلم (١٩٢٥) وأبو نعيم فى «الحلية» (٣٣٧٥).
٦- عمران بن حصين: أخرجه أبو داود (٢٤٨٤).
٧- معاوية بن أبى سفيان: أخرجه ابن ماجه (٩).

ضلالة[١]، ولا يغلبهـا من سواها من الأمم، بل لا تزال منصـورة متبـعة لنبيـها المهدى المنصور.

لكن لابد أن يكون فيها من يتتـبع سنن اليهود والنصارى والروم والمجوس، كما فى الصحيحين عن أبى هريرة ﷺ، عن النبى ﷺ أنه قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا فى جحر ضب لدخلتموه**»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**»[٢].

وفى الصـحيـحين أيضًا، عن أبى سـعيـد ﷺ، عن النبى ﷺ أنه قال: «**لتأخـذ أمتى مأخـذ الأمم قبلها شـبراً بشبـر وذراعًا بذراع**»، قالوا يا رسول الله، فارس والروم قال: «**فمن الناس إلا أولئك**»[٣].

وفى المظهـرين للإسـلام منافقـون، والمنافقون فى الدرك الأسـفل من النار، تحت اليهـود والنصارى، فلهـذا كان ما ذم الله به اليـهود والنصارى قـد يوجد فى المنافقـين المنتسبـين للإسلام: الذين يظهرون الإيمـان بجميع ما جـاء به الرسول، ويبطنون خلاف ذلك: كالملاحدة الباطنية فضلاً عمن يظهر الإلحاد منهم.

= ٨- قرة: أخرجه ابن ماجه (٦).
٩- أبى هريرة: أخرجه ابن ماجه (٧).

(١) روى فى حديث «ضعـيف»، أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) عن أنس بن مالك مـرفوعًا «إن أمتى لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافًا فعليكم بالسواد الأعظم».
وضعفه الحافظ ابن كثير فى «البداية» (٨/ ٢١)، والألبانى فى «ضعيف الجامع» (١٨١٥).
إلا أن معناه صحـيح للحديث السابق فى الطائفة المنصورة، وقـد قال تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ١١٥].
ففى هذه الآية الأمر بمتابعة سبيـل المؤمنين مما يدل على أنهم لا يجتمعون على ضلالة بل إذا اجتمعوا على شىء فالواجب علينا اتباعه.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٤).
وقال الألبانى فى «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٢٨)، حسن صحيح.
وأما رواية البخارى (٧٣١٩)، فـفيها «فارس والروم» بدلاً من «اليهـود والنصارى». وأما بهـذا اللفظ الذى ذكره المصنـف فأخـرجه البـخارى (٧٣٢٠)، ومـسلم (٢٦٦٩)، من حديث أبى سعيد الخدرى الذى يذكره المصنف بعد هذا.

(٣) صحيح: أخرجه البـخارى (٧٣٢٠) ومسلم (٢٦٦٩) بلفظ «اليهـود والنصارى» بدلاً من «فارس والروم» وأما بهذا اللفظ فأخرجه البخارى (٧٣١٩) من حديث أبى هريرة.

ويوجد بعض ذلك فى أهل البدع، ممن هو مقر بعموم رسالة النبى ﷺ باطنًا وظاهرًا، لكن اشتبه عليه بعض ما اشتبه على هؤلاء، فاتبع المتشابه وترك المحكم، كالخوارج وغيرهم من أهل الأهواء.

وللنصارى -فى صفات الله- سبحانه وتعالى-، واتحاده بالمخلوقات ضلال شاركهم فيه كثير من هؤلاء، بل من الملاحدة من هو أعظم ضلالاً من النصارى.

والحلول والاتحاد نوعان: عام، وخاص.

فالعام: كالذين يقولون إن الله بذاته حال فى كل مكان، أو أن وجوده عين وجود المخلوقات.

والخاص: كالذين يقولون بالحلول والاتحاد فى بعض أهل البيت، كعلى، وغيره، مثل النصيرية وأمثالهم، أو بعض من ينتسب إلى أهل البيت، كالحاكم، وغيره، مثل الدرزية وأمثالهم، أو بعض من يعتقد فيه المشيخة، كالحلاجية وأمثالهم.

فمن قال: إن الله -سبحانه وتعالى- حل أو اتحد بأحد من الصحابة، أو القرابة أو المشايخ، فهو من هذا الوجه أكفر من النصارى الذين قالوا بالاتحاد، والحلول فى المسيح، فإن المسيح عليه السلام أفضل من هؤلاء كلهم.

ومن قال بالحلول والاتحاد العام فضلاله أعم من ضلال النصارى، وكذلك من قال بقدم أرواح بنى آدم، أو أعمالهم، أو كلامهم، أو أصواتهم، أو مداد مصاحفهم، أو نحو ذلك، ففى قوله شعبة من قول النصارى.

فبمعرفة حقيقة دين النصارى وبطلانه، يعرف به بطلان ما يشبه أقوالهم، من أقوال أهل الإلحاد والبدع.

فإذا جاء نور الإيمان والقرآن أزهق الله به ما خالفه، كما قال -تعالى-:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(١).

وأبان الله -سبحانه وتعالى- من فضائل الحق ومحاسنه ما كان به محقوقًا.

---

(١) سورة الإسراء: ٨١.

[ذكر السبب وراء تأليف هذا الكتاب]

وكـان من أسبـاب نصـر الدين وظهـوره، أن كتـابًا ورد من قـبـرص فيـه الاحتجاج لدين النصارى، بما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملتهم قديمًا وحديثًا، من الحجج السـمعية والعـقلية، فاقـتضى ذلك أن نذكر من الجواب مـا يحصل به فصل الخطاب، وبيـان الخطأ من الصواب، لينتفع بذلك أولو الألباب، ويـظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب.

وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلاً فصلاً، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعًا وأصلاً، وعقدًا وحلاً.

وما ذكروه فى هذا الكتاب هو عمدتهم التى يعـتمد عليها علماؤهم فى مثل هذا الزمـان، وقبل هذا الزمان، وإن كـان قد يزيد بعـضهم على بعض، بـحسب الأحوال، فإن هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك، ويتناقلها علماؤهم بينهم، والنسخ بهـا موجودة، قديمـة، وهى مضافـة إلى «بولص» الراهب أسقف صيـدا الأنطاكى، كتبهـا إلى بعض أصدقائه، وله مـصنفات فى نصر النصـرانية، وذكـر أنه لما سافـر إلى بلاد الروم، والقـسطنطينيـة وبلاد الملافطة وبعض أعمـال الإفرنج ورومية، واجتمع بأجلاء أهل تلك الناحية، وفاوض أفاضلهم وعلماءهم، وقـد عظم هذه الرسالة، وسـماها: «الكتـاب المنطيـقى الدولة خانى المبـرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأى المستقيم».

[مضمون رسالة بولص]

ومضمون ذلك ستة فصول:

الفصل الأول: دعواهم أن محمداً ﷺ لم يبعث إليهم بل إلى أهل الجاهلية من العرب ودعواهم أن فى القرآن ما يدل على ذلك، والعقل يدل على ذلك.

الفصل الثانى: دعواهم أن محمداً ﷺ أثنى فى القرآن على دينهم الذى هم عليه، ومدحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه.

الفصل الـثالث: دعواهم أن نبـوات الأنبيـاء المتقـدمين، كالـتوراة والزبور والإنجـيل(١)، وغـيـر ذلك من النبـوات، تشـهـد لدينهـم الذى هم عليـه من:

(١) قلت: والموجـود اليوم الكتاب المقـدس الذى ينقسم إلى جـزأين: العهـد القديم والعـهد الجديد، وفى كل من العهدين أسفار، والسفر عـبارة عن كتاب ينقسم إلى مجموعة من=

الأقانيم(١)، والتثليث، والاتحاد، وغير ذلك، بأنه حق وصواب فيجب التمسك به، ولا يجوز العدول عنه، إذا لم يعارضه شرع يرفعه ولا عقل يدفعه.

= الفصول يسمى كل فصل إصحاحًا، وفى كل إصحاح عدد من الآيات تتفاوت فى الكثرة أو القلة من كتاب إلى آخر، فعندما يقال: «سفر التثنية ١٢: ١٠» يعنى الآية العاشرة من الإصحاح الثانى عشر من كتاب التثنية.

والعهد القديم يحتوى على تسعة وثلاثين سفْرًا، تبدأ بسفر التكوين وتنتهى بسفر ملاخى، وينقسم العهد القديم إلى جزئين: الأسفار الخمسة الأولى، وهى الكتب التى نقلت عن موسى عليه السلام والمعروفة بالتوراة، وباقى الأسفار وهى الكتب التى نقلت عن مجموعة من الأنبياء، منهم: عزرا، وأيوب، وداود (المزامير أو الزبور)، وسليمان (الأمثال ونشيد الأنشاد)، وإشعياء، وإرمياء، وحزقيال، وحبقوق، ودانيال، وزكريا، وملاخى.

وأما العهد الجديد فيحتوى على سبعة وعشرين سفرًا تبدأ بإنجيل متّى وتنتهى برؤيا يوحنا، وينقسم العهد الجديد إلى قسمين كذلك: الأسفار الأربعة الأولى، وهى الأناجيل الأربعة إنجيل ألفه متّى تلميذ المسيح بعد تسع سنين من رفع المسيح عليه السلام وكتبه بالعبرانية فى بلد يهود (القدس) بالشام، وإنجيل ألفه مرقس الهارونى تلميذ شمعون بعد ثلاث وعشرين سنة من رفع المسيح عليه السلام وكتبه باليونانية فى بلاد أنطاكية من بلاد الروم، ويقولون: إن شمعون المذكور هو كاتبه ثم محيى اسمه من أوله ونُسب إلى تلميذه مرقس. وإنجيل ألفه لوقا الطبيب الأنطاكى تلميذ شمعون بعد تأليف مرقس، وإنجيل ألفه يوحنا تلميذ المسيح عليه السلام بعد ما رفع المسيح ببضع وستين سنة، كتبه باليونانية، وباقى الأسفار هى رسائل ورؤى وتعاليم مجموعة من الأصحاب والأتباع والذين خلفوا عيسى عليه السلام وأهمهم بولس ولم ير عيسى عليه السلام.

ومما لاشك فيه عند النصارى وغيرهم أن هذه الأسفار نقلت إلينا دونما سند من الرواة، فكل ما نعرفه أن هذه الكتب نقلت إلينا ومنسوبة إلى أشخاص سواء كانوا أنبياء أو حواريين، ونحن لا نشك فى صدق الأنبياء أو الحواريين لكننا لا ندرى إن كان هؤلاء الأنبياء أو الحواريون قد قالوا هذا الكلام أم افترى عليهم ؟

ولو سلمنا صحة النسبة فهى من كلام الرواة، ولذلك فإن هناك أعدادًا كثيرة من الأناجيل كلها تنسب إلى عيسى عليه السلام -لكن لم يقبل منها النصارى المتأخرون - إلا أربعة، فعندما تفتح العهد الجديد حاليًا لن تجد فيه إنجيلاً واحدًا وإنما ستجد فيه أربعة أناجيل: الإنجيل برواية متّى، والإنجيل برواية مرقس، والإنجيل برواية لوقا، والإنجيل برواية يوحنا، يروون فيه كلامًا وأفعالاً عن عيسى عليه السلام وكذلك فى التوراة فقد تحدثت عن موت موسى عليه السلام وكيفية دفنه. «هداية الحيارى» (١٠٧، ١٠٨) و«البشارات العجاب فى صحف أهل الكتاب» للدكتور: صلاح صالح الراشد (١٥-١٩) بتصرف.

(١) الأقانيم: جمع أقنوم، وهو الأصل، وعند النصارى الأقانيم الثلاثة: الآب والابن وروح القدس. «المعجم الوسيط» (٧٦٣).

والفصل الرابع: فيه تقرير ذلك بالمعقول، وأن ما هم عليه من التثليث ثابت بالنظر المعقول، والشرع المنقول، موافق للأصول.

والفصل الخامس: دعواهم أنهم موحدون، والاعتذار عما يقولونه من ألفاظ يظهر منها تعدد الآلهة، كألفـاظ الأقانيم، فإن ذلك من جنس ما عند المسلمين من النصوص التى يظهر منها التشبيه والتجسيم.

والفصل السادس: أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال، فلا حاجة -بعد النهاية- إلى شرع يزيد على الغـاية، بل يكون ما بعد ذلك شرعًا غير مقبول.

[منهج المؤلف فى الجواب عن هذه الرسالة]

ونحن -ولله الحمد والمنّـة- نبيِّن أن كل ما احتجـوا به من حجة سمـعية: من القرآن، أو من الكتب المتقدمة على القرآن، أو عـقلية، فلا حجة لهم فى شىء منها، بل الكتب كلها مع القرآن، والعـقل حجة عليهم، لا لهم، بل عامة مـا يحتجون به من نصوص الأنبياء، ومن المعقول فهو نفسـه حجة عليهم، ويظهر منه فساد قولهم، مع ما يفسده من سائر النصوص النبوية، والموازين التى هى مقاييس عقلية.

وهكذا يوجد عـامة ما يحـتج به أهل البدع من كتب الله -عـز وجل- ففى تلك النصوص ما يتـبين أنه لا حجة لهم فيـها، بل هى بعينها حجة عليـهم، كما ذكر أمثال ذلك فى الرد على أهل البدع والأهواء، وغيرهم من أهل القبلة.

وإنما عامة ما عند القوم ألفاظ متشابهة، تمسكوا بما ظنوها تدل عليه، وعدلوا عن الألفاظ المحكمة الصريحة المبينة، مع ما يقترن بذلك من الأهواء.

وهذه حال أهل الباطل، كما قال -تعالى- فيهم:

﴿ ... إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾(١).

فهم فى جهل وظلم، كما قال -تعالى-:

﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٢).

(١) سورة النجم: ٢٣.

(٢) سورة الأحزاب: ٧٢، ٧٣.

فالمؤمنون الذين تاب الله عليهم من الجهل والظلم هم أتباع الأنبياء -عليهم السلام-، فإن الأنبياء بعثوا بالعلم والعدل، كما قال -تعالى-:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[(١)].

فبيَّن -سبحانه وتعالى- أنه ليس ضالاً جاهلاً، ولا غاويًا متبعًا هواه، ولا ينطق عن هواه، إنما نطقه وحي أوحاه الله -سبحانه وتعالى-.

وقال -تعالى-:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[(٢)].

فالهدى يتضمن العلم النافع، ودين الحق يتضمن العمل الصالح، ومبناه على العدل، كما قال -تعالى-:

﴿... وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾[(٣)].

وأصل العدل: العدل في حق الله -تعالى-: وهو عبادته وحده لا شريك له، فإن الشرك ظلم عظيم كما قال لقمان لابنه:

﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(٤)].

وفي الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود ﷺ، لما نزلت:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ...﴾[(٥)].

شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ: وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: **«ليس هو كما تظنون، إنما هو الشرك. ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم؟»**[(٦)].

---

(١) سورة النجم: ١-٤.
(٢) سورة الفتح: ٢٨.
(٣) سورة الحديد: ٢٥.
(٤) سورة لقمان: ١٣.
(٥) سورة الأنعام: ٨٢.
(٦) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤)، والترمذي (٣٠٧٨)، وابن جرير الطبري في «تفسيره» (٧/١٦٨).

ولما كان أتباع الأنبياء هم أهل العلم والعدل، كان كلام أهل الإسلام والسنَّة مع الكفار وأهل البدع بالعلم والعدل، لا بالظن وما تهوى الأنفس، ولهذا قال النبى ﷺ : **«القضاة ثلاثة: قاضيان فى النار، وقاض فى الجنة. رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار»**(١) رواه أبو داود وغيره.

فإذا كان من يقضى بين الناس فى الأموال والدماء والأعراض -إذا لم يكن عالمًا عادلاً- كان فى النار، فكيف بمن يحكم فى الملل والأديان، وأصول الإيمان، والمعارف الإلهية، والمعالم الكلية، بلا علم، ولا عدل؟ كحال أهل البدع والأهواء، الذين يتمسكون بالمتشابه المشكوك، ويدعون المحكم الصريح من نصوص الأنبياء، ويتمسكون بالقدر المشترك المتشابه فى المقاييس والآراء، ويعرضون عما بينهما من الفروق المانعة من الإلحاق والاستواء، كحال الكفار وسائر أهل البدع والأهواء، الذين يمثِّلون المخلوق بالخالق، والخالق بالمخلوق، ويضربون لله المثل بالقول الهزء.

[بطلان دين النصارى]

وذلك أن دين النصارى الباطل إنما هو دين مبتدع، ابتدعوه بعد المسيح عليه السلام ، وغيروا به دين المسيح، فضل منهم من عدل عن شريعة المسيح إلى ما ابتدعوه.

ثم لما بعث الله محمداً ﷺ كفروا به، فصار كفرهم وضلالهم من هذين الوجهين: تبديل دين الرسول الأول، وتكذيب الرسول الثانى.

كما كان كفر اليهود بتبديلهم أحكام التوراة قبل مبعث المسيح، ثم تكذيبهم المسيح عليه السلام .

ونبيِّن -إن شاء الله- أن ما عليه النصارى من التثليث والاتحاد، لم يدل عليه شيء من كتب الله: لا الإنجيل، ولا غيره، بل دلت على نقيض ذلك، ولا دل

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذى (١٣٢٧)، وابن ماجه (٢٣١٥) من حديث بريدة بن الحصيب.
وصححه الحافظ العراقى فى «تخريج الإحياء» (١/ ٧٩)، والألبانى فى «صحيح سنن ابن ماجه» (١٨٧٣).

على ذلك عقل، بل العقل الصريح، مع نصوص الأنبياء، تدل على نقيض ذلك، بل وكذلك عامة شرائع دينهم محدثة مبتدعة، لم يشرعها المسيح عليه السلام.

ثم التكذيب لمحمد ﷺ هو كفرهم المعلوم لكل مسلم، مثل كفر اليهود بالمسيح عليه السلام وأبلغ.

وهم يبالغون فى تكفير اليهود بأعظم مما يستحقه اليهود من التكفير، إذ كان اليهود يزعمون أن المسيح ساحر كذاب، بل يقولون: إنه ولد غية، كما أخبر الله عنهم بقوله:

﴿ ... وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾(١).

والنصارى يدعون أن الله الذى خلق الأولين والآخرين، وأنه ديان يوم الدين، فكانت الأمتان فيه على غاية التناقض والتعادى والتقابل، ولهذا كل أمة تذم الأخرى بأكثر مما تستحقه، كما قال -تعالى-:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾(٢).

ذكر محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت.

عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شىء، وكفر بعيسى والإنجيل جميعًا، فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شىء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله ذلك فى قولهما:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ... ﴾(٣).

---

(١) سورة النساء: ١٥٦.
(٢) سورة البقرة: ١١٣.
(٣) سورة البقرة: ١١٣.
والخبر إسناده ضعيف، محمد بن أبى محمد قال الحافظ ابن حجر فى «التقريب» (٦٢٧٦): مجهول.

قال كل يتلو فى كـتابه تصديق ما كفـر: أى تكفر اليهود بعـيسى، وعندهم التوراة فـيها ما أخـذ الله عليهم على لسان مـوسى بالتصديق بعـيسى عليه السلام، وفى الإنجيل بإجـابة عيسى بتـصديق موسى، وبما جـاء به من التوراة من عند الله وكل يكفر بما فى يدى صاحبه.

قال قـتادة: «وقالت اليهـود: ليست النصارى على شىء»، قـال: بلى، قد كان أوائل النصارى على شىء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا.

«وقالت النصارى: لـيست اليهود على شىء»، قال: بـلى، قد كانت أوائل اليهود على شىء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا.

فاليهـود كذبوا بدين النصارى، وقالوا: ليسـوا على شىء، والنصارى كذبوا بجميع ما تميز به اليهود عنهم، حتى فى شرائع التوراة التى لم ينسخها المسيح، بل أمرهم بالعمل بها، وكذبوا بكثيـر من الذين تميزوا به عنهم، حتى كذبوا بما جاء به عيسى عليه السلام، من الحق.

لكن النصارى -وإن بالغوا فـى تكفير اليهود ومـعاداتهم على الحد الواجب عما ابتدعوه من الغلو والضلال- فلا ريب أن اليهود لما كذبوا المسيح صاروا كفاراً، كما قال -تعالى- للمسيح:

﴿ ... إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾(٢).

وكفر النصارى -بتكذيب محمد- ﷺ، وبمخالفة المسلمين -أعظم من كفر اليهـود بمجرد تكذيب المسـيح، فإن المسـيح لم ينسخ من شرع التـوراة إلا قليلاً، وسائر شرعه إحـالة على التوراة، ولكن عامة دين النصارى أحـدثوه بعد المسيح.

---

(١) سورة آل عمران: ٥٥.

(٢) سورة الصف: ١٤.

فلم يكن فى مجرد تكذيب اليهود له -من مخالفة شرع الله-، الذى جاء بكتاب مستقل من عند الله، لم يحل شيئًا من شرعه على شرع غيره.

قال الله -تعالى-:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

والقرآن أصل كالتوراة، وإن كان أعظم منها، ولهذا علماء النصارى يقرنون بين موسى ومحمد ﷺ كما قال النجاشى ملك النصارى لما سمع القرآن: «إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»(٢).

وكذلك قال ورقة بن نوفل، وهو من أحبار نصارى العرب، لما سمع كلام النبى ﷺ فقال له أنه يأتيك الناموس(٣) الذى يأتى موسى، يا ليتنى فيها جذعا(٤) حين يخرجك قومك، فقال النبى ﷺ: **«أو مخرجى هم؟»** قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا(٥).

ولهذا يقرن -سبحانه- بين التوراة والقرآن فى مثل قوله: (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا...)(٦)، ويعنى التوراة والقرآن، وفى القراءة الأخرى: «قالوا ساحران»، أى: محمد وموسى.

﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٧).

---

(١) سورة العنكبوت: ٥١.

(٢) صحيح: أخرجه ابن إسحاق كما فى «سيرة ابن هشام» (١/٣١٩-٣٢٢)، وأحمد (١/٢٠١-٢٠٣)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٣٥٧)، والبيهقى (٩/٩)، وفى «الدلائل» (٢/٣٠١-٣٠٦) من حديث أم سلمة فى قصة الهجرة إلى الحبشة.
وقال الألبانى فى «تحقيق فقه السيرة» (ص١٣٥): سنده صحيح.

(٣) الناموس: صاحب السر: قاله فى «الفتح» (١/ ٣٥).

(٤) جذعًا: أى شابًا.

(٥) صحيح: أخرجه البخارى (٣)، ومسلم (١٦٠)، والواحدى فى «أسباب النزول» (٥-بترقيمى) من حديث عائشة فى بدء نزول الوحى.

(٦) سورة القصص: ٤٨.

(٧) سورة القصص: ٤٨، ٤٩.

فلم ينزل كتاب من عند الله أهدى من التوراة والقرآن.

ثم قال -تعالى-:

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(١).

[اعتقاد النصارى]

وهؤلاء النصارى، ذكر كاتب كتابهم فى كتابه: أنه لما سأله سائل أن يفحص له فحصًا بينًا عما يعتقده النصارى المسيحيون المختلفة ألسنتهم، المتفرقة فى أربع زوايا العالم، من المشرق إلى المغرب، ومن الجنوب إلى الشمال، والقاطنون بجزائر البحر، والمقيمون بالبر المتصل إلى مغيب الشمس، وأنَّ الأسقف دميان الملك الرومى اجتمع بمن اجتمع به من أجلائهم ورؤسائهم، وفاوض من فاوض من أفاضلهم وعلمائهم، فيما علمه من رأى القوم الذين رآهم بجزائر البحر قبل دخوله إلى قبرص، وخاطبهم فى دينهم وما يعتقدونه ويحتجون به عن أنفسهم، قال الكاتب على لسان الأسقف: إنهم يقولون: إنا سمعنا أن قد ظهر إنسان من العرب اسمه محمد، يقول: إنه رسول الله، وأتى بكتاب فذكر أنه منزل عليه من الله، فلم نزل إلى أن حصل الكتاب عندنا؟ قال: فقلت لهم: إذا كنتم قد سمعتم بهذا الكتاب وهذا الإنسان، واجتهدتم على تحصيل هذا الكتاب الذى أتى به عندكم، فلأى حال لم تتبعوه، ولا سيما وفى الكتاب يقول:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٢).

أجابوا قائلين: لأحوال شتى. قال: فقلت: وما هى؟ قالوا: منها أن الكتاب عربى وليس بلساننا، حسب ما جاء فيه يقول:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا... ﴾(٣).

وقال: ﴿ ... بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾(٤).

---

(١) سورة القصص: ٥٠.

(٢) سورة آل عمران: ٨٥.

(٣) سورة يوسف: ٢.

(٤) سورة الشعراء: ١٩٥.

وقال فى سورة الشعراء:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾(١).

وقال فى سورة البقرة:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

وقال فى سورة آل عمران:

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ﴾(٣).

وقال -تعالى- فى سورة القصص:

﴿ ... لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٤).

وقال فى سورة السجدة:

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾(٥).

وقال فى سورة يس:

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾(٦).

قالوا: فلما رأينا هذا علمنا أنه لم يأت إلينا، بل إلى جاهلية العرب، الذين قال: إنه لم يأتهم رسول ولا نذير من قبله، وإنه لا يلزمنا اتباعه، لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله: خاطبونا بألسنتنا، وأنذرونا بديننا الذى نحن متمسكون به يومنا هذا، وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغاتنا، على ما يشهد لهم هذا الكتاب الذى أتى به هذا الرجل، حيث يقول فى سورة إبراهيم:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ... ﴾(٧).

---

(١) سورة الشعراء: ١٩٨، ١٩٩.

(٢) سورة البقرة: ١٥١.

(٣) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٤) سورة القصص: ٤٦.

(٥) سورة السجدة: ٣.

(٦) سورة يس: ٦.

(٧) سورة إبراهيم: ٤.

وقال فى سورة النحل:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾(١).

وقال فى سورة الروم:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ . . . ﴾(٢).

فقد صح فى هذا الكتاب أنه لم يأت إلا إلى الجاهلية من العرب، وأما قوله:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٣).

فيريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين أتاهم بلغتهم، لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء فيه.

ونعلم أن الله عدل، وليس من عدله أن يطالب يوم القيامة أمة باتباع إنسان لم يأت إليهم، ولا وقفوا له على كتاب بلسانهم، ولا من جهة داع من قبله.

هذه ألفاظهم بأعيانها فى الفصل الأول، وهذا الفصل لم يتعرضوا فيه لا لتصديقه ولا لتكذيبه، بل زعموا أن فى نفس هذا الكتاب أنه لم يقل: إنه مرسل إليهم، بل إلى جاهلية العرب، وإن العقل أيضًا يمنع أن يرسل إليهم(٤).

---

(١) سورة النحل: ٣٦.

(٢) سورة الروم: ٤٧.

(٣) سورة آل عمران: ٨٥.

(٤) وأجاب الإمام القرافى عن شبهات النصارى فى دعواهم خصوصية الرسالة فقال: ومنها -أى من أسئلة أحد النصارى-.
أنه قال: إن محمدًا ﷺ لم يُبعث إلينا، فلا يجب علينا اتباعه، وإنما قلنا: إنه لم يرسل إلينا لقوله تعالى فى الكتاب العزيز: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة يوسف: ٢] ولقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [سورة إبراهيم: ٤] ولقوله تعالى: ﴿بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [سورة الجمعة: ٢] ولقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [سورة القصص: ٤٦] ولقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٤] ولا يلزمنا إلا من جاءنا بلساننا، وأتانا بالتوراة والإنجيل بلغاتنا:
فالجواب من وجوه: أحدها: أن الحكمة فى أن الله تعالى إنما يبعث رسله بألسنة قومهم، ليكون ذلك أبلغ فى الفهم عنه ومنه، وهو أيضًا يكون أقرب لفهمه عنهم جميع مقاصدهم فى الموافقة والمخالفة وإزاحة الأعذار، والعلل والأجوبة عن الشبهات

. . . .

المعارضة، وإيضاح البراهين القاطعة، فإن مقصود الرسالة في أول وهلة إنما هو البيان والإرشاد، وهو مع اتحاد اللغة أقرب وإن أمر جماعة من الرسل -عليهم السلام- بعد اليأس من النفع بالبيان، فإذا تقررت نبوة النبي في قومه قامت الحجة على غيرهم، فإن أقارب الإنسان ومخالطيه المطلعين على حاله والعارفين بوجوه الطعن عليه أكثر من غيرهم إذا سلموا ووافقوا، فغيرهم أولى أن يسلم ويوافق، فهذه هي الحكمة في إرسال الرسول بلسان قومه، ومن قومه لا أن المقصود لا يتعدى برسالته لغير قومه.
وفرق: بين قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [سورة إبراهيم: ٤] وبين قوله، وما أرسلنا من رسول إلا لقومه فالقول الثاني هو المفيد لاختصاص الرسالة بهم لا الأول، بل لا فرق بين قوله، وما أرسلنا من رسول إلا لقومه، وبين قوله: وما أرسلنا من رسول إلا مكلفًا بهداية قومه، فكما أن الثاني لا إشعار له بأنه لم يكلف بهداية غيرهم، فكذلك الأول، فمن لم يكن له معرفة بدلالة الألفاظ، ومواقع المخاطبات سوّى بين المختلفات، وفرق بين المؤتلفات.
وثانيها: أن التوراة نزلت باللسان العبراني والإنجيل بالرومي، فلو صح ما قاله لكانت النصارى كلهم مخطئين في اتباع أحكام التوراة، فإن جميع فرقهم لا يعلمون هذا اللسان إلا كما يعلم الروم اللسان العربي بطريق التعليم، وأن تكون القبط كلهم والحبشة مخطئون في اتباعهم التوراة والإنجيل، لأن الفريقين غير العبراني والرومي، ولو لم ينقل هذان الكتابان بلسان القبط، وترجما كما ترجما بالعربي لم يفهم قبطي، ولا حبشي، ولا رومي شيئًا من التوراة، ولا قبطي ولا حبشي شيئًا من الإنجيل إلا أن يتعلموا ذلك اللسان، كما يتعلمون العربي.
وثالثها: أنه إذا سلم أنه ﷺ رسول لقومه، ورسل الله تعالى خاصة خلقه وخيرة عباده معصومون عن الزلل، مبرؤن من الخطل، وهو عليه السلام قد قاتل اليهود، وبعث إلى الروم ينذرهم وكتابه ﷺ محفوظ عندهم إلى اليوم في بلاد الروم عند ملكهم يفتخرون به، وكتب إلى المقوقس بمصر لإنذار القبط ولكسرى بفارس، وهو الصادق البر كما سلم أنه رسول لقومه، فيكون رسولاً للجميع، ولأن في جملة ما نزل عليه ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سورة سبأ: ٢٨] فصرح بالتفهيم، واندفعت شبهة من يدعى التخصيص، فإن كانت النصارى لا يعتقدون أصل الرسالة، لا لقومه، ولا لغيره، فيقولون: أوضحوا لنا صدق دعواكم، ولا يقولون كتابكم يقتضى تخصص الرسالة، وإن كانوا يعتقدون أصل الرسالة لكنها مخصوصة لزمهم التعميم لما تقدم، وكذلك قوله تعالى ﴿بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [سورة الجمعة: ٢] لا يقتضى أنه لم يبعثه لغيرهم، فإن الملك العظيم إذا قال: بعثت إلى مصر رسولاً من أهلها لا يدل ذلك على أنه ليس على يده رسالة أخرى لغيرهم، ولا أنه لا يأمر قومًا آخرين بغير تلك الرسالة، وكذلك قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [سورة يس: ٦] ليس فيه أنه لا ينذر غيرهم، بل لما كان الذى =

فنحن نبـدأ بالجواب عن هذا، ونبـين أنه ﷺ أخبـر أنه مرسل إليـهم وإلى جميع الإنس والجن، وأنه لم يقل قط: أنه لم يرسل إليـهم، ولا فى كتابه ما يدل على ذلك.

[الجواب عن ادعائهم خصوصية رسالة النبى ﷺ]

وأن مـا احتـجوا به من الآيات الـتى غلطوا فى معـرفـة معناها، فـتركـوا النصوص الكثـيرة الصريحة فى كـتابه، التى تبين أنه مرسل إليـهم، من جنس ما فعلوه فى التوراة والإنجيل والزبور. وكلام الأنبيـاء، حيث تركوا النصوص الكثيرة الصريحة، وتمسكوا بقليل من المتشابه الذى لم يفهموا معناه.

= يتلقى الوحى أولاهم العرب كان التنبيه عليـه بالمنة عليهم بالهداية أولى من غيرهم، وإذا قال السـيد لعبـده: بعثتك لتـشترى ثوبًا لا ينافى أنه أمـره بشراء الطعام، بل تخـصيص الثوب بالذكـر لمعنى اقتـضاه، ويسكت عن الطعام، لأن المقـصد الآن لا يتـعلق به، وما زالت العقلاء فى مخاطباتهم يـتكلمون فيما يوجد سببه، ويسكتون عمـا لم يتعين سببه، وإن كان المذكور والمسكوت عنه حـقين واقعين، فكذلك الرسالة عامـة، ولما كان المقصود إظهـار المنة على العرب خـصوا بالذكـر، ولما كـان أيضًا المقـصود تنبـيه بنى إسـرائيل، وإرشادهم خصوا بالذكـر، وخصصت كل فرقة من اليهود والـنصارى بالذكر، ولم يذكر معـها غيرها فى القـرآن فى تلك الآيات المتعلقة بهم، وهذا هو شـأن الخطاب أبدًا، فلا يغتـر جاهل بأن ذكر زيد بالحكم يقـتضى نفيه عـن عمر، وكذلك قـوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٤] ليس فيه دليل على أنه لا ينذر غـيرهم، كما أنه إذا قال القائل لغيره: أدب ولدك ولا يدل على أنه أراد أنه لا يؤدب غلامه، بل ذلك يدل على أن مراد المتكلم فى هذا المقام تأديب الولد، لأن المقصـود مختص به، ولعله إذا فرغ من الوصيـة على الولد يقول له: وغـلامك أيضًا أدبه، وإنما بدأت بالولد لاهتـمامى به، ولا يقول عاقل: إن كـلامه الثانى مناقـض للأول، وكـذلك قرابته ﷺ هم أولى الناس ببره ﷺ وإحسانه، وإنقاذه من الهلكات، فخصهم بالذكر كذلك، لأن غيرهم غير مراد كما ذكرنا فى صورة الولد والعبد.

وبالجملة فهـذه الألفاظ ألفاظ لغتنا، ونحـن أعلم بها وإذا كان ﷺ هو المتكلم بها ولم يفـهم تخصـيص الرسالة، ولا إرادته، بل أنذر الروم والفـرس وسائر الأمم والعـرب لم تفهم ذلك وأعـداؤه من أهل زمانه لم يدعوا ذلك، ولا فـهموه، ولو فـهموه لأقـاموا به الحجة عليـهم، ونحن أيضًا لم نفهم ذلك فما فـهمه إلا هذا النصرانى الذى ساء سـمعًا فساء إجابة، فمن أراد الهدى فطريقه واضحـة فليأخذ سبب النجاة قبل الموت، ويستدرك السعـادة قبل الفوت، فمـا بعد الدنيا دار إلا الجنة، أو النار، ولـيس عند العاقل أهم من سعـادة نفسه، فليـحصلها قـبل حلول رمسه، والله تعـالى هو المعين على الخـير كله اهـ «الأجوبة الفاخرة» (٩-١٢).

ومعلوم أن الكلام فى صدق مدعى الرسالة وكذبه، متقدم على الكلام فى عموم رسالته وخصوصها، وإن كان قد يعلم أحدهما قبل الآخر، لكن هؤلاء القوم ادعوا خصوص رسالته، وذكروا أن القرآن يدل على ذلك، فنجيب عما ذكروه على حسب ترتيبهم فصلاً فصلاً، فنقول وبالله التوفيق:

الكلام فيمن خاطب الخلق بأنه رسول الله إليهم، كما فعل محمد ﷺ، وغيره ممن قال: أنه رسول الله كإبراهيم، وموسى، ونحوهما من الرسل، الصادقين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، وآل كل من الصالحين-، وكمسيلمة الكذاب والأسود العنسى، ونحوهما، من المتنبئين الكذابين، ينبنى على أصلين:

أحدهما: أن نعرف ما يقوله فى خبره وأمره، فنعرف ما يخبر به ويأمر به، وهل قال: إنه رسول الله إلى جميع الناس؟ أو قال: إنه لم يرسل إلا إلى طائفة معينة، لا إلى غيرها؟.

والثانى: أن يعرف هل هو صادق أو كاذب؟.

وبهذين الأصلين يتم الإيمان المفصل، وهو معرفة صدق الرسول، ومعرفة ما جاء به.

وأما الإيمان المجمل، فيحصل بالأول: وهو معرفة صدقه فيما جاء به، كإيماننا بالرسل المتقدمة، وقد نعلم صدقه أو كذبه.

وهؤلاء بدأوا فى كتابهم هذا بما ذكره الرسول، مما زعموا أنه حجة لهم على عدم وجوب اتباعه، وعلى مدح دينهم الذى هم اليوم عليه، بعد النسخ والتبديل، ثم ذكروا حججًا مستقلة على صحة دينهم، ثم ذكروا ما يقدح فيه وفى دينه، فلهذا قدمنا الجواب عما احتجوا به من القرآن، كما قدموه فى كتابهم.



فصل

[دلائل صدق النبى ﷺ]

ودلائل صدق النبى الصادق، وكذب المتنبى الكذاب كثيرة جدًّا، فإن من ادعى النبوة -وكان صادقًا- فهو من أفضل خلق الله، وأكملهم فى العلم والدين، فإنه لا أحد أفضل من رسل الله وأنبيائه، -صلوات الله عليهم وسلامه-، وإن كان بعضهم أفضل من بعض، كما قال -تعالى-:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٢).

وإن كان المدعى للنبوة كاذبًا فهو من أكفر خلق الله، وشرهم، كما قال -تعالى-:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٣.

(٢) سورة الإسراء: ٥٥.

(٣) سورة الأنعام: ٩٣.

(٤) سورة الزمر: ٣٢-٣٤.

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾(١).

فالكذب أصل للشر، وأعظمه الكذب على الله -عز وجل-، والصدق أصل للخير، وأعظمه الصدق على الله -تبارك وتعالى-.

وفى الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبى ﷺ أنه قال:

«عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»(٢).

ولما كان هذا من أعلى الدرجات، وهذا فى أسفل الدركات، كان بينهما من الفروق والدلائل والبراهين، التى تدل على صدق أحدها وكذب الآخر -ما يظهر لكل من عرف حالهما. ولهذا كانت دلائل الأنبياء وأعلامهم الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة، كما أن دلائل كذب المتنبئين كثيرة متنوعة، كما قد بسط فى موضع آخر.

● ● ●

---

(١) سورة الزمر: ٦٠.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٩)، والترمذى (١٩٧٨)، وابن أبى الدنيا فى «الصمت» (٤٤٥-٤٧٠).

فصل

[بيان عموم رسالة النبى ﷺ]

إذا عرف هذا، فـهؤلاء القـوم -فى هذا المقام- ادعـوا أن محـمدًا ﷺ لم يرسل إليهم، بل إلى أهل الجاهلية من العرب، فهذه الدعوى على وجهين:

إما أن يقولوا: إنه بنفسه لم يدع أنه أرسل إليهم، ولكن أمته ادعوا له ذلك.

وإمـا أن يقولوا: إنه ادعـى أنه أرسل إليهم، وهـو كاذب فى هذه الدعـوى وكلامهم فى صدر هذا الكتاب يقتضى الوجه الأول.

وفى آخره قد يقـال: أنهم أشاروا إلى الوجه الثانى، لكنهم فى الحقـيقة لم ينكروا رسالته إلى العرب، وإنما أنكروا رسالته إليهم.

وأما رسالته إلى العـرب فلم يصرحوا بتصديقه فيـها ولا بتكذيبه، وإن كان ظاهر لفظهم يقتضى الإقرار برسالته إلى العرب بل صدقوا بما وافق قولهم، وكذبوا بما خالف قولهم.

ونحن نبـين أنه لا يصح احتجـاجهم بشىء مما جـاء به النبى ﷺ ثم نتكلم على الوجهين جميعًا، ونبين أنه لا يصـح احتجاجهم بشىء من القرآن على صحة دينهم، بوجه من الوجوه، ونبين أن القرآن لا حجة فيه لهم، ولا فيه تناقض.

وكذلك كتب الأنبياء المتقدمين، التى يـحتجون بها، هى حجة عليهم، ليس فى شىء منها حجة لهم، ولو لم يبعث محمدٌ ﷺ، فكيف والكتاب الذى جاء به محمد ﷺ موافق لسائر كلام الأنبيـاء -عليهم السلام- فى إبطال دينهم، وقولهم فى التثليث. والاتحاد، وغير ذلك، مع العقل الصريح.

فهم احتجوا فى كتابهم هذا بالقرآن وبما جاءت به الأنبياء، قبل محمد ﷺ، مع العقل.

ونحن نبين أنه لا حـجة لهم فيـما جاء به محـمد ﷺ ولا فيمـا جاءت به الأنبياء قبله، ولا فى العقل، بل ما جاء به محمد ﷺ وما جاءت به الأنبياء قبله،

مع صريح العقل، كلها براهين قطعية على فساد دينهم، ولكن نذكر قبل ذلك: أن احتجاجهم بما جاء عن النبى ﷺ لا يصح بوجه من الوجوه، وأنه لا يجوز أن يحتج بمجرد المنقول عن محمد ﷺ من يكذبه فى كلمة واحدة مما جاء به.

وكذلك سائر الأنبياء -عليهم السلام-، بخلاف الاحتجاج بكلام غير الأنبياء، فإن ذلك يمكن موافقة بعضه دون بعض، وأما ما أخبرت به الأنبياء -عليهم السلام-، أو من قال: إنه نبى، فلا يمكن الاحتجاج ببعضه دون بعض، سواء قدر صدقهم أو كذبهم.

فيقال لهم: على كل تقدير، سواء أقروا بنبوته إلى العرب أو غيرهم، أو كذبوه فى قوله: إنه رسول الله أوسكتوا عن هذا وهذا، أو صدقوه فى البعض دون البعض.

إن احتجاجكم على صحة ما تخالفون فيه المسلمين، مما جاء به محمد ﷺ ، لا يصح بوجه من الوجوه. فاحتجاجكم على أنه لم يرسل إليكم، أو على صحة دينكم بشىء من القرآن، حجة داحضة، على كل تقدير.

مع أنّا سنبيِّن، -إن شاء الله تعالى-، أن الكتب الإلهية كلها، مع المعقول لا حجة لكم فى شىء منها، بل كلها حجة عليكم.

وهذا بخلاف المسلمين، فإنه يصح احتجاجهم على أهل الكتاب: اليهود والنصارى، بما جاءت به الأنبياء قبل محمد ﷺ ، وأهل الكتاب لا يصح احتجاجهم بما جاء به محمد ﷺ ، وذلك أن المسلمين مقرون بنبوة موسى، وعيسى، وداود، وسليمان، وغيرهم من الأنبياء -عليهم السلام-، وعندهم يجب الإيمان بكل كتاب أنزله الله، وبكل نبى أرسله الله، وهذا أصل دين المسلمين، فمن كفر بنبى واحد، أو كتاب واحد، فهو -عندهم- كافر، بل من سب نبيًّا من الأنبياء فهو -عندهم- كافر مباح الدم، كما قال -تعالى-:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة: ١٣٦، ١٣٧.

وقال -تعالى-:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾(٢).

والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله، يتناول التوراة والإنجيل، كما يتناول القرآن، كقوله -تعالى-:

﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾(٣).

وقوله -تعالى-:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾(٤).

وفي القراءة الأخرى: «وكتابه»، كقوله -تعالى-:

﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ...﴾(٥).

وقوله -تعالى-:

﴿الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٥.
(٢) سورة البقرة: ١٧٧.
(٣) سورة الشورى: ١٥.
(٤) سورة البقرة: ٢٨٥.
(٥) سورة الشورى: ١٥.
(٦) سورة البقرة: ١-٥.

فذكر أن هذا الكتاب الذى أنزل عليه هدى للـمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيـمون الصـلاة ويؤتون الزكاة، والذين يؤمنون بمـا أنزل إليه وما أنزل مـن قبله وبالآخرة هم يوقنون، ثم أخبر أن هؤلاء هم المفلحون، فحصر الفلاح فى هؤلاء، فلا يكون مفلحًا إلاَّ من كان من هؤلاء.

وقوله -تعالى-:

﴿... وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ...﴾(١).

هو صفة للمذكوريـن ليس هؤلاء صنفًا آخر، فإن عطف الشىء على الشىء قد يكون لتغاير الصفات وإن كانت الذات واحدة، هذا هو الصحيح هنا، وإن كان قـد قيل: إن الصنـف الثانى مـؤمنو أهل الكتـاب، والأول هم المسلمـون، فهـذا ضعـيف. وأفسد مـنه، قول هؤلاء النصارى: إن الكتـاب المراد به الإنجيل، كـما سيأتى الكلام على ذلك، -إن شاء الله تعالى-.

والعطف لتغاير الصفات كقوله -تعالى-:

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾(٢).

وهو -سـبحـانه- الذى خلق فسـوى، والذى قدر فـهدى، والذى أخـرج المرعى، فجعله غثاء أحوى.

وقوله -تعالى-:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾(٣).

إلى آخر الآيات.

وكذلك قوله:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ...﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة: ٤.
(٢) سورة الأعلى: ١-٥.
(٣) سورة المؤمنون: ١-٥.
(٤) سورة البقرة: ٤.

هم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، وهم الذين على هدى من ربهم، وهم المفلحون.

ولكن فصَّل إيمانهم بعد أن أجمله، لئـلا يظن ظان أن مجرد دعوى الإيمان بالغيب ينفع، وإن لم يؤمن بما أنزل إلى محمد ﷺ، وما أنزل إلى من قبله: فلو قال أحد من الناس: أنا أؤمن بالغيب، وهو مع ذلك لا يؤمن ببعض ما أنزل على محمد ﷺ، أو ببعض ما أنزل على من قبله لم يكن مؤمنًا، حتى يؤمن بجميع ما أنزل إليه، ومـا أنزل إلى من قبله. ولو كانوا صنفًـا آخر لكان المفلحون قسـمين: قسـمًا يؤمنون بالغـيب، ولا يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل إلـى من قبله، وقسـمًا يؤمنون بما أنزل إليـه وما أنزل إلى من قـبله، ولا يؤمنون بالغـيب وهذا باطل عند جمـيع الأمم: المؤمنين، واليهود، والنـصارى، فإن الإيمـان بما أنزل إليه وإلى من قبله، يتضمن الإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب لا يتم إلاَّ بالإيمان بجميع ما أنزله الله -تبارك وتعالى-.

والمسلمون لا يستجيز أحد منهم التكذيب بشيء مما أنزل على من قبل محمد ﷺ، لكن الاحتجاج بذلك عليهم يحتاج إلى ثلاث مقدمات:

إحداها: ثبوت ذلك عن الأنبياء -عليهم السلام-.

والثانية: صحة التـرجمة إلى اللسان العربى، أو الـلسان الذى يخاطب به، كالرومى، والسريانى، فإن لسان موسى وداود، والمـسيح، وغيرهم، من أنبياء بنى إسرائيل، كـانت عبرانيـة: ومن قال إن لســان المسيح كان سـريانيًا أو روميًـا فقط غلط.

والثالثة: تفسير ذلك الكلام، ومعرفة معناه.

فلهذا كان المسلمون لا يردون شيئًـا من الحجج بتكذيب أحد من الأنبياء فى شيء قاله، ولكن قد يكذبون الناقل عنهم، أو يفـسرون المنقول عنهم بما أرادوه أو بمعنى آخر، على وجه الغلط.

وإن كان بعض المسلمين قـد يغلط فى تكذيب بعض النقل، أو تأويل بعض المنقول عنهم، فهو كـما يغلط من يغلط منهم، ومن سائر أهل الملل، فى التكذيب على وجه الغلط ببعض ما ينقل عمن يقر بنبوته، أو فى تأويل المنقول عنه.

وهذا بخلاف تكذيب نفس النبى، فإنه كفر صريح بخلاف أهل الكتاب، فإنه لا يتم مرادهم إلاّ بتكذيبهم ببعض ما أنزل الله، ومتى كذب بكلمة واحدة مما أخبر به من قال: إنه رسول الله، بطل احتجاجه بسائر كلامه، فكانت حجتهم التى يحتجون بها داحضة، وذلك أن الذى يقول: إنه رسول الله، إما أن يكون صادقًا فى قوله: إنى رسول الله، وفى جميع ما يخبر به عن الله، وإما أن يكون كاذبًا، ولو فى كلمة واحدة عن الله.

فإن كان صادقًا فى ذلك، امتنع أن يكذب على الله فى شىء مما يبلغه عن الله، فإن من كذب على الله، ولو فى كلمة واحدة، كان ممن افترى على الله الكذب، ولم يكن رسولاً من رسل الله، ومن افترى على الله الكذب تبين أنه من المتنبئين الكذابين.

ومثل هذا لا يجوز أن يحتج بخبره عن الله، فإنه قد علم أن الله لم يرسله، وإذا قال هو قولاً، وكان صدقًا، كان كما يقوله غيره يقبل لا لأنه بلغه عن الله، ولا لأنه رسول عن الله، بل كما يقبل من المشركين وسائر الكفار ما يقولونه من الحق، فإن عباد الأوثان، إذا قالوا عن الله ما هو حق مثل إقرار مشركى العرب بأن الله خلق السمٰوات والأرض لم نكذبهم فى ذلك، وإن كانوا كفاراً. وكذلك إذا قال الكافر: إن الله حى قادر خالق، لم نكذبه فى هذا القول.

فمن كذب على الله فى كلمة واحدة، قال: إن الله أنزلها عليه، ولم يكن الله أنزلها عليه، فهو من الكذابين، الذين لا يجوز أن يحتج بشىء من أقوالهم، التى يقولون: إنهم يبلغونها عن الله -تبارك وتعالى-، وما قالوه غير ذلك فهم فيه كسائر الناس، بل كأمثالهم من الكذابين إن عرف صحة ذلك القول من جهة غيرهم قُبل، لقيام الدليل على صحته، لا لكونهم قالوه، وإن لم يعرف صحته من جهة غيرهم، لم يكن فى قولهم له مع ثبوت كذبهم على الله حجة.

وحينئذ، فهؤلاء إن أقروا برسالة محمد ﷺ ، وأنه صادق فيما بلغه عن الله من الكتاب والحكمة، وجب عليهم الإيمان بكل ما ثبت عنه من الكتاب والحكمة، كما يجب الإيمان بكل ما جاءت به الرسل.

وإن كذبوه فى كلمة واحدة، أو شكوا فى صدقه فيها، امتنع مع ذلك أن يقروا بأنه رسول الله. وإذا لم يقروا بأنه رسول الله، كان احتجاجهم بما قاله،

كـاحتـجاجـهم بسائر مـا يقوله من ليـس من الأنبيـاء، بل من الكذابين، أو من المشكوك فى صدقهم.

ومعلوم أن من عرف كـذبه على الله فيما يقـول: إنه يبلغه عن الله، أوشك فى صدقه. لا يعلم أنه رسول الله ولا أنه صادق فى كل ما يقوله ويبلغه عن الله. وإذا لم يعلم ذلك منه، لم يعرف أن الله أنزل إليه شيئًا، بل إذا عرف كذبه، عرف أن الله لم ينزل إليه شيئًا، ولا أرسله، كما عرف كذب مسيلمة الكذاب، والأسود العنسى، وطليحـة الأسدى، وكما عرف كـذب مانى وأمثاله وغيـرهم من المتنبئين الكذابين.

وإذا شك فى صدقـه فى كلمة واحـدة، بل جوز أن يكون كـذبها عـمدًا أو خطأ، لم يجز تصـديقه مع ذلك، فى سائر ما يبلغـه عن الله، لأن تصديقه فـيما يخبر به عن الله، إنما يكون إذا كان رسولاً صادقًا، لا يكذب عمدًا ولا خطأ، فإن كل من أرسله الله لابد أن يكون صـادقًا فى كل مـا يبلغه عن الله، لا يكذب فـيه عمدًا ولا خطأ.

وهذا أمر اتفق عليـه الناس كلهم: المسلمون واليهود، والنصـارى وغيرهـم، اتفقوا على أن الرسول لابد أن يكون صادقًا معصومًا فيما يبلغه عن الله، لا يكذب على الله خطأ ولا عمـدًا، فإن مقـصود الرسالـة لا يحصل بدون ذلك، كمـا قال موسى عليه السلام لفرعون:

﴿ ... يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ... ﴾(١).

وفى القراءة المشـهورة: يخبـر أنه جدير وحـرى وثابت ومستـقر على أن لا يقول على الله إلاَّ الحق، وعلى القراءة الأخرى: أخـبر أنه واجب عليه أن لا يقول على الله إلاَّ الحق.

وقال -تعالى-:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾(٢).

---

(١) سورة الأعراف: ١٠٤، ١٠٥.

(٢) سورة الحاقة: ٤٤-٤٧.

وقال -تعالى-:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ...﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾(٣).

وهذا لبسطه موضع آخر.

وإنما المقصود هنا: أن احتجاجهم بكلمة واحدة مما جاء به محمد ﷺ، لا يصح بوجه من الوجوه، فإنه إن كان رسولاً صادقًا فى كل ما يخبر به عن الله -عز وجل-، فقد علم كل واحد أنه جاء بما يخالف دين النصارى، فيلزم إذا كان رسولاً صادقًا أن يكون دين النصارى باطلاً: وإن قالوا فى كلمة واحدة مما جاء به أنها باطلة، لزم أن لا يكون عندهم رسولاً صادقًا مبلغًا عن الله، وحينئذ فسواء قالوا: هو ملك عادل، أو هو عالم من العلماء، أو هو رجل صالح من الصالحين، أو جعلوه قديسًا عظيمًا من أعظم القديسين فمهما عظموه به، ومدحوه به، لما رأوه من محاسنه الباهرة، وفضائله الظاهرة، وشريعته الطاهرة، متى كذبوه فى كلمة واحدة مما جاء به، أوشكوا فيها، كانوا مكذبين له فى قوله: إنه رسول الله، وأنه بلغ هذا القرآن عن الله، ومن كان كاذبًا فى قوله: إنه رسول الله، لم يكن من الأنبياء والمرسلين، ومن لم يكن منهم لم يكن قوله حجة البتة، لكن له أسوة أمثاله.

---

(١) سورة الشورى: ٢٤.
(٢) سورة النحل: ١٠١، ١٠٢.
(٣) سورة يونس: ١٥.

فإن عرف صحة ما يقوله بدليل منـفصل، قُبِل القول، لأنه عرف صدقه من غير جهته، لا لأنه قاله، وإن لم يعرف صحة القول لم يقبل.

فتبيَّن أنه -إن لم يقر المقر لمن ذكر أنه رسول الله بأنه صادق فى كل ما يبلغه عن الله، معـصوم عن اسـتقرار الكذب، خطـأ أو عمدًا- لم يصح احـتجـاجهم بقوله.

وهذا الأصل يبطل قـول عقـلاء أهل الكتـاب، وهو لقـول جهـالهم أعظم إبطالاً، فإن كثيراً من عقلاء أهل الكتاب، وأكثرهم، يعظمون محمدًا ﷺ، لما دعا إليه من توحيـد الله -تعالى-، ولما نهى عنه من عبـادة الأوثان، ولما صدق التوراة والإنجيل والمرسلين قبله، ولما ظـهر من عظمـة القرآن الذى جـاء به، ومحـاسن الشـريعة التى جـاء بها، وفـضائل أمتـه التى آمنت به، ولما ظهـر عنه وعنهم من الآيات والبراهين والمعجـزات والكرامات. لكن يقولون -مع ذلك-: إنه بعث إلى غيرنا، وإنه ملك عادل له سيـاسة عادلة، وإنه -مع ذلك- حصل علومًا من علوم أهل الكتاب، وغيرهم، ووضع لهم ناموسًا بعلمه، ورتَّبه، كما وضع أكابرهم لهم القوانين والنواميس التى بأيديهم.

ومهمـا قالوه من هذا فإنهم لا يصيرون به مـؤمنين به ولا يسوغ لهم بمجرد ذلك الاحتجـاج بشىء مما قاله، لأنه قد عرف بالنقل المتواتر، الذى يعلمـه جميع الأمم من جميع الطوائف أنه قال: إنـه رسول الله إلى جميع الناس، وأن الله أنزل عليه القرآن، فإن كان صادقًا فى ذلك فمن كذبه فى كلمة واحدة فقد كذب رسول الله، ومن كذب رسول الله فهو كافر، وإن لم يكن صادقًا فى ذلك لم يكن رسولاً لله، بل كان كاذبًا ومن كان كاذبًا على الله، يقول: الله أرسلنى بذلك، ولـم يرسله به لا يجوز أن يحتج بشىء من أقواله.

وأما من كان من جهلاء أهل الكتـاب، الذين يقولون: أنه كان ملكًا مسلطًا عليهم، وأنه رسول غـضب أرسله الله إرسالاً كونيًا، لينتـقم به منهم، كما أرسل بختنصـر وسنحاريب على بنى إسـرائيل، وكمـا أرسل جنكس خان، وغـيره من الملوك الكافرين والظالمين، مما ينتقم به ممن عصاه، فـهؤلاء أعظم تكذيبًا له، وكفرا به، من أولئك، فإن هؤلاء الملوك لم يقل أحد منهم: إن الله أنزل عليه كتابًا، ولا أن هذا الكلام الذى أبلغه إليكم هو كلام الله، ولا أن الله أمركم أن تصدقونى فيما أخبرتكم به، وتطيعونى فيـما أمرتكم به، ومن لم يصدقنى باطنًا وظاهراً، فإن الله

يعذبه فى الدنيا والآخرة، بل هؤلاء أرسلهم إرسالاً كونيًا قدره وقضاه كما يرسل الريح بالعذاب، وكما يرسل الشياطين.

قال -تعالى-:

﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾(٢).

وهذا بخلاف قوله:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾(٣).

وقوله -تعالى-:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾(٤).

وقوله -تعالى-:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ...﴾(٥).

فإن هذا يعنى به الإرسال الدينى، الذى يحبه -تعالى- ويرضاه، الذى هدى به من اتبعهم، وأدخله فى رحمته، وعاقب من عصاهم، وجعله من المستوجبين للعذاب وهو الإرسال الذى أوجب الله به طاعة من أرسله، كما قال -تعالى-:

---

(١) سورة مريم: ٨٣.
(٢) سورة الإسراء: ٤، ٥.
(٣) سورة نوح: ١.
(٤) سورة المزمل: ١٥.
(٥) سورة النساء: ١٦٣-١٦٥.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ... ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ... ﴾(٢).

وهذه الرسالة التى أقام بها الحجة على الخلق، كما قال -تعالى-:

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ... ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾(٤).

وهذا كما اصطفى روح القدس جبريل عليه السلام، لنزوله بالقرآن على من اصطفاه من البشر، وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال -تعالى-:

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٥).

وقال -تعالى-:

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾(٦).

وقال -تعالى-:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٧).

---

(١) سورة النساء: ٦٤.
(٢) سورة النساء: ٨٠.
(٣) سورة النساء: ١٦٥.
(٤) سورة الحج: ٧٥.
(٥) سورة البقرة: ٩٧.
(٦) سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥.
(٧) سورة النحل: ١٠١، ١٠٢.

فأخبر أنه نزل به جبريل، وسماه الروح الأمين، وسماه روح القدس، وقد ذكره أيضًا فى قوله:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾(١).

ثم قال:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

فهذا الرسول جبريل عليه السلام. وقال -تعالى-:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾(٣).

فهذا الرسول محمد ﷺ.

وأما الإرسال الكونى الذى قدره وقضاه مثل إرسال الرياح وإرسال الشياطين، فذلك نوع آخر. قال -تعالى-:

﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ...﴾(٥).

والله -تعالى- له الخلق والأمر فلفظ الإرسال، والبعث، والإرادة، والأمر،

(١) سورة التكوير: ١٩-٢١.
(٢) سورة التكوير: ٢٢-٢٩.
(٣) سورة الحاقة: ٤٠-٤٧.
(٤) سورة مريم: ٨٣.
(٥) سورة الأعراف: ٥٧.

والأذن، والكتاب، والتحريم، والقضاء، والكلام ينقسم إلى: خلقى، وأمرى، وكونى، ودينى، وقد ذكرنا الإرسال.

وأما البعث، فقال -تعالى-:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[1].

وقال فى الكونى:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ...﴾[2].

وقال -تعالى-: **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ...﴾**[3].

وأما الإرادة، فقال -تعالى- فى الكونية:

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا...﴾[4].

وقال نوح عليه السلام:

﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[5].

وقال -تعالى- فى الإرادة الدينية:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾[6].

وقال -تعالى-: **﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾...﴾**[7].

---

(١) سورة الجمعة: ٢.

(٢) سورة الإسراء: ٥.

(٣) سورة المائدة: ٣١.

(٤) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٥) سورة هود: ٣٤.

(٦) سورة البقرة: ١٨٥.

(٧) سورة النساء: ٢٦-٢٨.

وقال -تعالى-:

﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ... ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾(٢).

وقال -تعالى- فى الأمر الكونى:

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(٣).

وكذلك فى أظهر القولين قوله -تعالى-:

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾(٤).

وأما الأمر الدينى مثل قوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا... ﴾(٥).

وأما الأذن الكونى مثل قوله فى السحرة:

﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ... ﴾(٦).

والدينى مثل قوله:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾(٧).

والكتاب الكونى مثل قوله:

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي... ﴾(٨).

---

(١) سورة المائدة: ٦.
(٢) سورة الأحزاب: ٣٣.
(٣) سورة يس: ٨٢.
(٤) سورة الإسراء: ١٦.
(٥) سورة النساء: ٥٨.
(٦) سورة البقر: ١٠٢.
(٧) سورة الأحزاب: ٤٥، ٤٦.
(٨) سورة المجادلة: ٢١.

وقوله:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا...﴾(١).

والديني مثل قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾(٢).

وقوله:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾(٣).

وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ...﴾(٤).

والقضاء الكوني كقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ...﴾(٥).

والديني: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(٦).

أي: أمر.

والتحريم الكوني مثل قوله:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ...﴾(٧).

وقوله:

﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ...﴾(٨).

وقوله:

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾(٩).

والديني مثل قوله:

---

(١) سورة التوبة: ٥١.
(٢) سورة النساء: ٢٤.
(٣) سورة البقرة: ١٨٣.
(٤) سورة البقرة: ١٧٨.
(٥) سورة فصلت: ١٢.
(٦) سورة الإسراء: ٢٣.
(٧) سورة القصص: ١٢.
(٨) سورة المائدة: ٢٦.
(٩) سورة الأنبياء: ٩٥.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ... ﴾(١).

وقوله:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾(٢).

والكلمات الكونية مثل قول النبى ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر**»(٣) ومنه قوله -تعالى-: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ... ﴾(٤).

والدينية: مثل قول النبى ﷺ: «**اتقوا الله فى النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»(٥)، ومنه قوله -تعالى-:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ... ﴾(٦).

وهذا مبسوط فى موضع آخر.

والمقصود هنا أنه تفرق أهل الكتاب فى النبى ﷺ، كل يقول فيه قولاً هو نظير تفرق سائر الكفار، فإن الكفار بالأنبياء من عاداتهم أن تقول كل طائفة فيه قولاً يناقض قول الطائفة الأخرى، وكذلك قولهم فى الكتاب الذى أنزل عليه، وأقوالهم كلها أقوال مختلفة باطلة، وهذا هو الاختلاف المذموم الذى ذكره الله -تعالى- فى قوله:

﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ... ﴾(٧).

وفى قوله: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾(٨).

---

(١) سورة المائدة: ٣.

(٢) سورة النساء: ٢٣.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٣/٤١٩) من حديث عبد الرحمن خنبش، وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٨٤٠).

(٤) سورة التحريم: ١٢.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٠٧٤)، من حديث جابر بن عبد الله فى مناسك الحج.

(٦) سورة آل عمران: ٦٤.

(٧) سورة هود: ١١٨، ١١٩.

(٨) سورة الذاريات: ٨، ٩.

وقوله -تعالى-:

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾(١).

وقوله:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ... ﴾(٢).

وقوله -تعالى-:

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾(٣).

ومثال أقوال الكفار فى الأنبياء ما ذكره -تعالى- فى قوله -تعالى-:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾(٤).

فبيَّن -سبحانه- أن الكفار ضربوا له أمثالاً كلها باطلة ضلوا فيها عن الحق، فلا يستطيعون مع الضلال سبيلاً إلى الحق، وضرب الأمثال له يتضمن تمثيله بأناس آخرين، وجعل فى تلك الأنواع التى ليس هو منها ولا مماثلاً لأفرادها مثل قولهم:

---

(١) سورة البقرة: ١٧٦.
(٢) سورة آل عمران: ١٠٥، ١٠٦.
(٣) سورة المائدة: ١٤.
(٤) سورة الفرقان: ١-٩.

﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾(١).

مثلوه بالكاذب المستعين بمن يعينه على ما يفتريه، ومثلوه بمن يستكتب أساطير الأولين من غيره، فتقرأ عليه طرفي النهار وهو يتعلم من أولئك ما يقوله ومثلوه بالمسحور، وكذلك قوله -تعالى-:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

وقال كثير من السلف: الذين جعلوا القرآن عضين: هم الذين عضهوه، فقالوا سحر، وشعر، وكهانة ونحو ذلك، كما قال -تعالى-:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾(٤).

---

(١) سورة الفرقان: ٤.

(٢) سورة الإسراء: ٤٥-٤٨.

(٣) سورة الحجر: ٨٧-٩٦.

(٤) سورة الحاقة ٣٨-٥٢.

وقال:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(٢).

ثم قال -تعالى-:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة الطور: ٢٩-٣٤.

(٢) سورة الشعراء: ١٩٢-٢٠٩.

(٣) سورة الشعراء: ٢١٠-٢٢٧.

وقال -تعالى-:

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٦-٥٥.

(٢) سورة الطور: ٣٣، ٣٤.

(٣) سورة هود: ١٣، ١٤.

مّن دُون اللَّه إن كُنتُمْ صَادقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾(٢).

وقد أخبر -تعالى- أن هذه سنة الكفار في الأنبياء قبله كما قال:

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ... ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾(٥).

وقد أخبر -سبحانه- أن الكفار قالوا عن موسى عليه السلام أنه ساحر، وأنه مجنون، فقال فرعون:

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾(٦).

وقوله: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ... ﴾(٧).

وقال:

(١) سورة البقرة: ٢٣، ٢٤.
(٢) سورة الذاريات: ٤٩-٥١.
(٣) سورة الذاريات: ٥٢، ٥٣.
(٤) سورة فصلت: ٤٣.
(٥) سورة الأنعام: ١١٢.
(٦) سورة الشعراء: ٢٧.
(٧) سورة الزخرف: ٤٩.

﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ . . . ﴾[١] .

وكذلك قالوا عن المسيح بن مريم كما قال -تعالى-:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[٢] .

وذكر -تعالى- عن اليهود أنهم قالوا على مريم بهتانًا عظيمًا: فقول اليهود فى المسيح من جنس أقوال الكفار فى الأنبياء، وكذلك قول كفار أهل الكتاب فى خاتم الأنبياء محمد ﷺ تسليمًا-.

فإذا علم هذا فنقول بعد ذلك لمن قال أنه رسول أرسل إلى العرب الجاهلية دون أهل الكتاب:

إنه من المعلوم بالضرورة لكل من علم أحواله بالنقل المتواتر الذي هو أعظم تواترًا مما ينقل عن موسى وعيسى وغيرهما، وبالقرآن المتواتر عنه وسنته المتواترة عنه، وسنَّة خلفائه الراشدين من بعده، أنه ﷺ ذكر أنه أرسل إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى، كما ذكر أنه أرسل إلى الأميين، بل ذكر أنه أرسل إلى جميع بنى آدم: عربهم وعجمهم من الروم، والفرس، والترك، والهند، والبربر، والحبشة، وسائر الأمم، بل إنه أرسل إلى الثقلين: الجن والإنس جميعًا.

وهذا كله من الأمور الظاهرة المتواترة عنه، التى اتفق على نقلها عنه أصحابه -مع كثرتهم وتفرق ديارهم وأحوالهم- وقد صحبه عشرات ألوف لا يحصى عددهم على الحقيقة إلاَّ الله -تعالى-، ونقل ذلك عنهم التابعون وهم أضعاف الصحابة عددًا، ثم ذلك منقول قرنًا بعد قرن إلى زمننا مع كثرة المسلمين وانتشارهم فى مشارق الأرض ومغاربها، كما أخبر بذلك قبل أن يكون، فقال فى الحديث الصحيح: «**زويت لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها**»[٣] وكان كما أخبر، فبلغ ملك أمته طرفى العمارة شرقًا

---

(١) سورة طه: ٧١.

(٢) سورة الصف: ٦.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذى (٢١٨٣)، وابن ماجه (٣٩٥٢) وأحمد (٥/ ٢٧٨-٢٨٤)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٢٤٣٥) والبيهقى فى «الدلائل» (٦/ ٥٢٦، ٥٢٧)، والبغوى فى «شرح السنة» (٤٠١٥) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وغربًا، وانتـشرت دعـوته فى وسط الأرض، كالإقليم الثالـث والرابع والخامس، لأنهم أكمل عقولاً وأخلاقًا، وأعدل أمزجة، بخلاف طرفى الجنوب والشمال، فإن هؤلاء نقصت عقولهم وأخلاقهم، وانحرفت أمزجتهم.

أما طرف الجنوب، فإنه لقـوة الحرارة احترقت أخـلاطهم، فاسودت ألوانهم وتجعدت شعورهم.

وأما أهل طرف الشـمال فلقوة البـرد لم تنضج أخلاطهم، بل صارت فـجة فأفرطوا فى سبوطة الشعر والبياض البارد الذى لا يستحسن.

ولهذا لما ظـهر الإسلام غلب أهله عـلى وسط المعمورة وهـم أعدل بنى آدم وأكملهم، والنصارى الذين تربوا تحت ذمة المسلمين أكمل من غيرهم من النصارى عقولاً وأخلاقًا، وأما النصارى المحـاربون للمسلمين الخارجون عن ذمتهم من أهل الجنوب والشمال فهم أنقص عقولاً وأخلاقًا، ولما فيهم من نقص العقول والأخلاق ظهرت فيهم النصرانية دون الإسلام.

والمقصود: أن محمداً ﷺ هو نفسه دعا أهل الكتـاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان به وبما جاء به، كما دعا من لا كتاب له من العرب وسائر الأمم.

وهو الذى أخـبر عن الله -تبـارك وتعـالى- بكفـر من لم يؤمن به من أهل الكتاب وغيرهم، وبأنهم يصلون جهنم وساءت مـصيراً، وهو الذى أمر بجهادهم ودعاهم بنفسـه ونوابه، وحينئذ فقولهم فى الكتـاب لم يأت إلينا، بل إلى الجاهلية من العرب، سواء أرادوا أن اللهَ بعثه إلى العرب ولـم يبعثه إلَينا، أو أرادوا أنه ادَّعى أنه أرسل إلى العرب لا إلينا، فإنه قـد علم جميع الطوائف أن محمـداً دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به، وذكر أن الله أرسله إليـهم وأمره بجهاده من لم يؤمن به منهم، فإذا قـيل مع هذا أنه قال: لم أبعث إلاَّ إلى العـرب كان كـاذبًا كذبًا ظاهراً عليه، سـواء صدقه الإنسان أو كـذبه، فإن المقصـود هنا أنه نفسه دعا جـميع أهل الأرض إلى الإيمان به، فدعا أهل الكتاب كما دعا الأميين.

أما اليهـود: فإنهم كانوا جيرانه فى الحـجاز بالمدينة وما حولها وخيـبر، فإن المهاجـرين والأنصار كلهم آمنوا به من غيـر سيف ولا قتـال، بل لما ظهر لهم من براهين نبوته ودلائل صدقه آمنوا به، وقد حصل من الأذى فى الله لمن آمن بالله ما هو معروف فى السيرة، وقد آمن به فى حياته كـثير من اليهود والنصارى: بعضهم

بمكة وبعضهم بالمدينة، وكثير منهم كـانوا بغير مكة والمدينة، فلما قدم المدينة عاهد من لم يؤمن به من اليـهود، ثم نقـضوا العـهد، فـأجلى بعضـهم وقتل بعـضهم لمحاربتهم لله ورسوله.

وقد قاتلهم مرة بعد مرة، قاتل بني النضير، وأنزل الله -تعالى- فيهم سورة الحشر، وقاتل قريظة عام الأحزاب، وذكرهم الله فى سورة الأحزاب، وقاتل قبلهم بنى قينقـاع، وبعد هؤلاء غزا خـيبر هو وأهل بـيعة الرضـوان، الذين بايعوه تحت الشجـرة، وكانوا ألفًا وأربعـمائة(١). ففـتح الله عليهم خيـبر وأقر اليـهود فيـها فلاحين، وأنزل الله -تعـالى- سورة الفتح يذكـر فيهـا ذلك، فكيف يقال: إنه لم يذكر أنه أرسل إلاَّ إلى مشركى العرب وهذه حال اليهود معه؟!

وأما النصـارى: فإن أهل نجـران -التى باليمن- كانوا نصـارى. فقـدم عليه وفدهم ستون راكـبًا وناظرهم فى مسجده وأنزل الله فيهم صـدر سورة آل عمران، ولما ظهرت حجته عليهم، وتبين لـهم أنه رسول الله إليهم، أمره الله إن لم يجيبوه أن يدعوهم إلى المباهلة(٢)، فقال -تعالى-:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾(٣).

فلما دعـاهم إلى المباهلة طالبوا أن يمهـلهم حتى يشتـوروا فاشتوروا، فـقال بعضهم لبعض: تعلمون أنه نبى وأنه ما باهل قوم نبيًا إلاَّ نزل بهم العذاب.

فاستعـفوا من المباهلة فصالحوه وأقروا له بـالجزية عن يد وهم صاغرون، لما خافوا من دعائه عليهم، لعلمهم أنه نبى فدخلوا تحت حكمه كما يدخل أهل الذمة الذين فى بلاد المسلمـين تحت حكم الله ورسـوله، وأدوا إليـه الجـزية عن يد وهم صاغرون، وهم أول من أدّى الجزية من النصارى.

واستعمل عليهم وعلى من أسلم منهم عـمرو بن حزم الأنصارى، وكتب له كتـابًا مشـهورًا يذكر فـيه شـرائع الدين، فكانوا فى ذمة المسلمـين تحت حكم الله ورسوله ونائب رسوله عـمرو بن حزم الأنصارى ؓ وقـصتهم مشهـورة متواترة

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٤١٥٤) ومسلم (١٨٥٦) من حديث جابر بن عبد الله.
(٢) المباهلة: يقال: باهل بعـضهم بعضًا: اجتـمعوا فتداعوا، فـاستنزلوا لعنة الله على الظالم منهم. «المعجم الوسيط» (٧٤).
(٣) سورة آل عمران: ٦١.

نقلهـا أهل السيـر، وأهل الحديث، وأهـل الفقـه، وأصل حديثـهم معـروف فى الصحاح والسنن كما سنذكره -إن شاء الله تعالى-.

ووفد نجران لما قدموا أنزل الله -تبارك وتعـالى- بسبب ما جرى صدر سورة آل عمران، وذكر -تعالى- فرض الحج بقوله:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾(١).

وهذا نزل إما سنة تسع وإما سنة عشر، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء منهم: القاضى أبو يعلى وغيره.

قالوا وجوب الحج ثبت بقوله: ﴿ ... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ... ﴾.

وروى أنه نزل فى سنـة عـشـر، وروى أنه نزل فى سنة تـسع، وهذا قـول جمهور العلماء.

قـالوا: إن فرض الحج إنما ثبت بهـذه الآية، وقـال بعضـهم: بل ثبت ذلك بقوله -تعالى-: ﴿ ... وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ... ﴾(٢).

وهذه الآية نزلت سنة ست عـام الحديبيـة لما صد المشركـون رسول الله ﷺ عن البيت وصالحهم ذلك العام وبايع المسلمين تحت الشجرة، وأنزل الله فيها سورة الفتح، ثم رجع إلى المدينة وفتح الله عليهم خيبر سنة سبع، وفيها قدم عليه جعفر ابن أبى طالب مع وفد الحبـشة، ثم أرسل جعفراً، وزيداً، وعـبد الله بن رواحة، لغزو النصارى لمؤتة، ثم فتح مكة سنة ثمانٍ فى رمضان، ثم فى أثناء سنة تسع غزا النصارى إلى تبوك، وفـيها حج أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه وأمـر أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان(٣).

وأردفـه بعلى بن أبى طالب رضي الله عنه(٤) لنبـذ العهـود، وأنزل الله آية السـيـف المطلقة بجهاد المشركين وجهاد أهل الكتاب، فقال -تعالى-:

---

(١) سورة آل عمران: ٩٧.

(٢) سورة البقرة: ١٩٦.

(٣) صحيح: أخرجـه البخارى (٤٦٥٥)، ومـسلم (١٣٤٧)، وأبو داود (١٩٤٦)، والنسائى (٥/ ٢٣٤)، وابن جرير فى «تفسيره» (١٠/ ٤٦) من حديث أبى هريرة.

(٤) صحيح: أخرجه الترمذى (٣١٠٢) من حديث ابن عباس، وصححه الألبانى فى «صحيح سنن الترمذى».

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾(١).

وهذه الأشهر عند جمهور العلماء هى المذكورة فى قوله -تعالى-:

﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾(٢).

فإن المشركين كانوا على نوعين: نوعًا لهم عهد مطلق غير مؤقت، وهو عقد جائز غير لازم، ونوعًا لهم عهد مؤقت فأمر الله رسوله أن ينبذ إلى المشركين أهل العهد المطلق، لأن هذا العهد جائز غير لازم، وأمره أن يسيرهم أربعة أشهر، ومن كان له عهد مؤقت فهو عهد لازم، فأمره الله أن يوفى له إذا كان مؤقتًا، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن الهدنة لا تجوز إلا مؤقتة. وذهب بعضهم إلى أنه يجوز للإمام أن يفسخ الهدنة مع قيامهم بالواجب، والصواب هو القول الثالث، وهو أنها تجوز مطلقة ومؤقتة.

فأما المطلقة فجائزة غير لازمة يخير بين إمضائها وبين نقضها.

والمؤقتة لازمة، قال -تعالى-:

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ

---

(١) سورة التوبة: ٥.

(٢) سورة التوبة: ٢.

الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

والمقصود هنا ذكر قدوم وفد نجران النصارى: السيد والعاقب ومن معهما.

قال أبو الفرج بن الجوزى: «ثم دخلت سنة عشر من الهجرة فمن الحوادث فيها: أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب، فروى ابن اسحاق قال: بعث رسول الله ﷺ خالدًا فى ربيع الآخر أو جمادى الأول فى سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم»، وذكر القصة ثم قال: «وفيها قدم وفد الأزد، وفيها قدم وفد غسان، وفيها قدم وفد زبيد، وفيها قدم وفد عبد القيس، قال ابن إسحاق: قدم على رسول الله ﷺ الجارود بن عمرو فى وفد عبد القيس وكان نصرانيًا فأسلموا، وفيها قدم وفد كندة فأسلموا، وفيها قدم وفد بنى حنيفة، وفيها قدم وفد بجيلة قال: وفيها قدم العاقب والسيد من نجران، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاب صلح».

وذكر محمد بن سعد فى الطبقات قدومهم فى الوفود فقال:

«ذكر بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد فى شهر ربيع الأول سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب ذكره بإسناده: أنبأنا محمد بن عمر، حدثنى إبراهيم بن موسى المخزومى، عن عبد الله بن عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث، عن أبيه، ثم ذكر قدوم نصارى نجران من طريق على بن محمد فقال: أنا على بن محمد وهو المدائنى عن أبى معشر، عن يزيد بن رومان ومحمد بن كعب قال: وأنا على بن مجاهد، عن محمد بن إسحاق، عن الزهرى، وعكرمة بن خالد، وعاصم بن عمر بن قتادة، أنا يزيد بن عايض بن جعدية، عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم،

---

(١) سورة التوبة: ١-١٣.

وعن غيرهم من أهل العلم يزيد بعضهم على بعض قالوا: ووفد فلان وفلان فى رجال من خثعم إلى رسول الله ﷺ بعد ما هدم جرير بن عبد الله ﷺ ذا الخلصة، وقتل من قتل من خثعم، فقالوا: آمنا بالله ورسوله فاكتب لنا كتابًا». وذكروا القصة، وقدوم وفود متعددة.

قالوا: وقدم وفد نجران، وكتب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فخرج إليه أربعة عشر من أشرافهم نصارى، وفيهم ثلاثة نفر يتولون أمورهم:

العاقب، واسمه عبد المسيح رجل من كندة وهو أميرهم وصاحب مشورتهم والذى يصدرون عن رأيه، وأبو الحارث أسقفهم وإمامهم وصاحب مدراسهم، والسيد وهو صاحب رحلتهم، فدخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة(١) وأردية مكفوفة بالحرير، فقاموا يصلون فى المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوهم**» ثم أتوا النبى ﷺ فأعرض عنهم فلم يكلمهم، فقال لهم عثمان. ذلك من أجل زيكم هذا، فانصرفوا يومهم ذلك، ثم غدوا عليه بزى الرهبان، فسلموا عليه، فرد عليهم ودعاهم إلى الإسلام فأبوا وكثر الكلام والحجاج بينهم وتلا عليهم القرآن، وقال رسول الله ﷺ: «**إن أنكرتم ما أقول فهلم أباهلكم**»، فانصرفوا على ذلك فغدا عبد المسيح ورجلان من ذوى رأيهم على رسول الله ﷺ، فقالوا: قد بدا لنا أن لا نباهلك فاحكم علينا بما أحببت نعطك ونصالحك، فصالحهم على ألفى حلة فى رجب، وألف فى صفر، أو قيمة كل حلة من الأواقى، وعلى عارية ثلاثين درعًا، وثلاثين رمحًا، وثلاثين بعيرًا وثلاثين فرسًا إن كان باليمن كيد.

ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد رسول الله ﷺ على أنفسهم، وملتهم، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وبيعهم، لا يغير أسقف(٢) من سقيفاه، ولا راهب من رهبانيته، ولا واقف(٣) من وقفانيته، وأشهد على ذلك شهودًا منهم: .أبو سفيان بن حرب والأقرع بن حابس، والمغيرة بن شعبة، فرجعوا

---

(١) الحبرة: ثوب من قطن أو كتان مخطط كان يصنع باليمن «المعجم الوسيط» (١٥١، ١٥٢).

(٢) الأسقف: رئيس من رؤساء النصارى فوق القسيس ودون المطران. «المعجم الوسيط» (٤٣٦).

(٣) الواقف: خادم البيعة. «المعجم الوسيط» (١٠٥١).

إلى بلادهم، فلم يلبث السيد والعاقب إلاَّ يسيراً حتى رجعا إلى النبى ﷺ فأسلما وأنزلهـما دار أبى أيوب الأنصـارى، وأقام أهل نجـران على ما كـتب لهم به النبى ﷺ، حتى قبضه الله صلوات الله عليه ورحمته ورضوانه.

ثم ولِّى أبو بكر الصديق رضي الله عنه فكتب بالوصاة بهم عند وفاته، ثم أصابوا ربا فأخرجهم عمر بن الخطاب من أرضهم، وكتب لهم هذا ما كتب عمر أمير المؤمنين لنجران أنه من سـار منهم أنه آمن بأمان الله لا يضرهم أحـد من المسلمين، ووفى لهم بما كتب لهم رسول الله ﷺ وأبو بكر، أما بعد فمن وقعوا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من جريب الأرض فمـا اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة وعقبة لهم، فكان أرضهم لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم.

أما بعـد فمن حضرهم من رجل مـسلم فلينصرهم على من ظلمـهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزيتـهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهـراً بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا إلا من ضيعتهم التى اعتملوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم، شهد عثمان ابن عفان رضي الله عنه ومعـيقيب بن أبى فاطمة فوقع ناس منهم العـراق، فنزلوا النجرانية التى بناحية الكوفة.

وما ذكره ابن سعد عن على بن محمـد المدائنى عن أشياخه فى حديث وفد نجران فهو يوافق ما ذكره ابن إسحاق فـإن قوله أربعة عشر من أشرافهم يوافق قول ابن إسحاق عن محمد بن جعفر قال:

«قدم على رسول الله ﷺ وفد نجـران ستون راكـبًا فيـهم أربعة عـشر من أشرافـهم فى الأربعة عشر ثـلاثة نفر إليهم يئول أمـرهم: العاقب أميـر القوم وذو رأيهم وصاحـب مشورتهم والذى لا يصـدرون إلا عن رأيه واسمـه عبـد المسيح. والسيد ثمالهم(١) وصاحب رحلهم ونجعتهم واسمه الأيهم. وأبو حارثة بن علقمة أخو بنى بكر بن وائل أسـقفهم وحبـرهم وإمامهم وصاحب مدراسـهم، وكان أبو حارثة قـد شرف فيـهم ودرس كتبـهم حتى حسن علمـه فى دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفـوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس، وبسطوا له الكرامات، لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم. فلما وجهوا إلى رسول الله

(١) ثمال: أى من يرجعون إليه فى أمورهم. «المعجم الوسيط» (١٠٠).

ﷺ من نجران، جلس أبو حارثة على بغلة له موجهًا وإلى جنبه أخ له يقال له كرز ابن علقمة فعثرت بغلة أبى حارثة فقال كرز تعس الأبعد يريد رسول الله ﷺ، فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست. فقال: لم يا أخى؟ قال: والله، إنه للنبى الذى كنا ننتظره فقال له كرز: فما منعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك. وهو كان يحدث عنه هذا الحديث فيما بلغنى»(١).

قال ابن هشام:

«وبلغنى أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتابًا عندهم فكلما مات رئيس منهم فأفضت الرياسة إلى غيره، ختم على تلك الكتب خاتمًا مع الخواتم التى قبله ولم يكسرها، فخرج الرئيس الذى كان على عهد رسول الله ﷺ يمشى فعثر، فقال ابنه: تعس الأبعد، يريد رسول الله ﷺ فقال له أبوه: لا تفعل فإنه نبى، واسمه فى الوضائع، -يعنى: الكتب-.

فلما مات لم تكن لابنه همة إلا أن شد فكسر الخواتم فوجد فيها ذكر النبى ﷺ، فأسلم فحسن إسلامه وحج وهو يقول:

«إليك تغدو قلقًا وضينها معترضًا فى بطنها جنينها مخالفًا دين النصارى دينها»(٢).

قال ابن إسحاق:

«وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال: قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية فى جمال رجال بنى الحارث بن كعب، قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب النبى ﷺ يومئذ-: ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله ﷺ فقال: دعوهم، فصلوا إلى المشرق. قال ابن إسحاق: وكان تسمية الأربعة عشر الذين يئول إليهم أمرهم: العاقب، وهو عبد المسيح، والسيد وهو الأيهم. وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل. وأوس، والحارث، وزيد،

---

(١) إسناده معضل.

(٢) إسناده معضل.

وقيس، ويزيد، ونبيـه، وخويلد، وعمر، وخالد، وعبـد الله، ويحنس فى ستين راكبًـا. فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقـمة. والعاقب عبـد المسيح، والأيهم السـيد. وهم من النصـرانية عـلى دين الملك، مع اختـلافهم من أمـرهم يقولون: هو الله ويقولون: هو ولد الله، ويقـولون: هو ثالث ثلاثة، وكذلك قول النصرانية(١).

فهم يحتجون فى قولهم: «هو الله» بأنه كان يحيى الموتى، ويبرىء الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا، وذلك كله بأمر الله وليجعله آية الناس.

ويحتجون فى قولهـم: إنه ولد الله فإنهم يقولون لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم فى المهد وهذا شىء لم يصنعه أحد من ولد آدم.

ويحـتجـون فى قولهم: «ثـالث ثلاثة» بقول الله فـعلمنا، وأمـرنا، وخلقنا، وقضينا، فـيقولون: لو كان واحـدًا ما قال إلا فعلت، وقضـيت وأمرت، وخلقت، ولكنه هو عيسى ومريم. ففى كل ذلك من قولهم قـد نزل القرآن، فلما كلمه الحبران قال لـهمـا رسول الله ﷺ: «**أسلما**» قـالا قد أسلمنا، قـال: «**إنكمـا لم تسلمـا فأسلما**». قالا: بلى قد أسلمنا قبلك، قال: «**كذبتما يمنعكما من الإسلام دعواكما لله ولد، وعبادتكما للصليب، وأكلكما الخنزير**». قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهمـا، فأنزل الله فى ذلك من قولهم، واختلافهم، فى أمرهم كله صدراً من سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية.

وذكر نزول الآيات بسببهم غير واحد مثلما ذكره محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره، قال: حدثنا المثنى، حدثنا إسـحاق، حدثنا ابن أبى جعفر -يعنى عبد الله ابن أبى جعفر الرازى- عن أبيه عن الربيع فى قوله -تعالى-:

﴿**الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾(٢).

قال: إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه فى عيسى بن مريم، وقالوا له من أبوه؟ وقالوا على الله الكـذب والبهتان لا إله إلا هو لـم يتخذ صاحـبة ولا ولدًا، فقال لهم النبى ﷺ: «**ألستم تعلمون أنه لا يـكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟**»

---

(١) إسناده معضل.

(٢) سورة آل عمران: ١، ٢.

قالوا: نعم، قال: «**ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟**» قالوا: بلى، قال: «**ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟**» قالوا: بلى، قال: «**فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا؟**» قالوا: لا، قال: «**ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟**» قالوا: بلى، قال: «**فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا إلا ما علم؟**» قالوا: لا. قال: «**فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء. قال: ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟**»، قالوا: بلى. قال: «**ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يتغذى الصبي ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟**» قالوا: بلى، قال: «**فكيف يكون هذا كما زعمتم؟**» قال: فعرفوا ثم أبوا إلا جحودًا. فأنزل الله:

﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[1].

وقد ثبت في الصحاح حديث وفد نجران ففي البخاري ومسلم: عن حذيفة وأخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية:

﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ...﴾[2].

ودعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا فقال: «**اللهم هؤلاء أهلي**»[3].

---

(١) سورة آل عمران: ١، ٢. والخبر مرسل.

(٢) سورة آل عمران: ٦١.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٠٤/ ٣٢)، والترمذي (٣٠١٠).

وله شواهد عن كلٍ من:-

١- أم سلمة: أخرجه الترمذي (٣٨٩٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٦٦٦)، وصححه الترمذي، والحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧/ ١٧٢).

٢- عمر بن أبي سلمة: أخرجه الترمذي (٣٢١٦) وقال الترمذي: غريب.

٣- أبي سعيد الخدري: أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (٣٣٩-بترقيمي) بسند ضعيف.

وفى البخارى عن حذيفـة بن اليمان قال جاء السيد والعاقب صـاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه فقال أحدهما لصـاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيًّا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عـقبنا من بعدنا. قالا: إنما نعطيك مـا سألتنا وابعث معنا رجلاً أمـينًا ولا تبعث معنا إلا أمينًا، قال: «لأبعثن مـعكم رجلاً أمينًا حق أمين».

قال فـاستشـرف لها أصحـاب رسول الله ﷺ فقـال: قم يا أبا عبـيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: **«هذا أمين هذه الأمة»**(١).

وفى سنن أبى داوود وغيره قال أبو داوود أخبرنـا مصرِّف بن عمرو اليامى، حدثنا يونس -يعنى ابن بكير- حـدثنا أسباط بن نصر الهمدانى عـن إسماعيل بن عبد الرحمن القرشى، عن ابن عباس قال: صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفى حلة: النصف فى صفر، والنصف فى رجب، يؤدونها إلى المسلمين: وعارية ثلاثين درعًا، وثلاثين فـرسًا، وثلاثين بعيـرًا، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمين كيد ذات غدر على أن لا يهدم لهم بيعـة، ولا يخرج لهم قس، ولا يفتنون عن دينهم ما لم يحدثوا حدثًا، أو يأكلوا الربا(٢).

قال إسمـاعيل: فقد أكلوا الربا، قال أبو داوود: إذًا نقضـوا بعض ما شرط عليهم، فقد أحدثوا.

ومـا ذكره أبو داوود وأهل السـير من مـصـالحتـه لأهل نجران على الجـزية المذكورة مـعروف عند أهل العلم، وقـد ذكر ذلك أبو عبـيد القـاسم بن سلام فى كتاب «الأموال» ذكره من طريقين:

قال أبو عبيد -رحمه الله- حـدثنا أبو أيوب الدمشقى قال حدثنى سعدان بن يحـيى عن عبـد الله بن أبى حمـيـد عن أبى المليح الهذلى: «إن رسـول الله ﷺ

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٤٣٨٠)، ومسلم (٢٤٢٠)، والترمذى (٣٧٧٩).

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٠٤١).

وقال الحافظ ابن حجر فى «التلخـيـص» (١٩١٩): فـى سمـاع السـدى. وهـو إسماعيل ابن عبد الرحمن من ابن عباس نظر. وقال الألبانى فى «ضعيف سنن أبى داود» (٦٥٨): ضعيف الإسناد.

صالح أهل نجران فكتب له كتابًا (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب محمد النبى ﷺ لأهل نجران إذ كان له حكمه عليهم أن فى كل سوداء وبيضاء وصفراء وحمراء أو ثمرة ورقيق وأفضل عليهم وترك ذلك لهم، ألفى حلة: فى كل صفر ألف حلة، وفى كل رجب ألف حلة، كل حلة أوقية ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواقى فليحسب، وما قضوا من ركاب أو خيل أو دروع أخذ منهم بالحساب، وعلى أهل نجران مقرى(١) رسلى عشرين ليلة فما دونها، وعليهم عارية ثلاثين فرسًا، وثلاثين بعيرًا، وثلاثين درعًا، إذا كان كيد باليمن ذو مغدرة، وما هلك مما أعاروا رسلى فهو ضامن على رسلى حتى يؤدوه إليهم ولنجران وحاشيتها ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم وبيعهم ورهبانهم وأساقفهم وشاهدهم وغائبهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وعلى أن لا يغيروا أسقفًا من سقيفاه، ولا واقها من وقيهاه، ولا راهبًا من رهابنه وعلى أن لا يخسروا ولا يعشروا ولا يطأ أرضهم جيش ومن ملك منهم حقًا فالنصف بينهم بنجران على أن لا يأكلوا الربا فمن أكل الربا من ذى قبل فذمتى منهم بريئة وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم). شهد عثمان بن عفان ومعيقيب»(٢).

قال أبو عبيد: الواقة ولى العهد فى لغة بلحارث بن كعب يقول إذا مات هذا الأسقف قام الآخر مكانه.

قال أبو عبيد: قال أبو أيوب، وحدثنى عيسى بن يونس، عن عبد الله بن أبى حميد، عن أبى المليح عن النبى ﷺ مثل ذلك وزاد فى حديثه قال: فلما توفى رسول الله ﷺ، أتوا أبا بكر فوفى لهم بذلك وكتب لهم كتابًا نحوًا من كتاب رسول الله ﷺ، فلما ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصابوا الربا فى زمانه فأجلاهم عمر وكتب لهم أما بعد: فمن وقعوا به من أمراء الشام أو العراق فليوسعهم من جريب الأرض، وما اعتملوا من شىء فهو لهم لوجه الله وعقبى من أرضهم، قال فأتوا العراق فاتخذوا النجرانية(٣)، قال أبو عبيد: وهى قرية بالكوفة.

---

(١) أبى ضيافة.
(٢) مرسل: أبو المليح تابعى ثقة كما فى «التقريب» (٨٣٩٠).
(٣) مرسل.

وكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة. أما بعد: فإن العاقب والأسقف وسراة[١] أهل نجران أتونى بكتاب رسول الله ﷺ وأرونى شرط عمر رضي الله عنه وقد سألت عثمان ابن حنيف، فأنبأنى أنه قد كان بحث على ذلك فوجده صار للدهاقين[٢] ليردعهم عن أرضهم، وإنى قد وضعت عنهم من جزيتهم مائتى حلة لوجه الله، وعقبى لهم من أرضهم وإنى أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة.

قال أبو عبيد: وحدثنا عثمان بن صالح، عن عبد الله بن لهيعة، عن أبى الأسود، عن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ، كتب لأهل نجران من محمد النبى رسول الله ﷺ، ثم ذكر نحو هذه النسخة[٣]. . .

وليس فى حديثه قصة أبى بكر وعمر رضي الله عنهما، وفى آخره، شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف من بنى نضر، والأقرع بن حابس الحنظلى، والمغيرة بن شعبة.

قال أبو عبيد: حدثنى سعيد بن عفير، عن يحيى بن أيوب، عن يونس بن يزيد الأيلى، عن ابن شهاب قال: «أول من أعطى الجزية أهل نجران وكانوا نصارى»[٤].

فإن قيل قوله -تعالى-:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا . . .﴾[٥].

وقد ثبت فى الصحيحين أن النبى ﷺ قد كتب إلى هرقل مع دحية الكلبى مدة هدنته للمشركين وكان أبو سفيان إذ ذاك لم يسلم وقد حضر عند هرقل وسأله

---

(١) السراة: وسط الشيء ومعظمه.

(٢) الدهاقين: جمع دهقان، وهو رئيس القرية: «المعجم الوسيط» (٣٠٠).

(٣) مرسل إسناده ضعيف: عبد الله بن لهيعة قال الحافظ ابن حجر فى «التقريب» (٣٥٦٣): صدوق خلط بعد احتراق كتبه ورواية ابن المبارك وابن وهب عنه أعدل من غيرهما. قلت: وليست هذه الرواية من رواية أحدهما عنه.

(٤) مرسل.

(٥) سورة آل عمران: ٦٤.

هرقل عن النبى ﷺ[١]، وأبو سفيان أسلم عام الفتح فدل ذلك على أن هذا الكتاب كان قبل الفتح، ونزول آية الجزية كان بعد الفتح سنة تسع فدل ذلك على أن هذه الآية نزلت قبل آية الجزية وقبل آية المباهلة، وآية المباهلة -قد علم يقينًا أنها نزلت فى قصة قدوم وفد نجران- والمفسرون وأهل السير ذكروا أن آل عمران نزلت بسبب مناظرة أهل نجران، وقد ذكرناه من نقل أهل الحديث بالإسناد المتصل.

ونقل أهل المغازى والسير أن وفد نجران صالحهم على الجزية وهم أول من أداها، فعلم أن قدومهم كان بعد نزول آية الجزية. وآية الجزية نزلت بعد فتح مكة، فعلم أن قدوم وفد نجران كان بعد آية السيف التى هى آية الجزية.

قال الزهرى: أهل نجران أول من أدى الجزية[٢].

وقوله -تعالى-:

﴿ ... تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[٣].

بعدها آيات نزلت قبل ذلك كقوله:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٤].

فيكون هذا مما تقدم نزوله وتلك مما تأخر نزوله، وجمع بينهما للمناسبة كما فى نظائره فإن الآيات كانت إذا نزلت يأمر النبى ﷺ أن يضعها فى مواضع تناسبها، وإن كان ذلك مما تقدم. ومما يبين ذلك أن هذه الآية وهى قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[٥].

لفظها يعم اليهود والنصارى، وكذلك ذكر أهل العلم أنها دعاء لطائفتين، وأن النبى ﷺ دعا بها اليهود، فدل ذلك على أن نزولها متقدم فإن دعاءه لليهود كان قبل نزول آية الجزية، ولهذا لم يضرب الجزية على أهل خيبر وغيرهم من

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، والترمذى (٢٧٢٦)، والبيهقى فى «الدلائل» (٤/ ٣٨١-٣٨٣)، من حديث ابن عباس عن أبى سفيان بن حرب.

(٢) مرسل: وقد تقدم.

(٣) سورة آل عمران: ٦٤.

(٤) سورة آل عمران: ٧٠، ٧١.

(٥) سورة آل عمران: ٦٤.

يهود الحجاز ولكن لما بعث معاذًا إلى اليمن -وكـان كثيرًا من أهلها يهود- أمره أن يأخذ من كل حالم دينارًا أو عـدله معافر[١] وهذا كان مـتأخرًا بعد غـزوة تبوك، وتوفى النبى ﷺ ومعاذ باليمن. قال ابن أبى حاتم فى تفسيره: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حـدثنا الوليد، حدثنا الضحاك بن عبـد الرحمن بن أبى حوشب وغيره، أن عمـر ابن عبد العزيز كتب إلى (أليون) طاغية الروم قـال فيما أنزل الله على محمد ﷺ:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ -يعنى اليـهود والنصـارى- تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[٢].

وروى بإسناده عن ابن جريج فى قوله -تعالى-:

﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[٣].

قال: بلغنى أن النبى ﷺ دعا يهود أهل الكتاب فـأبوا عليه فجاهدهم[٤]. وكذلك سائر الآيات التى فيها خطاب للطائفتين، كقوله -تعالى-:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٥].

ومما ينبغى أن يعلم، أن أهل نجران كان مـنهم نصارى أهل ذمة، وكان منهم مسلمون -وهم الأكثرون- والنبى ﷺ بعث أبا عبيدة لهـؤلاء وهؤلاء، واستعمل عمرو بن حزم على هؤلاء وهؤلاء، كما أخرجا فى الصحيحين عن أنس بن مالك

---

(١) صحـيح: أخرجـه أبو داود (١٥٧٦-١٥٧٨)، والترمـذى (٦٢٣)، والنسائى (٥/٢٦)، وأحمد (٥/ ٢٣٠، ٢٣٣-٢٤٧).

وقال الترمذى: حسن. وصححه الألبانى فى «صحيح سنن أبى داود».

قوله (مـعافرًا): هى برود باليـمن منسوبة إلى معـافر قبـيلة بها. «شرح السـيوطى على النسائى» (٥/٢٦، ٢٧).

(٢) سورة آل عمران: ٦٤.

(٣) سورة آل عمران: ٦٤.

(٤) إسناده معضل.

(٥) سورة آل عمران: ٦٥-٦٧.

قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لكل أمة أمينًا وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح**»(١).

وعن أنس أيضًا: أن أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلاً أمينًا يعلمنا السنَّة والإسلام، فأخذ بيد أبى عبيدة بن الجراح، فقال: «**هذا أمين هذه الأمة**»(٢).

وفى الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال: جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ابعث إلينا رجلاً أمينًا فقال: «**لأبعثن إليكم رجلاً أمينًا حق أمين حق أمين**»، قال: فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجراح(٣).

وللبخارى عن حذيفة قال: جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيًا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أمينًا فقال: «**لأبعثن معكم رجلاً أمينًا حق أمين**» فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح فلما قام قال رسول الله ﷺ: «**هذا أمين هذه الأمة**»(٤).

وكذلك استعمل النبى ﷺ عليهم عمرو بن حزم وكتب له الكتاب المشهور الذى فيه الفرائض والسنن، وقد رواه النسائى بطوله(٥)، وروى الناس بعضه مفرقًا.

ومحمد بن سعد لم يذكر بعد وفد نجران إلاَّ وفد جيشان، فدل على أن

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٣٧٤٤) ومسلم (٢٤١٩).
وله شاهد من حديث حذيفة، أخرجه البخارى (٣٧٤٥)، ومسلم (٢٤٢٠)، والترمذى (٣٧٧٩)، وابن ماجه (١٣٥). وآخر من حديث ابن عمر، أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (٣٢٢).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤١٩/٥٤).
(٣) صحيح: أخرجه البخارى (٣٧٤٥)، ومسلم (٢٤٢٠)، والترمذى (٣٧٧٩)، وابن ماجه (١٣٥).
(٤) صحيح: أخرجه البخارى (٤٣٨٠).
(٥) أخرجه النسائى (٨/ ٥٧، ٥٨) وضعفه الألبانى فى «ضعيف سنن النسائى».

قدومهم كان متـأخرًا، ومحمد بن إسحاق ذكر قدومـهم فى أوائل السيرة مع قصة اليهود ليجـمع بين خبر اليهود والنصارى. وذكر فى سنة عشـر فتح نجران وإرسال النبى ﷺ خالد بن الوليـد، وإرسال خالد ذكروا أنه كـان متأخرًا قـبل وفاته ﷺ بأربعـة أشـهر، وأنه قـدم وفـد منهم بالإسـلام، وهذا إنما كـان بعـد قدوم وفـد النصارى، فـإنه قد ذكـر ابن سعد أن العـاقب والسيد أسلمـا بعد ذلك، والعـهد بالجزية إنما كان مع النصارى، وآية الجزية هى قوله تعالى:

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُـونَ دِيـنَ الْحَـقِّ مِـنَ الَّذِيـنَ أُوتُـوا الْكِـتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾(١).

وهذه آية السيف مع أهل الكتاب، وقـد ذكر فيها قـتالهم إذا لم يؤمنوا حتى يعطوا الجزية، والنبى ﷺ لم يأخذ من أحد الجزية إلاَّ بعد هذه الآية. بل وقالوا: إن أهل نجران أول من أخـذت منهم الجزية، كما ذكـر ذلك أهل العلم، كالزهرى وغيره، فإنه باتفاق أهل العلم لم يضرب النبى ﷺ على أحد قبل نزول هذه الآية جزية، لا من الأميين، ولا من أهل الكتاب، ولهذا لم يضربها على يهود قينقاع، والنضير، وقريظة، ولا ضـربها على أهل خيبر. فإنها فـتحت سنة سبع قبل نزول آية الجزية، وأقـرهم فلاحـين وهادنهم هدنة مطلقة قـال فيهـا: «نقركم مـا أقركم الله»(٢).

فإذا كـان أول ما أخـذها من وفد نجران علـم أن قدومهم عليـه، ومناظرته لهم، ومحـاجته إياهم، وطلبـه المباهلة مـعهم، كانت بعـد آية السيف التى فيـها قتالهم.

وعلم بذلك أن مـا ذكره الله -تعـالى- من مـجادلة أهل الكتـاب بالتى هى أحسن إلاَّ الذين ظلموا، مـحكم لم ينسخه شيء، وكذلك مـا ذكره -تعالى- من مجادلة الخلق مطلقًا بقوله:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيـلِ رَبِّـكَ بِالْحِكْـمَةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَنَـةِ وَجَادِلْهُـم بِالَّتِـي هِـيَ أَحْسَنُ... ﴾(٣)

---

(١) سورة التوبة: ٢٩.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٢٧٣٠) من حديث عمر بن الخطاب.

(٣) سورة النحل: ١٢٥.

فإن من الناس من يقـول: آيات المجادلة والمحاجـة للكفار، منسـوخات بآية السيف، لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافى المجادلة المشروعة وهذا غلط، فإن النسخ إنما يكون إذا كـان الحكم الناسخ مناقضًـا للحكم المنسوخ كـمناقضـة الأمر باستقبال المسـجد الحرام فى الصلاة للأمر باستقبال بيـت المقدس بالشام، ومناقضة الأمر بصـيام رمضـان للمقيم للتـخيير بيـن الصيام وبين إطعـام كل يوم مسكينًا، ومناقـضة نهيـه عن تعدى الحـدود التى فرضـها للورثة للأمـر بالوصيـة للوالدين والأقربين، ومناقضة قـوله لهم: كفوا أيديكم عن القتال لقوله قـاتلوهم، كما قال -تعالى-:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً...﴾(١).

فأمره لهم بالقتال ناسخ لأمره لهم بكف أيديهم عنهم، فأما قوله -تعالى-:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾(٢).

وقوله:

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...﴾(٣).

فهـذا لا يناقضه الأمـر بجهـاد من أمر بجهـاده منهم، ولكن الأمر بالقـتال يناقض النهى عنه والاقتصار على المجادلة.

- [وجوه الجمع بين جدال أهل الكتاب وقتالهم]

فأمـا مع إمكان الجمع بين الجـدال المأمور به والقتـال المأمور به، فـلا منافاة بينهما وإذا لم يتنافيا بل أمكن الجمع لم يجز الحكم بالنسخ، ومعلوم أن كلاً منهما ينفع حيث لا ينفع الآخـر، وأن استعمـالهما جـميعًا أبلغ فى إظهـار الهدى ودين الحق، ومما يبين ذلك وجوه:

أحدها: أن من كان من أهل الذمة والعهد والمستأمن منهم لا يجاهد بالقتال،

---

(١) سورة النساء: ٧٧.

(٢) سورة النحل: ١٢٥.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٦.

فهو داخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتى هى أحسن، وليس هو داخلاً فيمن أمر الله بقتاله.

الثاني: أنه قال:

﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا... ﴾(١).

فالظالم لم يؤمر بجداله بالتى هى أحسن، فمن كان ظالمًا مستحقًا للقتال غير طالب للعلم والدين، فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يُجَادَلُون بالتى هى أحسن، بخلاف من طلب العلم والدين ولم يظهر منه ظلم، سواء كان قصده الاسترشاد أو كان يظن أنه على حق يقصد نصر ما يظنه حقًا، ومن كان قصده العناد يعلم أنه على باطل ويجادل عليه، فهذا لم يؤمر بمجادلته بالتى هى أحسن، لكن قد نجادله بطرق أخرى نبين فيها عناده وظلمه وجهله جزاءً له بموجب عمله.

الثالث: أنه -سبحانه- قال:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ... ﴾(٢).

فهذا مستجير مستأمن وهو من أهل الحرب أمر الله بإجارته حتى تقوم حجة الله عليه، ثم يبلغه مأمنه وهذا فى سورة براءة التى فيها نقض العهود وفيها آية السيف، وذكر هذه الآية فى ضمن الأمر بنقض العهود، ليبين -سبحانه- أنه مثل هذا يجب أمانه حتى تقوم عليه الحجة، لا تجوز محاربته كمحاربة من لم يطلب أن يبلغ حجة الله عليه.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾: إن لم يوافقه ما نَقُصُّ عليه ونخبر به فأبلغه مأمنه قال: وليس هذا بمنسوخ.

وقال مجاهد: من جاءك واستمع ما أنزل إليك فهو آمن حتى يأتيك.

وقال عطاء فى الرجل من أهل الشرك يأتى المسلمين بغير عهد قال: تخيره إما أن تقره، وإما أن تبلغه مأمنه.

وقوله -تعالى-: ﴿ ... فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ... ﴾(٣).

(١) سورة العنكبوت: ٤٦.
(٢) سورة التوبة: ٦.
(٣) سورة التوبة: ٦.

قد علم أن المراد أنه يسمعه سمعًا يتمكن معه من فهم معناه، إذ المقصود لا يقوم بمجرد سمع لفظ لا يتمكن معه من فهم المعنى، فلو كان غير عربى وجب أن يترجم له ما يقوم به عليه الحجة، ولو كان عربيًا وفى القرآن ألفاظ غريبة ليست لغته، وجب أن يبين له معناها، ولو سمع اللفظ كما يسمعه كثير من الناس ولم يفقه المعنى وطلب منا أن نفسره له ونبين له معناه، فعلينا ذلك.

وإن سألنا عن سؤال يقدح فى القرآن أجبناه عنه، كما كان النبى ﷺ إذا أورد عليه بعض المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالاً يوردونه على القرآن: فإنه كان يجيبه عنه كما أجاب ابن الزبعرى لما قاس المسيح على آلهة المشركين وظن أن العلة فى الأصل بمجرد كونهم معبودين، وأن ذلك يقتضى كل معبود غير الله فإنه يعذب فى الآخرة، فجعل المسيح مثلاً لآلهة المشركين قاسهم عليه قياس الفرع على الأصل.

قال -تعالى-:

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾(١).

فبيَّن سبحانه الفرق المانع من الإلحاق بقوله -تعالى-:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾(٢).

وبين أن هؤلاء القائسين ما قاسوه إلا جدلاً محضًا لا يوجب علمًا، لأن الفرق حاصل بين الفرع والأصل، فإن الأصنام إذا جعلوا حصبًا لجهنم، كان ذلك إهانة وخزيًا لعابديها من غير تعذيب من لا يستحق التعذيب، بخلاف ما إذا عذب عباد الله الصالحون بذنب غيرهم، فإن هذا لا يفعله الله -تعالى-، لاسيما عند جماهير المسلمين وسائر أهل الملل -سلفهم وخلفهم- الذين يقولون: إن الله لا يخلق ويأمر إلاَّ لحكمة، ولا يظلم أحدًا فينقصه شيئًا من حسناته، ولا يحمل عليه سيئات غيره، بل ولا يعذب أحدًا إلاَّ بعد إرسال رسول إليه، كما قال -تعالى-:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾(٣).

---

(١) سورة الزخرف: ٥٧، ٥٨.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠١.

(٣) سورة طه: ١١٢.

وقال -تعالى-:

﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ﴾[١].

وقال -تعالى-:

﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٢].

وقال -تعالى-:

﴿ ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٣].

ومن قال من المسلمين وغيرهم من أهل الملل: إنه يجوز منه -تعالى- فعل كل شيء، وأن الظلم هو الممتنع الذى لا يدخل تحت القدرة، فهؤلاء يقولون: إنما يعلم ما يفعله وما لا يفعله بدلالة خبر الصادق أو بالعادة وإن كان الجمهور يستدلون بخبر الصادق وبغيره على ما يمتنع من الله.

وقد أخبر الله -تعالى- أن عباده الصالحين فى الجنة لا يعذبهم فى النار، بل يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة، فضلاً أن يعاقبهم بذنب غيرهم، مع كراهية لفعلهم ونهيهم عن ذلك، ومن زعم أن لفظ «ما» كانت تتناول المسيح وأخَّر بيان العام، أو أجاب بأن لفظ «ما» لا يتناول إلا ما لا يعقل فالقولان ضعيفان، كما قد بسط فى موضعه.

وإنما المشركون عارضوا النص الصحيح بقياس فاسد، فبين الله -تعالى- فساد القياس وذكر الفرق بين الأصل والفرع.

وكذلك لما أورد بعض النصارى على قوله -تعالى-: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾[٤] ظنًا منه أن هارون هذا: هو هارون أخو موسى بن عمران، وأن عمران هذا: هو عمران أبو مريم أم المسيح، فسئل النبى ﷺ عن ذلك. أجاب: بأن هارون هذا ليس هو ذاك، ولكنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين[٥].

---

(١) سورة الجن: ١٣.

(٢) سورة النمل: ٩٠.

(٣) سورة الإسراء: ١٥.

(٤) سورة مريم: ٢٨.

(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢١٣٥)، والترمذى (٣١٦٦)، من حديث المغيرة بن شعبة، ويأتى لفظه.

وبعض جهال النصارى يقدح فى القرآن بمثل هذا ولا يعلم هذا المفرط فى جهله أن آحاد الناس يعلمون أن بين موسى وعيسى مدة طويلة جداً يمتنع معها أن يكون موسى وهارون خالى المسيح، وأن هذا مما لا يخفى على أقل أتباع محمد ﷺ، فضلاً عن أن يخفى على محمد ﷺ.

وهذا السؤال مما أورده أهل نجران، كما ثبت عن المغيرة بن شعبة قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا: ألستم تقرأون ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾(١)، وقد علمتم ما بين موسى وعيسى؟ فلم أدر ما أجيبهم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «**ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم؟**»(٢).

وهذا السؤال الذى هو سؤال الطاعن فى القرآن لمّا أورده أهل نجران الكفار على رسول رسول الله ﷺ ولم يجبهم عنه أجاب عنه النبى ﷺ، ولم يقل لهم: ليس لكم عندى إلا السيف، ولا قال: قد نقضتم العهد إن كانوا قد عاهدوه، وقد عرف أن أهل نجران لم يرسل إليهم رسولاً إلا والجهاد مأمور به.

وكان المسلمون يوردون الأسئلة عليه كما أورد عليه عمر عام الحديبية لما صالح المشركين ولم يدخل مكة فقال له: ألم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أقلت لك أنك تأتيه فى هذا العام؟» قال: لا قال: «فإنك آتيه ومطوف به»(٣).

وكذلك أجابه أبو بكر ولم يكن سمع جواب النبى ﷺ له، ومعلوم أنه ليس فى ظاهر اللفظ توقيت ذلك بعام، ولكن السائل ظن ما لا يدل اللفظ عليه.

وكذلك لما قال «من نوقش الحساب عذب» قالت له عائشة: ألم يقل الله:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾(٤).

---

(١) سورة مريم: ٢٨.

(٢) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

(٣) صحيح: أخرجه البخارى (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٤) سورة الانشقاق: ٧، ٨.

فقال: «ذلك العرض ومن نوقش الحساب عذب»(١).

ومعلوم أن الحساب اليسيـر لا يتناول من نوقش، وقد زادها بيانًا، فأخبر أنه العرض لا المقابلة المتضمنة للمناقشة.

وكـذلك لما قـال: «إنه لا يدخل النار أحـد بايع تحت الشجـرة». قـالت له حفصة: ألم يقل الله ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا...﴾(٢).

فأجابها بأنه قال:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(٣).

فبين ﷺ أن هؤلاء هم الذين يدخلون جهنم، وهذا الدخـول هو الذى نفاه عن أهل الحديبيـة، وأمـا الورود: فهو مـرور الناس على الصراط كـما فـسره فى الحـديث الصحـيح: حديث جـابر بن عـبد الله، وهذا المرور لا يطلق عليـه اسم الدخول الذى يجزى به العصاة وينفى عن المتقين ومثل هذا كثير.

وأما ما فـى القرآن من ذكر أقوال الكفـار وحججهم وجـوابها، فهذا كـثير جداً، فإنه يجـادلهم تارة فى التوحيد، وتارة فى النبـوات، وتارة فى المعاد، وتارة فى الشرائع بأحسن الحجج وأكملها، كما قال -تعالى-:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾(٤).

وقد أخبـر الله -تبارك وتعالى- عن أولى العزم من الرسل بمـجادلة الكفار، فقال -تعالى- عن قوم نوح:

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا...﴾(٥).

---

(١) صحيح: أخرجه البخـارى (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦)، وأبو داود (٣٠٩٣)، والترمذى (٣٣٤٨).

(٢) سورة مريم: ٧١.

(٣) سورة مريم: ٧٢.

والخبر أخرجه مسلم (٢٤٩٦)، وأحـمد (٦/ ٣٦٢)، من حديث جابر بن عبد الله عن أم مبشر.

وأوله عند أبى داود (٤٦٥٣)، والترمذى (٣٨٨٦).

(٤) سورة الفرقان: ٣٢، ٣٣.

(٥) سورة هود: ٣٢.

وقال عن الخليل:

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ... ﴾.

إلى قوله: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾(١).

وأمر -تعالى- محمدًا ﷺ بالمجادلة بالتى هى أحسن، وذم -سبحانه- من جادل بغير علم أو فى الحق بعد ما تبين ومن جادل بالباطل، فقال -تعالى-:

﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

وقال -تعالى-: ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ... ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾(٤).

وهذا هو الجدال المذكور فى قوله:

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾(٥).

وإذا كان النبى ﷺ يحاج الكفار بعد نزول الأمر بالقتال، وقد أمره الله تعالى أن يجير المستجير حتى يسمع كلام الله ثم يبلغه مأمنه، والمراد بذلك تبليغ رسالات الله وإقامة الحجة عليه، وذلك قد لا يتم إلا بتفسيره له الذى تقوم به الحجة ويجاب به عن المعارضة، وما لا يتم الواجب إلاَّ به فهو واجب.

علم بطلان قول من ظن أن الأمر بالجهاد ناسخ الأمر بالمجادلة مطلقًا.

الوجه الرابع: إن القائل إذا قال: إن آية مجادلة الكفار أو غيرها مما يدعى نسخه منسوخة بآية السيف قيل له: ما تعنى بآية السيف؟ أتعنى آية بعينها أم تعنى كل آية فيها الأمر بالجهاد؟

---

(١) سورة الأنعام: ٨٠-٨٣.

(٢) سورة آل عمران: ٦٦.

(٣) سورة الأنفال: ٦.

(٤) سورة غافر: ٥

(٥) سورة غافر: ٤.

فإن أراد الأول، كان جوابه من وجهين:

أحدهما: أن الآيات التى فيـها ذكر الجـهاد متعـددة، فلا يجوز تخـصيص بعضها.

وإن قال: أريد قوله -تعالى-:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ...﴾(١).

قيل له: هذه فى قتال المشركين، وقد قال بعدها فى قتال أهل الكتاب:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(٢).

فلو لم تكن آية السـيف إلا واحدة لم تكن هذه أولى مـن هذه. وإن قال: كل آية فيها ذكر الجهاد.

قيل له: الجـهاد شـرع على مراتب، فأول مـا أنزل الله -تعالى- فـيه الأذن بقوله:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٣).

فقـد ذكر غير واحـد من العلماء أن هذه أول آية نزلت فى الجهـاد، ثم بعد ذلك نزل وجوبه بقوله:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ...﴾(٤).

ولم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم بل قال:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾(٥).

(١) سورة التوبة: ٥.
(٢) سورة التوبة: ٢٩.
(٣) سورة الحج: ٣٩.
(٤) سورة البقرة: ٢١٦.
(٥) سورة النساء: ٨٩، ٩٠.

وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله، وإن كانت الهدنة عقدًا جائزًا غير لازم.

ثم أنزل فى «براءة» الأمر بنبذ العهود، وأمرهم بقتال المشركين كافة، وأمرهم بقتال أهل الكتاب إذا لم يسلموا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ولم يبح لهم ترك قتالهم وإن سالموهم وهادنوهم هدنة مطلقة مع إمكان جهادهم.

فإن قال: آية السيف التى نسخت المجادلة هى آية الأذن.

قيل. فآية الأذن نزلت فى أول مقدمه المدينة قبل أن يبعث شيئًا من السرايا، وقد جادل -بعد هذا- الكفار.

وكذلك إن قيل: آيات فرض القتال قيل: فقوله:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾(١).

نزلت فى أول الأمر قبل بدر. ولا ريب أن الجهاد كان واجبًا يوم أحد والخندق وفتح خيبر ومكة. وقد ذكر الله آيات فرض الجهاد فى هؤلاء المغازى، كما ذكر ذلك فى سورة آل عمران والأحزاب، وإن قيل بل الجدال إنما نسخ لما أمر بجهاد من سالم ومن لم يسالم.

قيل: هذا باطل، فإن الجدال إن كان منافيًا للجهاد، فهو مناف لإباحته ولإيجابه ولو للمسالم، وإن لم يناف الجهاد لم يناف إيجاب الجهاد للمسالمين، كما لم يناف إيجاب جهاد غيرهم.

فإن المسالم قد لا يجادل ولا يجالد، وقد يجادل ولا يجالد، كما أن غيره قد يجالد ويجادل وقد يفعل أحدهما.

فإن كان إيجابه لجهاد المحارب المبتدىء بالقتال لا ينافى مجادلته، فلأن يكون جهاد من لا يبدأ القتال لا ينافى مجادلته أولى وأحرى، فإن من كان أبعد عن القتال كانت مجادلته أقل منافاة للقتال ممن يكون أعظم قتالاً. يبين هذا:

الوجه الخامس: وهو أن يقال المنسوخ هو الاقتصار على الجدال، فكان النبى ﷺ فى أول الأمر مأمورًا أن يجاهد الكفار بلسانه لا بيده، فيدعوهم ويعظهم ويجادلهم بالتى هى أحسن، ويجاهدهم بالقرآن جهادًا كبيرًا قال -تعالى- فى سورة الفرقان وهى مكية:

---

(١) سورة البقرة ٢١٦.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(١).

وكان مأموراً بالكف عن قتالهم لعجزه وعجز المسلمين عن ذلك، ثم لما هاجر إلى المدينة وصار له بها أعوان أذن له فى الجهاد، ثم لما قووا كتب عليهم القتال ولم يكتب عليهم قتال من سالمهم، لأنهم لم يكونوا يطيقون قتال جميع الكفار.

فلما فتح الله مكة وانقطع قتال قريش ملوك العرب، ووفدت إليه وفود العرب بالإسلام أمره الله -تعالى- بقتال الكفار كلهم إلا من كان له عهد مؤقت، وأمره بنبذ العهود المطلقة، فكان الذى رفعه ونسخه ترك القتال.

وأما مجاهدة الكفار باللسان، فما زال مشروعًا من أول الأمر إلى آخره، فإنه إذا شرع جهادهم باليد، فباللسان أولى، وقد قال النبى ﷺ: **«جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم»**(٢).

وكان ينصب لحسان منبراً فى مسجده يجاهد فيه المشركين بلسانه جهاد هجو(٣) وهذا كان بعد نزول آيات القتال، وأين منفعة الهجو من منفعة إقامة الدلائل والبراهين على صحة الإسلام وإبطال حجج الكفار من المشركين وأهل الكتاب؟

الوجه السادس: أنه من المعلوم أن القتال إنما شرع للضرورة، ولو أن الناس آمنوا بالبرهان والآيات لما احتيج إلى القتال، فبيان آيات الإسلام وبراهينه واجب مطلقًا وجوبًا أصليًا.

---

(١) سورة الفرقان: ٥١، ٥٢.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائى (٦/٧) من حديث أنس.
وقال الشوكانى فى «نيل الأوطار» (٧/ ٢١١): رجال إسناده رجال الصحيح وصححه النسائى. وصححه أيضًا الألبانى فى «صحيح سنن أبى داود».

(٣) أخرج أبو داود (٥٠١٥)، والترمذى (٢٨٥٥)، وفى «الشمائل» له (٢٤٩، ٢٥٠)، عن عائشة قالت: كان النبى ﷺ يضع لحسان منبراً فى المسجد يقوم عليه قائمًا يفاخر عن رسول الله ﷺ -أو قالت: ينافح عن رسول الله ﷺ. وفى رواية: فيقوم عليه يهجو من قال فى رسول الله ﷺ -ويقول رسول الله ﷺ: **«إن الله يؤيد حسان بروح القدس، ما يفاخر -أو ينافح- عن رسول الله ﷺ»**.
وقال الترمذى: حسن غريب صحيح. وحسنه الألبانى فى «مختصر الشمائل المحمدية».

وأما الجهاد: فمشروع للضرورة، فكيف يكون هذا مانعًا من ذلك؟

فإن قيل: الإسلام قد ظهرت أعلامه وآياته فلم يبق حاجة إلى إظهار آياته، وإنما يحتاج إلى السيف.

قيل: معلوم أن الله وعد بإظهاره على الدين كله ظهور علم وبيان وظهور سيف وسنان، فقال -تعالى-:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(١).

وقد فسَّر العلماء ظهوره بهذا وهذا. ولفظ الظهور يتناولهما فإن ظهور الهدى بالعلم والبيان وظهور الدين باليد والعمل، والله -تعالى- أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

ومعلوم أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال، فإن النبي ﷺ مكث بمكة ثلاث عشرة سنة، يظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين، فآمنت به المهاجرون والأنصار طوعًا واختيارًا بغير سيف، لما بان لهم من الآيات البينات، والبراهين والمعجزات، ثم أظهره بالسيف فإذا وجب علينا جهاد الكفار بالسيف ابتداء ودفعًا، فلأن يجب علينا بيان الإسلام وإعلامه ابتداء ودفعًا لمن يطعن فيه بطريق الأولى والأحرى.

فإن وجوب هذا قبل وجوب ذاك ومنفعته قبل منفعته، ومعلوم أنه يحتاج كل وقت إلى السيف، فكذلك هو محتاج إلى العلم والبيان وإظهاره بالعلم والبيان من جنس إظهاره بالسيف وهو ظهور مجمل علا به على كل دين، مع أن كثيرًا من الكفار لم يقهره سيفه، فكذلك كثير من الناس لم يظهر لهم آياته وبراهينه، بل قد يقدحون فيه ويقيمون الحجج على بطلانه، لا سيما -والمقهور بالسيف- فيهم منافقون كثيرون، فهؤلاء جهادهم بالعلم والبيان دون السيف والسنان يؤكد هذا.

الوجه السابع: وهو أن القتال لا يكون إلا لظالم، فإن من قاتل المسلمين لم يكن إلا ظالمًا معتديًا، ومن قامت عليه الحجة فشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين لم يكن إلا ظالمًا.

---

(١) سورة الصف: ٩.

وأما المجادلة فقد تكون لظالم: إما طاعن فى الدين بالظلم، وإما من قامت عليه الحجة الظاهرة. فامتنع من قبولها، وقد تكون لمسترشد طالب حق لم يبلغه.

وإما من بلغه بعض أعلام نبوة محمد ﷺ ودلائل نبوته ولكن عورض ذلك عنده بشبهات تنافي ذلك، فاحتاج إلى جواب تلك المعارضات.

وإما طالب لمعرفة دلائل النبوة على الوجه الذى يعلم به ذلك.

فإذا كان القتال الذى لا يكون إلا لدفع ظلم المقاتل مشروعًا، فالمجادلة التى تكون لدفع ظلمه ولانتفاعه وانتفاع غيره مشروعة بطريق الأولى.

قال مجاهد:

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾(١).

قال: الذين ظلموا: من قاتلك ولم يعطك الجزية، وفى لفظ آخر عنه قال: الذين ظلموا: منهم أهل الحرب من لا عهد لهم المجادلة لهم بالسيف.

وفى رواية عنه قال: لا تقاتل إلا من قاتلك ولم يعطك الجزية.

وفى رواية عنه قال: من أدى منهم الجزية فلا تقولوا له إلا خيراً، وعن مجاهد: إلا بالتى هى أحسن، فإن قالوا: شراً فقولوا: خيراً. فهذا مجاهد لا يجعلها منسوخة وهى قول أكثر المفسرين.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾(٢).

ليست منسوخة، ولكن عن قتادة قال: نسختها: (اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ولا مجادلة أشد من السيف.

والأول أصح، لأن هؤلاء من الذين ظلموا فلا نسخ.

ومما يعجب منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناء على ظهور دلائل النبوة نجده هو ومن يعظمه من شيوخه الذين يعتمد فى أصول الدين على نظرهم ومناظرتهم، ويزعمون أنهم قرروا دلائل النبوة قد أوردوا من الشبهات والشكوك

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٦.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٦.

والمطاعن على دلائل النبوة ما يبلغ نحو ثمانين سؤالاً، وأجابوا عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون جوابًا فى المسائل الظنية، بل هى إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين.

وهم كما مثلهم الغزالى وغيره بمن يضرب شجرة ضربًا يزلزلها به، وهو يزعم أن يريد أن يثبتها، وكثير من أئمة هؤلاء مضطرب فى الإيمان بالنبوة اضطرابًا ليس هذا موضع بسطه، وهم مع ذلك يدعون أنه قد ظهر عند أهل الكتاب ما لم يظهر عند شيوخ هؤلاء النظار وينهون عن إظهار آيات الله وبراهينه التى هى غاية مطالب مشايخهم وهم لم يعطوها حقها، إما عجزًا وإما تفريطًا.

الوجه الثامن: أن كثيرًا من أهل الكتاب يزعم أن محمدًا ﷺ وأمته إنما أقاموا دينهم بالسيف لا بالهدى والعلم والآيات، فإذا طلبوا العلم والمناظرة فقيل لهم: ليس لكم جواب إلا السيف، كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب، وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام، وأنه ليس دين رسول من عند الله، وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف.

الوجه التاسع: أنه من المعلوم أن السيف -لاسيما سيف المسلمين وأهل الكتاب- هو تابع للعلم والحجة، بل وسيف المشركين هو تابع لآرائهم واعتقادهم، والسيف من جنس العمل، والعمل -أبدًا- تابع للعلم والرأى.

وحينئذ فبيان دين الإسلام بالعلم وبيان أن ما خالفه ضلال وجهل هو تثبيت لأصل دين الإسلام، واجتناب لأصل غيره من الأديان التى يقاتل عليها أهلها، ومتى ظهر صحته وفساد غيره كان الناس أحد رجلين:

إما رجل تبين له الحق فاتبعه، فهذا هو المقصود الأعظم من إرسال الرسل.

وإما رجل لم يتبعه، فهذا قامت عليه الحجة: إما لكونه لم ينظر فى أعلام الإسلام، أو نظر وعلم فاتبع هواه، أو قصر.

وإذا قامت عليه الحجة كان أرضى لله ولرسوله وأنصر لسيف الإسلام وأذل لسيف الكفار، وإذا قدر أن فيهم من يعجز عن فهم الحجة، فهذا إذا لم يكن معذورًا مع عدم قيامها فهو مع قيامها أولى أن لا يعذر، وإن كان معذورًا مع قيامها فهو مع عدمها أعذر، فعلى التقديرين قيام الحجة أنصر وأعذر، وقد قال -تعالى-:

﴿ ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ ... لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ... ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾(٣).

وقال النبى ﷺ: «ما أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين»(٤).

• • •

(١) سورة الإسراء: ١٥.

(٢) سورة النساء: ١٦٥.

(٣) سورة المرسلات: ٥، ٦.

(٤) صحيح: ورد من حديث كلٍ من:-

١- المغيرة بن شعبة: أخرجه البخارى (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).

٢- عبد الله بن مسعود: أخرجه مسلم (٢٧٦٠/ ٣٥)، وأصله عند البخارى (٥٢٢٠) دون موضع الشاهد.

فصل
[بيان عموم الرسالة]

وكان قبلِ قصة نجران قد آمن به كثير من اليهود والنصارى رؤساؤهم وغير رؤسائهم لما تبيّن لهم أنه رسول الله إليهم: كما آمن به النجاشى ملك الحبشة، وكان نصرانيًا هو وقومه، وكان إيمانه به فى أول أمر النبى ﷺ لما كان أصحابه مستضعفين بمكة، وكان الكفار يظلمونهم ويؤذونهم ويعاقبونهم على الإيمان بالله ورسوله، فهاجر منهم طائفة مثل عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وعبد الله بن مسعود، وجعفر بن أبى طالب، وغيرهم من الرجال والنساء إليه وكان ملكًا عادلاً، فأرسل الكفار خلفهم رسلاً بهدايا ليردهم إليهم. فامتنع من عدله أن يسلمهم إليهم حتى يسمع كلامهم، فلما سمع كلامهم وما أخبروه به من أمر النبى ﷺ آمن بالنبى ﷺ وآواهم.

ولما سمع القرآن قال: إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. ولما سألهم عن قولهم فى المسيح عليه السلام قالوا: نشهد أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول التى لم يمسها رجل، فقال النجاشى لجعفر ابن أبى طالب: والله ما زاد عيسى بن مريم على ما قلت هذا العود فنخرت[1] أصحابه، فقال: وإن نخرتم، وإن نخرتم[2]. وبعث ابنه وطائفة من أصحابه إلى النبى ﷺ مع جعفر بن أبى طالب، وقدم جعفر على النبى ﷺ عام خيبر، وقد ذكر قصتهم جماعة من العلماء والحفاظ، كأحمد بن حنبل فى المسند، وابن سعد فى الطبقات، وأبى نعيم فى الحلية وغيرهم، وذكرها أهل التفسير، والحديث، والفقه، وهى متواترة عند العلماء.

قال أحمد: حدثنى يعقوب بن إبراهيم بن سعيد، عن أبيه قال: حدثنا

(١) نخرت: صوّت بخياشيمه. «المعجم الوسيط» (٩٠٨).

(٢) صحيح: أخرجه ابن إسحاق كما فى «سيرة ابن هشام» (١/٣١٩-٣٢٢)، وأحمد (١/٢٠١-٢٠٣)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٣٥٧)، والبيهقى فى «سننه الكبرى» (٩/٩)، وفى «الدلائل» (٢/٣٠١-٣٠٦) من حديث أم سلمة فى قصة الهجرة إلى الحبشة.
وقال الألبانى فى «تحقيق فقه السيرة» (ص١٣٥): سنده صحيح.

محمد بن إسـحاق، حدثنى محمد بن مسلم بن عـبد الله بن شهاب الزهرى، عن أبى بكر بن عبـد الرحمن بن الحارث بن هشام المخـزومى، عن أم سلمة بنت أبى أميـة بن المغيـرة زوج النبى ﷺ ورضى الله عنها- قـالت: لما نزلنا أرض الحبـشة جاورنا بهـا خير جار (النـجاشى) أمنا على ديننا، وعبـدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيـئًا نكرهه، فلما بـلغ ذلك قريشًا ائتـمروا أن يبعـثوا إلى النجاشى فـينا رجلين جلدين[(١)]، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم[(٢)] فجمعوا له أدمًا كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا[(٣)] إلاَّ أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى، وعمرو ابن العاص بـن وائل السهمى، وأمـروهما أمـرهم، وقالوا لهـما: ادفـعا إلى كل بطريق هديتـه قبل أن تكلموا النجـاشى فيـهم ثم قدموا إلى النجـاشى هداياه، ثم اسألوه أن يسلمهم إليكم قـبل أن يكلمهم. قالت: فخرجا فقـدما على النجاشى، ونحن عنده بخـير دار عند خيـر جار، فلم يبقَ من بطارقـته بطريق إلاَّ دفعـا إليه هديته قـبل أن يكلما النجـاشى، ثم قالا لكل بطـريق منهم: أنه قد صبـأ إلى بلد الملك منا غلمان سفـهاء فارقوا دين قومـهم ولم يدخلوا فى دينكم، وجاءوا بدين مبتـدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعـثنا إلى الملك فيهم أشراف قـومهم لنردهم إليهم، فـإذا كلمنا الملك فيهم فـتشيـروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمـهم، فإن قومهم أعلى بـهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فـقالوا لهما: نعم ثم إنهـما قربًا هداياهم إلى النجاشى فقبـلها منهما، ثم كلماه فقالا له: (أيهـا الملك، إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سـفهاء، فـارقوا دين قومهـم ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعـشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلا بهم عـينًا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه).

قالت: ولم يكن شىء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيـعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشى كلامنا.

فقـالت بطارقته حـوله: صدقوا أيهـا الملك قومهم أعلا بـهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليردوهم إلى بلادهم وقومهم.

---

(١) جلد: أى قوى «المعجم الوسيط» (١٢٩).

(٢) الأدم: جمع أديم، وهو الجلد: «المعجم الوسيط» (١٠).

(٣) البطريق: رئيس رؤساء الأساقفة. «المعجم الوسيط» (٦١).

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال لا ها الله ايم الله إذًا لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قومًا جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى، حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان فى أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن فى ذلك ما هو كائن.

فلما جاءوه -زاد أبو نعيم- وقد دعا النجاشي أساقفته ومعهم مصاحفهم حوله، فلما جاءوه -فسألهم فقال: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الأمم؟.

قالت: فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب، فقال:

أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، نخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة، والصيام. قالت: فعدد عليه أمور الإسلام، قال: فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك، قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فأقرأه عليَّ، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم:

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا

﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا
﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾
يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ
لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ
بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ
عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ
بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ
يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَاذْكُرْ
فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ
تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ
وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً
لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا
الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن
تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ
عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي
نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ
جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾
فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ
الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا
دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ
وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ
﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾
وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ
فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾(١).

(١) سورة مريم: ١ - ٤٠.

قالت أم سلمة رضي الله عنها فبكى -والله- النجاشى حتى أخضل[١] لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم، ثم قال النجاشى: إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة[٢] واحدة، ثم قال لعبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص: انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما أبدًا ولا أكاد.

قالت أم سلمة: فلما خرج من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدًا أعيبهم عنده، ثم استأصل به خضراءهم.

قالت: فقال له عبد الله بن أبى ربيعة -وكان أتقى الرجلين فينا- لا تفعل فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد.

قالت: ثم غدا عليه الغد فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه.

قالت: ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ما تقولون فى عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول -والله- فيه ما قاله الله وما جاء به نبينا كائنًا فى ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون فى عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبى طالب: نقول فيه الذى جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشى يده إلى الأرض فأخذ منها عودًا، ثم قال: ما عدى عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى، والسيوم: الآمنون. من سبكم غرم. ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لى دبرًا ذهبًا وإنى آذيت رجلاً منكم -والدبر بلسان الحبشة: الجبل[٣]- ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فىَّ فأطيعهم فيه.

---

(١) أخضل: بلّ.

(٢) المشكاة: كُوّة فى الحائط غير نافذ يوضع فيها المصباح. «المعجم الوسيط» (٤٩٢).

(٣) فى «المسند»: «الجعل».

قالت: فخرجـا من عنده مقبوحين مردود عليهمـا ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

قالت: فوالله إنا على ذلك إذ نزل به. يعنى: من ينازعه فى ملكه.

قالت: فوالله ما علمنا حزنًا قط كـان أشد من حزن حزناه، عند ذلك تخوفنا أن يظهر ذلك على النجاشى فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه.

وروى عبد الله بن عامر بن الزبير، عن أبيه قال: لما نزل بالنجاشى عدوه من أرضه جـاء المهاجـرون فقالوا: إنـا نحن نخرج إليـهم فنقاتل معـك وترى جزاءنا ونجزيك بما صنعت بنا فـقال: ذو ينصره الله خير من الذى ينـصره الناس، يقول: الذى ينصره الله خير من الذى ينصره الناس فأبى ذلك عليهم.

(رجعنا إلى) حديث أم سلمة قالت: وسار النجاشى -وبينهما عرض النيل- قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟

قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا.

قالت: وكـان من أحدث القـوم سنًا، قالت: فنـفخنا له قـربة فجعلـها فى صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلـى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم.

قالت: ودعونا الله للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده.

قالت: فوالله إنا لعلى ذلك متوقعين لما هو كائن إذ طلع الزبير يسعى ويلوح بثوبه ويقول: ألا أبشروا قد ظهر النجاشى وقد أهلك الله عدوه.

فوالله ما علمت فرحنا فرحة مثلها قط.

قالت: فرجع النجاشى، وقد أهلك الله عدوه، ومكن له فى بلاده واستوثق عليه أمر الحبشة، فكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ(١).

---

(١) صحيح دون ما رواه عبد الله بن عـامر عن أبيه، أخرجه ابن إسحاق كـما فى «سيرة ابن هشـام» (١/٣١٩-٣٢٢)، وأحمـد (١/٢٠١-٢٠٣)، وأبو نعيم فى «الحليـة» (٣٥٧)، والبيهقى فى «سننه» (٩/٩)، وفى «الدلائل» (٢/٣٠١-٣٠٦).
وقال الألبانى فى «تحقيق فقه السيرة» (ص١٣٥): سنده صحيح.

وقد روى جمل هذه القصة أبو داود فى سننه من حديث أبى موسى(١).

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى قال: بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه: أنا وأخوان لى أنا أصغرهما فى اثنين وخمسين رجلاً من قومى، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده، قال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا -يعنى بالإقامة- فأقيموا معنا. قال: فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا. قال: فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر فأسهم لنا منها، وما قسم لأحد غائب عن فتح خيبر غيرنا إلاً لمن شهد معنا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم.

قال: فلما رأى ناس من الناس يقولون لنا -يعنى أهل السفينة- سبقناكم لهجرة، قال: ودخلت أسماء بنت عميس -وهى ممن قدم معنا- على حفصة زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر إليه، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء. من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، فقال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، فقال عمر سبقناكم بالهجرة نحن أحق برسول الله ﷺ فغضبت وقالت: يا عمر كلا والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم وكنا فى أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك فى الله -تبارك وتعالى-، وفى رسول الله ﷺ ، وأيم الله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ . وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك.

فلما جاء النبى ﷺ قالت: يا رسول الله إن عمر قال كذا وكذا، قال رسول الله ﷺ : فماذا قلت له؟ قالت: قلت كذا وكذا، قال: «ليس بأحق بى منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٠٥) من طريق أبى إسحاق عن أبى بردة عن أبيه، قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننطلق إلى أرض النجاشى فذكر حديثه- قال النجاشى: أشهد أنه رسول الله ﷺ وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه».

وقال الألبانى فى «ضعيف سنن أبى داود» (٧٠٤): ضعيف الإسناد. قلت: أبو إسحاق هو السبيعى مدلس، وقد عنعنه، وقد اختلط أيضًا.

قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحـاب السفينة يأتوننى أرسالاً(١) يسألونى عن هذا الحـديث ما من الدنـيا شىء هم به أفـرح ولا أعظم فى أنفـسهم مما قـال رسول الله ﷺ.

قال أبو بردة: قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث منى(٢). أخرجاه فى الصحيحين البخارى ومسلم.

وأخرجـا فى الصحـيحـين عن أبى هريرة أن النبى ﷺ نعى لهم النجاشى صاحب الحبشة فى اليوم الذى مات فيه قال: «**استغفروا لأخيكم**»(٣).

وعنه رضي الله عنه قـال: نعى النبى ﷺ النجاشى يـوم توفى وقال: «**استغـفـروا لأخيكم**»، ثم خـرج بالناس إلى المصلى فصـفوا وراءه وصلّى علـيه وكبـر أربع تكبيرات(٤) أخرجاه.

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ صلّى على أصحمة النجاشى فكبر عليه أربعًا(٥). أخرجاه فى الصحيحين.



---

(١) أرسالاً: أى أفواجًا، يجيئون إليها ناسًا بعد ناس. «الفتح» (٧/ ٥٥٦).
(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٤٢٣٠-٤٢٣٢)، ومسلم (٣٥٠٢-٣٥٠٣).
(٣) صحيح: أخرج البخارى (٣٨٨٠)، ومسلم (٩٥١).
(٤) صـحـيح: أخـرجـه البـخـارى (١٣٣٣، ٣٨٨٠، ٣٨٨١)، ومـسلم (٩٥١) وأبو داود (٣٢٠٤)، والترمـذى (١٠٢٤)، والنسائى (٤/ ٧٠)، وابن ماجه (١٥٣٤)، والشـافعى فى «الأم» (٥٦٩/ ٢٥٣٨-بترقيمى).
(٥) صحـيح: أخـرجه البـخارى (١٣٣٤)، ومـسلم (٩٥٢)، والنسـائى (٤/ ٦٩)، وأحمـد (٣/ ٢٩٥، ٣١٩).

فصل

وكان أول ما أنزل الله -تعالى- عليه ﷺ الوحى، عرضت خديجة امرأته أمره على عالم كبير من علماء النصارى يقال له ورقة بن نوفل، وكان من العرب المتنصرة، فقال: «هذا هو الناموس[١] الذى كان يأتى موسى بن عمران يا ليتنى أكون فيها جذعًا[٢] حين يخرجك قومك -يعنى ليتنى أكون شابًّا- فإنه كان شيخًا كبيرًا قد كف بصره، فقال له النبى ﷺ: «**أو مخرجى هم؟**» قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودى. وأن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا»[٣].

رواه أصحاب الصحيح.

وقدم إليه بمكة طائفة من أهل الكتاب من النصارى فآمنوا به، فآذاهم المشركون فصبروا واحتملوا أذاهم، فأنزل الله فيهم:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[٤].

وروى البيهقى فى كتاب دلائل النبوة وأعلام الرسالة فقال: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو العباس محمد بن يعقوب، أنبأنا أحمد بن عبد الجبار، أنبأنا يونس عن ابن إسحاق قال: ثم قدم على رسول الله ﷺ -عشرون رجلاً- وهو بمكة أو قريب من ذلك -من النصارى حين ظهر خبره فى الحبشة فوجدوه فى المجلس فكلموه وسألوه ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلتهم رسول الله ﷺ إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف

---

(١) الناموس: صاحب السر.
(٢) جذعًا: أى شابًا.
(٣) **صحيح**. أخرجه البخارى (٣)، ومسلم (١٦٠)، والواحدى فى «أسباب النزول» (٥).
(٤) سورة القصص: (٥٢-٥٥).

لهم فى كتـابهم من أمره، فلمـا قاموا من عنده اعـترضهم أبو جـهل فى نفر من قريش، فـقالوا: خيبكم الله من ركب بعـثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فـتأتونـهم بخبـر الرجل فلم تطمـئن مـجالسـكم عنده حتى فـارقـتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم. ما نعلم ركبًا أحمق منكم أو كما قال لهم، فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم لنـا أعمالنا ولكم أعمـالكم، لا نألوا لأنفسنا إلا خيـراً، ويقال -والله أعلم- أن فيهم نزلت هؤلاء الآيات:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

إلى قوله: ﴿لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾(١).

ولَمَّا كـان بعد عـام الحديبـية ومـهادنة قـريش أرسل ﷺ رسله إلى جـميع الطوائف، فأرسل إلـى النصارى: نصارى الشـام ومصر، فـأرسل إلى هرقل ملك الروم، وقد قيل: إن هرقل هذا هو الذى زادت النصارى له فى صومهم عشرة أيام لما اقتتلت الروم والفـرس وقتل اليهود بعد أن كان قـد أمنهم فطلبت منه النصارى قتلهم وضمنوا له أن يكفـروا خطيئته بما زادوه فى الصوم، وكانت الفـرس مجوسًا والروم نصارى، وكانت المجوس الفرس غلبت النصارى أولاً، وكان هذا فى أوائل مبعث النبى ﷺ وهو بمكة وأتباعه قليل، ففرح المشـركون بانتصار الفرس، لأنهم أقـرب إليهم من أهل الكتـاب واستـاء المسلمـون لذلك، لأن أهل الكتاب أقـرب إليهم، فدخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وأخبره بانتـصار الفرس على الروم، فأنزل الله -تعالى-:

﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾(٢).

وكان هذا مما أخبر به النبى ﷺ قبل أن يكون، فكان كما أخبر، ولـما ذكـر أبو بكر الصديق رضي الله عنه كذبوه فراهنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه كما ذكر هذا المفسرون والمحدثون.

---

(١) سورة القصص: (٥٢-٥٥).
والخبر معضل.
(٢) سورة الروم: ١-٥.

قال سنيد في تفسيره -وهو شيخ البخاري- حدثنا حجاج، عن ابن أبى الزناد، عن أبيه، عن عروة بن الزبير، عن نيار بن مكرم الأسلمى أنه قال: لما أنزل الله على رسول الله ﷺ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾.

إلى قوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1].

خرج أبو بكر وهو يقرؤها رافعًا بها صوته:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[2].

فقال له رؤوس أهل مكة: ما هذا يا ابن أبى قحافة لعله مما يأتى به صاحبك؟ قال: لا والله، ولكنه كلام الله وقوله -تبارك وتعالى-، قالوا: فذلك بيننا وبينك إن ظهرت الروم على فارس فى بضع سنين، فراهنهم أبو بكر ففتح الله للروم على فارس دون التسع، فأسلم عند ذلك خلق كثير من المشركين.

قال ابن مكرم: وإنما كانت قريش تستفتح -يومئذ- بالفرس، لأنهم وإياهم أهل تكذيب بالبعث، وأهل أصنام، وإنما كان المؤمنون يستفتحون يومئذ بالروم، لأنهم وإياهم أهل نبوة وتصديق بالبعث، فأنزل الله -تعالى-:

﴿... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ...﴾[3].

وهذا الحديث رواه الترمذى فى جامعه فقال: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن أبى أويس قال: حدثنى ابن أبى الزناد عن أبى الزناد عن عروة ابن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمى قال: لما نزلت:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ...﴾[4].

فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم، لأنهم وإياهم أهل كتاب.

---

(١) سورة الروم: ١-٥.
(٢) سورة الروم: ١-٤.
(٣) سورة الروم: ٤، ٥.
(٤) سورة الروم: ١-٤.

وذلك قوله تعالى:

﴿ ... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١).

وكانت قريش تحب ظهور فارس، لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق ﷺ يصيح فى نواحى مكة:

﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ...﴾(٢).

قال ناس من قريش لأبى بكر: فذلك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارسًا فى بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك(٣)؟ فارتهن أبو بكر والمشركون فظهرت الروم على فارس فى بضع سنين، وأسلم عند ذلك ناس كثير من المشركين(٤).

قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبى الزناد -يعنى غريبًا من هذا الوجه- وإلا فهو مشهور متواتر عن أهل التفسير، والمغازى، والحديث، والفقه، والقصة متواترة عند الناس.

وقال أبو جعفر بن جرير فى تفسيره: عن سفيان، عن حبيب بن أبى عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: كان المسلمون يحبون أن تغلب الروم على فارس، لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تغلب أهل فارس، لأنهم أهل أوثان. قال: فذكروا ذلك لأبى بكر فذكره أبو بكر للنبى ﷺ، فأنزل الله:

﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة الروم: ٤، ٥.
(٢) سورة الروم: ١-٤.
(٣) زاد فى «السنة»: «وذلك قبل تحريم الرهان».
(٤) **صحيح**: أخرجه الترمذى (٣٢٠٥) وصححه الألبانى فى «صحيح سنن الترمذى».
(٥) سورة الروم: ١-٤.

فذكره أبو بكر للمشركين، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن غلبوا كان لك كذا وكذا، وإن غلبوا كان لنا كذا وكذا، فجعلوا بينهم أجلاً خمس سنين، فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال له: **«هلا احتطت، أفلا جعلته دون العشر؟»** قال سعيد بن جبير. والبضع ما دون العشر قال: فَغُلِبت الروم ثم غَلَبَت فذلك قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ...﴾ الآية[1].

وهذا أيضًا أخرجه الترمذى: حدثنا الحسين بن حريث، حدثنا معاوية بن عمرو عن أبى إسحاق الفزارى، عن سفيان، عن حبيب بن أبى عمرة، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان الثورى، عن حبيب بن أبى عمرة.

ورواه أيضًا من حديث الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

ورواه أيضًا من حديث الأعمش، عن عطية، عن أبى سعيد[2]، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وذهبت طائفة من العلماء إلى أن الخبر جاء بظهور الروم على فارس يوم بدر[3]، وذهب آخرون أنه يوم الحديبية -وهذا هو الصحيح- وهرقل كان قد مشى -شكرًا لله- من حمص إلى بيت المقدس لما نصره على الفرس، فوافاه كتاب النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام عقب نصر الله للروم على فارس، ففرح النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين.

قال علماء السير: فلما انتصرت الروم، وخرج هرقل ملك الروم من منزله من حمص ماشيًا على قدميه إلى بيت المقدس متشكرًا لله -عز وجل- حين رد

---

(١) أخرجه الترمذى (٣٢٠٤) بأطول من ذلك.
وقال: حسن صحيح غريب. وصححه الألبانى فى «صحيح سنن الترمذى».

(٢) أخرجه الترمذى (٣٢٠٣)، والواحدى فى «أسباب النزول» (٣٢٧) ولفظه: عن أبى سعيد قال: «لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت **﴿ألم غلبت الروم﴾** إلى قوله **﴿يفرح المؤمنون بنصر الله﴾** قال: ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس».
وصححه الألبانى فى «صحيح سنن الترمذى».

(٣) تقدم من حديث أبى سعيد الخدرى.

عليه ما رد ليصلى فـيه، فلما انتهى إلى بيت المقدس وصلّى فيه، قـدم عليه حينئذٍ كتاب رسول الله ﷺ مع دحية الكلبى يدعوه إلى الإسلام.

قال ابن إسـحاق: حدثنى الزهرى عن عـبيد الله بن عـبد الله بن عتـبة بن مسعود، عن عبد الله بن عباس قال: حدثنى أبو سفيان قال: كنا قومًا تجارًا وكانت الحرب بيننـا وبين رسول الله ﷺ قد حـصرتنا حـتى هلكت أموالنا، فلمـا كانت الهدنة بينـنا وبين رسول الله ﷺ يعنى التى عـقدت يوم الحـديبيـة- فلما عـقدت الهدنة أَمِنّـا، فخرجت فى نفـر من قريش تاجـرًا إلى الشام، وكان وجـه متـجرنا فقدمتها حين ظهر هرقل على من كان عارضه من فارس، فأخرجهم منها، وانتزع له صليبه الأعظم وقد كانوا سلبوه إياه، فلمـا بلغه ذلك منهم، وبلغه أن صليبه قد استنقذ له، وكانت حمص منزله، فخرج منهـا على قدميه -متشكرًا لله عز وجل- حين رد عليه ما رد ليصلى فى بيت المقـدس وبسط له الطريق بالبسط ويلقى عليها الرياحين، فلما انتهى إلى إيلياء وقضى فيها صـلاته ومعه بطارقته وأساقفته الروم، قال[(١)]: وقدم عليه كـتاب رسول الله ﷺ مع دحية بن خليفـة الكلبى فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محـمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهـدى، أما بعـد: فأسلم تـسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مـرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» -يعنى الأكارين-[(١)].

قال ابن إسحـاق، وقـال ابـن شـهاب: حدثـنى أسقـف النصارى فى زمان عبد الملك بن مـروان زعم لى أنه أدرك ذلك من أمر رسول الله ﷺ، وأمر هرقل وعقله، قـال: لما قدم عليـه كتـاب رسول الله ﷺ مع دحيـة أخذه فجـعله على خاصرته، ثم كـتب إلى رجل برومية كان يقـرأ من العبرانية ما يقـرأ يذكر له أمره ويصف له شأنه، ويخـبره ما جاء منه، قـال: فكتب إليه صاحب رومـية أنه النبى الذى ننتظره لا شك فيه فاتبـعه وصدقه، فأمر هرقل ببطارقة الروم فـجمعوا له فى دسكرة[(٢)] ملكه، وأمر بها فأشرجت[(٣)] عليهم أبوابها، ثم اطلـع عليهم من علِّية وخافهم على نفـسه، وقال: يا معشـر الروم إنى قد جمعتكم لخـير، إنه قد أتانى

(١) هذا من رواية الزهرى عن أسقف من النصارى كما فى «البداية» (٢/ ٧١٢، ٧١٣).
(٢) الدسكرة: بناء كـالقصـر حوله بيـوت للأعاجـم فيـها الشـراب والملاهى يكون للملوك. «المعجم الوسيط» (٢٨٣).
(٣) اشرجت: أى أغلقت.

كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه، وإنه -والله- للرجل الذى كنا ننتظره ونجده فى كتبنا، فهلمَّ فلنتبعه لنصدقه، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا، فنخروا نخرة رجل واحد، ثم ابتدروا أبواب الدسكرة ليخرجوا منها، فوجدوها قد أغلقت دونهم فقال: كروهم على وخافهم على نفسه فكروا عليه، وقال: يا معشر الروم، إنما قلت لكم هذه المقالة التى قلت لكم، لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذى حدث، فقد رأيت منكم الذى أسر به فوقعوا سجودًا وأمر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم فانطلقوا(١).

وهذا حديث مشهور من حديث محمد بن إسحاق -وهو ذو علم وبصيرة بهذا الشأن، حفظ ما لا يحفظه غيره قال ابن إسحاق: «وأخذ هرقل كتاب رسول الله ﷺ فجعله فى قصبة من ذهب وأمسكها عنده تعظيمًا له»، وهذه القصة مشهورة ذكرها أصحاب الصحاح.

ففى البخارى ومسلم والسياق للبخارى «عن الزهرى قال: أخبرنى عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش، وكانوا تجارًا بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ هادن فيها أبا سفيان بن حرب وكفار قريش فأتوه وهو بإيليا فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم بالترجمان، فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا، فقال: أدنوه وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: إنى سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبنى فكذبوه. قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علىَّ الكذب لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. فقال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد منهم أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟؟ قلت: لا. ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها. قال: ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم،

(١) أخرجه البيهقى فى «الدلائل» (٤/ ٣٨١-٣٨٣) من طريق ابن إسحاق.

قال: فكيف كـان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبيـنه سجال[١]، ينال منا وننال منه. قال: بمـاذا يأمركم؟ قلت: يقـول: اعبدوا الله وحـده ولا تشركـوا به شيـئًا واتركوا مـا يقول آباؤكم، ويأمـرنا بالصلاة، والصدق والعـفاف، والصلة. فـقال للترجمـان: قل له سألتك عن نسبه، فذكـرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها، وسألتك: هل قـال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا. فقلت: لو كان أحـد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسىّ بقـول قيل قبله، وسألتك هل كـان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا. فـقلت: لو كان فى آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقـول ما قال؟ فذكرت أن لا فقد أعـرف أنه لم يكن ليذر الكذب علـى الناس ويكذب على الله، وسألتك أشـراف الناس اتبـعوه أم ضعـفاؤهم؟ فـذكرت أن ضـعفاؤهم اتـبعوه وهم أتبـاع الرسل، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يـدخل فيه؟ فذكرت أن لا. وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشته القلـوب لا يسخطه أحد، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا. وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، فإن كان ما تقول حقًا، فسيملك موضع قدمى هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولـم أكن أظن أنه منكم، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليـه لتجـشمت[٢] لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعى بكتـاب رسول الله ﷺ الذى بعث به مع دحيـة الكلبى إلى عظيم بصرى فدفعـه عظيم بصرى إلى هرقل فقرأه فإذا فيـه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبـد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين[٣]، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء

---

(١) سجال: أى نوب. والسجل الدلو، فكأنه شبه المحاربين بالمستقيين، يستقى هذا دلوًا وهذا دلوًا. «الفتح» (١/ ٤٧).

(٢) تجشمت: أى تكلفت الوصول إليه. «الفتح» (١/ ٤٩).

(٣) الأريسيون: جمع أريسى، وهو منسوب إلى أريس بوزن فـعيل، قال ابن سيده: الأريس: الأكار. أى الفلاح عند ثعلب. وعند كراع: الأريس هو الأمير. «الفتح» (١/ ٥١).

بيننا وبينكم أن لا نعبد إلاَّ الله ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون».

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ(١) ابن أبي كبشة(٢) إنه ليخافه ملك بني الأصفر(٣) فما زلت موقنًا أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام.

وكان ابن الناطور(٤) صاحب إيليا أسقفًا على نصارى أهل الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يومًا خبيث النفس، فقال له بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء(٥) ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم، أن ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتن إلاَّ اليهود فلا يهمنَّك شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود، فبيناهم على أمرهم، أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هوَ أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب قال: هم مختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان هرقل نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع عليهم فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبي، فحاصوا(٦) حيصة حمر الوحش(٧) إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما

---

(١) أمر: أي عظم. «الفتح» (١/ ٥٣).

(٢) أبو كبشة هو أحد أجداد النبي ﷺ. «الفتح» (١/ ٥٣).

(٣) بنو الأصفر: هم الروم: . «الفتح» (١/ ٥٣).

(٤) الناطور: بالعربية حارس البستان.

قال الحافظ ابن حجر: ووقع في رواية الليث عن يونس: «ابن ناطورًا بزيادة ألف في آخره، فعلى هذا هو اسم أعجمي. «الفتح» (١/ ٥٣).

(٥) حزاء: أي كاهنًا. «الفتح» (١/ ٥٤).

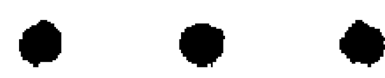
(٦) حاصوا: نفروا. «الفتح» (١/ ٥٧).

(٧) قال الحافظ ابن حجر: شبههم بالوحوش لأن نفرتها أشد من نفرة البهائم الإنسية،=

رأى هرقل نفـرتهم ويئس من الإيمان مـنهم قال: ردوهم على، وقـال: إنى قلت مقالتى آنفًـا أختبر بها شـدتكم على دينكم فقد رأيت، فسجـدوا له ورضوا عليه، فكان هذا آخر شأن هرقل(١).

قلت: وكان هرقل من أجل ملوك النصارى فى ذلك الوقت، وقد أخبر غير واحـد أن هذا الكتـاب إلى الآن باقٍ عند ذرية هرقل فى أرفع صـوان وأعـز مكان يتوارثونه كابرًا عن كابر، وأخبر غيرُ واحد أن هذا الكتاب باقٍ إلى الآن عند الفنش صاحب قشتالة، وبلاد الأندلس يفتخرون به وهذا أمر مشهورٌ معروف.

وقد روى سنيد -وهو شـيخ البخارى- فى تفسيره قال: حـدثنا هشام قال: أخبـرنا حصين عن عبـد الله بن شداد بن الهاد قال: لما كـتب رسول الله ﷺ إلى هرقل فقـرأ كتابـه وجمع الروم فأبوا عليـه قال: فلما كـان يوم الأحد لم يحـضر أسقـفهم الكبيـر وتمارض، فأرسل إليه فـأبى، ثم أرسل إليه، فـأبى ثلاث مرات فركب إليه فقـال له: أليس قد عرفت أنه رسول الله ﷺ؟ قال: بلى، قال: أليس قد رأيت ما ركبـوا منى فأنت أطوع فيهم منى فتعـال فادعهم. قال: وتأذن لى فى ذلك؟ قال: نعـم. قال: اذهب هو ذا أجىء، قال: فـجاء بسـواده إلى كنيسـتهم العظمى، فلما رأوه خـروا له سجدًا الملك وغـيره، فقام فى المذبح فـقال: يا أبناء الموتى، هذا النبى الذى بشـر به عيسى، وأنا أشـهد أن لا إله إلا الله وأن محـمدًا رسول الله، فنخروا(٢) ووثبوا إليـه فعضوه بأفـواههم حتى قتلوه، قـال: وجعلوا يخرجون أضلاعه بالكلبتين حتى مات(٣).



= وشبـههم بالحـمر دون غـيرها من الوحـوش لمناسبـة الجهل وعـدم الفطنة بل هم أضل. «الفتح» (١/ ٥٧).

(١) صحيح: أخرجه البـخارى (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، والبيـهقى فى «الدلائل» (٤/ ٣٨١-٣٨٣)، وبعضه عند الترمذى (٢٧٢٦).

(٢) نخر: صوت بخياشيمه.

(٣) إسناده ضعـيف. عبد الله بن شداد قـال الحافظ ابن حجر فى «التـقريب» (٣٣٨٢): ولد على عهد النبى ﷺ، وذكره العجلى من كبار التابعين الثقات أهـ. وسنيد قال الحافظ فى «التقريـب» (٢٦٤٦): ضُعف مع إمامته ومـعرفته، لكونـه كان يُلقّن حجاج بن مـحمد شيخه.

فصل

[إرسال الرسل إلى النصارى]

وأرسل النبى ﷺ رسولاً أيضًا إلى ملك مصر المقوقس -ملك النصارى فى ذلك الوقت بالإسكندرية- وكان رسوله إليه حاطب بن أبى بلتعة رضي الله عنه قال حاطب: قدمت على المقوقس -واسمه جريح بن مينا- بكتاب رسول الله ﷺ فقلت له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك. قال: هات، قلت: إن لك دينًا لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافى بعد ما سواه، إن هذا النبى دعا الناس إلى الله، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلاَّ كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلاَّ كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل من أدرك نبيًّا فهو من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدركت هذا النبى ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به، ثم ناوله كتاب رسول الله ﷺ فلما قرأه قال: خيرًا قد نظرت فى هذا فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة، ثم جعل الكتاب فى حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى خازنه، وكتب جوابه إلى رسول الله ﷺ: فقد علمت أن نبيًّا قد بقى وقد أكرمت رسولك، وأهدى للنبى ﷺ جاريتين وبغلة تسمى الدلدل. فقبل النبى ﷺ هديته، واصطفى الجارية الواحدة -واسمها مارية القبطية- لنفسه فولدت منه إبراهيم، وأعطى الأخرى لحسان بن ثابت، فولدت منه عبد الرحمن(١)، وعاشت البغلة إلى زمن معاوية فقال النبى ﷺ: **«ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه»**(٢).

قال محمد بن سعد: حدثنا محمد بن عمر قال: حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه، قال: لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية فى ذى القعدة سنة ست

---

(١) أخرجه بنحوه ابن إسحاق كما فى «البداية» (٢/ ٧٢٢-٧٢٣) فقال حدثنى الزهرى، عن عبد الرحمن بن عبد القارىء فى الأصل القادر والظاهر أنه تصحيف.

(٢) أخرجه ابن سعد فى «الطبقات» (١/ ١٢٦) من طرق مدارها على الواقدى وهو متروك.

من الهجرة، بعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس القبطى صاحب الإسكندرية، وكتب إليه معه كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام، فلما قرأ الكتاب قال له. خيراً وأخذ الكتاب -وكان مختومًا- فجعله فى حق من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى خازنه وكتب إلى النبى ﷺ جواب كتابه ولم يسلم، وأهدى إلى النبى ﷺ ما تقدم ذكره[1].

فكل من الملكين عظم أمر رسول الله ﷺ وتواضع له ولكتابه، واعترف بأنه الرسول المنتظر الذى بشرت به الأنبياء -عليهم السلام-.

وقد كان المقوقس يعرف أنه حق بما يسمع من صفاته من أهل الكتاب، ولكن ضن بملكه ولم يؤمن، وكان قد خرج إليه المغيرة قبل إسلام المغيرة فحدثه بذلك.

قال محمد بن عمر الواقدى: حدثنى محمد بن سعد الثقفى، وعبد الرحمن ابن عبد العزيز، وعبد الملك بن عيسى، وعبد الله بن عبد الرحمن، ومحمد بن يعقوب بن عتبة، عن أبيه وغيرهم، كل قد حدثنى من هذا الحديث بطائفة منه قال: قال المغيرة بن شعبة فى خروجه إلى المقوقس مع بنى مالك وأنهم لما دخلوا على المقوقس قال: كيف خلصتم إلىَّ من طائفتكم ومحمد وأصحابه بينى وبينكم؟ قالوا: لصقنا بالبحر وقد خفناه على ذلك. قال: فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه؟ قالوا: ما تبعه منا رجل واحد.

قال: ولم ذاك؟ قالوا: جاءنا بدين مجدد لا تدين به الآباء، ولا يدين به الملك، ونحن على ما كان عليه آباؤنا. قال: فكيف صنع قومه؟ قالوا: تبعه أحداثهم وقد لاقاه من خلفه من قومه وغيرهم من العرب فى مواطن، مرة تكون عليهم الدائرة ومرة تكون له. قال: ألا تخبرونى إلى ماذا يدعو إليه؟ قالوا: يدعونا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونخلع ما كان يعبد الآباء، ويدعو إلى الصلاة والزكاة.

قال: وما الصلاة والزكاة؟ ألها وقت يعرف وعدد تنتهى إليه؟ قالوا: يصلون فى اليوم والليلة خمس صلوات كلها لمواقيت وعدد قد سموه له، ويؤدون من كل

---

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه ابن سعد فى «الطبقات» (١/ ١٢٥، ١٢٦)، ومحمد بن عمر هو الواقدى، قال الحافظ ابن حجر فى «التقريب» (٦١٧٥): متروك مع سعة علمه.

مال بلغ عشرين مثقالاً نصف مثقال، وأخبروه بصدقة الأموال كلها. قال: أفرأيتم إذا أخذها أين يضعها؟ قالوا: يردها على فقرائهم، ويأمر بصلة الرحم، ووفاء العهد، وتحريم الزنا والخمر، ولا يأكل مما ذبح لغير الله فقال المقوقس: هذا نبى مرسل إلى الناس، ولو أصاب القبط والروم اتبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسى بن مريم، وهذا الذى تصفون منه بعث به الأنبياء من قبله، وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد، ويظهر دينه(١) إلى منتهى الخف والحافر ومنقطع البحور، ويوشك قومه أن يدافعوه بالراح(٢). قالوا: فلو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا، قال المغيرة: فأنغض المقوقس رأسه وقال: أنتم فى اللعب، ثم قال: كيف نسبه فى قومه؟ قلنا: هو أوسطهم نسبًا. قال كذلك والمسيح، الأنبياء تبعث فى نسب قومها، ثم قال: فكيف حديثه؟ قلنا: ما يسمى إلاَّ الأمين من صدقه، قال: انظروا فى أمركم أترونه يصدق فيما بينكم وبينه ويكذب على الله. قال: فمن تبعه؟ قلنا: الأحداث. قال: هم والمسيح أتباع الأنبياء قبله. قال: فما فعلت يهود يثرب فهم أهل التوراة؟ قلنا: خالفوه فأوقع بهم فقتلهم وسباهم وتفرقوا فى كل وجه. قال: هم قوم حسدة حسدوه، أما إنهم يعرفون من أمره مثل ما نعرف؟ قال المغيرة: فقمنا من عنده وقد سمعنا كلامًا ذللنا لمحمد ﷺ وخضعنا له، وقلنا: ملوك العجم يصدقونه ويخافونه فى بعد أرحامهم منه، ونحن أقرباؤه وجيرانه ولم ندخل معه، وقد جاءنا داعيًا إلى منازلنا. قال المغيرة: فرجعت إلى منزلنا فأقمت بالإسكندرية لا أدع كنيسة إلا دخلتها وسألت أساقفتها من قبطها ورومها عما يجدون من صفة محمد ﷺ، وكان أسقف من القبط هو رأس كنيسة يوحنا، كانوا يأتونه بمرضاهم فيدعو لهم لم أر قط أشد اجتهاداً منه فأتيته فقلت: هل بقى أحد من الأنبياء؟ قال: نعم، هو آخر الأنبياء ليس بينه وبين عيسى بن مريم أحد، وهو نبى مرسل وقد أمرنا عيسى باتباعه، وهو النبى الأمى العربى اسمه أحمد، ليس بالطويل ولا بالقصير، فى عينيه حمرة، وليس بالأبيض ولا بالآدم(٣)، يعفى شعره، ويلبس ما غلظ من الثياب، ويجتزى بما لقى من الطعام، سيفه على عاتقه، ولا يبالى من لاقى، يباشر القتال بنفسه، ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم، هم له أشد حبًا من أولادهم وآبائهم، يخرج من أرض حرم ويأتى إلى حرم،

---

(١) كذا بالمطبوعة، ولعلها مصحفة من «دينه».
(٢) الراح: جمع راحة، وهو الكف. «المعجم الوسيط» (٣٨٠).
(٣) الآدم: الأسمر.

يهاجر إلى أرض سباخ ونخل، يدين بدين إبراهيم عليه السلام. قال المغيرة: فقلت له: زدني فى صفته. قال: يأتزر على وسطه، ويغسل أطرافه، ويخصّ بما لا تخصّ به الأنبياء قبله، كان النبى يبعث إلى قـومه، ويبعث هو إلى الناس كافة، وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، أينما أدركتـه الصلاة تيمم وصلى، ومن كان قبله مشدداً عليهم لا يصلون إلاَّ فى الكنائس والبيع. قال المغيـرة بن شعبة: فوعيت ذلك كله من قوله وقول غيره، وما سمعت من ذلك[١].

فذكر الواقدى حـديثًا طويلاً فى رجوعه وإسلامه، وما أخـبر به من صفات النبى ﷺ، وكان ذلك يعـجب النبى ﷺ، ويحب أن يسـمعـه أصـحابه. قـال المغـيـرة: فكنت أحـدثهم بذلك، وهذا أمـر مـعـروف عند علمـاء أهل الكتـاب وعظمائهم.

وقد أخرج أبو حاتم فى صحيحه عن عمرو بن العاص أنه قال: خرج جيش من المسلمـين -أنا أميـرهم- حتى نزلنا الإسكندرية، فـقال عظيم من عظمـائهم: أخرجوا إلىّ رجلاً يكلمنى وأكلمه. فقلت: لا يخـرج إليه غيرى. قال، فخرجت إليه ومعى ترجمـانى ومعه ترجمانه. فقال: مـا أنتم؟ فقلت: نحن العرب، ونحن أهل الشـوك، ونحن أهل بيت الله الحـرام، كنا أضـيق الناس أرضًـا، وأجهـدهم عيـشًا، نأكل الميتـة والدم، ويغير بعـضنا على بعض، حتى خـرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئذ، ولا بأكثرنا مالاً، فقال: أنا رسول الله إليكم، فأمرنا بما لا نعرف، ونهانا عما كنا عليه، وكان عليه آباؤنـا، فكذبناه، ورددنا عليه مقالته، حتى خرج إليه قـوم غيرنا، فـقاتلنا وظهر علينا: وغلبنـا وتناول من يليه من العرب فـقاتلهم حتى ظهر عليهم ولو يعلم من ورائى من العرب ما أنتم فيه من العيش لم يبق أحد إلاَّ جاءكم حتى يشرككم فيما أنتم فيه من العيش فضحك ثم قال: إن رسولكم قد صدق، قد جـاءتنا رسلنا بمثل الذى جاء به رسولكم، فإن أنتم أخـذتم بأمر نبيكم لم يقاتلكم أحد إلا غلبتموه، ولن يشارككم أحد إلاَّ ظهرتم عليه، وإن فعلتم مثل الذى فعلنا وتركتم أمر نبيكم، لم تكونوا أكثر عدداً منا ولا أشد منا قوة.



(١) إسناده ضعيف جدًّا: الواقدى متروك كما تقدم.

فصل

ثم بعد الإرسال إلى الملوك، أخذ ﷺ فى غزو النصارى، فأرسل أولاً زيد ابن حارثة، وجعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة فى جيش، فقاتلوا النصارى بمؤتة من أرض الكرك، وقال لأصحابه: «**أميركم زيد، فإن قتل، فجعفر، فإن قتل فعبد الله بن رواحه**»(١)، فقتل الثلاثة، وأخبر النبى ﷺ بقتل الثلاثة فى اليوم الذى قتلوا فيه، وأخبر أنه أخذ الراية خالد بن الوليد، ففتح الله على يديه(٢)، ثم أنه بعد هذا غزا النصارى بنفسه وأمر جميع المسلمين أن يخرجوا معه فى الغزاة، ولم يأذن فى التخلف عنه لأحد، وغزا -فى عشرات ألوف غزوة تبوك فقدم تبوك، وأقام بها عشرين ليلة ليغزو النصارى: عربهم ورومهم، وغيرهم، وأقام ينتظرهم ليقاتلهم فسمعوا به وأحجموا عن قتاله، ولم يقدموا عليه.

وأنزل الله -تعالى- فى ذلك أكثر سورة براءة، وذم -تعالى- الذين تخلفوا عن جهاد النصارى ذمًا عظيمًا.

والذين لم يروا جهادهم طاعة جعلهم منافقين كافرين، لا يغفر الله لهم إذا لم يتوبوا، وقال لنبيه ﷺ:

﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ...** ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿ **وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ...** ﴾(٤).

الآية.

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٤٢٦٠-٤٢٦١) من حديث ابن عمر.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٤٢٦٢) من حديث أنس، وأخرجه أبو داود (٤١٩٢)، وأحمد (١/ ٢٠٤، ٢٠٥)، من حديث عبد الله بن جعفر وأخرجه أحمد (٥/ ٢٩٩، ٣٠٠) من حديث أبى قتادة.

(٣) سورة المنافقون: ٦.

(٤) سورة التوبة: ٨٤.

فإذا كان هذا حكم الله ورسوله فيمن تخلف عن جهادهم إذ لم يره طاعة، ولا رآه واجبًا، فكيف حكمه فيهم أنفسهم؟ حتى قال -تعالى-:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ...﴾(١).

ثم عند موته ﷺ أمرنا بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب.

ففي صحيح مسلم: أن عمر بن الخطاب قال سمعت النبي ﷺ يقول: **«لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلمًا»**(٢).

وروى الإمام أحمد، وأبو عبيد عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ قال: **«أخرجوا يهود أهل الحجاز، ونصارى أهل نجران من جزيرة العرب»**(٣).

وقام خلفاؤه رضي الله عنهم بعده بدينه ﷺ فأرسل أبو بكر الصديق الجيوش لغزو النصارى بالشام، وجرت بين المسلمين وبينهم عدة غزوات، ومات أبو بكر وهم محاصرو دمشق. ثم ولي عمر بن الخطاب ففتح عامة الشام ومصر والعراق وبعض خراسان في خلافته، وقدم إلى الشام في خلافته، وسلم إليه النصارى بيت المقدس لما رأوه من صفته عندهم.

قال أبو عبد الله محمد بن عائذ في كتاب الفتوح قال: قال عطاء الخراساني: لما نزل المسلمون بيت المقدس، قال لهم رؤساؤهم: إنا قد أجمعنا لمصالحتكم وقد عرفتم منزل بيت المقدس.

وأنه المسجد الذي أسرى بنبيكم إليه ونحن نحب أن يفتحها ملككم -وكان- الخليفة عمر بن الخطاب- فبعث المسلمون وفدًا، وبعث الروم أيضًا وفدًا مع

---

(١) سورة التوبة: ٢٤.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٦٧)، وأبو داود (٣٠٣٠)، والترمذي (١٦١٢)، وأحمد (١/ ٣٢)، و(٣/ ٣٤٥).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ١٩٥)، وتمامه «واعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».
وقال الألباني في «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» (ص١٦): سنده صحيح.

المسلمين حتى أتوا المدينة، فجعلوا يسألون عن أمير المؤمنين، فقال الروم لترجمانهم: عمن يسألون؟ قالوا: عن أمير المؤمنين، فاشتد عجبهم وقالوا: هذا الذى غلب فارس والروم، وأخذ كنوز كسرى وقيصر، وليس له مكان يعرف به. بهذا غلب الأمم، فوجدوه قد ألقى نفسه حين أصابه الحر نائمًا، فازدادوا تعجبًا، فلما قرأ كتاب أبى عبيدة أقبل حتى نزل بيت المقدس وفيها اثنا عشر ألفًا من الروم وخمسون ألفًا من أهل الأرض فصالحهم، وكان من جملة المصالحة أن لا يدخل عليهم من اليهود أحد، ثم دخل المسجد فوجد زبالة عظيمة على الصخرة، فأمر بكنس الزبالة، وتنظيف المسجد وأمر ببنائه وجعل مصلاه فى مقدمه، ثم رجع إلى المدينة، وقصته مشهورة فى كتاب الفتوحات، ثم قدم مرة ثانية إلى أرض الشام لما تم فتحه فشارط بوضع الخراج، وفرض الأموال، وشارط أهل الذمة على شروط المسلمين فأتم بها المسلمون بعده.

وقد ذكرها أهل السير وغيرهم، فروى سفيان الثورى عن مسروق عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبت لعمر بن الخطاب ﷺ حين صالح نصارى الشام وشرط عليهم فيه أن لا يحدثوا فى مدينتهم ولا ما حولها ديرًا، ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا يجددوا ما خرب، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم، ولا يؤوا جاسوسًا، ولا يكتموا غشًا للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يظهروا شركًا، ولا يمنعوا ذوى قرابتهم من الإسلام أن أرادوه، وأن يوقروا المسلمين، وأن يقوموا لهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبهوا بالمسلمين بشىء من لباسهم فى قلنسوة ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا يتسموا بأسماء المسلمين، ولا يكتنوا بكناهم، ولا يركبوا سرجًا، ولا يتقلدوا سيفًا، ولا يتخذوا شيئًا من سلاح، ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية، ولا يبيعوا الخمور، وأن يجذوا مقادم رؤوسهم، وأن يلزموا زيهم حيث ما كانوا، وأن يشدوا الزنانير[1] ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضربًا خفيفًا.

ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة فى كنائسهم فى شىء من حضرة المسلمين، ولا يخرجوا شعانين[2] ولا يرفعوا مع موتاهم أصواتهم، ولا يظهروا النيران معهم،

(١) الزنانير: جمع زنار، وهو حزام يشده النصرانى على وسطه. «المعجم الوسيط» (٤٠٣).

(٢) الشعانين: عيد مسيحى يقع يوم الأحد السابق لعيد الفصح، يحتفل فيه بذكرى دخول السيد المسيح بيت المقدس. «المعجم الوسيط» (٤٨٥).

ولا يشتـروا من الرقيق ما جـرت عليه سهـام المسلمين، فإن خـالفوا فى شىء مما شرطوه، فلا ذمة لهم وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق. أخرجه أبو داوود فى سننه.

وقال أبو عبيد فى كتاب الأموال: «حدثنا النضر بن إسماعيل عن عبد الرحمن ابن إسحاق عن خليـفة بن قيس قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ يـأمر فأكتب إلى أهل الأمصـار فى أهل الكتاب أن يجزوا نواصيـهم، وأن يربطوا الكستيـجات فى أوساطهم ليعرف زيهم من زى أهل الكتاب.

وحدثنا أبو المنذر، ومصعب بن المقدام كلاهمـا عن سفيان عن عبيد الله بن عمر، عـن نافع، عن أسلم قال: كتب عمـر إلى أمراء الأجناد أن يختـموا رقاب أهل الذمة.

قال أبو عبيـد: حدثنا عبد الرحمن، عن عبـد الله بن عمر، عن نافع، عن أسلم: أن عـمر أمـر فى أهل الذمة أن يجـزوا(١) نواصيـهم، وأن يركبـوا على الأكف، وأن يركبوا عرضًا لا يركبوا كما يركب المسلمون، وأن يوثقوا المناطق(٢).

قال أبو عبيد: يعنى الزنانير.

وكما كتب عمر بـن الخطاب ﷺ على أهل الذمة هذه الشروط والتزموها، أوصى بهم نوابه ومن يأتى بعده مـن الخلفاء وغيرهم، وهذا هو العـدل الذى أمر الله به ورسوله.

ففى صحيـح البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال فى خطبـته عند وفاته: وأوصى الخليفة من بعـدى بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم(٣).

وهذا امتثال لقول النبى ﷺ: **«ألا من ظلم معاهدًا أو انتقـصه من حقه، أو كلفه فوق طاقـته، أو أخذ منه شيـئًا بغير طيب نفس. فأنـا حجيجه يوم القـيامة»**(٤) رواه أبو داود.

---

(١) يجز: يقطع. «المعجم الوسيط» (١٢٠).

(٢) المناطق: جمع منطقة، وهو ما يشد به الوسط. «المعجم الوسيط» (٩٣١).

(٣) صحيح: أخرجه البخارى (٣٧٠٠).

(٤) صحيح: أخـرجه أبو داود (٣٠٥٢). وقـال الألبانى فى «صـحيح الجـامع» (٢٦٥٥): صحيح.

فكان هذا فى النصارى الذين أدوا إليه الجزية.

وعمر بن الخطاب لما فتح الشام وأدوا إليه الجزية عن يد وهم صاغرون، أسلم منهم خلق كثير لا يحصى عددهم إلا الله -تبارك وتعالى- فإن العامة والفلاحين وغيرهم كان عامتهم نصارى، ولم يكن فى المسلمين من يعمل فلاحة ولم يكن للمسلمين فى دمشق مسجد يصلون فيه إلا مسجد واحد لقلتهم ثم صار أكثر أهل الشام وغيرهم مسلمين طوعًا لا كرهًا، فإن إكراه أهل الذمة على الإسلام غير جائز، كما قال -تعالى-:

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

قال أبو عبيد فى كتاب الأموال: عن ابن الزبير قال: كتب النبى ﷺ إلى أهل اليمن: «أنه من أسلم من يهودى أو نصرانى، فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على يهودية أو نصرانية، فإنه لا يفتن عنها وعليه الجزية».

• • •

(١) سورة البقرة: ٢٥٦، ٢٥٧.

فصل
[إرسال الرسل إلى المجوس والفرس]

وقاتل عمر بن الخطاب الفرس والمجوس، وفتح أرضهم وظهر تصديق خبر رسول الله ﷺ حيث قال: **«إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله عَزَّ وجَلَّ»**(١) أخرجاه في الصحيحين.

وهذا، بعد أن بعث رسول الله ﷺ رسوله إلى المجوس، وكتب كتابًا إلى كسرى ملك الفرس، كما كتب إلى ملوك النصارى كما تقدم عن قيصر والمقوقس، ولكن ملوك النصارى تأدبوا معه وخضعوا له فبقى ملكهم. وأما ملك الفرس فمزق كتابه، فدعا عليهم فقال: **«اللهم مزق ملكهم كل ممزق»**(٢) فلم يبق لهم ملك.

قال ابن عباس: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة بكتابه إلى كسرى

---

(١) صحيح: ورد من حديث كل من:

١- أبى هريرة: أخرجه البخارى (٣١٢٠)، ومسلم (٢٩١٨)، والترمذى (٢٢٢٣)، وأحمد (٢/ ٢٤٠-٥٠١)، والشافعى فى «الأم» (١٤٢١-بترقيمى)، وعبد الرازق فى «مصنفه» (٢٠٨١٤)، وابن حبان (٦٦٨٩)، والبيهقى فى «سننه الكبرى» (٩/ ١٧٧)، وفى «الدلائل» (٤/ ٣٩٣)، والبغوى فى «شرح السنة» (٣٧٢٨، ٣٧٢٩).

٢- جابر بن سمرة: أخرجه البخارى (٣١٢١)، ومسلم (٢٩١٩)، وأحمد (٥/ ٩٢، ١٠٠، ١٠٣)، والبيهقى فى «الدلائل» (٤/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) **أخرجه البخارى (٤٤٢٤) ولفظه: عن ابن عباس «أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حُذافة السهمى، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى فلما قرأه مزقه».**

قال الزهرى -راوى الحديث- فحسبت أن ابن المسيب قال:- فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق. وآخره هذا مرسل كما هو ظاهر، وقال الحافظ ابن حجر فى «الفتح» (٧/ ٧٣٣): يحتمل أن يكون ابن المسيب سمعه من عبد الله بن حذافة صاحب القصة، فإن ابن سعد ذكر من حديثه أنه قال «فقرأ عليه كتاب رسول الله ﷺ فأخذه فمزقه».

فدفعـه إلى عظيم البحرين، فدفعـه عظيم البحرين إلى كسـرى، فلما قرأه -يعنى كسرى- مزقه فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق(١).

وقال ابن إسحاق: كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصـر، فأما كسرى: فلما قرأ الكتاب مزقه، وأما قيـصر: لما قرأ الكتاب طواه ووضعه عنده، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«أما هؤلاء -يعنى كسرى- فيمزقون، وأما هؤلاء، فستكون لهم بقية»**(٢).

قال ابن إسحاق: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة بن قيس السهمى إلى كسرى بن هرمز ملك الفرس، وكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمـد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبَّع الهدى، آمن بالله ورسوله، واشهد أن لا إله إلاَّ الله -وحده لا شريك له-، وأن محمداً عبده ورسـوله، فإنى أدعوك بدعاية الله، فإنى رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم وإن أبيت، فإن إثم المجوس عليك».

فلما قرأ كـتاب رسول الله ﷺ شقـقه وقال: يكتب إلى بهـذا الكتاب وهو عبدى؟(٣).

قلت: وسبب قول كسرى هذا واستعلائه: أن الحبشة كانوا قد ملكوا اليمن، وملكهم سار إلى مكة بالفيل ليخرب البيت وكانوا نصارى، فأرسل الله عليهم من ناحية البحر طيراً أبابيل -وهى جماعات فى تفرقة- تحمل حجارة من طين، فألقتها على الحبشـة النصارى فأهلكتهم، وكـان هذا آية عظيمة خضعـت بها الأمم للبيت وجيران البيت.

وعلم العـقـلاء أن هذا لم يكن نصـراً من الله لمشـركى العـرب، فـإن دين النصارى خير من دينهم، وإنما كان نصـراً للبيت وللأمة المسلمة التى تعظمه وللنبى المبعوث من البيت، وكان ذلك عام مولد النبى ﷺ، فأنزل الله فى ذلك:

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) هذا معضل: ويشهد لأوله ما تقدم.
(٣) معضل.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾(١).

ثم إن سيف بن ذى يزن ذهب إلى كسرى، وطلب منه جيشًا يغزو به الحبشة، فأرسل معه عسكراً من الفرس المجوس، فأخرجوا الحبشة من اليمن، وصارت اليمن بيد العرب، وبها نائب كسرى، وسيف بن ذى يزن هذا ممن بشَّر بالنبى ﷺ قبل ظهوره، وأخبر بذلك جده عبد المطلب لما وفد عليه.

فلما كانت اليمن مطيعة لكسرى، لهذا أرسل إلى نائبه على اليمن أن يأتيه بالنبى ﷺ ، لأن عسكر اليمن فى العادة يقهر أهل مكة والمدينة.

قال ابن إسحاق: فبلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «**مزق الله ملكه**» حين بلغه أنه شقق كتابه.

ثم كتب كسرى إلى باذان وهو على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز من عندك رجلين جلدين فليأتيانى به. قال: فبعث باذان قهرمانه: وهو بابويه. وقال غيره: فيروز الديلمى -وكان حاسبًا كاتبًا- وبعث معه برجل من الفرس، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وقال لبابويه: ويلك، أنظر ما الرجل وكلمه وائتنى بخبره.

قال: فخرجا حتى قدما إلى الطائف، فسألا عن النبى ﷺ فقالوا: هو بالمدينة واستبشروا -يعنى الكفار- وقالوا: قد نصب له كسرى كفيتم الرجل، فخرجا حتى قدما المدينة على رسول الله ﷺ ، فكلمه بابويه، وقال: إن شاهنشاه -ملك الملوك- كسرى كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثنى إليك فانطلق معى، فإن فعلت كتب معك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكف عنك به، وإن أبيت فهو من قد علمت وهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك.

وكانا قد دخلا على رسول الله ﷺ ، وقد حلقا لحاهما، وأبقيا شواربهما، فكره النظر إليهما رسول الله ﷺ ، وقال لهما: «**ويلكما من أمركما بهذا؟**» قالا: أمرنا بهذا ربنا -يعنيان كسرى- فقال لهما رسول الله ﷺ : «**لكن ربى -عزَّ**

---

(١) سورة الفيل.

وجَلَّ- أمرنى بإعفاء لحيتى وبقص شاربى»(١)، ثم قال لهما: **«ارجعا حتى تأتيانى الغد»**.

قال: وجاء الخبر من السماء، أن الله -عَزَّ وجَلَّ- سلَّط على كسرى ابنه شيرويه، فقتله فى شهر كذا، فى ليلة كذا، فى ساعة كذا، فلما أتيا رسول الله ﷺ قال لهما: **«إن ربى قتل ربكما ليلة كذا، فى شهر كذا، بعدما مضى من الليل كذا، سلَّط عليه ابنه شيرويه فقتله»**(٢)، فقالا له: هل تدرى ما تقول؟ إنا قد نقمنا منك ما هو أيسر من هذا فنكتب بهذا عنك، ونخبر الملك به. قال: «نعم، أخبراه ذلك عنى وقولا له: إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهى إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك من الأبناء» وأعطى رفيقه منطقة من ذهب وفضة، كان أهداها له بعض الملوك، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان وأخبراه الخبر.

فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإنى لأرى الرجل نبيًا كما يقول، ولننظرن ما قد قال، فلئن كان ما قد قال حقًا ما بقى فيه كلام إن لنبى مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا، فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه.

أما بعد، فإننى قد قتلت كسرى ولم أقتله إلاَّ غضبًا لفارس لما كان قد استحل من قتل أشرافهم وتجهيزهم فى بعوثهم، فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب إليك فيه، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه. فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول الله، وأسلم لله وأسلمت أبناء فارس من كان منهم باليمن.

وقال أبو معشر: حدثنى المقبرى قال: جاء فيروز الديلمى إلى رسول الله ﷺ فقال إن كسرى كتب إلى باذان: بلغنى أن فى أرضك رجلاً تنبأ فاربطه وابعث به إلى، فقال له رسول الله ﷺ: **«إن ربى غضب على ربك فقتله فدمه بنحره**

---

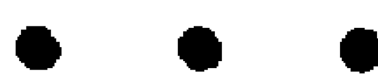
(١) حسن: قال الألبانى فى «تحقيق فقه السيرة» (ص٤٠٣): حديث حسن، أخرجه ابن جرير (٢/ ٢٦٦، ٢٦٧)، عن يزيد بن أبى حبيب مرسلاً، وابن سعد (١/ ق٢ص٤٧)، عن عبيد الله بن عبد الله مرسلاً، وسنده صحيح، ووصله ابن بشران فى الأمالى.

(٢) أخرجه البيهقى -كما فى «البداية» (٢/ ٧٢٠)- عن أبى بكرة «أن رجلاً من أهل فارس أتى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: **«إن ربى قد قتل الليلة ربك»**. وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (١٤٢٩).

سخن الساعة» فخرج من عنده فسمع الخبر فأسلم وحسن إسلامه، وكان رجلاً صالحًا، له فى الإسلام آثار جميلة، منها: قتل الأسود العنسى الكذاب الذى ادَّعى النبوة فى عهد النبى ﷺ وكان الأسود جباراً، استدعى بأبى مسلم الخولانى فقال له: أتشهد أنى رسول الله؟ فقال أبو مسلم: ما أسمع، فقال له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فردد ذلك عليه مراراً، فأمر بنار عظيمة فأضرمت، ثم أمر بإلقاء أبى مسلم فيها فلم تضره، فأخمدها الله -تعالى- حين ألقى فيها، فقيل له: أخرج هذا عنك من أرضك لئلا يفسد عليك أتباعك، فأخرجه.

فقدم أبو مسلم المدينة وقد توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر، فأناخ راحلته بباب المسجد، ثم دخل المسجد فقام يصلى إلى سارية فبصر به عمر فقام إليه فقال ممن الرجل؟ قال: من أهل اليمن، قال: ما فعل الذى حرقه الكذاب؟ قال: ذلك عبد الله بن ثوب. قال نشدتك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم، فاعتنقه ثم بكى، ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبى بكر، فقال: الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى فى أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن.

ثم خرج فيروز الديلمى على الأسود العنسى فقتله، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ بقتله وهو فى مرض موته، فخرج فأخبر أصحابه. وقال: **«قتل الأسود العنسى الليلة رجل صالح من قوم صالحين»**، وقصته مشهورة. وكذلك قصة مسيلمة الكذاب، ونحوهما من المتنبئين الكذابين.



فصل

[ضرب الجزية على المجوس]

ولـمَّا فتح خلفاء النبى ﷺ، عمر وعثمان العـراق وخراسان ضربوا الجزية على المجوس، كـما ضـربوها على النصارى بعد أن دعـوهم إلى الإسلام، كـما دعاهـم رسول الله ﷺ، وكمـا ضرب النبى ﷺ الجزية عـلى اليهود والـنصارى والمجوس بعد أن دعاهم إلى الله -عز وجل- فإنه ﷺ بعث العلاء بن الحضرمى، إلى المنذر بن سـاوى العبـدى صاحب هجـر -وهى قرية بالبـحرين- بكتـابه ﷺ يدعوه إلى الإسـلام، قال العـلاء: فلما دخلت عليـه قلت: يا منذر، إنك عظيم العقل فى الدنيا، فلا تـصغرن عن الآخرة، إن هذه المجوسية شـر دين، ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتـاب، ينكحون ما يستحى من نـكاحه، ويأكلون ما يتكرم عن أكله، ويعبـدون فى الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامـة. ولست بعديم عقل ولا أرى، فانظر هل ينبغى لمن لا يكذب أن تصدقه؟ ولمن لا يخون أن تأمنه؟ ولمن لا يخلف أن تثق به؟ فإن كـان هذا هكذا فهذا هو النبى ﷺ الأمى الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد فى عفـوه، أو نقص من عقابه، إن كل ذلك منه على أمنيـة أهل العقل وفكر أهل البصر.

فقال المنذر: قد نظرت فى هذا الذى في يدى، فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرت فى دينكم فوجـدته للآخرة والدنيـا، فما يمنعنى من قـبول دين فيـه أمنية الحياة وراحة الممات، ولقد عـجبت أمس ممن يقبله، وعجبت اليوم ممن يرده، وإن من إعظام من جاء به أن يعظم رسوله، وسـأنظر، ثم أسلم المنذر وكتب إلى النبى ﷺ بالإسلام والتصديق.

وقال عمـرو بن عوف: بعث رسول الله ﷺ أبا عبـيدة إلى البحـرين فأتى بجزيتهـا، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البـحرين وأمر عليـهم العلاء بن الحضرمى فـقدم أبو عبيدة بمال من البحـرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عـبيدة فوافوا صـلاة الصبح مع النبى ﷺ فلما صلى بهم الفـجر انصرف فتـعرضوا له،

فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم وقال: «**أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء**»، قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «**فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**»(١)، أخرجاه فى الصحيحين.

وأخرج البخارى عن بجالة بن عبدة أنه قال: أتانا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة: «فرقوا بين كل ذى محرم من المجوس»، ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس، حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر(٢).

وقال ابن شهاب: أخذ رسول الله ﷺ الجزية من مجوس هجر، وأخذ عمر ابن الخطاب الجزية من مجوس فارس، وأخذها عثمان بن عفان من البربر(٣).

قال ابن شهاب: أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل نجران فيما بلغنا وكانوا نصارى، وقبل رسول الله ﷺ الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوسًا، ثم أدَّى أهل (أيلة) وأهل (أذرح) إلى رسول الله ﷺ الجزية فى غزوة تبوك، وبعث خالد بن الوليد إلى أهل دومة الجندل فأسروا رئيسهم أكيدر فبايعوه على الجزية(٤).

قال أبو عبيد: الجزية مأخوذة من أهل الكتاب بالتنزيل، ومن المجوس والبربر وغيرهم بالسنَّة.



---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١)، والترمذى (٢٤٧٠)، وابن ماجه (٣٩٩٧)، وأحمد (٤/١٣٧-٣٢٧)، وابن أبى الدنيا فى «ذم الدنيا» (١٩٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٣١٥٦، ٣١٥٧)، وأبو داود (٣٠٤٣)، والترمذى (١٥٩٢)، والشافعى فى «الأم» (١٤٢٨-٣٠٩٦-بترقيمى).

(٣) مرسل: وعند الترمذى (١٥٩٤) عن الزهرى عن السائب بن يزيد قال: «أخذ رسول الله ﷺ الجزية من مجوس هجر، وأخذها عمر من فارس، وأخذها عثمان من الفرس.

(٤) مرسل: وجملة أكيدر دومة صحيحة، أخرجها أبو داود (٣٠٣٧) من حديث أنس بن مالك، وصححه الألبانى فى «صحيح سنن أبى داود».

فصل

[عموم رسالة النبى ﷺ]

وأخرج مسلم عن أنس: أن النبى ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله -عز وجل- وليس بالنجاشي الذى نعاه لأصحابه فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف وصلّى عليه -بل نجاشى آخر تملك بعده(١).

وأخرج مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الناس كافة، وختم بى النبيون؟**»(٢).

وقال ﷺ: «**كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»(٣).

وقال -تعالى-:

﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...**﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً...**﴾(٥).

وفى القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان، وجميع الإنس والجن ما لا يحصى إلاَّ بكلفة، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فكيف يقال: إنه لم يذكر أنه بعث إلاَّ إلى

---

(١) صحيح بنحوه أخرجه مسلم (١٧٧٤)، والترمذى (٢٧٢٥) بنحوه.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٥٢٣) والترمذى (١٥٥٩).
(٣) صحيح: أخرجه البخارى (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١)، والنسائى (١/ ٢١١)، من حديث جابر بن عبد الله.
(٤) سورة الأعراف: ١٥٨.
(٥) سورة سبأ: ٢٨.

العرب خاصة وهذه دعوته ورسله وجهاده لليهود والنصارى والمجوس بعد المشركين وهذه سيرته ﷺ فيهم؟

وأيضًا فالكتاب المتواتر عنه -وهو القرآن- يذكر فيه دعاءه لأهل الكتاب إلى الإيمان به في مواضع كثيرة جداً، بل يذكر الله -تبارك وتعالى- فيه كفر من كفر من اليهود والنصارى، ويأمر فيه بقتالهم كقوله -تعالى-:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

وقوله في هذه السورة أيضًا:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(٢).

وقال -تعالى- في سورة النساء:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ

---

(١) سورة المائدة: ١٧.

(٢) سورة المائدة: ٧٢-٧٧.

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾(٣).

• • •

---

(١) سورة النساء: ١٧١-١٧٣.

(٢) سورة التوبة: ٢٩.

(٣) سورة التوبة: ٣٠-٣٢.

فصل
[ابتداع اليهود والنصارى]

فهـذه الدلائل وأضعـافهـا مما تبين أنه نفـسه ﷺ أخبـر أنه رسول الله إلى النصـارى وغـيرهم مـن أهل الكتاب، وأنـه دعاهم وجـاهدهم وأمـر بدعـوتهم وجهادهم، وليس هذا مما فعلته أمته بعده بدعة ابتدعوها، كما فعلت النصارى بعد المسيح عليه السلام فإن المسلمين لا يجوزون لأحـد بعد محمد ﷺ أن يغيروا شـيئًا من شريعته، فلا يحلل ما حرم، ولا يحرم ما حلل، ولا يوجب ما أسقط، ولا يسقط ما أوجب، بل الحلال عندهم ما حلله الله ورسوله، والحرام ما حرم الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله، بخلاف النصـارى الذين ابتدعوا بعد المسيح بدعًا لم يشرعها المسيح عليه السلام ولا نطق بها شيء من الأناجـيل ولا كتب الأنبياء المتـقدمة، وزعموا أن ما شرعه أكابرهم من الدين فإن المسيح يمضيه لهم، وهذا موضع تنازع فيه الملل الثـلاث: المسلمون، واليهود، والنصارى، كمـا تنازعوا فى المسيح عليه السلام وغير ذلك.

فاليهود: لا يجوِّزون لله -سبحانه وتعالى- أن ينسخ شيئًا شرعه.

والنصارى: يجوِّزون لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله بآرائهم.

وأما المسلمـون: فعندهم أن الله له الخلق والأمـر، لا شرع إلاَّ مـا شرع الله على ألسنة رسله، وله أن ينسخ ما شـاء كما نسخ بالمسـيح ما كان شرعه لـلأنبياء قبله.

فالنصارى تضع لهم عقائدهم وشرائعـهم أكابرهم بعد المسيح كما وضع لهم الثلاث مائة وثمـانية عشر الذين كانوا فى زمن قسطنطين الملك الأمـانة التى اتفقوا عليها ولعنوا من خالفها من الأريوسية وغيرهم، وفيها أمور لم ينزل الله بها كتابًا، بل تخالف مـا أنزله الله من الكتب مع مخالفـتها للعقل الصـريح، فقالوا فيـها: «نؤمن بإله واحد، آب ضابط الكل، خالق السموات والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسـوع المسيح ابن الله الوحيـد المولود من الأب قبل كل الدهور

نور من نور، إله حق من إله حق مولود غير مخلوق مساوى الأب فى الجوهر الذى به كان كل شىء الذى من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء وتأنس وصلب على عهد بيلاطس البنطى وتألم وقبر، وقام فى اليوم الثالث كما فى الكتب وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب، وأيضًا فسيأتى بمجده ليدين الأحياء والأموات الذى لا فناء لملكه، وبروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له وبمجد الناطق فى الأنبياء، وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، ونترجى قيامة الموتى وحياة الدهر الآتى آمين».

ووضعوا لهم من القوانين والناموس ما لم يوجد فى كتب الأنبياء ولا تدل عليه، بل يوجد بعضه فى كتب الأنبياء، وزاد أكابرهم أشياء من عندهم لا توجد فى كتب الأنبياء وغيروا كثيراً مما شرعه الأنبياء، فما عند النصارى من القوانين والنواميس التى هى شرائع دينهم، وبعضه عن الحواريين، وكثير منه من ابتداع أكابرهم مع مخالفته لشرع الأنبياء، فدينهم من جنس دين اليهود، قد لبسوا الحق بالباطل.

وكان المسيح عليه السلام بعث بدين الله الذى بعث به الأنبياء قبله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والنهى عن عبادة كل ما سواه، وأحل لهم بعض ما حرم الله فى التوراة، فنسخ بعض شرع التوراة.

وكان الروم واليونان وغيرهم مشركين يعبدون الهياكل العلوية والأصنام الأرضية فبعث المسيح عليه السلام رسله يدعونهم إلى دين الله -تعالى-، فذهب بعضهم فى حياته فى الأرض، وبعضهم بعد رفعه إلى السماء، فدعوهم إلى دين الله -تعالى-، فدخل من دخل فى دين الله، وأقاموا على ذلك مدة، ثم زين الشيطان لمن زين له أن يغير دين المسيح، فابتدعوا دينًا مركبًا من دين الله ورسله: دين المسيح عليه السلام ، ومن دين المشركين.

وكان المشركون يعبدون الأصنام المجسدة التى لها ظل، وهذا كان دين الروم واليونان، وهو دين الفلاسفة أهل مقدونية وأثينة كأرسطو وأمثاله من الفلاسفة المشائين وغيرهم، وكان أرسطو قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة وهو وزير الإسكندر

ابن فيلبس اليـونانى المقدونى التى تؤرخ له التاريخ الرومى من اليـهود والنصارى، وهذا كان مشركًا يعبـد هو وقومه الأصنام، ولم يكن يسمى ذا القرنين، ولا هو ذا القرنين المذكور في القرآن، ولا وصل هذا المقدونى إلى أرض الترك ولا بنى السد، وإنما وصل إلى بلاد الفرس.

ومن ظن أن أرسطو كـان وزير ذى القرنيـن المذكور فى القـرآن، فقـد غلط غلطًا يتبيَّن أن ليس بعارف بأديان هؤلاء القوم ولا بأزمانهم.

فلما ظهـر دين المسيح عليه السلام بعد أرسطو بنحـو ثلاثمائة سنة فى بلاد الروم واليونان، كانوا على التوحيد إلى أن ظهرت فـيهم البدع، فصوروا الصور المرقومة فى الحيطان، جعلوا هذه الصور عوضًا عن تلك الصور.

وكان أولئك يسجـدون للشمس والقمر والكواكب، فصـار هؤلاء يسجدون إليها إلى جهة الشرق التى تظهر منها الشمس والقمر والكواكب، وجعلوا السجود إليها بدلاً عن السجود لها، ولهـذا جاء خاتم الرسل -صلوات الله عليه وسلامه- الذى ختم الله به الرسالة، وأظهر به من كمال التوحيد ما لم يظهر بمن قبله، فأمر ﷺ أن لا يتـحرّى أحـد بصـلاته طلوع الشـمسن ولا غـروبهـا، لأن المشركـين يسجدون لها تلك الساعة، فـإذا صلّى الموحدون لله -عز وجل- فى تلك الساعة، صار فى تلك نوع مشـابهة لهم، فيتـخذ ذريعة إلى السجود لـها، وكان من أعظم أسباب عبادة الأصنام تصوير الصور وتعظيم القبور.

ففى صحيح مسلم وغيره عن أبى الهياج الأسدى قال: قال لى على بن أبى طالب: «ألا أبعثك علـى ما بعثنى عليـه رسول الله ﷺ، فأمرنـى أن لا أدع قبرًا مشرفًا إلاَّ سويته، ولا تمثالاً إلاَّ طمسته»(١).

وفى الصحيحين أنه ﷺ قال فى مرض موته: **«لعن الله اليهـود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** يحذر ما فعلوا(٢).

وفى الصحيـحين أنه قال قبل موته بخمس ليالٍ: «إن من كـان قبلكم كانوا

(١) صحـيح: أخرجـه مسلم (٩٦٩)، وأبو داود (٣٢١٨)، والـترمذى (١٠٥١)، والنـسائى (٤/٨٨، ٨٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٤٣٥-٤٣٦)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة وابن عباس.

يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، وإنى أنهاكم عن ذلك»(١).

ولما ذكروا الكنيسة بأرض الحبشة وذكروا من حسنها وتصاوير فيها، فقال: «إن أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً وصوروا تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»(٢).

ونهى أن يستقبل الرجل القبر فى الصلاة حتى لا يتشبه بالمشركين الذين يسجدون للقبور، ففى الصحيح أنه قال: «**لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها**»(٣). إلى أمثال ذلك مما فيه تجريد التوحيد لله رب العالمين، الذى أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله.

فأين هذا ممن يصور صور المخلوقين فى الكنائس ويعظمها ويستشفع بمن صورت على صورته؟ وهل كان أصل عبادة الأصنام فى بنى آدم من عهد نوح عليه السلام إلاَّ هذا؟ والصلاة إلى الشمس والقمر والكواكب والسجود إليها ذريعة إلى السجود لها، ولم يأمر أحد من الأنبياء باتخاذ الصور والاستشفاع بأصحابها، ولا بالسجود إلى الشمس والقمر والكواكب، وإن كان يذكر عن بعض الأنبياء تصوير صورة لمصلحة، فإن هذا من الأمور التى قد تتنوع فيها الشرائع بخلاف السجود لها والاستشفاع بأصحابها، فإن هذا لم يشرعه نبى من الأنبياء، ولا أمر قط أحد من الأنبياء أن يدعى غير الله -عز وجل- لا عند قبره ولا فى مغيبه، ولا يشفع به فى مغيبه بعد موته بخلاف الاستشفاع بالنبى ﷺ فى حياته ويوم القيامة، وبالتوسل به بدعائه والإيمان به، فهذا من شرع الأنبياء -عليهم السلام- ولهذا قال -تعالى-:

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٢)، من حديث جندب، ولم أقف عليه فى «صحيح البخارى».
(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة.
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٩٧٢)، وأبو داود (٣٢٢٩)، والترمذى (١٠٥٢)، والنسائى (٦٧/٢) من حديث أبى مرثد الغنوى.
(٤) سورة الزخرف: ٤٥.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ... ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾(٤).

وذلك أن المشركين من جميع الأمم لم يكن أحد منهم يقول: إن للمخلوقات خالقين منفصلين متماثلين فى الصفات، فإن هذا لم يقله طائفة معروفة من بنى آدم ولكن الثنوية من المجوس ونحوهم يقولون: إن العالم صادر عن أصلين: النور والظلمة، والنور عندهم: هو إله الخير المحمود، والظلمة: هى الإله الشرير المذموم.

وبعضهم يقول: أن الظلمة هى الشيطان، وهذا ليجعلوا ما فى العالم من الشر صادرًا عن الظلمة.

ومنهم من قال: إن الظلمة قديمة أزلية مع أنها مذمومة عندهم ليست مماثلة للنور.

(١) سورة الأنبياء: ٢٥.
(٢) سورة النحل: ٣٦.
(٣) سورة يونس: ١٨.
(٤) سورة الزمر: ١-٤.

ومنهم من قال: بل هى حادثة، وأن النور فكر فكرة رديئة فحدثت الظلمة عن تلك الفكرة الرديئة.

فقال لهم أهل التوحيد: أنتم بزعمكم كرهتم أن تضيفوا إلى الرب -سبحانه وتعالى- خلق ما فى العالم من الشر، وجعلتموه خالقًا لأصل الشر، وهؤلاء مع إثباتهم اثنين وتسمية الناس لهم بالثنوية، فهم لا يقولون: إن الشرير مماثل للخيّر.

وكذلك الدهرية دهرية الفلاسفة وغيرهم، منهم من ينكر الصانع للعالم، كالقول الذى أظهره فرعون -لعنه الله- ومنهم من يقر بعلة يتحرك الفلك للتشبه بها كأرسطو وأتباعه، ومنهم من يقول بالموجب بالذات المستلزم للفلك كابن سينا والسهروردى المقتول بحلب وأمثالهما من متفلسفة الملل.

وأما مشركو العرب وأمثالهم فكانوا مقرين بالصانع، وبأنه خلق السموات والأرض، فكانت عقيدة مشركى العرب خيرًا من عقيدة هؤلاء الفلاسفة الدهرية، إذ كانوا مقرين بأن هذه السموات مخلوقة لله حادثة بعد أن لم تكن، وهذا مذهب جماهير أهل الأرض ومن أهل الملل الثلاثة: المسلمون، واليهود، والنصارى، ومن المجوس والمشركين وهؤلاء الدهرية من الفلاسفة وغيرهم يزعمون أن السموات أزلية قديمة لم تزل، وكان مشركو العرب يقرون بأن الله قادر يفعل بمشيئته ويجيب دعاء الداعى إذا دعاه، وهؤلاء المتفلسفة الدهرية عندهم أن الله لا يفعل شيئًا بمشيئته، ولا يجيب دعاء الداعى، بل ولا يعلم الجزئيات، ولا يعرف هذا الداعى، من هذا الداعى ولا يعرف إبراهيم من موسى من محمد وغيرهم بأعيانهم من رسله، بل منهم من ينكر علمه مطلقًا كأرسطو وأتباعه، ومنهم من يقول: إنما يعلم الكليات كابن سينا وأمثاله.

ومعلوم: أن كل موجود فى الخارج فهو جزء معين، فإن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئًا من الموجودات المعينة لا الأفلاك ولا الأملاك ولا غير ذلك من الموجودات بأعيانها، والدعاء عندهم: هو تصرف النفس القوية فى هيولى العالم كما ذكر ذلك ابن سينا وأمثاله، وزعموا أن اللوح المحفوظ: هو النفس الفلكية، وأن حوادث الأرض كلها إنما تحدث عن حركة الفلك، كما قد بسط الرد عليهم فى غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلهًا آخر مساويًا له فى الصفات والأفعال، بل ولا كانوا يقولون: إن الكواكب والشمس والقمر خلقت

العالم، ولا أن الأصنام تخلق شيئًا من العالم، ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر رب العالمين، أو أن الخليل -عليه السلام- لما قال: «هَذَا رَبِّي» أراد به رب العالمين فقد غلط غلطًا بينًا، بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع، وكانوا يشركون بعبادته كأمثالهم من المشركين.

قال -تعالى- عن الخليل:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ ﴾(١).

فأخبر -تعالى- عن الخليل أنه عدو لكل ما يعبدونه إلا لرب العالمين، وأخبر أنهم يقولون يوم القيامة:

﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢).

كما قال -تعالى- في الموضع الآخر:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾(٣).

---

(١) سورة الشعراء: ٦٩-٩٩.

(٢) سورة الشعراء: ٩٧، ٩٨.

(٣) سورة الزخرف: ٢٦-٢٧.

وقال:

﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

ولم يقل: من المعطلين، فإن قومه كانوا يشركون ولم يكونوا معطلين كفرعون اللعين، فلم يكونوا جاحدين للصانع، بل عدلوا به وجعلوا له أندادًا في العبادة والمحبة والدعاء، وهذا كما قال -تعالى-:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...﴾(٣).

وقال -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾(٥).

وقال:

﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾(٦).

وقال -تعالى- فيما حكاه عن قوم نوح:

﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾(٧).

---

(١) سورة الأنعام: ٧٩.

(٢) سورة الأنعام: ١.

(٣) سورة البقرة: ١٦٥.

(٤) سورة الفرقان: ٦٨.

(٥) سورة الشعراء: ٢١٣.

(٦) سورة الإسراء: ٢٢.

(٧) سورة نوح: ٢٣، ٢٤.

قال ابن عباس وغيره من العلماء: هـؤلاء كانوا قومًا صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوها(١).

وهكذا عند النصارى عن المسيح عليه السلام في كتاب سـر بطرس -الذي يسمى بشمعون، وسمعان، والصفا، وبطرس، والأربعة لمسمى واحد عندهم- عنه كتاب عن المسيح فيه أسرار العلوم، وهذا فيه عندهم عن المسيح.

فالذي تفعله النصـارى أصل عبادة الأوثان، وهكذا قال عـالمهم الكبير الذي يسـمونه فم الذهب -وهو مـن أكبـر علمائهم- لما ذكـر تولد الذنوب الكبـار عن الصغار. قال: وهكذا هجـمت عبادة الأصنام فيما سلف لما أكـرم الناس أشخاصًا يعظم بعضهم بعضًا فوق المقدار الذي ينبغي، الأحياء منهم والأموات.

وقد قال -تعالى-:

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾(٢).

قال طائفة من العلمـاء: كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كـالعزير والمسيح وغيـرهما، فبين الله -تبـارك وتعالى-: أن هؤلاء عبـاده كما أنتم عبـاده، يرجون رحمته كما ترجـون رحمته، ويخافون عذابه، كما تخافـون عذابه، ويتقربون إليه كما تتقربون إليه، وقال -تعالى-:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس.
واختلف أهل العلم في «عطاء»، فقال بعضهم هو الخراساني، وعلى هذا فالإسناد منقطع لأن الخراساني لم يلق ابن عباس، وقـال آخرون: إنه عطاء بن أبي رباح، وانظر تفصيل هذا الخلاف في «الفتح» (٨/ ٥٣٥، ٥٣٦).

(٢) سورة الإسراء: ٥٦، ٥٧.

(٣) سورة آل عمران: ٧٩، ٨٠.

فبين -تعالى-: أن من اتخذ الملائكة والنبيين أربابًا فهو كافر مع اعتقاده أنهم مخلوقون، فإنه لم يقل أحد قط: أن جميع الملائكة والنبيين مشاركون لله -سبحانه- فى خلق العالم، وقد قال -تعالى-:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(١).

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: تسألهم من خلق السموات والأرض؟ يقولون. الله، وهم يعبدون غيره، وقد قال -تعالى-:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾(٢).

فى غير موضع فأخبر -تعالى- عن المشركين أنهم كانوا يقرون بأن خالق العالم واحد مع اتخاذهم آلهة يعبدونهم من دونه -سبحانه- يتخذونهم شفعاء إليه ويتقربون بهم إليه.

• • •

(١) سورة يوسف: ١٠٦.

(٢) سورة لقمان: ٢٥.

فصل

[إجماع المسلمين يرجع إلى قول النبى ﷺ]

وكذلك تعظيمهم للصليب، واستحلالهم لحم الخنزير وتعبدهم بالرهبانية، وامتناعهم من الختان، وتركهم طهارة الحدث والخبث، فلا يوجبون غسل جنابة ولا وضوءًا، ولا يوجبون اجتناب شىء من الخبائث فى صلاتهم لا عذرة ولا بولاً ولا غير ذلك من الخبائث إلى غير ذلك.

كلها شرائع أحدثوها وابتدعوها بعد المسيح عليه السلام، ودان بها أئمتهم وجمهورهم، ولعنوا من خالفهم فيها، حتى صار المتمسك فيهم بدين المسيح المحض مغلوبًا مقموعًا قبل أن يبعث الله محمدًا ﷺ، وأكثر ما هم عليه من الشرائع والدين لا يوجد منصوصًا عن المسيح عليه السلام.

وأما المسلمون: فكل ما أجمعوا عليه إجماعًا ظاهرًا يعرفه العامة والخاصة فهو منقول عن نبيهم ﷺ لم يحدث ذلك أحد لا باجتهاده ولا بغير اجتهاده، بل ما قطعنا بإجماع أمة محمد ﷺ، فإنه يوجد مأخوذًا عن نبيهم.

وأما ما يظن فيه إجماعهم ولا يقطع به:

فمنه ما يكون ذلك الظن خطأ ويكون بينهم فيه نزاع، ثم قد يكون نص الرسول ﷺ مع هذا القول، وقد يكون مع هذا القول.

ومنه ما يكون ظن الإجماع عليه صوابًا، ويكون فيه عن النبى ﷺ أثر خفيت دلالته أو معرفته على بعض الناس.

وذلك أن الله -تبارك وتعالى- أكمل الدين بمحمد ﷺ خاتم النبيين، وبيَّنه وبلَّغه البلاغ المبين، فلا تحتاج أمته إلى أحد بعده يغير شيئًا من دينه، وإنما تحتاج إلى معرفة دينه الذى بعث به فقط، وأمته لا تجتمع على ضلالة، بل لا يزال فى أمته طائفة قائمة بالحق حتى تقوم الساعة، فإن الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فأظهره بالحجة والبيان، وأظهره باليد والسنان. ولا يزال فى أمته أمة ظاهرة بهذا وهذا حتى تقوم الساعة.

والمقصود هنا: أن ما أجمعت عليه الأمة إجماعًا ظاهرًا تعرفه العامة والخاصة، فهو منقول عن نبيهم ﷺ ونحن لا نشهد بالعصمة إلاَّ لمجموع الأمة، وأما كثير من طوائف الأمة، ففيهم بدع مخالفة للرسول، وبعضها من جنس بدع اليهود والنصارى، وفيهم فجور ومعاصى، لكن رسول الله ﷺ بريء من ذلك، كما قال -تعالى- له:

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وقال -تعالى-:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ...﴾[2].

وقال ﷺ: «من رغب عن سنتى فليس منى»[3] وذلك مثل إجماعهم على أن محمدًا ﷺ أرسل إلى جميع الأمم -أهل الكتاب وغير أهل الكتاب- فإن هذا تلقوه عن نبيهم ﷺ، وهو منقول عندهم نقلاً متواترًا يعلمونه بالضرورة.

وكذلك إجماعهم على استقبال الكعبة البيت الحرام فى صلاتهم، فإن هذا الإجماع منهم على ذلك مستند إلى النقل المتواتر عن نبيهم وهو مذكور فى كتابهم.

وكذلك الإجماع على وجوب الصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، وحج البيت العتيق الذى بناه إبراهيم خليل الرحمن، ودعا الناس إلى حجه وحجته الأنبياء حتى حجه موسى بن عمران ويونس بن متى وغيرهما، وإجماعهم على وجوب الاغتسال من الجنابة، وتحريم الخبائث، وإيجاب الطهارة للصلاة، فإن هذا كله مما تلقوه عن نبيهم، وهو منقول عنه ﷺ نقلاً متواترًا، وهو مذكور فى القرآن.

وأما النصارى، فليست الصلوات التى يصلونها منقولة عن المسيح عليه السلام ولا الصوم الذى يصومونه منقولاً عن المسيح، بل جعل أولهم الصوم أربعين يومًا ثم زادوا فيه عشرة أيام ونقلوه إلى الربيع، وليس هذا منقولاً عندهم عن المسيح عليه السلام.

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٦.

(٢) سورة الأنعام: ١٥٩.

(٣) صحيح: أخرجه البخارى (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، والنسائى (٦/ ٦٠) من حديث أنس بن مالك.

وكذلك حجهم للقمامة، وبيت لحم، وكنيسة صيدنايا، ليس شيء من ذلك منقولاً عن المسيح عليه السلام، بل وكذلك عـامة أعيادهم مـثل عيد القلندس، وعـيد الميلاد، وعيد الغطاس -وهو القداس- وعيد الخميس، وعيد الصليب الذي جعلوه في وقت ظهور الصـليب، لما أظهرته هيلانة الحـرانية الفندقـانية أم قسطـنطين بعد المسيح عليه السلام بمائتين من الـسنين. وعيد الخـميس والجمـعة والسـبت التي في آخر صومهم، وغيـر ذلك من أعيادهم التي رتبوها على أحوال المسـيح، والأعياد التي ابتدعوها لكبرائهم، فإن ذلك كله من بدعـهم التي ابتدعوها بلا كتاب نزل من الله -تعالى-، بل هم يبنون الكنائس على اسم بعض من يعظمونه، كما في السنن عن النبي ﷺ: **«أنهم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك التصاوير أولئك شرار الخـلق عند الله يوم القيامة»**(١)، وهذا بخلاف المساجد التي تبنى لله -عز وجل- كما قال -تعالى-:

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾(٢).

وقال: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ... ﴾(٣).

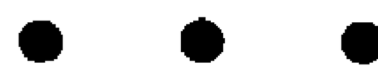
وقال -تعالى-:

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾(٥).

والنصارى كأشباههم من المشركين يخشون غير الله، ويدعون غير الله.



---

(١) صحيح: وقد تقدم تخريجه من «الصحيحين».
(٢) سورة الجن: ١٨.
(٣) سورة النور: ٣٦.
(٤) سورة الأعراف: ٢٩.
(٥) سورة التوبة: ١٨.

فصل
[كفر النصارى بعموم رسالة النبى ﷺ]

والمقصود هنا: أن الذى يدين به المسلمون من أن محمداً ﷺ رسول إلى الثقلين: الإنس والجن، أهل الكتاب وغيرهم، وأن من لم يؤمن به فهو كافر مستحق لعذاب الله مستحق للجهاد، وهو مما أجمع أهل الإيمان بالله ورسوله عليه، لأن الرسول ﷺ هو الذى جاء بذلك وذكره الله فى كتابه وبينه الرسول أيضًا فى الحكمة المنزلة عليه من غير الكتاب، فإنه -تعالى- أنزل عليه الكتاب والحكمة، ولم يبتدع المسلمون شيئًا من ذلك من تلقاء أنفسهم، كما ابتدعت النصارى كثيراً من دينهم، بل أكثر دينهم.

وبدلوا دين المسيح وغيروه، ولهذا كان كفر النصارى لما بعث محمد ﷺ مثل كفر اليهود لما بعث المسيح عليه السلام، فإن اليهود كانوا قد بدلوا شرع التوراة قبل مجيء المسيح فكفروا بذلك، ولما بعث المسيح إليهم كذبوه فصاروا كفاراً بتبديل معانى الكتاب الأول وأحكامه، وبتكذيب الكتاب الثانى.

وكذلك النصارى كانوا بدلوا دين المسيح قبل أن يبعث محمد ﷺ فابتدعوا من التثليث والاتحاد وتغيير شرائع الإنجيل أشياء لم يبعث بها المسيح عليه السلام، بل تخالف ما بعث به، وافترقوا فى ذلك فرقًا متعددة وكفر فيها بعضهم بعضًا، فلما بعث محمد ﷺ كذبوه، فصاروا كفاراً بتبديل معانى الكتاب الأول وأحكامه، وتكذيب الكتاب الثانى، كما يقول علماء المسلمين: إن دينهم مبدل منسوخ، وإن كان قليل من النصارى كانوا عند مبعث محمد ﷺ متمسكين بدين المسيح، كما كان الذين لم يبدلوا دين المسيح كله على الحق، فهذا كما أن من كان متبعًا شرع التوراة عند مبعث المسيح، كان متمسكًا بالحق كسائر من اتبع موسى، فلما بعث المسيح صار كل من لم يؤمن به كافراً، وكذلك لما بعث محمد ﷺ صار كل من لم يؤمن به كافراً.

والمقصود فى هذا المقام: بيان ما بعث به محمد ﷺ من عموم رسالته، وأنه نفسه الذى أخبر أن الله -تعالى- أرسله إلى أهل الكتاب وغيرهم، وأنه نفسه ﷺ

دعا أهل الكتـاب وجاهدهم وأمر بجهـادهم، فمن قال بعـد هذا من أهل الكتاب -اليهود والنصـارى-: أنه لم يبعث إلينا بمعنى أنه لم يقل: إنه مبـعوث إلينا، كان مكابراً جاحداً للضرورة مفتريا على الرسول فرية ظاهرة تعرفها الخاصة والعامة.

وكان جحده لهذا كما لو جحد أنه جاء بالقرآن، أو شرع الصلوات الخمس، وصوم رمضان، وحج البيت الحـرام، وجَحْدُ محمد ﷺ وما تواتر عنه أعظم من جحد أتبـاع الحواريين المسيح عليه السلام، وإرساله لهم إلى الأمم، ومجـيئه بالإنجيل، وجحد مجيء موسى عليه السلام بالتوراة، وجحد أنه كان يسبت؛ فإن النقل عن محمد ﷺ مـدته قـريبة، والناقـلون عنه أضعـاف أضـعـاف من نقل دين المسـيح عنه، وأضعاف أضعاف أضعاف من اتصل به نقل دين موسى عليه السلام فإن أمة محمد ﷺ ما زالوا كثيرين منتشرين فى مشارق الأرض ومغاربها، وما زال فيهم من هو ظاهر بالدين منصـور على الأعداء، بخـلاف بنى إسرائيل، فـإنهم زال ملكهم فى أثناء الأمر لما خـرب بيت المقدس الخـراب الأول بعد داود عليه السلام، ونقص عدد من نقل دينهم حتى قد قيل: إنه لم يبقَ من يحفظ التوراة إلاَّ واحد.

والمسيح عليه السلام لم ينقل دينه عنه إلاَّ عدد قليل، لكن النصارى يزعمون أنهم رسل الله معصومون مثل: إبراهيم وموسى، وسيأتى الكلام على هذا -إن شاء الله تعالى- إذا وصلنا إليـه، إذ المقصود هنا بيان من زعم أن مـحمداً ﷺ كان يقول: إنه لم يبعث إلاَّ إلى مشركى العرب، فإنه فى غاية الجهل والضلال أو غاية المكابرة والمعاندة، فإن هذا أعظم جهلاً وعناداً ممن ينـكر أنه كان يأمر بالطهارة والغسل من الجنابة، ويحرم الخـمر والخنزير، وأعظم جـهلاً وعناداً ممن ينكر مـا تواتر من أمر المسيح وموسى -عليهما السلام-، وقد ظهر بهذا بطلان قولهم: علمنا أنه لم يأت إلينا بل إلى جاهلية العرب.

• • •

فصل

[شبهات النصارى على تخصيص الرسالة]

فإذا عرف هذا فاحتجاج هؤلاء بالآيات التى ظنوا دلالتها على أن نبوته خاصة بالعرب، تدل على أنهم ليسوا ممن يجوز لهم الاستدلال بكلام أحد على مقصوده ومراده، وأنهم ممن قيل فيه:

﴿ ... فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾(١).

فليسوا أهلاً أن يحتجوا بالتوراة والإنجيل والزبور على مراد الأنبياء، وسائر الكلام المنقول عن الأنبياء على مراد الأنبياء -عليهم السلام- بل ولا يحتجون بكلام الأطباء، والفلاسفة، والنحاة، وعلم أهل الحساب، والهيئة، على مقاصدهم.

فإن الناس كلهم متفقون على أن لغة العرب من أفصح لغات الآدميين وأوضحها، ومتفقون على أن القرآن فى أعلا درجات البيان، والبلاغة، والفصاحة، وفى القرآن من الدلالات الكثيرة على مقصود الرسول ﷺ التى يذكر فيها: أن الله -تعالى- أرسله إلى أهل الكتاب وغيرهم ما لا يحصى إلاَّ بكلفة ثم مع ذلك من النقول المتواترة عن سيرته ﷺ فى دعائه لأهل الكتاب، وأمره لهم بالإيمان به، وجهاده لهم إذ كفروا به ما لا يخفى على من له أدنى خبرة بسيرته ﷺ ، وهذا أمر قد امتلأ العالم به وسمعه القاصى والدانى، فإذا كان الناس -المؤمن به وغير المؤمن به- يعلمون أنه كان يقول: إنه رسول الله إلى أهل الكتاب وغيرهم، وأن ظهور مقصوده بذلك مما يعلمه بالاضطرار الخاصة والعامة، ثم شرعوا يظنون أنه كان يقول: إنى لم أبعث إلاَّ إلى العرب واستمر على ذلك حتى مات، دل على فساد نظرهم وعقلهم أو على عنادهم ومكابرتهم، وكان الواجب -إذا لم يكن له معرفة معانى هذه الآيات التى استدلوا بها على خصوص رسالته-، أن يعتقدوا أحد أمرين:

---

(١) سورة النساء: ٧٨.

إما أن لهـا معانى توافق مـا كان يقوله. أو أنـها من المنسوخ، فـقد علمت الخاصة والعامـة أن محمداً ﷺ كان يصلى بعد هجرته إلى بيت المقدس نحو سنة ونصف[(١)]، ثم أمر بالصلاة إلى الكعبة البـيت الحرام، والنصارى يوافقون على أن شرائع الأنبـياء فيهـا ناسخ ومنسوخ، مع أن ما ذكروه من الآيات ليس منـسوخًا، ولكن المقصود: أن المعـلوم من حال الرسول ﷺ علمًا ضـروريًا يقينيًا مـتواترًا لا يجوز دفعه فـإن العلم بأنه كان يقول: إنه رسول الله ﷺ إلى جميع الخلق معلوم لكل من عرف أخباره ﷺ سواء صدقه أو كذبه، والعلم بأنه كان يقول: إنه رسول الله إلى جميع الناس ممكن قبل أن يعلم أنه نبى أو ليس بنبى، كما أن العلم بنبوته وصدقه ممكن قبل [أن] يعلم عموم رسـالته، فليس العلم بأحدهما مـوقوفًا على الآخر، ولهذا كـان كثير ممن يكذبه يعلم أنه كان يقول: إنه رسـول الله إلى جميع الخلق، وطائفة ممن تقر بنبوته وصدقه لا تقر بأنه رسول إلى جميع الخلق.

والمقصود هنا: الكلام مع هؤلاء بأن العلم بعمـوم دعوته لجميع الخلق -أهل الكتاب وغيرهم- هو متواتر معلوم بالاضطرار، كالعلم بنفس مبعثه، ودعائه الخلق إلى الإيمان به وطاعته، وكالعلم بهجرته من مكة إلى المدينة، ومجيئه بهذا القرآن، والصلوات الخمس، وصوم شـهر رمضان، وحج البيت العتـيق، وإيجاب الصدق والعدل، وتحريم الظلم والفواحش، وغير ذلك مما جاء به محمد ﷺ .

وإن قيل: بل فى القـرآن ما يقتضـى أن رسالته خاصـة وفيه ما يقـتضى أن رسالته عامة وهذا تناقض.

قيل: هذا باطل ويعلم بطـلانه قبل العلم بنبوته، فـإنه من المعلوم لكل أحد آمن به أو كذب، أنه كان من أعظم الناس عقلاً وسياسـة وخبرة، وكان مقصوده: دعوة الخلق إلى طاعته واتباعه، وكان يقرأ القرآن على جميع الناس، ويأمر بتبليغه إلى جميع الأمم، وكـان من طلب منه أنه يؤمنه حتى يقرأ عليـه القرآن من الكفار وجب عليه أن يجيبه ولو كان مشركًا، فكيف إذا كان كتابيًا كما قال -تعالى-:

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٤٠)، ومـسلم (٥٢٥)، والترمذى (٣٤٠-٢٩٧٣)، والنسائى (١/ ٢٤٢، ٢٤٣)، وابن ماجه (١٠١٠)، والواحـدى فى «أسباب النزول» (٤٣، ٤٤)، عن البراء بن عازب قـال لما قدم النبى ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقـدس ستة أو سبـعة عشر شهراً. . .» الحديث.

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾(١).

وكان قد أظهر أنه مبعوث إلى أهل الكتاب وسائر الخلق، وأنه رسول إلى الثقلين: الجن والإنس، فيمتنع مع هذا أن يظهر ما يدل على أنه لم يبعث إليهم، فإن هذا لا يفعله من له أدنى عقل لمناقضته لمراده، فكيف يفعله من اتفقت عقلاء الأمم على أنه أعقل الخلق وأحسنهم سياسة وشريعة؟.

وأيضًا فكان أصحابه والمقاتلون معه بعد ذلك ينفرون عنه، وقد كان عادتهم أن يستشكلوا ما هو دون هذا، وهذا لم يستشكله أحد، ثم بعد هذا فلو قدر أن فى القرآن ما يدل على أنه لم يبعث إلاَّ إلى العرب وفيه ما يدل على أنه بعث إلى سائر الخلق، كان هذا دليلاً على أنه أرسل إلى غيرهم بعد أن لم يرسل إلاَّ إليهم، وأن الله عمَّ بدعوته بعد أن كانت خاصة فلا مناقضة بين هذا وهذا، فكيف وليس فى القرآن آية واحدة تدل على اختصاص رسالته بالعرب؟ وإنما فيه إثبات رسالته إليهم، كما أن فيه إثبات رسالته إلى قريش، وليس هذا مناقضًا لهذا، وفيه إثبات رسالته إلى أهل الكتاب، كقوله -تعالى-:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا... ﴾(٢).

كما فيه إثبات رسالته إلى بنى إسرائيل كقوله:

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ... ﴾(٣).

وليس هذا التخصص لليهود منافيًا لذلك التعميم وفى رسالته خطاب لليهود تارة وللنصارى تارة، وليس خطابه لإحدى الطائفتين ودعوته لها مناقضًا لخطابه للأخرى ودعوته لها، وفى كتابه خطاب للذين آمنوا من أمته فى دعوته لهم إلى شرائع دينه، وليس فى ذلك مناقضة بأن يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم وفى كتابه أمر بقتال أهل الكتاب النصارى حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

قال -تعالى-:

---

(١) سورة التوبة: ٦.

(٢) سورة النساء: ٤٧.

(٣) سورة البقرة: ٤٠.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(١).

ثم لم يكن هذا مانعًا أن يأمر بقتال غيرهم من اليهود والمجوس حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، بل هذا الحكم ثابت فى المجوس بسنته واتفاق أمته.

وإن قيل إنهم ليسوا من أهل الكتاب، فهذا كله مما يعلم بالاضطرار من دينه قبل العلم بنبوته، فكيف ونحن نتكلم على تقدير نبوته والنبى لا يتناقض قوله؟ وإذا كان العلم بعموم دعوته ورسالته معلومًا بالاضطرار قبل العلم بنبوته وبعد العلم بنبوته، فالعلم الضرورى اليقينى لا يعارضه شىء، ولكن هذا شأن الذين فى قلوبهم زيغ من أهل البدع: النصارى وغيرهم يتبعون المتشابه ويدعون المحكم؟ وبسبب مناظرة النصارى للنبى ﷺ بالمتشابه وعدولهم عن المحكم أنزل الله -تبارك وتعالى- فيهم:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(٢).

فالتأويل: يراد به تفسير القرآن، ومعرفة معانيه، وهذا يعلمه الراسخون ويراد به ما استأثر الرب -سبحانه وتعالى- بعلمه من معرفة كنهه وكنه ما وعد به ووقت الساعة، ونحو ذلك مما لا يعلمه إلاَّ الله.

والضُّلال: يذكرون آيات تشتبه عليهم معرفة معانيها، فيتبعون تأويلها ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها، وليسوا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويلها، مع أن هؤلاء الآيات من أوضح الآيات.

وهذا الذى سلكوه فى القرآن هو نظير ما سلكوه فى الكتب المتقدمة وكلام الأنبياء من التوراة والإنجيل والزبور وغيرها، فإن فيها من النصوص الكثيرة الصريحة بتوحيد الله وعبودية المسيح ما لا يحصى إلاَّ بكلفة، وفيها كلمات قليلة

(١) سورة التوبة: ٢٩.
(٢) سورة آل عمران: ٧.

فيهـا اشتباه فـتمسكوا بالقليل المتشـابه الخفى المشكل من الكتب المتقـدمة، وتركوا الكثير المحكم المبين الواضح فهم سلكوا فى القـرآن ما سلكوه فى الكتب المتقدمة، لكن تلك الكتب يقرون بنبوة أصحابها ومحمد ﷺ هم فيه مضطربون متناقضون، فأى قول قالوه فيه، ظهر فساده وكذبهم فيه إذا لم يؤمنوا بجميع ما أنزل إليه.

وإن قالوا: كـلامه متناقض ونحن نحتـج بما يوافق قولنا، إذ مقصـودنا بيان تناقضه.

قيل لهم عن هذا أجوبة:

أحدها: أنه فى الكتب المتقدمـة مما يظن أنه متعارض أضعـاف ما فى القرآن وأقرب إلى التناقـض، فإذا كانت تلك الكتب مـتفقـة لا تناقض فيـها، وإنما يظن تناقضها من يجهل معانيها ومراد الرسل فيكون كما قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحًا... وآفته من الفهم السقيم فكيف القرآن الذى هو أفضل الكتب؟

الثانى: أنهم متمسكون بالمتشابه فى تلك الكتب ومـخالفون المحكم منها كما فعلوه بالقرآن وأبلغ.

الثالث: أنه إذا كان ما جـاء به متناقضًا لم يكن رسول الله، فـإن ما جاء به من عند الله لا يكون مختلفًا متناقضًا، وإنما يتناقض ما جاء من عند غير الله، قال -تعالى-:

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾(١).

فكل كتـاب ليس من عند الله لابد أن يكون فيه تناقض، ومـا كان من عند الله لا يتناقض، وحينئذ فـإن كان متناقضًا لم يجز لهم الاحتـجاج بشىء منه، فإنه ليس من عند الله، وإنْ لم يكن متنـاقضًا ثبت أن ما فـيه من عموم رسـالته، وأنه رسول إليهم فليس فيه شىء يناقضه، فإن ما جاء من عند الله لا يتناقض.

الرابع: أنا نبين أن ما فيه من عموم رسالته لا ينافى ما فيه من أنه أرسل إلى العرب، كما أن ما فيه من إنذار عشـيرته الأقربين، وأمر قريش لا ينافى ما فيه من دعوة سـائر العرب، فإن تخـصيص بعض العام بالذكـر إذا كان له سبب يقـتضى

---

(١) سورة النساء: ٨٢.

التخصيص لم يدل على أن ما سوى المذكور مخالفة، وهذا الذى يسمى مفهوم المخالفة ودليل الخطاب.

والناس كلهم متفقون على أن التخصيص بالذكر متى كان له سبب يوجب الذكر غير الاختصاص بالحكم لم يكن للاسم اللقب مفهوم بل ولا للصفة، كقوله -تعالى-:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ... ﴾(١).

فإنه نهاهم عن ذلك، لأنه هو الذى كانوا يفعلونه، وقد حرم فى موضع آخر قتل النفس بغير حق، سواء كان ولداً أو غيره، ولم يكن ذلك مناقضًا لتخصيص الولد بالذكر.

الخامس: أنه فى ذلك أسوة بالمسيح عليه السلام فإن المسيح خص أولاً بالدعوة، ثم عم، كما قيل فى الإنجيل: «ما بعثت وأرسلت إلاَّ لبنى إسرائيل»(٢). وقال أيضًا فى الإنجيل: «ما بعثت إلاَّ لهذا الشعب الخبيث» ثم عمَّ فقال لتلامذته حين أرسلهم كما فى الإنجيل: «كما بعثنى أبى أبعث بكم فمن قبلكم فقد قبلنى».

وقال: «أرسلنى أبى وأنا أرسلكم»(٣). وقال: «كما أفعل أنا بكم كذلك افعلوا أنتم بعباد الله، فسيروا فى البلاد، وعمدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس، ولا يكون لأحدكم ثوبان، ولا يحمل معه فضة ولا ذهبًا، ولا عصا ولا حرابة»(٤). ونحو ذلك مما هو فى الأناجيل التى بين أيديهم من تخصيص الدعوة

---

(١) سورة الإسراء: ٣١.

(٢) فى إنجيل متى (١٥/ ٢١-٢٤): «ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحى صور وصيداء، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة ارحمنى يا سيد يا ابن داود: ابنتى مجنونة جداً. فلم يجبها بكلمته، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها لأنها تصيح وراءنا. فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة».

(٣) ونصه فى إنجيل يوحنا (٢٠/ ٢١): «فقال لهم يسوع أيضًا: سلام لكم، كما أرسلنى الآب أرسلكم أنا».

(٤) فى إنجيل متى (٢٨/ ١٨- ٢٠): «فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً: دُفع إلىّ كل سلطان فى السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر».

ثم تعميمها، وهو صادق فى ذلك كله، فكيف يسوغ لهم إنكار ما فى الإنجيل عن المسيح نظيره؟

ثم يقال فى بيان الحال: إن الله -تعالى- بعث محمدًا ﷺ، كما بعث المسيح وغيره، وإن كانت رسالته أكمل وأشمل كما نذكر فى موضعه، فأمره بتبليغ رسالته بحسب الإمكان إلى طائفة بعد طائفة، وأمر بتبليغ الأقرب منه مكانًا ونسبًا، ثم بتبليغ طائفة بعد طائفة حتى تبلغ النذارة إلى جميع أهل الأرض، كما قال -تعالى-:

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ...﴾(١).

أى: من بلغه القرآن -فكل من بلغه القرآن فقد أنذره محمد ﷺ.

ونبين هنا أن النذارة ليست مختصة بمن شافههم بالخطاب، بل ينذرهم به، وينذر من بلغهم القرآن، فأمره الله -تبارك وتعالى- أولاً بإنذار عشيرته الأقربين وهم قريش، فقال -تعالى-:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(٢).

ولما أنزل الله عليه هذه الآية انطلق ﷺ إلى مكان عال فعلا عليه، ثم جعل ينادى **«يا بنى عبد مناف: إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشى أن يسبقوه، فجعل يهتف: يا صباحاه يا صباحاه»**(٣).

وهذه القصة رواها ابن عباس وأبو هريرة وعائشة وغيرهم فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنن والمسانيد والتفسير.

قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنعام: ١٩.

(٢) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٧)، والطبرانى فى «الكبير» (١٨/ ٣٧٤)، والبيهقى فى «الدلائل» (٢/ ١٧٨) من حديث قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو.

(٤) سورة الشعراء: ٢١٤.

ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فجعل ينادي: **«يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟»** قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، ما جربنا عليك كذبًا. قال: **«فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**(١).

وقال أبو هريرة: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(٢).

دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعم وخص، فقال: **«يا بني كعب بن لؤي: أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب: أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس: أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف: أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم: أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب: أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد: أنقذي نفسك من النار. فإني لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها»**(٣).

وقالت عائشة ﵂ لما نزلت هذه الآية:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(٤).

قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال: **«يا فاطمة بنت محمد، يا صفية عمة رسول الله، يا عباس عم رسول الله: لا أملك لكم من الله شيئًا»**(٥).

وقال ابن إسحاق: لما نزلت هذه الآية جعل النبي ﷺ ينادي: **«يا بني**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٧٢)، ومسلم (٢٠٨)، والترمذي (٣٣٧٤)، وأحمد (١/ ٢٨١)، والواحدي في «أسباب النزول» (٤٤٥).

(٢) سورة الشعراء ٢١٤.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤)، والترمذي (٣١٩٦)، والنسائي (٦/ ٢٤٨، ٢٤٩)، وأحمد (٢/ ٣٦٠) و(٢/ ٥١٩).

ومعنى قوله (سأبلها ببلاها): أي سأصلحها، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة ووصلة بإطفاء الحرارة ببرودة. «شرح مسلم للنووي» (٣/ ٦٤).

(٤) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٥)، والترمذي (٢٣١٧-٣١٩٥)، والنسائي (٦/ ٢٥٠)، وأحمد (٦/ ١٨٧).

عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة -حتى عدد الأفخاذ من قريش- ثم قال: إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الله شيئًا، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله». فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟. تبًا لك سائر اليوم، فأنزل الله:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾(١).

ودعا قريشًا إلى الله وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأنزل -تعالى-:

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾(٢).

وقد أنزل الله عليه في غير موضع أمر جميع الخلق بعبادته، كقوله -تعالى-:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٣).

وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٤).

وقريش هم قومه الذين كذبه جمهورهم أولاً كما قال -تعالى-:

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ... ﴾(٥).

كما أن جمهور بني إسرائيل وهم قوم المسيح كذبوه أولاً.

ثم أمره الله -تعالى- أن يدعو سائر العرب، فكان يخرج بنفسه ومعه أبو بكر صديقه إلى قبائل العرب قبيلة قبيلة، وكانت العرب لم تزل تحج البيت من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام فكان ﷺ يأتيهم في منازلهم بمنى وعكاظ ومجنة وذي المجاز، فلا يجد أحدًا إلا دعاه إلى الله ويقول: **«يا أيها الناس إني رسول الله آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما يعبد من دونه من هذه**

---

(١) سورة المسد.

(٢) سورة قريش.

(٣) سورة البقرة: ٢١.

(٤) سورة الذاريات: ٥٦.

(٥) سورة الأنعام: ٦٦.

الأنداد، وأن تؤمنوا بى وتصدقـونى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعـثنى به، يا أيها الناس إن قريشًا منعونى أن أبلغ كلام ربى. فمن يمنعنى أن أبلغ كلام ربى إلا رجل يحملنى إلى قومـه فإن قريشًا منعونى أن أبلغ كـلام ربى، يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذل لكم بها العجم، فيقولون: يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ إن أمرك هذا لعجب»(١).

وما زال رسول الله ﷺ يعلن دعوته، ويظهر رسالتـه، ويدعو الخلق إليها: وهم يؤذونه ويجادلونه ويكلمونه ويردون عليـه بأقبح الرد وهو صابر على أذاهم، ويقول: «**اللهم لك الحمد لو شئت لم يكونوا هكذا**».

فلما اشتـد عليه أمر قريش خـرج إلى الطائف -وهى مدينة معـروفة شرقى مكة بينهما نحو ليلتين -ومعـه زيد بن حارثة ومكث بها عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه فى منزله وكلمه ودعاه إلى التـوحيد: فلم يجبه أحد منهم، وخافوه على أحداثهم وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة إذا مشى، حتى أن رجليه لتـدميان وزيد مولاه يقـيه بنفسـه، حتى ألجأوا إلى ظل كرمـة فى حائط لعتبة وشيبـة ابنى ربيعة فرجع عنه ما كان تبعه من سفـهائهم، فدعا فقال: «**اللهم إليك أشكو ضـعف قوتى، وقلة حـيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحـمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى، إلى بعيد يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمـرى، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، ولكن عافـيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمـات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بى غضبك، أو يحلّ علىّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**».

---

(١) أخرج أحمد (٣/ ٤٩٢) عن ربيعـة بن عباد قال «رأيت النبى ﷺ بذى المجاز يدعو الناس وخلفه رجل أحول يقول: لا يصدنكم هذا عن دين آلهتكم. قلت: من هذا؟ قالوا: هذا عمه أبو لهب.
وأخرجه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذى (٢٩٣٤)، وابن ماجه (٢٠١)، وابن أبى شيبة فى «مصنفـه» (٨/ ٤٤٧)، وأحمد (٣/ ٣٩٠)، عن جابر قـال «كان النبى ﷺ يعرض نفسه بالموقف فقال: «**ألا رجل يحملنى إلى قـومه، فإن قريشًا قد مـنعونى أن أبلغ كلام ربى**»، وقال التـرمذى: حسن صـحيح وقال الحافـظ الذهبى فى «تاريخ الإسلام» (١/ ١٢٦): على شرط البخارى.
وصححه الألبانى فى «صحيح سنن أبى داود».

فلما رأى ابنا ربيعة ما صنع به رثيا له وقالا لغلام لهما يقال له عداس -وكان نصرانيًا-: خذ قطفًا من عنب ثم اجعله فى طبق ثم اذهب إلى ذلك الرجل يأكله، ففعل عداس وأقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال: «**بسم الله**» ثم أكل فنظر عداس إلى وجهه ثم قال له: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله ﷺ: «**من أى البلاد أنت وما دينك؟**» فقال عداس: أنا نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى.

فقال له رسول الله ﷺ: «**أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟**» فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ والله لقد خرجت من نينوى وما فيها عشرة يعرفون متى، من أين عرفت أنت متى وأنت أمىّ وفى أمة أمية؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هو أخى، كان نبيًا وأنا نبى**» فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه ورجليه، فلما رجع عداس فقالا: ويلك يا عداس، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ورجليه؟ فقال: يا سيدى ما فى الأرض خير من هذا الرجل، لقد خبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى.

ثم انصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعًا إلى مكة وهو محزون، إذ لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة. فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم يا رسول الله وقد فعلوا وفعلوا؟ فقال: «**يا زيد إن الله -عز وجل- جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه**»(١).

ثم ذكر ابن إسحاق دخوله إلى مكة. وكان رسول الله ﷺ لما لقى من أهل مكة والطائف ما لقى، ودعا بالدعاء المتقدم نزل عليه جبريل ومعه ملك الجبال -كما فى صحيح البخارى-: أن عائشة رضي الله عنها قالت للنبى ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت، فإذا فيها جبريل فنادانى: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال: فنادانى ملك الجبال وسلم على ثم قال يا محمد: إن الله قد سمع قول**

(١) مرسل: أخرجه ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى مرسلاً كما فى «البداية» (٢/ ١٦١-١٦٣).

قومك لك وأنا ملك الجبال، قد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبى ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له**»(١).

وأخرج مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة: أنه قيل للنبى ﷺ ادع الله على المشركين. فقال: «**إنى لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة**»(٢).

وفى الصحيحين عن خباب بن الأرت أنه قال: لما اشتد البلاء علينا من المشركين أتينا النبى ﷺ فقلنا: ألا تدعو الله لنا؟ ألا تستنصر الله لنا؟ فقال: «لقد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض، ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه حتى يجعل فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله، ولكنكم تستعجلون»(٣).

وذكر ما لقى النبى ﷺ من قومه من الأذى والاستهزاء والإغراء وهو صابر محتسب، مظهر لأمر الله بتبليغ رسالته لا تأخذه فى الله لومة لائم، مواجه لقومه بما يكرهون من عيب دينهم وآلهتهم، وتضليل آبائهم، وتسفيه أحلامهم، وإظهار عداوته وقتاله إياهم ما بلغ مبلغ القطع.

قال عكرمة عن ابن عباس: ولما رجع النبى ﷺ إلى مكة فلما حضر الموسم حج نفر من الأنصار، فانتهى النبى ﷺ إلى فريق منهم، فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، وأخبرهم بالذى آتاه الله فأيقنوا واطمأنت قلوبهم إلى دعوته، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من ذكرهم إياه بصفته، وما يدعوهم إليه فصدقوه وآمنوا به، وكان من أسباب الخير الذى ساق الله للأنصار إلى ما كانوا يسمعون من الأخبار فى صفته، فلما رجعوا إلى قومهم جعلوا يدعونهم سرًّا ويخبرونهم بأقوال رسول الله ﷺ، والذى بعثه الله به من النور والهدى والقرآن، فأسلموا حتى قل أن يوجد دار من دورهم إلا أسلم فيها ناس لا محالة.

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٩٩).

(٣) صحيح: أخرجه البخارى (٣٨٥٢)، وأبو داود (٢٦٤٩)، وأحمد (٥/١٠٩، ١١٠، ١١١)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٤٧٣).

وقد ذكر الله ذلك في القرآن وأخبر أن أهل الكتاب كانوا يخبرون العرب به ويستفتحون به عليهم، فكان أهل الكتاب مقرين بنبوته مخبرين بها مبشرين بها قبل أن يبعث فقال -تعالى- فيما يخاطب به أهل الكتاب:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(١).

فقد أخبر -تعالى- أن أهل الكتاب كانوا يستفتحون على العرب بمحمد ﷺ قبل أن يبعث، أى يستنصرون به، وكانوا هم والعرب يقتتلون فيغلبهم العرب، فيقولون: سوف يبعث النبى الأمى من ولد إسماعيل فنتبعه ونقتلكم معه شر قتلة، وكانوا ينعتونه بنعوته.

وأخبارهم بذلك كثيرة متواترة، وكما قال -تعالى-:

﴿ ... فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(٢).

وأخبر بما كانت عليه اليهود من أنه كلما جاءهم رسول الله بما لا تهوى أنفسهم كذبوا بعضهم وقتلوا بعضهم، وأخبر أنهم باءوا بغضب على غضب، فإنهم ما زالوا يفعلون ما يغضب الله عليهم، فأما أن يراد بالتثنية تأكيد غضب الله عليهم، وأما أن يراد به مرتان والغضب الأول: تكذيبهم المسيح والإنجيل. والغضب الثانى: لمحمد والقرآن.

• • •

---

(١) سورة البقرة: ٨٧-٩١.

(٢) سورة البقرة: ٨٩.

فصل
[دلائل النبــوة]

وكـان يأتيـهم بالآيات الدالة على نبـوته ﷺ ومـعـجزاتـه تزيد على ألف معجزة، مثل انشـقاق القمر وغيره من الآيات، ومثل القرآن المعـجز، ومثل أخبار أهل الكتاب قـبله، وبشارة الأنبـياء به، ومثل أخـبار الكهان والهـواتف به، ومثل قصـة الفيل التى جعلهـا الله آية عام مولده، وما جـرى عام مولده من العـجائب الدالة على نبوته، ومثل امتـلاء السماء ورميها بالشهب الـتى ترجم بها الشياطين، بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه وبـعد مبعثه، ومثل أخباره بالغيوب التى لا يعلمها أحد إلاَّ بتعليم الله -عز وجل-، من غير أن يعلمه إياها بشر.

فـأخبـرهم بالماضى مثل قـصة آدم ونـوح وإبراهيم وموسى والمسـيح وهود وشعيب وصالح وغيرهم، وبالمستقـبلات وكان قومه يعلمون أنه لم يتعلم من أهل الكتاب ولا غيرهم، ولم يكن بمكة أحد من علماء أهل الكتاب ممن يتعلم هو منه، بل ولا كان يجتمع بأحد منهم يعرف اللسان العربى، ولا كان هو يحسن لسانًا غير العربى، ولا كان يكتب كتابًا، ولا يقرأ كتابًا مكتوبًا.

ولا سافر قبل نبوته إلاَّ سفرتين سـفرة وهو صغير مع عمه أبى طالب(١) لم يفارقه، ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب ولا غيرهم، وسفرة أخرى وهو كبير مع ركب من قريش لم يفارقهم، ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب.

وأخبر من كـان معه بأخبار أهل الكتـاب بنبوته مثل إخبـار بحيرى الراهب بنبوته، وما ظهر لهم منه مما دلهم على نبوته، ولهذا تزوجت به خديجة قبل نبوته لما أخبرت به من أحواله.

وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر، ولكن المقـصود هنا التنبيه بأن محمداً ﷺ له معجزات كثيرة، مثل نبع الماء من بين أصابعه غير مرة، ومثل تكثير الطعام

(١) صحيح: أخرج ذلك الترمذى (٣٦٤٠)، وابن جرير (١/ ٥١٩)، والحاكم (٤٢٢٩)، من حديث أبى موسى الأشعرى، وصححه الألبانى «صحيح سنن الترمذى».

القليل حتى أكل منه الخلق العظيم، وتكثير الماء القليل حتى شرب منه الخلق الكثير.

وهذا قد جرى غير مرة له. ولأمته من الآيات ما يطول وصفه، فكان بعض أتباعه يحيى الله له الموتى من الناس والدواب، وبعض أتباعه يمشى بالعسكر الكثير على البحر حتى يعبروا إلى الناحية الأخرى، ومنهم من ألقى فى النار فصارت عليه بردًا وسلامًا، وأمثال ذلك كثير.

ولكن المقصود هنا ذكر بعض ما فى القرآن من أنه كان يخبرهم بالأمور الماضية خبرًا مفصلاً لا يعلمه أحد إلاَّ أن يكون نبيًّا أو من أخبره نبى، وقومه يعلمون أنه لم يخبره بذلك أحد من البشر، وهذا مما قامت به الحجة عليهم، وهم مع قوة عداوتهم له وحصرهم على ما يطعنون به عليه لم يمكنهم أن يطعنوا طعنًا يقبل منهم، وكان علم سائر الأمم بأن قومه المعادين له، المجتهدين فى الطعن عليه، لم يمكنهم أن يقولوا: إن هذه الغيوب علمها إياه بشر، فوجب على جميع الخلق أن هذا لم يعلمه إياها بشر، ولهذا قال -تعالى-:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا...﴾[1].

فأخبر أنه لم يكن يعلم ذلك هو ولا قومه. وقومه تقر بذلك ولم يتعلم من أحد غير قومه، ولهذا زعم بعضهم أنه تعلم من بشر ظهر كذبه لكل أحد كما قال -تعالى-:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[2].

فكان بمكة رجل أعجمى مملوك لبعض قريش، فادعى بعض الناس أن

(١) سورة هود: ٤٩.

(٢) سورة النحل: ٩٨-١٠٣.

محمـداً كان يتعلم من ذلك الأعـجمي، فبين الله أن هذا كـذب ظاهر، فإن ذلك رجل أعجمي لا يمكنه أن يتكلم بكلمة من هذا القرآن العربى، ومحمد ﷺ عربى لا يعرف شيئًا من ألسـنة العجم، فمن كلمه بغير العربية لا يفـقه كلامه، فلا ذلك الرجل يحسن التكلم بالعربية، ولا محمد ﷺ يفهم كلامًا بغير العربية، فلهذا قال تعالى:

﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾(١).

أى يميلون إليه ويضيفون إليه أنه علم محمداً ﷺ:

﴿أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾(٢).

وكذلك قال بعض الناس عن القرآن:

﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ...﴾(٣).

قال -تعالى-:

﴿... فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٤).

فبـين سبـحانه أن قـول هذا من الكذب الظاهر المعلوم لأعـدائه فضـلاً عن أوليائه فإنهم يعلمون أنه ليس عنده أحـد يعينه عـلى ذلك، وليس في قومه ولا في بلده من يحسن ذلك ليعينه عليـه فلهذا قال -تعالى-: ﴿فَقَـدْ جَـاءُوا ظُلْـمًا وَزُورًا﴾(٥).

فإن جميع أهل بلده وقومـه المعادين له يعلمون أن هذا ظلم له وزور، ولهذا لم يقل هذا أحد من عقـلائهم المعروفين، وكذلك قـولهم أساطير الأولين اكتتـبها فهي تملـى عليه بكرة وأصيـلاً، فإن قـومه المكذبين له يعلمـون أنه ليس عنده من يملي عليـه كتـابًا وقد بيّـن ما يظهـر كذبهم بقـوله ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٦).

(١)، (٢) سورة النحل: ١٠٣.
(٣) سورة الفرقان: ٤.
(٤) سورة الفرقان: ٤-٦.
(٥) سورة الفرقان: ٤.
(٦) سورة الفرقان: ٦.

فإن في القرآن من الأسرار ما لا يعلمه بشر إلاَّ بإعلام الله إياه، فإن الله يعلم السر في السموات والأرض، ثم لما تبيَّن بطلان قولهم هذا، ذكر ما قدحوا به في نبوته فقال -تعالى-:

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾(١).

فهذا كلام المعارضين له الذين أنكروا أكله ومشيه في الأسواق التي يباع فيها ما يؤكل وما يلبس، وقالوا هلا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يستغنى عن ذلك بكنز ينفق منه أو جنة يأكل منها، وقال الظالمون: إن تتبعون إلاَّ رجلاً مسحوراً.

قال -تعالى-:

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾(٢).

يقول مثلوك بالكاذب والمسحور والناقل عن غيره، وكل من هذه الأقوال يظهر كذبه لكل من عرفك، ولهذا قال -تعالى-:

﴿ .... فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾.

والضال الجاهل العادل عن الطريق فلا يستطيع الطريق الموصلة إلى المقصود، بل ظهر عجزهم وانقطاعهم في المناظرة.

وقال -تعالى-:

﴿ وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴾(٣).

فإنه أتاهم بجلية ما في الصحف الأولى كالتوراة والإنجيل مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئًا. فإذا أخبرهم بالغيوب التي لا يعلمها إلاَّ نبي أو من أخبره نبي، وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحد من الأنبياء تبين لهم أنه نبي وتبين ذلك لسائر الأمم، فإنه إذا كان قومه المعادون وغير المعادين له مقرين بأنه لم

---

(١) سورة الفرقان: ٧، ٨.
(٢) سورة الفرقان: ٩.
(٣) سورة طه: ١٣٣.

يجتمع بـأحد يعلمه ذلك صار هذا منقـولاً بالتواتر، وكان مما أقر به مـخالفوه مع حرصهم على الطعن لو أمكن.

فهذه الأخبار بالغيوب المتقدمـة قامت بها الحجة على قومه وعلى جميع من بلغه خبر ذلك، وقد أخبر بالغيوب المسـتقبلة وهذه تقوم بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبر كما قال -تعالى-:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ...﴾(١).

ثم قال:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ...﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا...﴾(٣).

فأخبر أنهم لن يفعلوا ذلك في المستقبل، وكان كما أخبر.

وقال -تعالى-:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٤).

فأخبـر أنه لا يقدر الإنس والجن إلى يوم القيامـة أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهذا الخبر قد مضى له أكثر من سبعمائة سنة، ولم يقدر أحد من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وقال عن الكفار وهو بمكة:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(٥).

(١) سورة الروم: ٢، ٣.
(٢) سورة الروم: ١-٥.
(٣) سورة البقرة: ٢٣، ٢٤.
(٤) سورة الإسراء: ٨٨.
(٥) سورة القمر: ٤٥.

وظهر تصديق ذلك يوم بدر وغيره، وبعد ذلك بسنين كثيرة.

وقال -تعالى-:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا... ﴾(١).

وكان الأمر كما وعده وظهر تصديق ذلك بعد سنين كثيرة، وكذلك قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾(٢).

فأظهر الله ما بعثه به بالآيات والبرهان واليد والسنان:

وقال -تعالى-:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾(٣).

فكان كما أخبرهم غلبوا في الدنيا كما شاهده الناس، وهذا يصدق الخبر الأخير وهو أنهم يحشرون إلى جهنم وبئس المهاد.

وقد أيده تأييدًا لا يؤيد به إلاَّ الأنبياء بل لم يؤيد أحد من الأنبياء، كما أيد به كما أنه بعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع، وجعله سيد ولد آدم ﷺ فلا يعرف قط أحد ادعى النبوة وهو كاذب إلاَّ قطع الله دابره وأذله وأظهر كذبه وفجوره.

وكل من أيده الله من المدعين للنبوة لم يكن إلاَّ صادقًا كما أيد نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان، بل وأيد شعيبًا وهودًا وصالحًا. فإن سنَّة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهذا هو الواقع، فمن كان لا يعلم ما يفعله الله إلاَّ بالعادة فهذه عادة الله وسنته يعرف بها ما يصنع ومن كان يعلم ذلك بمقتضى حكمته فإنه يعلم أنه لا يؤيد من ادعى النبوة وكذب عليه تأييدًا لا يمكن أحدًا معارضته، وهكذا أخبرت الأنبياء قبله أن الكذاب

---

(١) سورة النور: ٥٥.
(٢) سورة الفتح: ٢٨.
(٣) سورة آل عمران: ١٢.

لا يتم الله أمره ولا ينصره ولا يؤيده فصار هذا مـعلومًا من هذه الجهات ولهذا أمر -سبحانه- أن نعتـبر بما فعله فى الأمم الماضية من جعل العاقبـة للأنبياء وأتباعهم، وانتقامه ممن كذبهم وعصاهم.

قال -تعـالى-: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ

---

(١) سورة غافر: ٥١.
(٢) سورة الصافات: ١٧١-١٧٣.
(٣) سورة غافر: ٥.
(٤) سورة الحج: ٤٠-٤٦.

اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾(٥).

وقال -تعالى-:

---

(١) سورة الروم: ٩، ١٠.

(٢) سورة غافر: ٤، ٥.

(٣) سورة غافر: ٢١، ٢٢.

(٤) سورة غافر: ٨٢-٨٥.

(٥) سورة ص: ١٢-١٤.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾(١).

فأخبر بأن المكذبين له سيأتيهم فى المستقبل أخبار القرآن الذى استهزءوا به وبين أن ما أخبرهم به حق بوقوع الخبر مطابقًا للخبر، وكان الأمر كذلك ومثله قوله:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٢).

أخبر أنه سيريهم فى أنفسهم وفى الآفاق ما يبين أن القرآن حق، بأن يروا ما أخبر به كما أخبر به، ثم قال:

﴿ ... أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٣).

فإنه قد يشهد للقرآن بأنه حق بالآيات البينات والبراهين الدالة على صدقه التى تتبين بشهادة الرب -تعالى- بأنه حق فلا يحتاج مع الشهادة الحاضرة إلى انتظار الآيات المستقبلة.

وقال -تعالى-:

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾(٤).

أخبر باقتراب الساعة وانشقاق القمر، وانشقاق القمر قد عاينوه وشاهدوه وتواترت به الأخبار، وكان النبى ﷺ يقرأ هذه السورة فى المجامع الكبار مثل الجمع والأعياد، ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار وكل الناس يقر ذلك ولا ينكره، فعلم أن انشقاق القمر كان معلومًا عند الناس عامة. ثم ذكر حال الأنبياء ومكذبيهم، فقال:

(١) سورة الشعراء: ٥، ٦.
(٢) سورة فصلت: ٥٣.
(٣) سورة فصلت: ٥٣.
(٤) سورة القمر: ١-٥.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(١).

فأخبر أنه أبقى السفن آية على قـدرة الرب وعلى ما جرى لنوح مع قومه ثم قال: فكيف كـان عذابي لمن كذب ونذري؟ وكـذلك ذكر قصة عـاد وثمود ولوط وغيرهم، يقول في عقب كل قصة فكيف كان عذابي ونذر؟ ونذره وإنذاره وهو ما بلغته عنه الرسل من الإنذار وكيف كانت عقوبته للمنذرين.

والإنذار: هو الإعلام بالمخوف، فتبين بذلك صدق ما أخبرت به الرسل من الإنذار وشدة عذابه لمن كذب رسله، وذكر قصة فرعون، فقال:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(٢).

وذكر في قصة محمد ﷺ مع الناس أنواعًا من ذلك فقال:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٤).

ومثل هذا كثـير في القرآن من ذكر دلائل النبـوة، وأعلام الرسالة ليس هذا

---

(١) سورة القمر: ٩-١٥.
(٢) سورة القمر: ٤١-٤٥.
(٣) سورة آل عمران: ١٣.
(٤) سورة الحشر: ٢-٤.

موضع بسطه، وإنما المقصود هنا التنبيه على جنس ذلك. وما يذكره بعض أهل الكتاب أو غيرهم من أنه نصر فرعون ونمرود وسنحاريب وجنكسان وغيرهم من الملوك الكافرين جوابه ظاهر، فإن هؤلاء لم يدَّعِ أحد منهم النبوة، وأن الله أمره أن يدعو إلى عبادة الله وطاعته، ومن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، بخلاف من ادَّعى أن الله أرسله بذلك فإنه لا يكون إلاَّ رسولاً صادقًا ينصره الله ويؤيده وينصر أتباعه ويجعل العاقبة لهم، أو يكون كذابًا فينتقم الله منه ويقطع دابره، ويتبين أن ما جاءه به ليست من الآيات والبراهين التى لا تقبل المعارضة، بل هى من جنس مخارق السحرة والكهان والكذابين التى تقبل المعارضة، فإن معجزات الأنبياء من خواصها أنه لا يقدر أحد أن يعارضها ويأتى بمثلها بخلاف غيرها، فإن معارضتها ممكنة فيبطل دلالتها.

والمسيح الدجال يدَّعى الإلهية ويأتى بخوارق، ولكن نفس دعواه الإلهية دعوى ممتنعة فى نفسها، ويرسل الله عليه المسيح ابن مريم فيقتله ويظهر كذبه، ومعه ما يدل على كذبه من وجوه:

منها: أنه مكتوب بين عينيه كافر.

ومنها: أنه أعور والله ليس بأعور.

ومنها: أن أحدًا لن يرى ربه حتى يموت، ويريد أن يقتل الذى قتله أولاً فيعجز عن قتله.

فمعه من الدلائل الدالة على كذبه ما يبين أن ما معه ليس آية على صدقه، بخلاف معجزات الأنبياء، فإنه لا يمكن أحد من الإنس والجن أن يأتى بنظيرها ولا يبطلها مثل قلب العصا حية لموسى، وإخراج ناقة لصالح من الأرض، وإحياء الموتى للمسيح، وانشقاق القمر وإنزال القرآن وغير ذلك لمحمدﷺ ، فإن المشركين لما سألوا النبىﷺ آية واقترحوا عليه انشقاق القمر فأراهم ذلك.

وقد أخبر الله -تعالى- بذلك فى القرآن، فقال -تعالى-:

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾(١).

---

(١) سورة القمر: ١-٧.

ثم ذكر -تعالى- ما جرى قبله للمكذبين فذكر قصة قوم نوح وهود وصالح ولوط ثم فرعون وهذه السورة كان النبي ﷺ يقرأ بها في أعظم اجتماعات الناس عنده وهي الأعياد، والناس كلهم يسمعون ما يذكره من انشقاق القمر. وقول المكذبين أنه سحر والناس كلهم المؤمن به، والمنافق، والكافر، يقرون على هذا، لم يقل أحد منهم أن القمر لم ينشق ولا أنكره أحد.

وفي صحيح مسلم، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سأل أبا واقد الليثي ما يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر، فقال: **«كان يقرأ فيهما بقاف والقرآن المجيد. واقتربت الساعة وانشق القمر»**(١).

ومعلوم بالضرورة في مطرد العادة أنه لو لم يكن انشق لأسرع الناس المؤمنون به إلى تكذيب ذلك فضلاً عن أعدائه من الكفار والمنافقين، لا سيما وهو يقرأ عليهم ذلك في أعظم مجامعهم.

وأيضًا فمعلوم أن محمدًا ﷺ كان من أحرص الخلق على تصديق الناس له واتباعهم إياه مع أنه كان أخبر الناس بسياسة الخلق، فلو لم يكن القمر انشق لما كان يخبر بهذا ويقرأه على جميع الخلق ويستدل به ويجعله آية له، فإن من يكون من أقل الناس خبرة بالسياسة لا يتعمد إلى ما يعلم جميع الناس أنه كاذب به فيجعله من أعظم آياته الدالة على صدقه ويقرأه على الناس في أعظم المجامع.

وقال اقتربت الساعة وانشق القمر بصيغة الفعل الماضي، ولم يقل قامت الساعة ولا ستقوم بل قال اقتربت -أي دنت- وقربت وانشق القمر الذي هو دليل على نبوة محمد وعلى إمكان انحراق الفلك الذي هو قيام القيامة، وهو سبحانه - قرن بين خبره باقتراب الساعة وخبره بانشقاق القمر، فإن مبعث محمد ﷺ هو من أشراط الساعة وهو دليل على قربها، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح **«بعثت أنا والساعة كهاتين وجمع بين أصبعيه السبابة والوسطى»**(٢) وقد قال -تعالى-:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨٩١)، وأبو داود (١١٥٤)، والترمذي (٥٣٤، ٥٣٥)، والنسائي (٣/ ١٨٤)، وابن ماجه (١٢٨٢)، وأحمد (٥/٢١٨، ٢١٩)، ومالك في «الموطأ» (٢٣٦)، والشافعي في «الأم» (٤٧٩-٢٥٢١).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١)، والترمذي (٢٢٢١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾[١].

وعلم الساعة أخفاها الله عن جميع خلقه، كما يذكر ذلك عن المسيح فى الإنجيل أنه لما سئل عنها فقال: «إنها لا يعلمها أحد من الناس ولا الملائكة ولا الابن وإنما يعلمها الآب وحده»[٢]. وهذا مما يدل على أنه ليس هو رب العالم وكذلك محمد ﷺ أخبر بذلك لما سئل عنها.

قال -تعالى-:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[٣].

أى: خفيت على أهل السموات والأرض:

﴿ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[٤].

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «**تسألونى عن الساعة وإنما علمها عند الله**»[٥]، فانشقاق القمر كان آية على شيئين: على صدق الرسول، وعلى مجىء الساعة وإمكان انشقاق الفلك، فإن المنكرين لقيام القيامة الكبرى قيام الناس من قبورهم لرب العالمين وانشقاق السموات وانفطارها سواء أقروا بالقيامة الصغرى وأن الأرواح بعد الموت تنعم أو تعذب، كما هو قول الفلاسفة اللاإلهيين، أو أنكروا المعاد مطلقًا كما أنكر ذلك من أنكره من مشركى العرب والفلاسفة الطبيعيين، وغيرهم ينكرون انشقاق السموات ويزعم هؤلاء الدهرية أن الأفلاك لا يجوز عليها الانشقاق، كما ذكر ذلك أرسطو وأتباعه وزعموا أن الانشقاق يقتضى حركة مستقيمة وهى ممتنعة بزعمهم فى الفلك المحدد إذ لا خلاء وراءه عندهم، وهذا لو دل فإنما يدل على ذلك فى الفلك الأطلس لا فيما دونه فكيف وهو باطل، فإن الحركة المستقيمة هناك بمنزلة جعل الأفلاك ابتداء فى هذه الأحياز التى هى فيها سواء سمى خلاء أو لم يسمّ كما هو مذكور فى غير هذا الموضع.

---

(١) سورة محمد: ١٨.

(٢) فى إنجيل متى (٢٤/٣٦) بعد أن ذكر من علامات آخر الزمان قال: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السماوات إلا أبى وحده».

(٣، ٤) سورة الأعراف: ١٨٧.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٣٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

والمقصود هنا أنه -تعالى- أخبر بانشقاق القمر مع اقتراب الساعة، لأنه دليل على إمكان انشقاق الأفلاك وانفطارها الذى هو قيام الساعة الكبرى، وهو آية على نبوة محمد ﷺ الذى هو من أشراط الساعة والله -تعالى- فى كتابه يجمع بين ذكر القيامة الكبرى والصغرى كما فى سورة الواقعة ذكر فى أولها القيامة الكبرى وفى آخرها القيامة الصغرى، وذلك كثير فى سور القرآن مثل سورة ق، وسورة القيامة، وسورة التكاثر، وسورة الفجر، وغير ذلك.

وقد استفاضت الأحاديث بانشقاق القمر ففى الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**»(١) وفى لفظ: «ونحن معه بمنى»، فقال كفار قريش: سحركم ابن أبى كبشة، فقال رجل منهم: إن محمدًا إن كان سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا؟ فأتوا فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك.

وعن أنس بن مالك أنه قال: سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما، فنزلت:

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾(٢).

وهذا حديث صحيح مستفيض، رواه ابن مسعود وأنس بن مالك وابن عباس(٣)، وهو أيضًا معروف، عن حذيفة(٤)، قال: أبو الفرج بن الجوزى: والروايات فى الصحيح بانشقاق القمر، عن ابن عمر(٥) وابن مسعود وابن عباس وأنس رضي الله عنهم.

ولما زعموا أن هذا القرآن هو ألفه:

قال الله -تعالى-:

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠)، والترمذى (٣٢٩٦-٣٢٩٨).
(٢) سورة القمر: ١، ٢.
والخبر أخرجه البخارى (٣٦٣٧)، ومسلم (٢٨٠٢)، والترمذى (٣٢٩٧).
(٣) أخرجه البخارى (٣٦٣٨)، ومسلم (٢٨٠٣).
(٤) أخرجه الطبرى فى «تفسيره» (٢٧/ ٥١)، والطحاوى فى «مشكل الآثار» (٧٠٦، ٧٠٧).
(٥) أخرجه مسلم (١٨٠١)، والترمذى (٢١٨٩، ٣٢٩٩).

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾(١).

ثم تحداهم بعشر سور فقال -تعالى-:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٢).

ثم تحداهم بسورة واحدة فقال:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ...﴾(٣).

وقال -تعالى- أيضًا:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ...﴾(٤).

فعجز جميع الخلق أن يعارضوا ما جاء به ثم سجل على جميع الخلق العجز إلى يوم القيامة بقوله:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٥).

فأخبر من ذلك الزمان أن الإنس والجن إذا اجتمعوا لا يقدرون على معارضة القرآن بمثله، فعجز لفظه ومعناه ومعارفه وعلومه أكمل معجزة وأعظم شأنًا والأمر كذلك فإنه لم يقدر أحد من العرب وغيرهم مع قوة عداوتهم وحرصهم على إبطال أمره بكل طريق وقدرتهم على أنواع الكلام أن يأتوا بمثله، وأنزل الله إذ ذاك آيات بيَّن فيها أنه رسول إليهم ولم يذكر فيها أنه لم يرسل إلى غيرهم.

---

(١) سورة الطور: ٣٣، ٣٤.

(٢) سورة هود: ١٣، ١٤.

(٣) سورة البقرة: ٢٣، ٢٤.

(٤) سورة يونس: ٣٨.

(٥) سورة الإسراء: ٨٨.

فقال -تعالى- في سورة القصص:

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴿٤٣﴾ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴿٤٤﴾ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ﴿٤٥﴾ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴿٤٦﴾ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾(١).

وقال في سورة السجدة:

﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾(٢).

وقال في سورة يس:

﴿يس ﴿١﴾ والقرآن الحكيم ﴿٢﴾ إنك لمن المرسلين ﴿٣﴾ على صراط مستقيم ﴿٤﴾ تنزيل العزيز الرحيم ﴿٥﴾ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾(٣).

ذكر -تعالى- في هذه الآيات الثلاث نعمته على هؤلاء وحجته عليهم بإرساله، وذكر بعض حكمته في إرساله، وذلك لا يقتضي أنه لم يرسل إلا لهذا بل مثل هذا كثير معروف في لسان العرب وغيرهم.

قال -تعالى-:

﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾(٤).

ومعلوم أن في هذه الدواب منافع غير الركوب، وقال -تعالى-:

﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴿١٥﴾ يوم هم بارزون﴾(٥).

(١) سورة القصص: ٤٣-٤٧.

(٢) سورة السجدة: ٣.

(٣) سورة يس: ١-٦.

(٤) سورة النحل: ٨.

(٥) سورة غافر: ١٥-١٦.

فقد أخبر أنه ينزل الملائكة بالوحى على الأنبـياء لينذروا يوم القيامة وذلك لا يمنع أن يكونوا نزلوا بالبشارة للمؤمنين والأمر والنهى بالشرائع.

وقال -تعالى-:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[1].

فأخبر -تعالى- أنه خلق العالم العلوى والسفلى ليعلم العباد قدرته وعلمه. ومع هذا ففى خلق ذلك له من الحكمة أمور أخرى غير علم العباد ومثل ذلك قوله -تعالى-:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

ومعلوم أن فى جـعل الكعبـة قيامًـا للناس والهدى والقلائد حـكمًا ومنافع أخرى.

وقال -تعالى-:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[3].

ومعلوم أن فى ملك الله حكمًـا أخرى غير جزاء المحـسن والمسيء، وكذلك قوله:

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[4].

وقال -تعالى-:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ...﴾ إلى قوله:

---

(١) سورة الطلاق: ١٢.

(٢) سورة المائدة: ٩٧.

(٣) سورة النجم: ٣١.

(٤) سورة الجاثية: ٢٢.

﴿... رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(١).

ومعلوم أن فى إرسال الرسل سعادة من آمن بهم، وغيرها حكم أخرى غير دفع حجة الخلق على الله، وكذلك قوله -تعالى-:

﴿... كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ...﴾(٢).

ومعلوم أن فى تسخيرها حكمًا ومنافع غير التكبير، وقوله:

﴿... وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ...﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(٤).

ومعلوم أن لله حكمًا فى خلق الشمس والقمر، والليل والنهار، غير انتفاع بنى آدم وكذلك قوله:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ...﴾(٥).

وقوله:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾(٦).

وفيها حكم أخرى.

وقال:

﴿... وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾(٧).

---

(١) سورة النساء: ١٦٣-١٦٥.
(٢) سورة الحج: ٣٧.
(٣) سورة البقرة: ١٨٥.
(٤) سورة إبراهيم: ٣٢-٣٤.
(٥) سورة يونس: ٦٧.
(٦) سورة الفرقان: ٦٢.
(٧) سورة البقرة: ٢١٣.

وفى إنزال الكتاب من هدى من اهتدى بـه واتعاظه وغير ذلك مقاصـد غير الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

وقال -تعالى-:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾(١).

ومعلوم أن فى مبعث الخلق يـوم القيامة مقاصد غيـر بيان المختلف فى علم هؤلاء، ومما يبـين ذلك أنه قال فى الآية التى احـتجـوا بها: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ...﴾(٢).

ومـعلوم أنه لم يبـعث لمجرد الإنذار، بل وليـبـشر من آمن به، ولأمـرهم بالمعروف ونهـيهم عن المنكر، وتحليل الطيبـات، وتحريم الخبائث، وغـير ذلك من مقاصد الرسل كما قال -تعالى-:

﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾(٣).

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾(٤).

لا ينافى كونه لم يصفهم فى موضع آخر إلاَّ بالإنذار، وقد قال:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾(٥).

وكان المسلمون مرة صلوا صلاة العيد بحضـرة حصار النصارى فقام خطيبهم فخطب بهذه الآية، ولما قرأ قوله:

---

(١) سورة النحل: ٣٨، ٣٩.

(٢) سورة يس: ٦.

(٣) سورة النساء: ١٦٥.

(٤) سورة الأنعام: ٤٨.

(٥) سورة الكهف: ١-٥.

﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ . . . ﴾(١).

أشار إلى جند الإيمان، ولما قرأ قوله:

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾(٢).

أشار إلى جند الصلبان.

وقال -تعالى-:

﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ . . . ﴾(٣).

وفى إنزال الكتاب والميزان حكم أخرى من البشارة والإنذار وغير ذلك، وكذلك قوله عن أهل الكهف:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾(٤).

وفى بعثهم حكم أخرى بدليل قوله:

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا . . . ﴾(٥).

وقال -تعالى-:

﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ . . . ﴾(٦).

ومعلوم أن فى ذلك مقاصد أخرى من هداية الخلق، وقيام الحجة على من بلغهم وغير ذلك. وقوله:

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾(٧).

---

(١) سورة الكهف: ٢.
(٢) سورة الكهف: ٤.
(٣) سورة الحديد: ٢٥.
(٤) سورة الكهف: ١٢.
(٥) سورة الكهف: ٢١.
(٦) سورة الجن: ٢٧، ٢٨.
(٧) سورة ص: ٢٩.

وفيه حكم أخرى من قيام الحجة على الخلق وضلال من ضل به، ومثله قوله:

﴿ هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾(١).

ومعلوم أن في ذلك مقاصد أخرى من البشارة والأمر والنهي وغير ذلك، وكذلك قوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾(٢).

ومعلوم أن في جزاء المؤمنين مقاصد أخرى غير علم أهل الكتاب وما معه. وقال -تعالى-:

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا... ﴾(٣).

ومعلوم أن فيه حكمًا أخرى مثل تبشير من آمن به، والأمر، والنهي، وإنذار غير هؤلاء من العرب.

وقال -تعالى-:

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(٤).

ومعلوم أن فيه حكمة أخرى غير الإنذار.

وقال -تعالى-:

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾(٥).

---

(١) سورة إبراهيم : ٥٢.
(٢) سورة الحديد: ٢٨، ٢٩.
(٣) سورة الأنعام: ٩٢.
(٤) سورة يس: ٦٩، ٧٠.
(٥) سورة الأحقاف: ١٢.

ومعلوم أن فيه حكمة أخرى من إنذار الخلق كلهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتبشير المؤمنين، فقال -تعالى-:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ...﴾(١).

ومعلوم أن في أخذ الميثاق حكمًا أخرى.

وقال -تعالى-:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(٢).

وقوله:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى...﴾.

إلى قوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا...﴾(٣).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ...﴾.

إلى قوله:

﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ...﴾(٤).

وكذلك قوله:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ...﴾(٥).

وفي ذلك كله حكم أخرى، وكذلك قوله:

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا...﴾(٦).

---

(١) سورة الأحزاب: ٧، ٨.
(٢) سورة الفتح: ١، ٢.
(٣) سورة الإسراء: ١.
(٤) سورة الإسراء: ١٢.
(٥) سورة يونس: ٥.
(٦) سورة القصص: ٨.

وإن كانت هذه لام العاقبة، فليست العـاقبة منحصرة في ذلك، بل في ذلك من الإحسان إلى موسى وتربيته وغير ذلك حكم أخرى، ومثل قوله:

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ...﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ...﴾(٢).

وفي إرساله حكم أخرى، وكذلك قوله:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ...﴾(٣).

وفي إنزاله تبشير وإنذار وأمر ونهي، ووعد ووعيد، وكذلك قوله في عيسى ابن مريم:

﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾(٤).

وكذلك قوله:

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ...﴾(٥).

وفيه حكم أخرى، كما قال في الآية الأخرى:

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا...﴾(٦).

وقال:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٧).

---

(١) سورة الأنعام: ١٣٧.
(٢) سورة الصف: ٩.
(٣) سورة النساء: ١٠٥.
(٤) سورة مريم: ٢١.
(٥) سورة الجاثية: ١٢.
(٦) سورة النحل: ١٤.
(٧) سورة فاطر: ١٢.

وقال -تعالى-:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ... ﴾.

إلى قوله:

﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾(١).

وكذلك قوله:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٢).

وفى كونهم وسطًا حكم أخرى:

وقوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً... ﴾(٣).

وفيهما حكم أخرى، وكذلك قوله:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾(٤).

وفى ذلك حكم أخرى من البشارة والأمر والنهى.

وقال -تعالى-:

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾.

إلى قوله: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا... ﴾(٥).

وفى ذلك حكم أخرى، ومثل ذلك كثير فى كلام الله -عز وجل- وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى، لكن لابد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر فى ذلك الموضع من مناسبته، وهذا كالمناسبة فى قوله:

---

(١) سورة الأنعام: ١١٢-١١٣.

(٢) سورة البقرة: ١٤٣.

(٣) سورة الملك: ٢.

(٤) سورة الفرقان: ١.

(٥) سورة آل عمران: ١٤٠، ١٤١.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ...﴾(١).

فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين، وأحقهم بالإنذار، فكان فى تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم.

وقال -تعالى-:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(٢).

ومعلوم أنه نزل به ليكون بشيراً، وليأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحل الطيبات، ويحرم الخبائث، ويضع الآصار والأغلال ﷺ.

• • •

---

(١) سورة يس: ٦.

(٢) سورة الشعراء: ١٩٣-١٩٥.

فصل

[بقية شبهات النصارى على تخصيص الرسالة]

وأما احتجاجهم بقوله -تعالى-:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا...﴾(١).

وقوله -تعالى-:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ...﴾(٢).

فهذا كقوله -تعالى-:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

وهذا فى عمومه نزاع، فإنه إما أن يكون خطابًا لجميع الناس، ويكون المراد إنا بعثنا إليكم رسولاً من البشر، إذ كنتم لا تطيقون أن تأخذوا عن ملك من الملائكة، فمنَّ الله عليكم بأن أرسل إليكم رسولاً بشريًا.

قال -تعالى-:

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(٤).

وإما أن يكون الخطاب للعرب، وعلى التقديرين، فإن ما تضمن ذكر أنعامه على المخاطبين بإرساله رسولاً من جنسهم، وليس فى هذا ما يمنع أن يكون مرسلاً إلى غيرهم، فإنه إن كان خطابًا للإنس كلهم، فهو أيضًا مرسل إلى الجن،

---

(١) سورة البقرة: ١٥١.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٣) سورة التوبة: ١٢٨.

(٤) سورة الأنعام: ٨، ٩.

وليس من جنسهم، فكيف يمتنع إذا كان خطابًا للعرب بما امتن به عليهم، أن يكون قد امتن على غيرهم بذلك، فالعجم أقرب إلى العرب من الجن إلى الإنس، وقد أخبر في الكتاب العزيز أن الجن لما سمعوا القرآن آمنوا به.

قال -تعالى-:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ...﴾(١).

وقال:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

---

(١) سورة الأحقاف: ٢٩-٣٢.

﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾(١).

ونظير هذا قوله:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾(٢).

وقومه قريش، ولا يمنع أنه ذكر لسائر العرب بل لسائر الناس، كما قال -تعالى-:

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾(٥).

وقال -تعالى-:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٦).

---

(١) سورة الجن.

(٢) سورة الزخرف: ٤٤.

(٣) سورة القلم: ٥١، ٥٢.

(٤) سورة الفرقان: ١.

(٥) سورة ص: ٨٦-٨٨.

(٦) سورة التكوير: ١٩-٢٩.

وقال -تعالى-:

﴿... وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾(١).

وهذا على أصح القولين، وأن المراد بقوله:

﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾(٢).

أنه ذكر لهم يذكرونه فيهتدون به.

وقيل: إن المراد أنه شرف لهم وليس بشيء، فإن القرآن هو شرف لمن آمن به من قومه وغيرهم وليس شرفًا لجميع قومه، بل من كذب به منهم كان أحق بالذم كما قال -تعالى-: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾(٣).

وقال -تعالى-: ﴿وكذب به قومك وهو الحق...﴾(٤).

بخلاف كونه تذكرة وذكرى فإنه تذكرة لهم ولغيرهم، كما قال -تعالى-:

﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين...﴾(٥).

فعم العالمين جميعهم، فقال:

﴿وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين﴾(٦).

• • •

---

(١) سورة النساء: ٧٩.

(٢) سورة الزخرف: ٤٤.

(٣) سورة المسد: ١.

(٤) سورة الأنعام: ٦٦.

(٥) سورة الأنعام: ٩٠.

(٦) سورة يوسف: ١٠٤.

فصل

هذا الكلام على الوجه الأول ، وهو قول من يقول إنه لم يقل إنه أرسل إلا إلى العرب.

وأما الوجه الثاني: وهو أن نقول: هو ذكر أنه رسول إلى الناس كافة كما نطق به القرآن في غير موضع، كقوله -تعالى-:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً . . .﴾(١).

وقوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٢).

وقد صرح فيه بدعوة أهل الكتاب وبدعوة الجن فى غير موضع فإذا سلموا أنه ذكر ذلك ولكن كذبوه فى ذلك:

فإما أن يقروا برسالته إلى العرب، أو لا يقروا.

فإن أقروا بأنه رسول أرسله الله لم يمكن مع ذلك، تكذيبه كما تقدم، بل يجب الإقرار برسالته إلى جميع الخلق كما أخبر بذلك، كما تقدم أن من ذكر أنه رسول الله لا يكون إلا من أفضل الخلق وأصدقهم، أو من شر الخلق وأكذبهم، فإنه إن كان صادقًا فهو من أفضلهم وإن كان كاذبًا فهو من شرهم، وإذا كان الله قد أرسله -ولو إلى قرية كما أرسل يونس بن متى إلى أهل نينوى، كان من أفضل الخلق، وكان صادقًا لا يكذب على الله، ولا يقول عليه إلا الحق، ولو كذب على الله ولو فى كلمة واحدة، لكان من الكاذبين، لم يكن من رسل الله الصادقين، فإن الكاذب لا يكذب فى كل شيء، بل فى البعض فمن كذب على الله فى كلمة واحدة، فقد افترى على الله الكذب، وكان من القسم الكاذبين فى دعوى الرسالة لا من الصادقين.

(١) سورة سبأ: ٢٨.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٨.

وأيضًا فـإن مقـصود الرسـالة تبليغ رسالات الله على وجـهها، فإذا خلط الكذب بالصدق لم يحصل مقصود الرسالة.

وأيضًا فإذا علم أنه كذب فى بعضها لم يتميز ما صدق فيه مما كذب فيه إلا بدليل آخر غير رسالته، فلا يحصل المقصود برسالته.

ولهذا أجمع أهل الملل قاطبة على أن الرسل معصومون فيما يبلغونه عن الله -تبارك وتعالى- لم يقل أحد قط أن من أرسله الله يكذب عليه، وقد قال -تعالى- ما يبين أنه لا يقر كاذبًا عليه قال -تعالى-:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ...﴾(٢).

ثم قال -تعالى-:

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ...﴾(٣).

فقوله -تعالى-: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾.

كلام مستأنف ليس داخلاً فى جواب الشرط، فإنه لو كان معطوفًا على جواب الشرط لقال: ويحق الحق بالكسر لالتقاء الساكنين، كما فى قوله:

﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾(٤).

فلما قال: ويحق الحق، بالضم دل على أنه جملة مستأنفة أخبر فيها أنه -تعالى- يمحو الباطل كباطل الكاذبين عليه، ويحق الحق كحق الصادقين عليه، فمحو الباطل نظير إحقاق الحق ليس مما علق بالمشيئة بل لابد منه، بخلاف الختم على قلبه، فإنه معلق بالمشيئة ولا يجوز أن يعلق بالمشيئة محو الباطل كتعليق الختم، بل يقذف بالحق على الباطل فيدمغه. وقال -تعالى-: فى صيانته وإحكامه لما تبلغه رسله:

---

(١) سورة الحاقة: ٤٤-٤٧.

(٢)، (٣) سورة الشورى: ٢٤.

(٤) سورة المزمل: ٢.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

وأيضًا: فإذا لم يكن أرسل إلا إلى العرب وقد دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به، وكفرهم إذا لم يؤمنوا به، وجاهدهم وقتل مقاتلهم، وسبى ذرياتهم كان ذلك ظلمًا لا يفعله إلا من هو من أظلم الناس، ومن كان نبيًا قد أرسله الله فهو منزه عن هذا وهذا.

فالإقرار برسالته إلى العرب دون غيرهم -مع ما ظهر من عموم دعوته للخلق كلهم- قول متناقض ظاهر الفساد، وكل ما دل عليه أنه رسول فإنه يستلزم رسالته إلى جميع الخلق، وكل من اعترف بأنه رسول لزمه الاعتراف بأنه رسول إلى جميع الخلق، وإلا لزم أن يكون الله أرسل رسولاً يفترى عليه الكذب، ويقول للناس: إن الله أمركم باتباعى وأمرنى بجهادكم إذا لم تفعلوا وهو كاذب فى ذلك، ومعلوم أن كل ما دل على أن الله أرسله فإنه يدل على أنه صادق فى الرسالة وإلا فلا، فالرسول الكاذب لا يحصل به مقصود الرسالة بل يكون من جملة المفترين على الله الكذب، وأولئك ليسوا من رسل الله، ولا يجوز تصديقهم فى قولهم: إن الله أرسلهم.

• • •

(١) سورة الحج: ٥٢-٥٤.

فهرس [الجزء الأول]

الموضـــــوع | الصفحة

الموضــــــوع **الصفحة**



امام الباب الاخضر - سيدنا الحسين
٥٩٢٢٢٤١٠ ٥٩٠٤١٧٥

الجواب الصحيح

لمن بدل دين المسيح

لشيخ الإسلام

أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني

المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

تحقيق

خيري سعيد

الجزء الثاني



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٢٢٤١٠ ٥٩٠٤١٧٥

المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo - Egypt
Add : in front of the Green Door Of El Hussen
Tel : (00202) 5904175 -5922410
Fax : 6847957

إشراف
توفيق شعلان

التجهيزات الفنية
دار التوفيقية للطباعة

فصـل

وإما أن لا يقروا برسالته إلى العرب ولا غيـرهم، بل قالوا فيه ما كان يقوله مشركو العرب من أنه شاعر، أو ساحر، أو مـفتر كاذب، ونحو ذلك. فيقال لهم على هذا التقـدير: فدليلكم أيضًـا باطل، ولا يجوز أن تحتـجوا بتقـدير تكذيبكم لمحمد ﷺ بشىء من كلام الأنبياء قبله، سـواء صدقتم محمدًا ﷺ فى جميع ما يقوله أو فـى بعضه، أو كـذبتمـوه فدليلكم باطل، فـيلزم بطلان دينكم على كل تقدير، ومـا ثبت بطلانه على كل تقـدير، فهو باطل فى نفس الأمـر، فيـثبت أنه باطل فى نفس الأمر، وذلك أنكم إذا كذبتم محـمدًا لم يبقَ لكم طريق تعلمون به صدق غيره من الأنبياء، فيمتنع مع تكذيبـه القول بصدق غيره، بل من اعتقد كذبه وصدق غيره، لم يكن عـالـمًا بصدق غيره بل يكون مصـدقًا لهم بغير علم: وإذا لم يكن عالـمًا بصدقهم لم يجز احتجاجه قط بأقوالهم بل ذلك قول منه بلا علم، ومحـاجة فيـما لا علم له بها، فـإن الدلائل الدالة على صدق محـمد ﷺ أعظم وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى، ومعجزاته أعظم من معجزات غيره، والكتـاب الذى أرسل به أشرف من الكتاب الذى بعث به غيـره، والشريعة التى جاء بها أكـمل من شريعة موسى وعيـسى -عليهما السلام- وأمـته أكمل فى جميع الفضائل من أمـة هذا وهذا. ولا يوجد فى التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صـالح إلاَّ وهو فى القرآن أو مـثله أو منه، وفى القـرآن من العلم النافع والعـمل الصالح مـا لا يوجد مثله فى التـوراة والإنجيل، فما مـن مطعن من مطاعن أعداء الأنبياء يطعن به على مـحمد ﷺ إلاَّ ويمكن توجيـه ذلك الطعن وأعظم منه على موسى وعيسى.

وهذه جملة مبسوطة فى موضع آخر لم نبسطها هنا، لأن جواب كلامهم لا يحتـاج إلى ذلك، فيـمتنع الإقـرار بنبوة موسى وعـيسى -عليـهمـا السلام- مع التكذيب بنبوة مـحمد ﷺ ولا يفعل ذلك إلاَّ من هو من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عنادًا واتـباعًا لهواه، وذلـك أن هؤلاء القوم احتـجوا بما نقلوه عن الأنبياء، ولم يذكروا الأدلة الدالة على صدقـهم، بل أخذوا ذلك مسلمًا وطلبوا أن

يحتجـوا بما نقلوه عن الأنبياء قبله، وبما نقلوه عنه على صحـة دينهم، وهذه حجة داحضة سـواء صدقوه أو كذبوه، فإن صدقـوه بطل دينهم وإن كذبوه بطل دينهم، فإنهم إن صدقوه فقد علم أنه دعـاهم وجميع أهل الأرض إلى الإيمان به وطاعته، كمـا دعا المسيح ومـوسى وغيرهمـا من الرسل وأنه أبطل ما هم عليـه من الاتحاد وغيره، وكفرهم في غير موضع، ولهذا كان مجرد التصديق بأن محمداً رسول الله ولو إلى العرب يوجب بطلان دين النـصارى واليهود وكل دين يخـالف دينه. فإن من كان رسـولاً لله فإنه لا يكـذب على الله، ومحـمد ﷺ قد علم مـنه أنه دعا النصارى واليهود إلى الإيمان به وطاعته كمـا دعا غيرهم، وأنه كفر من لم يؤمن به ووعده النار وهذا متـواتر عنه تواتراً تعلمه العامة والخاصـة وفي القرآن من ذلك ما يكثر ذكره، كما قال -تعالى-:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾(1).

وقال -تعالى-:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(2).

وقد ذكـر كفـر اليهـود والنصارى في غـير موضـع، كقوله -تعـالى- عن النصارى:

---

(١) سورة البينة: ١-٨.

(٢) سورة آل عمران: ١٨-٢٠.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾(١).

وقال -تعالى- أيضًا:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم

---

(١) سورة المائدة: ١٧.

(٢) سورة المائدة: ٧٢-٧٧.

(٣) سورة النساء: ١٧١-١٧٥.

بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٢).

فقد قال -تعالى-:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ... ﴾(٣).

فى الموضعين.

وقال تعالى-:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ... ﴾(٤).

وقال -تعالى-: ﴿ ... وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ... ﴾(٥).

وقال -تعالى-:

﴿ ... وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ... ﴾(٦).

والنصارى قالت الأقوال الثلاثة، فذكر الله عنهم هذه الأقوال لكن من الناس من يظن أن هذا قول طائفة منهم، وهذا قول طائفة منهم.

كما ذكره طائفة من المفسرين، كابن جرير الطبرى والثعلبى وغيرهما ثم تارة

(١) سورة التوبة: ٣٠-٣١.
(٢) سورة المائدة: ١١٦-١١٧.
(٣) سورة المائدة: ١٧.
(٤) سورة المائدة: ٧٣.
(٥) سورة النساء: ١٧١.
(٦) سورة التوبة: ٣٠.

يحكون عن اليعقوبية: أن عيسى هو الله، وعن النسطورية: أنه ابن الله، وعن المريوسية: أنه ثالث ثلاثة، وتارة يحكون عن النسطورية: أنه ثالث ثلاثة، وعن الملكية: أنه الله، ويفسرون قولهم: ثالث ثلاثة بالأب والابن، وروح القدس.

والصواب: أن هذه الأقوال جميعها قول طوائف النصارى المشهورة: الملكية واليعقوبية والنسطورية، فإن هذه الطوائف كلها تقول بالأقانيم الثلاثة: الآب والابن وروح القدس، فتقول: إن الله ثالث ثلاثة، وتقول عن المسيح: إنه الله، وتقول إنه ابن الله، وهم متفقون على اتحاد اللاهوت والناسوت وأن المتحد هو الكلمة، وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التي تتضمن ذلك، وهو قولهم: «نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل، خالق السموات والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق».

وأما قوله -تعالى-:

﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ...﴾(١).

وقوله:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ...﴾(٢).

فقد فسروه بالتثليث المشهور عنهم، المذكور في أمانتهم، ومن الناس من يقول: إن الله هو المسيح ابن مريم قول اليعقوبية، وقولهم: ثالث ثلاثة هو قول النصارى الذين يقولون بالآب والابن والروح القدس وهم قد جعلوا الله فيها ثالث ثلاثة، وسموا كل واحد من الثلاثة بالإله والرب، وقد فسره طائفة بجعلهم عيسى وأمه إلهين يعبدان من دون الله.

قال السدي في قوله -تعالى-:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ...﴾.

قال: قالت النصارى: إن الله هو المسيح وأمه. فذلك قوله: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(٣).

---

(١) سورة النساء: ١٧١.

(٢) سورة المائدة: ٧٣.

(٣) سورة المائدة: ١١٦.

وقد قيل قول ثالث أغـرب من ذلك عن أبى صخر، قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ...﴾.

قال: هو قول اليهود عزير ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة، وهذا ضعيف، وقد ذكر سعـيد بن البطريق فى أخبار النصارى أن منهم طائفة -يقال لهم المريميون- يقولون: إن مريم إله وإن عيسى إله.

وأما الأول فمتوجه، فإن النـصارى المتفقين على الأمانة، كلهم يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، والله -تعالى- قد نهاهم عن أن يقولوا ذلك، فقال -تعالى-:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ...﴾(١).

فذكـر -سبحـانه- فى هذه الآية التثليث والاتحـاد ونهاهم عنهـما، وبيَّن أن المسيح إنما هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

وقال:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

ثم قال:

﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ...﴾.

لم يذكر هنا أمه. وقوله -تعالى-:

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

قال معمر عن قتادة: «وكلمته ألقاها إلى مريم هو قوله: كن فكان.

وكذلك قال قتادة: «ليس الكلمة صار عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى».

وكذلك قـال الإمام أحمـد فى مصنفـه الذى صنفه فى كتـابه فى الرد على الجهمـية، وذكره عنه الخـلال والقاضى أبو يعلى. قال أحمـد: ثم إن الجهم ادعى أمرًا فقال: إنّا وجدنا فى كتاب الله آية تدل على أن القرآن مخلوق. قلنا: أى آية؟ قال: قول الله:

---

(١) سورة النساء: ١٧١.

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ...﴾(١).

فقلنا: إن الله منعكم الفهم في القرآن، عيسى عليه السلام تجرى عليه ألفاظ لا تجرى على القرآن، لأن عيسى * يجرى عليه نسمة* ومولود وطفل وصبي وغلام يأكل ويشرب وهو يخاطب بالأمر والنهى، يجرى عليه الوعد والوعيد، هو من ذرية نوح، ومن ذرية إبراهيم، ولا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى، هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال عيسى؟ ولكن المعنى في قوله -جل ثناؤه-:

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ...﴾.

فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: كن فكان عيسى بـ«كن» وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكن كان، فالكن من الله قوله: وليس الكن مخلوقًا، وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالوا: عيسى روح الله وكلمته، لأن الكلمة مخلوقة.

وقالت النصارى: روح الله من ذات الله، وكلمة الله من ذات الله، كما يقال: هذه الخرقة من هذا الثوب. وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة.

قال أحمد: -وأما قوله- جلَّ ثناؤه-:

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

يقول من أمره كان الروح فيه كقوله:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ...﴾(٢).

يقول من أمره، وتفسير روح الله إنما معناها أنها روح بكلمة الله خلقهم الله، كما يقال: عبد الله وسماء الله، وفي نسخة روح يملكها الله خلقها الله.

وقال الشعبي في قوله -تعالى-:

---

(١) سورة النساء: ١٧١.

(٢) سورة الجاثية: ١٣.

﴿... وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ...﴾(١).

الكلمة حين قال له: كن فكان عيسى بـ«كن» وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكن كان.

وقال ليث عن مجاهد: روح منه: قال: رسول منه يريد مجاهد قوله:

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ...﴾(٢).

والمعنى أن عيسى خلق من الروح وهو جبريل روح القدس، سمى روحًا كما سمى كلمة، لأنه خلق بالكلمة والنصارى يقولون فى أمانتهم: تجسد من مريم ومن روح القدس، لأنه كذلك فى الكتب المتقدمة، لكن ظنوا أن روح القدس هو صفة لله وجعلوها حياته وقدرته وهو رب، وهذا غلط منهم فإنه لم يسم أحد من الأنبياء حياة الله ولا قدرته ولا شيئًا من صفاته روح القدس، بل روح القدس فى غير موضع من كلام الأنبياء -عليهم السلام- يراد بها ما ينزله الله على قلوب الأنبياء، كالوحى، والهدى، والتأييد ويراد بها الملك، وهكذا فى تفسير ابن السائب عن أبى صالح عن ابن عباس: أن عيسى بن مريم استقبل رهطًا من اليهود، فلما رأوه قالوا: قد جاء الساحر ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة، فقذفوه وأمه، فلما سمع عيسى ذلك قال: اللهم أنت ربى، وأنا من روحك خرجت، وبكلمتك خلقتنى، ولم آتهم من تلقاء نفسى(٣). وذكر تمام الحديث.

وقد قال -تعالى-:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا...﴾(٥).

---

(١) سورة النساء: ١٧١.
(٢) سورة مريم: ١٧-١٩.
(٣) إسناده ضعيف جدًا: أبو صالح هو باذام مولى أم هانئ، ضعيف كما فى «التقريب» (٦٣٤) وابن السائب هو الكلبى متروك ومتهم بالكذب.
(٤) سورة الأنبياء: ٩١.
(٥) سورة التحريم: ١٢.

فهذا يوافق قوله -تعالى-:

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ...﴾(١).

والمقصود هنا: أنهم سواء صدقوا محمدًا أو كذبوه، فإنه يلزم بطلان دينهم على التقديرين، فإنه إن كان نبيًّا صادقًا، فقد بلغ عن الله فى هذا الكتاب كفر النصارى فى غير موضع، ودعاهم إلى الإيمان به، وأمر بجهادهم، فمن علم أنه نبى ولو إلى طائفة معينة، يجب تصديقه فى كل ما أخبر به، وقد أخبر بكفر النصارى وضلالهم، وإذا ثبت هذا لم يغن عنهم الاحتجاج بشىء من الكتب والمعقول، بل يعلم من حيث الجملة أن كل ما يحتجون به على صحة دينهم فهو باطل، وإن لم يبين فساد حججهم على التفصيل، لأن الأنبياء لا يقولون إلا حقًّا، كما أن المسيح عليه السلام لما حكم بكفر من كذبه من اليهود، كان كل ما يحتج به اليهود على خلاف ذلك باطلاً، فكل ما عارض قول النبى ﷺ المعصوم فهو باطل، وإن كذبوا محمدًا تكذيبًا عامًّا مطلقًا وقالوا: ليس هو نبى أصلاً، ولا أرسل إلى أحد لا إلى العرب ولا إلى غيرهم بل كان كذابًا، امتنع مع هذا أن يصدقوا بنبوة غيره، فإن الطريق الذى يعلم به نبوة موسى وعيسى يعلم به نبوة محمد بطريق الأولى، فإذا قالوا: علمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا، . قيل لهم: معجزات محمد ﷺ أعظم، وتواترها أبلغ، والكتاب الذى جاء به محمد ﷺ أكمل، وأمته أفضل، وشرائع دينه أحسن، وموسى جاء بالعدل وعيسى جاء بتكميلها بالفضل، وهو ﷺ قد جمع فى شريعته بين العدل والفضل.

فإن ساغ لقائل أن يقول: هو مع هذا كاذب مفتر، كان على هذا التقدير الباطل غيره أولى أن يقال فيه ذلك. فيبطل بتكذيبهم محمدًا ﷺ جميع ما معهم من النبوات إذ حكم أحد الشيئين حكم مثله، فكيف بما هو أولى منه؟ فلو قال قائل: إن هارون ويوشع وداود وسليمان كانوا أنبياء وموسى لم يكن نبيًّا. أو أن داود وسليمان ويوشع كانوا أنبياء والمسيح لم يكن نبيًّا.

أو قال ما تقوله السامرة(٥): أن يوشع كان نبيًّا ومن بعده كداود وسليمان

(١) سورة مريم: ١٧-١٩.

والمسيح لم يكونوا أنبياء. أو قال ما يقوله اليهود: إن داود وسليمان وأشعيا وحبقوق ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء، والمسيح ابن مريم لم يكن نبيًّا، كان هذا قولاً متناقضًا معلوم البطلان، فإن الذين نفى هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة وأكمل نبوة ممن أثبتوها له.

ودلائل نبوة الأكمل أفضل فكيف يجوز إثبات النبوة للنبى المفضول دون الفاضل؟ وصار هذا كما لو قال قائل أن زفر وابن القاسم والمزنى والأثرم كانوا فقهاء، وأبا حنيفة ومالكًا والشافعى وأحمد، لم يكونوا فقهاء، أو قال: إن الأخفش وابن الأنبارى والمبرد كانوا نحاة، والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة. أو قال: إن صاحب الملكى والمسيحى ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء، وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء. أو قال: إن كوشيار والخرقى ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة، وبطليموس ونحوه لم يكن لهم علم بالهيئة.

ومن قال: إن داود وسليمان ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء، ومحمد ابن عبد الله لم يكن نبيًّا. فتناقضه أظهر، وفساد قوله أبين من هذا جميعه، بل وكذلك من قال: إن موسى وعيسى رسولان والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله، ومحمد ليس برسول، والقرآن لم ينزل من الله، فبطلان قوله فى غاية الظهور والبيان لمن تدبر ما جاء به محمد ﷺ، وما جاء به من قبله، وتدبر كتابه والكتب التى قبله، وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء، وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء، وهذه الجملة مفصلة مشروحة فى غير هذا الموضع. لكن المقصود هنا: التنبيه على مجامع جوابهم، وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليل واحد يدل على صدق من احتجوا به من الأنبياء، فلو ناظرهم من يكذب بهؤلاء الأنبياء كلهم من المشركين والملاحدة لم يكن فيما ذكروه حجة لهم، ولا حجة لهم أيضًا على المسلمين الذين يقرون بنبوة هؤلاء، فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمد أنهم أنبياء، فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح فى الأصل الذى به علموا صدقهم.

وأيضًا فالطريق الذى به علمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم وأخبارهم، فكذلك تعلم نبوة محمد بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأولى، فيمتنع أن يصدق أحد من المسلمين بنبوة واحد من هؤلاء مع تكذيبه لمحمد فى كلمة مما جاء به.

فصـــل

[ادعاء النصارى أن النبى ﷺ لم يُبشر به]

ومما ينبغى أن يعلم: أن كـثيراً من النصـارى إنما يعتمـدون فى النبوات على بشارة الأنبياء بمن يأتى بعدهم، فيقـولون: المسيح -عليه السلام- بشرت به الأنبياء قبله، بخلاف محمد ﷺ فإنه لم يبشر به نبى، وجواب هؤلاء من وجهين:

أحدهما: أن يقال: بل البشـارة بمحمد ﷺ فى الكتب المتقـدمة أعظم من البشارة بالمسيح ﷺ، وكما أن اليـهود يتأولون البشـارة بالمسيح على أنه ليس هو عـيسى ابن مـريم بل هو آخـر ينتظرونه، وهم فى الحـقـيقـة إنما ينتظرون المسـيح الدجال، فـإنه الذى يتبعـه اليهود، ويخـرج معه سـبعون ألف مـطيلس من يهود أصبهان(١) ويقتلهم المسلمون معه حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم هذا يهودى ورائى تعالى فـاقتله. كما ثبت ذلك فى الصـحيح عن النبى ﷺ(٢)، وثبت أيضًا فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «**ينزل عيسى ابن مريم من السماء على المنارة البيضاء شرقى دمشق، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويقتل مسيح الهدى عيسى ابن مريم مسيح الضلالة الأعور الدجال على بضع عشرة خطوة من باب لد**»(٣)، ليتـبين للناس أن البشر لا يكون إلهًـا، فيقتل من ادعى فـيه أنه الله وهو برىء مما ادعى فـيه لمـن ادعى فى نفسـه أنه الله وهو دجـال كذاب، فـهكذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٤)، وأحمد (٣/ ٢٢٤)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٧٨٦٩) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة**».

(٢) صحيح ورد من حديث كل من:

١- ابن عمر: أخرجه البخارى (٢٩٢٥)، ومسلم (٢٩٢١)، والترمذى (٢٢٤٥).

٢- أبى هريرة: أخرجه البخارى (٢٩٢٦)، ومسلم (٢٩٢٢).

(٣) أخرج البخارى (٣٤٤٨)، ومسلـم (١٥٥)، والترمذى (٢٢٤٠)، وابن ماجه (٤٠٧٨)، عن أبى هريرة مرفوعًا «والذى نفسى بيده ليـوشكن إن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد».

وأخـرج مسلم (٢٩٣٧) وأبو داود (٤٣٢١) من حـديث النواس بن سـمعـان فى قصـة الدجال وفيه «.. ثم ينزل عـيسى ابن مريم عند المنارة البيضاء شرقىّ دمـشق فيدركه عند باب لدٍّ فيقتله».

البشارات بمحمد ﷺ فى الكتب المتقدمة، وقد يتأولها بعض أهل الكتاب على غير تأويلها، كما قد بسط فى موضع آخر، فإن بسط الكلام فى ذكر محمد ﷺ فى الكتب التى بأيدى أهل الكتاب له موضع آخر.

الجواب الثانى: أن يقال: ليس من شرط النبى أن يبشر به من تقدمه، كما أن موسى كان رسولاً إلى فرعون، ولم يتقدم لفرعون به بشارة، وكذلك الخليل عليه السلام أرسل إلى نمرود، ولم يتقدم به بشارة نبى إليه، وكذلك نوح وهود وصالح وشعيب ولوط لم يتقدم هؤلاء بشارة إلى قومهم بهم مع كونهم أنبياء صادقين، فإن دلائل نبوة النبى لا تنحصر فى أخبار من تقدمه، بل دلائل النبوة منها المعجزات ومنها غير المعجزات كما قد بسط فى موضوع آخر، وهؤلاء النصارى إنما مستند دينهم فى التثليث والاتحاد وغير ذلك هو السمع وهو دعواهم أن الكتب الإلهية جاءت بذلك، ليس مستندهم فيه العقل، فإذا تبين أنهم مع تكذيبهم بمحمد ﷺ يمتنع أن تثبت نبوة غيره امتنع استدلالهم بالسمعيات، وأما العقليات فإن تشبثوا ببعضها فهم معترفون بأن حجتهم فيها ضعيفة، وأنها على نقيض مذهبهم أدل منها على مذهبهم، وسنبين -إن شاء الله تعالى- أن لا حجة لهم فى سمع ولا عقل، بل ذلك كله حجة عليهم.

وأما تمثيلهم الكتاب بالوثيقة التى كتب الوفاء فى ظهرها فتمثيلٌ باطل غير مطابق، لأن الإقرار بالوفاء إقرار بسقوط الدين ولا مناقضة بين ثبوت الدين أولاً وسقوطه آخرًا بالوفاء، بل أمكن مع هذا دعواه، وأما من يذكر أنه رسول الله فلا يمكن أن يقر بأنه رسول الله فى بعض ما أنبأ به عن الله دون بعض، ولا يمكن اتباع بعض كتابه الذى ذكر أنه منزل من عند الله دون بعض، فإنه إن كان صادقًا فى قوله: إنه رسول الله، **كان** معصومًا فى ما يخبر به عن الله، لا يجوز أن يكذب فى شىء منه لا عمدًا ولا خطأً، ووجب اتباع الكتاب الذى جاء به من عند الله ولم يمكن رد شىء مما ذكر أنه جاء به من الله، وإن كان كاذبًا في كلمة واحدة مما أخبر به عن الله، فهو من الكاذبين المفترين، فلا يجوز أن يحتج بشىء من دينهم، ولا دين غيرهم بمجرد إخباره عن الله، بل ولا بمجرد خبره وقوله وإن لم يذكر أنه خبر عن الله، كما لا يجوز مثل ذلك فى سائر من عرف أنه كاذب فى قوله: إنى رسول الله، كمسيلمة الحنفى، والأسود العنسى، وطليحة الأسدى، والحارث الدمشقى، وبابا الرومى وأمثالهم من الكذابين.

والواحد من المسلمين، وإن كان الله لا يؤاخذه بالنسيان والخطأ، بل

والرسول أيضًا وإن لم يكن يؤاخذ بالنسيان والخطأ في غير ما يبلغه عن الله عند السلف والأئمة وجمهور المسلمين، لكن ما يبلغه عن الله لا يجوز أن يستقر فيه خطأ، فإنه لو جاز أن يبلغ عن الله ما لم يقله ويستقر ذلك ويأخذه الناس عنه معتقدين أن الله قاله -ولم يقله الله- كان هذا مناقضًا لمقصود الرسالة ولم يكن رسولاً لله في ذلك، بل كان كاذبًا في ذلك وإن لم يتعمده، وإذا بلغ عن الله ما لم يقله وصدق في ذلك، كان قد صدق من قال على الله غير الحق، ومن تقول عليه ما لم يقله، وإن لم يكن متعمدًا ويمتنع في مثل هذا أن يصدقه الله في كل ما يخبر به عنه أو أن يقيم له من الآيات والبراهين ما يدل على صدقه في كل ما يخبر به عنه مع أن الأمر ليس كذلك، ومن قامت البراهين والآيات على صدقه فيما يبلغه عن الله كان صادقًا في كل ما يخبر به عن الله، لا يجوز أن يكون في خبره عن الله شيء من الكذب لا عمدًا ولا خطأ، وهذا مما اتفق عليه جميع الناس من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم لم يتنازعوا أنه لا يجوز أن يستقر في خبره عن الله خطأ، وإنما تنازعوا هل يجوز أن يقع من الغلط ما يستدركه ويبينه، فلا ينافي مقصود الرسالة كما نقل من ذكر «تلك الغرانيق العلى، وأن شفاعتها لترتجى»(١)، هذا فيه قولان للناس: منهم من يمنع ذلك أيضًا وطعن في وقوع ذلك. ومن هؤلاء من قال: إنهم سمعوا ما لم يقله فكان الخطأ في سمعهم والشيطان ألقى في سمعهم.

ومن جوز ذلك قال: إذا حصل البيان ونسخ ما ألقى الشيطان لم يكن في ذلك محذور، وكان ذلك دليلاً على صدقه وأمانته وديانته، وأنه غير متبع هواه ولا مصر على غير الحق، كفعل طالب الرياسة المصر على خطئه.

وإذا كان نسخ ما جزم بأن الله أنزله لا محذور فيه، فنسخ مثل هذا أولى أن لا يكون فيه محذور، واستدل على ذلك بقوله:

---

(١) وهو حديث ضعيف، ورد من طرق مرسلة، في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الحج: ٥٢]. قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٣/٢٢٩): قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظنًا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم أهـ.

وقد ألف أبو عبد الرحمن ناصر الدين الألباني رسالة قيمة في بيان ضعف هذا الحديث وأن طرقه المرسلة لا يقوى بعضها بعضًا.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُول وَلا نَبيٍّ إلاَّ إذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّته فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاته وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

وعلى كل قول فالناس متفقون على أن من أرسله الله وأقام الآيات على صدقه فيما يبلغه عن الله: لم يكن ما يبلغه عنه إلاَّ حقًّا. وإلاَّ كانت الآيات الدالة على صدقه دلت على صدق من ليس بصادق، وبطلان مدلول الأدلة اليقينية ممتنع.

والصدق الذى هو مدلول آيات الأنبياء وبراهينهم هو أن يكون خبره عن الله مطابقًا لمخبره، لا يخالفه عمدًا ولا خطأ، ولو قال قائل: أنا لا أسمى الخطأ كذبًا، أو قال: إن المخطئ لا إثم عليه فى خطئه.

قيل له: هذا لا ينفع هنا، فإن الآيات دلت على أن الله أرسله ليبلغ عنه رسالاته والله لا يرسل من يعلم أنه يخبر عنه بخلاف ما قال له، كما لا يجوز إرسال من يتعمَّد عليه الكذب، بل الواحد من الناس لا يرسل من يعلم أنه يبلغ خلاف ما أرسله به، ولو علم أنه يقول عليه ما لم يقل وأرسله مع ذلك، لكان جاهلاً سفيهًا، ليس بعليم حكيم، فكيف يجوز ذلك على أعلم العالمين، وأحكم الحاكمين؟

وأيضًا: فإن الآيات والبراهين دلت على صدقه فى كل ما يبلغه عن الله، وأن الله مصدقه فى كل ما يبلغه عنه، فيمتنع أن لا يكون صادقًا فى شىء من ذلك، ويمتنع أن يصدق الله فى كل ذلك من لا يصدق فى كل ذلك، فإن تصديق من لا يصدق كذب، والكذب ممتنع على الله.

وإذا تبيَّن أن من ذكر أنه رسول الله إما أن يكون رسولاً صادقًا فى جميع ما يبلغه فيمتنع مع هذا تناقض أخباره، لأنها كلها صادقة، وإما أن يكون غير صادق ولو فى كلمة فلا يكون رسولاً لله، فلا يحتج بشىء مما يخبر به عن الله كان تمثيل من ذكر أنه رسول الله بالمقر باستيفاء وثيقته تمثيلاً باطلاً، فإن صاحب الوثيقة الذى أقر بوفائها بعد، كانت له حجة ثم استوفاها.

(١) سورة الحج: ٥٢-٥٤.

ومن ذكر أنه رسول الله إما صادق، وإما كاذب، وعلى التقديرين لا يجوز أن يحتج ببعض كلامه دون بعض، وإذا قال القائل: مقصودى أبين أنه متناقض، وأن نفس كلامه يبين أنه لم يرسل إلينا، وأن ديننا حق، كما أن نفس كلام الذى كان له الحق هو المقر بالوفاء، قيل: إن كان كلامه متناقضًا فليس برسول، وحينئذ فلا يجوز لك أن تحتج بشيء مما بلغه عن الله، بخلاف المقر بالوفاء، فإن إقراره مقبول على نفسه، فإنه شاهد على نفسه بالوفاء وإقرار المقر على نفسه، وشهادته على نفسه مقبولة، ولو كان كافرًا وفاسقًا، بخلاف شهادته وخبره عن الله.

فمن شبه إقرار المقر على نفسه بقول الذى يقول: إنه رسول الله، دل ذلك على غاية جهله بالقياس والاعتبار والتمثيل. فإن إقرار المقر على نفسه حجة عليه ولو كان فاسقًا معروفًا بالكذب، ليس هو مثل شهادة الإنسان على غيره. فإن شهادته على غيره لا تقبل إذا كان معروفًا بالكذب، فكيف بمن شهد على الله بأن الله أرسله؟ فالمقر على نفسه يمكن قبول إقراره على نفسه ولا يقبل دعواه على غيره، وكذلك الشاهد قد تقبل شهادته فيما ليس هو خصمًا فيه، ولا تقبل شهادته بما ادعاه.

وأما من يقول: إنه رسول الله، فلا يمكن أن يصدق فى بعض ما يخبر به عن الله ويكذب فى بعض، بل إن كان كاذبًا فى كلمة واحدة، فليس هو رسولاً لله، فلا يحتج بكلامه، وإن قدر أن الكلام فى نفسه صدق لكن نسبته إلى الله أن الله أرسله به وأوحاه لا يكون صادقًا فيه إذا كذب فى كلمة واحدة، لأن الله لا يرسل كاذبًا.

وإن لم يكن كاذبًا فى كلمة واحدة وجب تصديقه فى كل ما يخبر به، فلا يمكن تصديقه فى بعض ما يخبر به عن الله دون بعض، بخلاف المقر والشاهد.

وإن كان المقصود: بيان تناقضه، كان هذا احتجاجًا على أنه ليس برسول، فلا ينفعهم ذلك، مع أنه تبين أنه ليس بمتناقض.

وإن كان المقصود: إلزام المسلمين به، فقد بينا أنه لا يلزمهم من وجوه متعددة، فهذا بيان أنهم لا يجوز لهم الاحتجاج بشيء من كلام محمد ﷺ سواء صدقوه أو كذبوه.

ثم يقال لهم ثانيًا: فى الجواب عن التمثيل بالوثيقة: إن الإقرار بالاستيفاء

يناقض استيفاء الحق، وأمـا القرآن الذى جاء به محمد ﷺ ، فليس فى إخباره بأنه أرسل إلى قريش، ثم إلى العرب، ما يناقض إخباره بأنه أرسل إلى جميع الناس: أهل الكتاب، وغيرهم.

كما أنه ليس فى إخباره أنه أرسل إلى بنى إسرائيل ومخاطبة الله لهم بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(١) ما يمنعه أن يكون مـرسلاً إلى اليهود من غـير بنى إسرائيل وإلى النصـارى والمشركين، وهو لم يقل قط: إنى لم أرسل إلاَّ إلـى العرب، ولا قال مـا يدل على هذا بل ثبت عنه بالنقل المـتواتر أنه قال: إنـه مرسل إلى جـميع الجن والإنس، وإلى أهل الكتاب وغيرهم، ولو قدر أنه قال: إنه لم يرسل إلاَّ إلى العرب، ثم قال: إنى أرسلت إلى أهل الكتـاب، لكان قد أرسل إلى أهل الكتاب بعد إرساله إلى العرب، كما قال:

﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ...﴾(٢).

وقال أيضًا:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ...﴾(٣).

ثم إنه بعد هذا حـرم الله أشياء فلم يكن بين نفى تحـريمها فى الزمن الأول، وإثبات تحريمها فى الزمن الثانى منافاة.

ولكن يظهر الدين إذا أوجب شيئًا ثم نسخ إيجـابه كما نسخ إيجاب الصدقة بين يدى النجوى، ففى مثل هذا يتمسك بالنص الناسخ دون المنسوخ، كما يتمسك بالإقرار بالوفاء الناسخ للإقرار بالدين.

• • •

(١) سورة البقرة: ٤٠.
(٢) سورة الأنعام: ١٤٥.
(٣) سورة النحل: ١١٥.

فصل

[إلزام النصارى بنبوة محمد ﷺ إذا ثبتت نبوة غيره]

وقد ذكرنا أنه لا يجوز أن يحتجوا بشيء من القرآن، وما نقل عن محمد ﷺ إلاَّ مع التصديق برسالته، وأنه مع التكذيب برسالته لا يمكن الإقرار بنبوة غيره، ولا الاحتجاج بشيء من كلام الأنبياء، فتكذيبهم يستلزم تكذيبهم بغيره، فإذا ثبتت نبوة غيره ثبتت نبوته، وذلك يستلزم بطلان دينهم، فكان صحة دليلهم يستلزم بطلان المدلول وفساد المدلول يستلزم فساد الدليل، فإن الدليل ملزوم للمدلول عليه، وإذا تحقق الملزوم تحقق اللازم، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم، فإذا ثبت الدليل ثبت المدلول عليه، وإذا فسد المدلول عليه لزم فساد الدليل، فإن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح.

فإن كان محمد ﷺ رسول الله لزم بطلان دينهم، وإذا بطل دينهم لم يجز أن يقوم دليل صحيح على صحته، وإن لم يكن رسول الله لم يجز الاستدلال بقوله فثبت أن استدلالهم بقوله باطل على التقديرين.

ونحن نذكر هنا: أنه لا يجوز استدلالهم بقول أحد من الأنبياء أو الرسل على صحة دينهم، وأيضًا فإن الذين احتجوا بقولهم: مثل موسى وداود والمسيح وغيرهم، إما أن يكونوا عرفوا أنهم أنبياء بدليل على نبوتهم، كالاستدلال بآياتهم وبراهينهم التى تسمى بالمعجزات، وإما أن يكونوا قد اعتقدوا ذلك بلا علم ولا دليل، وإما أن يكونوا احتجوا بذلك على المسلمين، لإنهم يسلمون نبوة هؤلاء وعلى كل تقدير لا يصح استدلالهم بقولهم.

أما على الأول، فلأنه: أى طريق ثبتت بها نبوة واحد من هؤلاء الأنبياء -عليهم السلام-، فإنه تثبت نبوة محمد ﷺ بمثلها وأعظم منها، وحينئذ فإن لم يقروا بنبوة محمد ﷺ مع أن كل دليل يدل على نبوة موسى وداود وعيسى وغيرهم، يدل على نبوة محمد ﷺ، لزم أن يكونوا قد نقضوا دليلهم فجعلوه قائمًا مع انتفاء مدلوله، وإذا انتقض الدليل بطلت دلالته، فإنه إنما يدل إذا كان مستلزمًا للمدلول.

فإذا كـان تارة يوجد مع المدلـول وتارة لا يوجد، لم يكن مـستلزمًـا له فلا يكون دليلاً، فـإن من جعل المعـجزات دليلاً على نبـوة نبى، وقال: المعـجزة هى الفعل الخارق للعادة، المقرون بالتحدى، السالم من المعارضة، ونحو ذلك مما يذكر فى هذا المقام وجعلوا ذلك دليلاً على نبوة موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء.

قيل له: إن كان هذا دليـلاً، فهو دليل على نبوة مـحمد ﷺ، وإن لم يكن دليلاً لم يكن دليـلاً على نبوة موسى وعيـسى، فإنه قد ثبت عن مـحمد ﷺ من المعـجزات مـا لم يثبت مـثله عن غيـره، ونقل مـعجـزاته متـواتر أعظم من نقل معجزات عيسى وغيره، فيمتنع التصديق بآياته مع التكذيب بآيات محمد ﷺ.

وإن قالوا معجزات محمد ﷺ لم تتواتر عندنا. قيل: ليس من شرط التواتر أن يتواتر عند طائفـة معينة، بل هذا كـما يقول المشـركون والمجوس وغـيرهم لم يتواتر عندنا مـعجزات مـوسى والمسيح -عليهمـا السلام-، وإنما تتواتر أخـبار كل إنسان عند من رأى المشاهدين له أو رأى من رآهم وهلم جرًّا.

ومعـلوم: أن أصحـاب محـمد ﷺ الذين رأوه ونقلوا مـعجزاته أضـعاف أصحاب المسيح عليه السلام، والتابعون الذين نقلوا ذلك عن الصـحابة كذلك فيلزم من التصديق بمعـجزات المسيح عليه السلام التصديق بمعجـزات محمد ﷺ، ومن التكذيب بمعجزات محمد التكذيب بمعجزات المسيح.

وإن قالوا عـرفت نبوة المسـيح ببشـارات الأنبيـاء قبله. قـيل: وفى الكتب المتقدمة من البـشارات بمحمد ﷺ مثل ما فيـها من البشارات بالمسيح وأكـثر كما سيـأتى بعضهـا إن شاء الله تعالى وإن تأولـوا تلك البشارات بمحـمد ﷺ بما يمنع دلالتها. قيل لهم: واليهود يتأولون بشارات المسيح بما يمنع دلالتها على المسيح.

فإذا قالوا: تلك التأويلات باطلة من وجـوه معروفة، بين لهم أن هذه باطلة أيضًـا بمثل تلك الوجوه وأقـوى. فمـا من جنس من الأدلة يدل على نبوة مـوسى والمسيح، إلاَّ ودلالته على نبوة محمد ﷺ أقوى وأكثر فيلزم من ثبوت نبوة موسى والمسيح ثبوت نبـوة محمد ﷺ، ومن الطعن فى نبوة محمد ﷺ الطعن فى نبوة موسى والمسيح.

وإن قالوا: إن المسيح إلـه. قيل لهم: ثبوت كونه إلهًا -لو كـان ممكنًا- أبعد من ثبوت كونه رسولاً، فكيف إذا كان ممتنعًا؟

وذلك أنه ليس معهم ما يدل على إلهيته إلا ما ينقلونه من أقوال الأنبياء، أو الخوارق، والخوارق لا تدل على الإلهية فإن الأنبياء ما زالوا يأتون بالآيات الخارقة للعادة ولم تدل على إلهية أحد منهم.

وأما أقوال الأنبياء -عليهم السلام- فلا ريب أن دلالتها على رسالته ورسالة محمد ﷺ أظهر من دلالتها على إلهية المسيح، فيمتنع الاحتجاج بها على إلهية المسيح دون رسالة محمد ﷺ ورسالة المسيح، ومتى ثبت أن محمدًا رسول الله بطلت إلهية المسيح، فإنه كفر من قال: إنه الله أو ابن الله بل وكذلك متى ثبت أن المسيح رسول الله بطل كونه إلهًا، فإن كونه هو الله مع كونه رسول الله متناقض.

وقولهم: إن إله بلاهوته، ورسول بناسوته، كلام باطل من وجوه:

منها: أن الذى كان يكلم الناس، إما أن يكون هو الله أو هو رسول الله، فإن كان هو الله، بطل كونه رسول الله، وإن كان رسول الله، بطل كونه هو الله.

ولهذا لما كان الذى كلم موسى عليه السلام من الشجرة هو الله لم تنطق الكتب بأنه رسول الله، وهذا وارد بأى وجه فسروا الاتحاد، فإنه من المعلوم أن الناس كانوا يسمعون من المسيح كلامًا بصوته المعروف، وصوته لم يختلف ولا حاله عند الكلام تغيرت، كما يختلف الإنسان وحاله عند الكلام إذا حل فيه الجنى، وإذا فارقه الجنى، فإن الجنى إذا تكلم على لسان المصروع ظهر الفرق بين ذلك المصروع وبين غيره من الناس، بل اختلف حال المصروع وحال كلامه وسمع منه من الكلام ما يعلم يقينًا أنه لا يعرفه وغاب عقله بحيث يظهر ذلك للحاضرين واختلف صوته ونغمته، فكيف بمن يكون رب العالمين هو الحال فيه المتحد به المتكلم بكلامه؟.

فإنه لابد أن يكون بين كلامه وصوته وكلام سائر البشر وصوتهم من الفرق أعظم من الفرق الذى بين المصروع وغير المصروع بما لا نسبة بينهما.

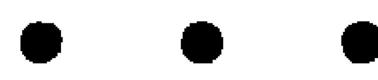
يبين هذا: أن موسى لما سمع كلامه سمع صوتًا خارقًا للعادة مخالفًا لما يعهد من الأصوات، ورأى من الآيات الخارقة والعجائب ما يبين أن ذلك الذى سمعه لا يقدر على التكلم به إلاَّ الله، وأما المسيح فلم يكن بين كلامه وصوته مع طول عمره، وكلام سائر الناس فرق يدل على أنه نبى فضلاً عن أن يدل على أنه إله، وإنما علم أنه نبى بأدلة منفصلة ولم يكن حاله يختلف مع أنهم يقولون: أن الاتحاد ملازم له من حين خلق ناسوته فى بطن أمه مريم وإلى الأبد لا يفارق اللاهوت

لذلك الناسـوت أبدًا وحـينئـذ فمن المـعلوم أن خطابه للناس إن كـان خطاب رب العـالمين لم يكن هو رسـوله، وإن كان خطاب رسـوله لم يكن ذلك صـوت رب العالمين.

الوجه الثاني: أن خطابه خطاب رسول ونبى، كمـا ثبت ذلك عنه فى عامة المواضع.

الثالث: أن مصـير الشـيئين شيـئًا واحدًا مـع بقائهمـا على حالهـما بدون الاستحالة والاختلاط ممتنع فى صريح العـقل، وإنما المعقول مع الاتحاد أن يستحيلا ويختلطا كالماء مع الخمر واللبن، فإنهما إذا صار شيئًا واحدًا، استحالا واختلطا.

الرابع: أنه مع الاتحاد يصيـر الشيئان شيئًا واحـدًا، فيكون الإله هو الرسول والرسول هو الإله، إذ هذا هـو هذا، وإن كان الإله غيـر الرسول، فهـما شيـئان ومهما مثلوا به قولهم كتشبيههم ذلك بالنار فى الحديد والروح فى البدن، فإنه يدل على فساد قولهم، فإن الحديد متى طرق أو وضع فى الماء، كان ذلك مصيبًا للنار، وكذلك البدن إذا جـاع أو صلب وتألم، كان ذلك الألم مصيـبًا للروح، فيلزم أن يكون رب العالمين قـد أصابه ألم الجوع والعطش، وكـذلك الضرب والصلب على قولهم وهذا شر من قول اليهود: أنه فقير وأنه بخيل، وأنه مسه اللغوب.



فصل

وإن كان مقصودهم الاحتجاج بذلك على المسلمين. قيل لهم:

أولاً: هذه حجة جدلية، فما مستندكم فيما بينكم وبين الله فى تصديق شخص وتكذيب آخر، مع أن دلالة الصدق فيهما واحدة، بل هى فى الذى كذبتموه أظهر؟ فإن كانت حقًّا لزم تصديق من كذبتموه وفسد دينكم. وإن كانت باطلة، بطل استدلالكم بها على دينكم، فثبت أنهم مع تكذيب محمد ﷺ لا يستقيم لهم الاستدلال بكلام أحد من الأنبياء -عليهم السلام-.

وقيل لهم ثانيًا: المسلمون إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بما دلهم على صدق محمد ﷺ فإن لم يكن محمد صادقًا لم يعرفوا صدق هؤلاء فيبطل دليلكم، وإن كان صادقًا بطل دين النصارى فيبطل دليل صحته فثبت بطلان دليلهم على كل تقدير.

وقيل لهم ثالثًا: المسلمون لم يصدقوا نبوة أحد من هؤلاء إلاَّ مع نبوة محمد ﷺ ، وإن قيل أنهم عرفوا ذلك بطريق آخر، فإن الدليل الذى يدل على صدق واحد منهم يدل على صدق محمد بطريق الأولى، فلا يمكنهم تصديق نبى مع تكذيب محمد ﷺ .

وقيل لهم رابعًا: هم إنما يصدقون موسى وعيسى اللذين بشرا بمحمد ﷺ ، فإن كانا قد بشرا به فثبتت نبوته، وإن لم يكونا بشرا به، فهم لا يؤمنون إلاَّ بالمبشرين به، وبالتوراة والإنجيل اللذين هو مكتوب فيهما.

فإن قدر عدم ذلك فهم لا يسلمون وجود موسى وعيسى وتوراة وإنجيل منزلين من الله ليس فيهما ذكره ﷺ .

وإن قالوا: نحن صدقنا هؤلاء الأنبياء بلا علم لنا بصدقهم وطريق يدل على صدقهم، لأن هذا دين آبائنا وجدناهم يعظمون هؤلاء ويقولون هم أنبياء، فاتبعنا آباءنا فى ذلك من غير علم، وهذا هو الواقع من أكثرهم. قيل: فإذا كان هذا قولكم فى الأنبياء وفيما شهدوا به -إن كانوا شهدوا- فيلزم أن لا يكونوا عالمين

به، بل متبعين فيه لآبائهم بغـير علم بطريق الأولى، وبهذا يحصل المقصود، وهو أن ما أنتم عليه من اعتقاد دين النصـرانية لا علم لكم ولا دليل لكم على صحته، بل أنتم فيه متبعون لآبائكم كاتباع اليهود والمشركين لآبائهم.

ولا ريب أن هذا حال النصارى، ولهذا سماهم الله ضلالاً فى قوله:

﴿... وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ...﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿... وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ...﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾(٤).

ولهذا كـان النصارى معروفين بالجـهل والضلال، كمـا أن اليهود معـروفون بالظلم والقسوة والعناد، فتبين بما ذكـرناه أنه لا يمكنهم مع تكذيب محمد ﷺ فى كلمـة واحدة الاحـتجـاج بقول واحـد من الأنبيـاء على شىء من دينهم ولا دين غيرهم.

• • •

(١) سورة المائدة: ٧٧.
(٢) سورة الكهف: ٤-٥.
(٣) سورة النساء: ١٥٧.
(٤) سورة الشورى: ١٤.

فصل

[بقية الجواب عن شبهات النصارى على خصوصية الرسالة]

وأما كون القرآن أنزل باللسان العربى وحده فعنه أجوبة:

أحدها: أن يقال: والتوراة إنما أنزلت باللسان العبرى وحده، وموسى عليه السلام لم يكن يتكلم إلا بالعبرية، وكذلك المسيح لم يكن يتكلم بالتوراة والإنجيل وغيرهما إلا بالعبرية، وكذلك سائر الكتب لا ينزلها الله إلا بلسان واحد: بلسان الذى أنزلت عليه ولسان قومه الذين يخاطبهم أولاً، ثم بعد ذلك تبلغ الكتب وكلام الأنبياء لسائر الأمم: إما بأن يترجم لمن لا يعرف لسان ذلك الكتاب، وإما بأن يتعلم الناس لسان ذلك الكتاب فيعرفون معانيه، وإما بأن يبين للمرسل إليه معانى ما أرسل به الرسول إليه بلسانه وإن لم يعرف سائر ما أرسل به.

وقد أخبر الله فى القرآن ما قالته الرسل لقومهم، وما قالوا لهم -وأكثرهم لم يكونوا عربًا-، وأنزله الله باللسان العربى، وحينئذ فإن شرط التكليف تمكن العباد من فهم ما أرسل به الرسول إليهم، وذلك يحصل بأن يرسل بلسان يعرف به مراده ثم جميع الناس متمكنون من معرفة مراده بأن يعرفوا ذلك اللسان أو يعرفوا معنى الكتاب بترجمة من يترجم معناه، وهذا مقدور للعباد، ومن لم يمكنه فهم كلام الرسول إلا بتعلم اللغة التى أرسل بها، وجب عليه ذلك، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب * بخلاف ما لا يتم الوجوب إلا به. فإنه ليس بواجب* ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، لا فى الأصل ولا فى التمام. فلا نحتاج أن نقول ما لا يتم الواجب إلا به، -وكان مقدوراً للمكلف- فهو واجب، فإن ما ليس مقدوراً عليه لا يكلف به العباد، بل وقد يكون مقدوراً عليه ولا يكلفون به.

فلما كانت الاستطاعة شرطًا فى وجوب الحج لم يجب تحصيل الاستطاعة بخلاف قطع المسافات، فإنه ليس شرطًا فى الوجوب: فلهذا يجب الحج على الإنسان من المسافة البعيدة والقريبة إذا كان مستطيعًا.

وجمهور الناس لا يعرفون معانى الكتب الإلهية: التوراة والإنجيل والقرآن

إلا بمن يبينها ويفسرها لهم، وإن كانوا يعرفون اللغة، فهؤلاء يجب عليهم طلب علم ما يعرفون به ما أمرهم الله به ونهاهم عنه، وهذا هو طلب العلم المفروض على الخلق، وكذلك ما بينه الرسول ﷺ من معانى الكتاب الذى أنزله الله عليه يجب على الخلق طلب علم ذلك ممن يعرفه، إذا كان معرفة ذلك لا تحصل بمجرد اللسان.

كما يروى عن ابن عباس ﵄ أنه قال: تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله -تبارك وتعالى-، فمن ادعى علمه فهو كاذب.

والله -تعالى- قال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(١).

لم يقل: وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه، لكن لم يرسله إلا بلسان قومه الذين خاطبهم أولاً ليبين لقومه، فإذا بيَن لقومه ما أراده حصل بذلك المقصود لهم ولغيرهم، فإن قومه الذين بلغ إليهم أولاً يمكنهم أن يبلغوا عنه اللفظ، ويمكنهم أن ينقلوا عنه المعنى لمن لا يعرف اللغة، ويمكن غيرهم أن يتعلم منهم لسانه فيعرف مراده، فالحجة تقوم على الخلق ويحصل لهم الهدى بمن ينقل عن الرسول: تارة المعنى، وتارة اللفظ، ولهذا يجوز نقل حديثه بالمعنى، والقرآن يجوز ترجمة معانيه لمن لا يعرف العربية باتفاق العلماء.

وجوز بعضهم أن يقرأ بغير العربية عند العجز عن قراءته بالعربية وبعضهم جوزه مطلقًا، وجمهور العلماء منعوا أن يقرأ بغير العربية وإن جاز أن يترجم للتفهم بغير العربية، كما يجوز تفسيره وبيان معانيه.

وإن كان التفسير ليس قرآنًا متلوًّا وكذلك الترجمة، وقد قال النبى ﷺ: **«نضر الله امرءًا سمع منا حديثًا فبلغه إلى من لم يسمعه، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»**(٢).

---

(١) سورة إبراهيم: ٤.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذى (٢٦٦٥)، وابن ماجه (٢٣٠)، وأحمد (٥/ ١٨٣) وفى «الزهد» له (١٨١-بترقيمى)، والدارمى (٢٢٩) من حديث زيد بن ثابت، وصححه الألبانى فى «صحيح سند أبى داود» وله شواهد عن: =

وقال أيضًا فى الحديث الصحيح: «**مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أمسكت الماء، فنفع الله به الناس فزرعوا وسقوا، وكانت منها طائفة إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من تفقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به**»(١).

فدعا النبى ﷺ لمن يبلغ حديثه وإن لم يتفقه فيه وقال: «رب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

وقد كان العارفون باللغة العربية حين بعث الله محمدًا ﷺ إنما يوجدون فى جزيرة العرب وما والاها، كأرض الحجاز واليمن وبعض الشام والعراق، ثم انتشر فصار أكثر الساكنين فى وسط المعمورة العربية، حتى اليهود والنصارى الموجودون فى وسط الأرض يتكلمون بالعربية، كما يتكلم بها أكثر المسلمين بل كثير من اليهود والنصارى يتكلمون بالعربية أجود مما يتكلم بها كثير من المسلمين.

وقد انتشرت هذه اللغة أكثر مما انتشرت سائر اللغات حتى أن الكتب القديمة من كتب أهل الكتاب، ومن كتب الفرس والهند، واليونان، والقبط وغيرهم عربت بهذه اللغة.

ومعرفة الكتب المصنفة بالعربية والكلام العربى أيسر على جمهور الناس من معرفة الكتب المصنفة بغير العربية، فإن اللسان العبرى، والسريانى، والرومى، والقبطى، وغيرها وإن عرفه طائفة من الناس، فالذين يعرفون اللسان العربى أكثر ممن يعرف لسانًا من هذه الألسنة.

وأيضًا فمعرفة ما أمر الله عباده أمرًا عامًّا هو مما نقله الأمة عن نبيها ﷺ نقلاً متواترًا، وأجمعت عليه مثل الأمر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول

= ١- ابن مسعود: أخرجه الترمذى (٢٦٦٦، ٢٦٦٧)، وابن ماجه (٢٣٢) وأحمد (١/ ٢٣٧)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١٠٩٤٥).

٢- جبير بن مطعم: أخرجه ابن ماجه (٢٣١)، وأحمد (٤/ ٨٠، ٨٢)، والدرامى (٢٢٨).

٣- أنس بن مالك: أخرجه ابن ماجه (٢٣٦)، وأحمد (٣/ ٢٢٥).

٤- أبى بكرة: أخرجه ابن ماجه (٢٣٣).

٥- أبى قرصافة: أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٣٠٧٢).

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) من حديث أبى موسى الأشعرى.

الله، وأنه أرسل إلى جميع الناس: أميهم وغير أميهم، وإقام الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان، *وحج البيت العتيق من استطاع إليه سبيلاً* وإيجاب الصدق وتحريم الفواحش والظلم، والأمر بالإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله والبعث بعد الموت هو ما يعرفه المسلمون معرفة عامة، ولا يحتاج الإنسان فى معرفة ذلك إلى أن يحفظ القرآن، بل يمكن الإنسان معرفة ما أمر الله به على لسان رسوله وإن لم يعرف اللغة العربية، ويكفيه أن يقرأ فاتحة الكتاب وسوراً معها يصلى بهن، وكثير من الفرس، والروم، والترك، والهند، والحبشة، والبربر وغيرهم لا يعرفون أن يتكلموا بالعربية الكلام المعتاد، وقد أسلموا وصاروا من أولياء الله المتقين، ومنهم من يحفظ القرآن كله وإذا كلم الناس لا يستطيع أن يكلمهم إلا بلسانه لا بالعربية، وإذا خوطب بالعربية لم يفقه ما قيل له.

الوجه الثانى: أن المسيح عليه السلام كان لسانه عبريًا، وكذلك ألسنة الحواريين الذين اتبعوه أولاً، ثم إنه أرسلهم إلى الأمم يخاطبونهم ويترجمون لهم ما قاله المسيح عليه السلام، فإن قالوا: إن رسل المسيح حولت ألسنتهم إلى ألسنة من أرسل إليهم.

قيل: هذا منقول فى رسل المسيح، وفى رسل محمد ﷺ الذين أرسلهم إلى الأمم، ولا ريب أن رسل رسل الله، كرسل محمد ﷺ والمسيح ﷺ إلى الأمم، لابد أن يعرفوا لسان من أرسلهم الرسول إليهم، أو أن يكون عند أولئك من يفهم لسانهم ولسان الرسول ليترجم لهم، فإذا لم يكن عند من أرسل المسيح إليهم من يعرف بالعربية، فلابد أن يكون رسوله ينطق بلسانهم.

وكذلك رسل النبى ﷺ الذين أرسلهم إلى الأمم، فإن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية أرسل رسله إلى أهل الأرض، فبعث إلى ملوك العرب باليمن، والحجاز، والشام، والعراق، وأرسل إلى ملوك النصارى بالشام ومصر: قبطهم، ورومهم، وعربهم، وغيرهم، وأرسل إلى الفرس المجوس: ملوك العراق وخراسان.

قال محمد بن سعد فى الطبقات: ذكر بعثة رسول الله ﷺ الرسل بكتبه إلى الملوك وغيرهم يدعوهم، وذكر ما كتب به رسول الله ﷺ لناس من العرب وغيرهم. ثم قال: أخبرنا محمد بن عمر الأسلمى قال: حدثنى معمر بن راشد، ومحمد بن عبد الله، عن الزهرى، عن عبيد بن عبد الله، عن ابن عباس قال:

وعن الواقدي: حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة، عن المسور بن رفاعة، وحدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه عن جدته الشفاء، وحدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة، عن محمد بن يوسف، عن السائب بن يزيد، عن العلاء ابن الحضرمي، وحدثنا ابن محمد الأنصاري، عن جعفر بن عمرو (بن جعفر بن عمرو) بن أمية الضمري، عن أهله ، عن عمرو بن أمية الضمري دخل حديث بعضهم في حديث بعض قالوا: إن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست أرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام. وكتب إليهم كتبًا فقيل: يا رسول الله، إن الملوك لا يقرأون كتابًا إلا مختومًا، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتمًا من فضة، فصه منه، نقشه ثلاثة أسطر: محمد رسول الله، وختم به الكتب، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، وذلك في المحرم سنة سبع، وأصبح كل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم. أرسل النبي ﷺ إلى هرقل: دحية بن خليفة الكلبي، وإلى المقوقس صاحب مصر والإسكندرية حاطب بن أبي بلتعة، وإلى كسرى: عبد الله بن حذافة السهمي، وأرسل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني -وكان نصرانيًّا بظاهر دمشق- فبعث إليه شجاع بن وهب الأسدي، وأرسل إلى غير هؤلاء[(١)].

وقال أيضًا: أخبرنا الهيثم بن عدي قال: أخبرنا دلهم بن صالح وأبو بكر الهذلي عن عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال: وحدثنا محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان والزهري، وحدثنا الحسن بن عمارة، عن فراس، عن الشعبي، دخل حديث بعضهم في حديث بعض: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**ائتوني بأجمعكم بالغداة**»، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى الفجر يجلس في مصلاه قليلاً يسبح ويدعو، ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة، وقال ﷺ: «**انصحوا لله في أمر عباده، فإن من أخبر عن شيء من أمور المسلمين، ثم لم ينصح، حرم الله عليه الجنة، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى ابن مريم، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد فأصبحوا -يعني الرسل- وكل منهم يعرف بلسان القوم الذين أرسل إليهم**» وذكر ذلك النبي ﷺ فقال: «**هذا أعظم ما كان من حق الله -عز وجل- عليهم في أمر عباده**»[(٢)].

---

(١) إسناده ضعيف جدًا: مدار طرقه على الواقدي، وهو متروك.

(٢) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٢٧-١٢٨)، وهو مرسل من جميع طرقه، والهيثم بن عدي متروك ومتهم بالكذب كما في «الميزان» (٩٣١١).

الوجه الثالث: أن النصارى فيهم عرب كثير من زمن النبى ﷺ وكل من يفهم اللسان العربى، فإنه يمكن فهمه للقرآن، وإن كان أصل لسانه فارسيًا أو روميًا أو تركيًا أو هنديًا أو قبطيًا، وهؤلاء الذين أرسلوا هذا الكتاب من علماء النصارى قد قرأوا المصحف وفهموا منه ما فهموا وهم يفهمونه بالعربية واحتجوا بآيات من القرآن، فكيف يسوغ لهم مع هذا أن يقولوا: كيف تقوم الحجة علينا بكتاب لم نفهمه؟.

الوجه الرابع: أن حكم أهل الكتاب فى ذلك حكم المشركين، ومعلوم أن المشركين فيهم عرب وفيهم عجم -ترك وهند وغيرهما- فكما أن جميع المشركين كمشركى العرب، وكذلك جميع أهل الكتاب كأهل الكتاب من العرب وفى اليهود والنصارى ممن يعرف بلسان العرب من لا يحصيه إلا الله -عز وجل-.

الوجه الخامس: أنه ليس فهم كل آية من القرآن فرضًا على كل مسلم، وإنما يجب على المسلم أن يعلم ما أمره الله به، وما نهاه عنه بأى عبارة كانت، وهذا ممكن لجميع الأمم، ولهذا دخل فى الإسلام جميع أصناف العجم من الفرس، والترك، والهند، والصقالبة، والبربر، ومن هؤلاء من يعلم اللسان العربى، ومنهم من يعلم ما فرض الله عليه الترجمة، وقد قدمنا أنه يجوز ترجمة القرآن فى غير الصلاة والتعبير، كما يجوز تفسيره باتفاق المسلمين، وإنما تنازعوا هل يقرأ بغير العربية تلاوة كما يقرأ فى الصلاة؟ فجمهور العلماء منعوا من ذلك، وحينئذ فإذا قرأ الأعجمى فاتحة الكتاب وسورتين معها بالعربية أجزأه، وكذلك التشهد وغيره من الذكر المأمور به وهذا أمر يسير أيسر من أكثر الواجبات، فكيف يمتنع أن يأمر الله -تبارك وتعالى- عباده بذلك؟.

وأما جمل ما أمر به الرسول ﷺ من الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وما حرمه الله من الشرك والفواحش والظلم وغير ذلك، فهذا مما يمكن أن يعرفه كل واحد بتعريف من يعر نه، إما باللسان العربى، وإما بلسان آخر لا يتوقف تعريف ذلك على لسان العر ب.

• • •

فصل

وأما قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(١).

وقوله:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ...﴾(٢).

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا...﴾(٣).

فهذا يتضمن إنعام الله على عباده، لأن اللسان العربى أكمل الألسنة وأحسنها بيانًا للمعانى، فنزول الكتاب به أعظم نعمة على الخلق من نزوله بغيره، وهو إنما خوطب به أولاً العرب ليفهموه، ثم من يعلم لغتهم يفهمه كما فهموه، ثم من لم يعلم لغتهم ترجمه له من عرف لغتهم، وكان إقامة الحجة به على العرب أولاً والإنعام به عليهم أولاً لمعرفتهم بمعانيه قبل أن يعرفه غيرهم.

قال -تعالى-:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٤).

وقال:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾(٥).

واللد جمع الألد، وهو الأعوج فى المناظرة الذى يروغ عن الحق، كما قال النبى ﷺ: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»(٦)، وأما قوله -تعالى-:

---

(١) سورة يوسف: ٢.

(٢) سورة فصلت: ٤٤.

(٣) سورة الزخرف: ٣.

(٤) سورة الدخان: ٥٨.

(٥) سورة مريم: ٩٧.

(٦) صحيح: أخرجه البخارى (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨)، والترمذى (٢٩٨٧)، والنسائى (٨/٢٤٨)، وأحمد (٦/٥٥، ٦٣، ٢٠٥)، وابن أبى الدنيا فى «الصمت» (١٥٧)، و«الغيبة» (١٨)، من حديث عائشة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾(١).

فهو كما قال -تعالى- وقوم محمد ﷺ هم قريش، وبلسانهم أرسل، وهو -سبحانه- لم يقل: وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه، بل الرسول يبعثه الله إلى قومه وغير قومه، كما تقول النصارى: إنه بعث المسيح عليه السلام، والحواريين إلى غير بنى إسرائيل، وليسوا من قومه، فكذلك بعث محمداً ﷺ إلى قومه وغير قومه. ولكن إنما يبعث بلسان قومه، ليبين لهم ثم يحصل البيان لغيرهم بتوسط البيان لهم: إما بلغتهم، ولسانهم، وإما بالترجمة لهم ولو لم يتبين لقومه أولاً لم يحصل مقصود الرسالة لا لهم ولا لغيرهم، وإذا تبين لقومه أولاً حصل البيان لهم ولغيرهم بتوسطهم، *وقومه إليهم بعث أولاً ولهم دعا أولاً، وأنذر أولاً*، وليس فى هذا أنه لم يرسل إلى غيرهم، لكن إذا تبين لقومه لكونه بلسانهم، أمكن بعد هذا أن يعرفه غير قومه: إما بتعلمه بلسانهم، وإما بتعريف بلسان يفهم به، والرجل يكتب كتاب علم فى طب أو نحو أو حساب بلسان قومه ثم يترجم ذلك الكتاب، وينقل إلى لغات أخر وينتفع به أقوام آخرون، كما ترجمت كتب الطب والحساب، التى صنفت بغير العربى وانتفع بها العرب، وعرفوا مراد أصحابها، وإن كان المصنف لها أولاً إنما صنفها بلسان قومه، وإذا كان هذا فى بيان الأمور التى لا يتعلق بها سعادة الآخرة، والنجاة من عذاب الله فكيف يمتنع فى العلوم التى يتعلق بها سعادة الآخرة والنجاة من العذاب أن ينقل من لسان إلى لسان حتى يفهم أهل اللسان الثانى بها ما أراده بها المتكلم بها أولاً باللسان الأول.

وأبناء فارس المسلمون لما كان لهم من عناية بهذا، ترجموا مصاحف كثيرة، فيكتبونها بالعربى، ويكتبون الترجمة بالفارسية، وكانوا قبل الإسلام أبعد عن المسلمين من الروم والنصارى، فإذا كان الفرس المجوس قد وصل إليهم معانى القرآن بالعربى وترجمته فكيف لا يصل إلى أهل الكتاب وهم أقرب إلى المسلمين منهم؟ وعامة الأصول التى يذكرها القرآن عندهم شواهدها ونظائرها فى التوراة، والإنجيل، والزبور، وغير ذلك من النبوات، بل كل من تدبر نبوات الأنبياء وتدبر القرآن جزم يقينًا، بأن محمداً رسول الله حقًا. وأن موسى رسول الله صدقًا، لما يرى من تصادق الكتابين: التوراة والقرآن مع العلم بأن موسى عليه السلام لم يأخذ عن محمد ﷺ وأن محمداً ﷺ لم يأخذ عن موسى، فإن محمداً ﷺ باتفاق أهل

---

(١) سورة إبراهيم: ٤.

المعرفة بحاله كان أميًّا، من قوم أميين، مقيمًا بمكة، ولم يكن عندهم من يحفظ التوراة والإنجيل، ولا الزبور، ومحمد ﷺ لم يخرج من بين ظهرانيهم ولم يسافر قط إلا سفرتين: إلى الشام خرج مرة مع عمه أبى طالب قبل الاحتلام، ولم يكن يفارقه، ومرة أخرى مع ميسرة فى تجارته، وكان ابن بضع وعشرين سنة مع رفقة كانوا يعرفون جميع أحواله ولم يجتمع قط بعالم أخذ عنه شيئًا، لا من علماء اليهود ولا النصارى ولا من غيرهم، لا بحيرى ولا غيره، ولكن كان بحيرى الراهب لمّا رآه عرفه لما كان عنده من ذكره ونعته، فأخبر أهله بذلك، وأمرهم بحفظه من اليهود ولم يتعلم لا من بحيرى ولا من غيره كلمة واحدة، وسنبين -إن شاء الله- الدلائل الكثيرة على أنه لم يأخذ عن أحد من أهل الكتاب كلمة واحدة، وقصة بحيرى مذكورة ذكرها أرباب السير وأصحاب المسانيد والسنن.

قال الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى فى جامعه: حدثنا الفضل أبو العباس البغدادى، قال: حدثنا عبد الرحمن بن غزوان أبو نوح أنا يونس بن أبى إسحاق عن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى عن أبيه قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبى ﷺ فى أشياخ من قريش: فلما أشرفوا على الراهب هبطوا، فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، قال: فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبقَ شجر ولا حجر إلا خرّ ساجدًا، ولا يسجدن إلا لنبى وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غرضوف كتفه مثل التفاحة ثم رجع فصنع لهم طعامًا، فلما أتاهم به -وكان هو فى رعية الإبل- فقال: أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فىء الشجرة، فلما جلس مال فىء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فىء الشجرة مال عليه. قال فبينما هو قائم عليهم يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم الراهب فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا لأن هذا النبى خارج فى هذا الشهر فلم يبقَ طريق إلا بعث إليه بأناس وإنا قد أخبرنا خبره بطريقك هذه.

فقال: أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟

قالوا: لا. قال: فـتابعوه وأقاموا مـعه. قال: أنشدكم الله يا معـشر العرب أيكم وليـه؟ فـقال أبـو طالب: أنا. فلم يزل يناشـده حـتى رده أبو طالب وزوده الراهب من الكعك والزيت[١].

قال الترمـذى: هذا حديث حسن غريب لا نعـرفه إلا من هذا الوجه ورواه البيهـقى فى كتاب دلائل النبوة من حـديث العباس بن محـمد عن قراد بن نوح. وقال العباس: لم يحـدث به -يعنى بهذا الإسناد- غير قراد وسمعـه يحيى وأحمد من قراد.

قال البيهقى: أراد أنه لم يحدث بهذا الإسناد سوى هؤلاء، فأما القصة فهى عند أهل المغازى مشهورة.

وقال ابن سعد فى الطبقات: حدثنا محـمد بن عمر قال: حدثنى محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة عن داود بن الحصين قال لما بلغ رسول الله ﷺ اثنى عشرة سنة خرج به أبو طـالب إلى الشام فى العير التى خرج فيـها للتجارة، فنزلوا بالراهـب بحيرى فقال بحـيرى لأبـى طالـب فى النبى ﷺ ما قـال، وأمره أن يحـتفظ به فـرده أبو طالب معـه إلـى مكـة، وشب رسول الله ﷺ مع أبى طالب يكلؤه الله ويحـفظه ويحـوطه من أمـور الجاهليـة ومعـايبهـا لما يريده به من كـرامتـه حتى بلغ أن كـان رجلاً أفـضل قومـه مروءة، وأحسنهم خلقـًا، وأكرمهم مخالطة، وأعظمـهم حلمًا وأمانة، وأصدقـهم حديثًا، وأبعدهم من الفـحش والأذى فما رؤى مـلاحيًا ولا مماريًا أحـدًا حتى سماه قـومه الأمين لما جمع فيه من الأمور الصالحة[٢].

وقال ابن الجوزى: خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ وهو ابن اثنتى عشـرة سنة وشهرين وعشـرة أيام فنزل الركب ببصرى وبهـا راهب -يقال له بحيـرى- فى صومعـة له. وكان ذا علمٍ بالنصرانـية، ولم يزل فى تلك الصومـعة راهب تنتهى إليه علم النصرانية صاغراً عن كابر وفيها كتب يدرسونها، وكان كثيراً مـا يمر الركب فـلا يكلمـهم حتى إذا كـان فى ذلك العـام نزلوا منزلاً قـريبًا من

(١) صحيح: أخرجه الترمذى (٣٦٤٠)، والحاكم فى «مستدركه» (٤٢٢٩)، وصححه الألبانى فى «صحيح سنن الترمذى».

(٢) إسناده ضعيف جداً: فهو معضل، ومحمد بن عمر هو الواقدى، متروك.

الصومعة، فصنع لهم الراهب طعامًا ودعاهم. وإنما حمله على ذلك لشيء رآه فلما رأى بحيرى ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فحضر وأرسل إلى القوم فقال: يا معشر قريش. أحب أن تحضروا طعامى ولا يتخلف منكم أحد، فقال: وهذا شيء تكرمونى، فلما حضروا عنده جعل يلاحظ النبى ﷺ لحظًا شديدًا، وينظر إلى جسده، وجعل أبو طالب يخاف عليه من الراهب، ثم قال الراهب لأبى طالب: ارجع بابن أخيك، فإنه كائن له شأن عظيم، فإنا نجد صفته فى كتبنا ويروونه عن آبائنا. فلما فرغوا من التجارة رجع به أبو طالب سريعًا إلى مكة، فما خرج بعدها به أبو طالب خوفًا عليه».

هذا مع أن فى القرآن من الرد على أهل الكتاب فى بعض ما حرفوه مثل دعواهم أن المسيح عليه السلام صلب. وقول بعضهم: إنه إله. وقول بعضهم: إنه ساحر. وطعنهم على سليمان عليه السلام وقولهم: إنه كان ساحرًا وأمثال ذلك ما يبين أنه لم يأخذ عنهم.

وفى القرآن من قصص الأنبياء -عليهم السلام- ما لا يوجد فى التوراة والإنجيل مثل قصة هود وصالح وشعيب وغير ذلك.

وفى القرآن من ذكر المعاد وتفصيله وصفة الجنة والنار والنعيم والعذاب ما لا يوجد مثله فى التوراة والإنجيل، بل التوراة ليس فيها تصريح بذكر المعاد وعامة ما فيها من الوعد والوعيد، فهو فى الدنيا كالوعد بالرزق والنصر، والعاقبة، والوعيد بالقحط والأمراض، والأعداء.

وإن كان ذكر المعاد موجودًا فى غير التوراة من النبوات، ولهذا كان أهل الكتاب يقرون بالمعاد، وقيام القيامة الكبرى، وقد قيل: إن ذلك مذكور فى التوراة أيضًا، لكن لم يبسط كما بسط فى غير التوراة.

• • •

فصل

[الجواب عن ادعاء النصارى عصمة الحواريين]

فإن قالوا: إن الكتب التى عندنا من التوراة والإنجيل وغيرهما ترجمها لنا الحواريون، وهم عندنا رسل معصومون، وترجموها لجميع الأمم بخلاف القرآن فإنه إنما يترجمه من ليس بمعصوم، فعن هذا أجوبة:

أحدها: أن هذا كذب بيِّن فإن من العرب من النصارى من لا يحصى عدده إلا الله -تعالى- وكان فيهم نصارى كثيرون تنصروا قبل مبعث محمد ﷺ، وكان فيهم قوم على دين المسيح الذى لم يبدل وهم مؤمنون من أهل الجنة، كسائر من كان على دين المسيح عليه السلام، فإن كل من كان على دين المسيح الذى لم يبدل قبل مبعث محمد ﷺ، فإنه مؤمن مسلم من أهل الجنة.

ومع هذا فليس على وجه الأرض توراة ولا إنجيل معرب من عهد الحواريين، بل التوراة العبرية تنقل من اللسان العبرى أو غيره إلى العربية، وكذلك الإنجيل ينقل من اللسان الرومى، أو السريانى، أو اليونانى أو غيرها إلى اللغة العربية، فلو كان عند كل أمة من الأمم توراة وإنجيل ونبوات بلسانهم، لكان نصارى العرب أحق بهذا من نصارى الحبشة والصقالبة والهند، فإنهم جيران البيت المقدس، وهم بنو إسماعيل عليه السلام والأناجيل عندهم أربعة، وهم يدعون أن كل واحد كتبها بلسان، كتبت بلسان العبرى، والرومى، واليونانى، مع أن فى بعض الأناجيل ما ليس فى بعض. مثل قولهم: «عمدوا الناس باسم الأب، والابن وروح القدس» الذى جعلوه أصل دينهم. وهذا إنما هو قوله فى إنجيل متى، وإذا كان كل واحد من الأربعة كتب إنجيلاً بلسانه، لم يكن هناك إنجيل واحد أصلى ترجع إليه الأناجيل كلها، ثم هم (مع) هذا يدعون أنها ترجمت باثنين وسبعين لسانًا. وهذا فيه من الكذب والتناقض أمور سننبِّه -إن شاء الله- على بعضها، لكن غاية ما يدعون أنه ترجم باثنين وسبعين لسانًا، ومعلوم أن الألسنة الموجودة فى بنى آدم فى جميع المعمورة فى زماننا وقبل زماننا أكثر من هذا، كما يعرفه من عرف أحوال العالم، بل اللسان الواحد كالعربى، والفارسى، والتركى، جنس تحته

أنواع مختلفة لا يفهم بعضهم لسان بعض إلا أن يتعلمه منهم، والعرب أقرب الأمم إلى بنى إسحاق: بنى إسرائيل، والعيص فإنهم بنو إسماعيل وجيرانهم، فإن أهل الحجاز جيران الشام، ومكة لم تزل تحج إليها العرب، ولم يكن قط عند العرب توراة ولا إنجيل عربيان من عهد المسيح عليه السلام، بل ولا كان بمكة لا توراة ولا إنجيل، لا معرب ولا غير معرب، ولهذا قال -تعالى-:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾(١).

فكيف يدعى أن التوراة، والإنجيل ترجمها الحواريون لكل قوم من جميع بنى آدم شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً بلسان يفهمونه به، وهل يقول هذا إلا من هو من أكذب الناس وأجهلهم؟

الوجه الثانى: أن يقال ترجمة الكلام من لغة إلى لغة لا تحتاج إلى معصوم بل هذا أمر تعلمه الأمم، فكل من عرف اللسانين أمكنه الترجمة ويحصل العلم بذلك إذا كان المترجمون كثيرين متفرقين لا يتواطؤون على الكذب، وبقرائن تقترن بخبر أحدهم وبغير ذلك، وهذا موجود معلوم، بل إذا ترجمه اثنان كل منهما لا يعرف ما يقوله الآخر ولم يتواطؤوا حصل بذلك المقصود فى الغالب، وهم يذكرون أن التوراة ترجمها اثنان وسبعون حبرًا من اليهود، ولم يكونوا معصومين، وأن الملك فرقهم لئلا يتواطؤوا على الكذب، واتفقوا على ترجمة واحدة، وهذا كان بعد الخراب الأول، فهكذا يمكن ترجمة غير التوراة.

وهذه التوراة فى زماننا والإنجيل والزبور يترجم باللغة العربية، ويعرف المقصود به بلا ريب، فكيف بالقرآن الذى يفهم أهله معناه ويفسرونه ويترجمونه أكمل وأحسن مما يترجم أهل التوراة والإنجيل، التوراة والإنجيل؟

الوجه الثالث: أن دعوى العصمة فى كل واحد من الحواريين وأنهم رسل الله بمنزلة إبراهيم وموسى -عليهما السلام- دعوى ممنوعة وهى باطلة، وإنما هم رسل المسيح عليه السلام بمنزلة رسل موسى ورسل إبراهيم ورسل محمد ﷺ، وأكثر النصارى أو كثير منهم أو كلهم يقولون: هم رسل الله وليسوا بأنبياء، وكل من ليس بنبى، فليس برسول الله وليس بمعصوم، وإن كانت له خوارق عادات، كأولياء الله من المسلمين وغيرهم، فإنه وإن كانت لهم كرامات من الخوارق،

(١) سورة القصص: ٤٦.

فليسوا معصومين من الخطأ، والخوارق التى تجرى على يدى غير الأنبياء، لا تدل على أن أصحابها أولياء الله عند أكثر العلماء، فضلاً عن كونهم معصومين، فإن ولى الله من يموت على الإيمان *ومجرد الخارق لا يدل على أنه يموت على الإيمان* بل قد يتغير عن ذلك الحال، وإذا قطعنا بأن الرجل ولى الله كمن أخبر النبى بأنه من أهل الجنة، فلا يجب الإيمان بكل ما يقوله إن لم يوافق ما قالته الأنبياء بخلاف الأنبياء -عليهم السلام- فإنهم معصومون لا يجوز أن يستقر فيما يبلغونه خطأ، ولهذا أوجب الله الإيمان بهم، ومن كفر بواحد منهم فهو كافر، ومن يسب واحدًا منهم، وجب قتله فى شرع الإسلام، كما قال -تعالى-:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(٢).

وهذا مبسوط فى موضع آخر.

• • •

---

(١) سورة البقرة: ١٣٦، ١٣٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٥.

فصل

[الجواب عن ادعاء النصارى الاستغناء عن رسالة النبى ﷺ]

وأما قولهم: لا يلزمنا اتباعه، لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله خاطبونا بألسنتنا وأنذرونا بديننا الذى نحن متمسكون به يومنا هذا وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغتنا على ما يشهد لهما الكتاب الذى أتى به هذا الرجل حيث يقول فى سورة إبراهيم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ...﴾(١).

وقال فى سورة النحل:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً...﴾(٢).

فالجواب عنه من وجوه:

أحدها: أن إثبات رسول من قبله إليكم لا يمنع إتيان رسول ثان، فإن بنى إسرائيل قد بعث الله إليهم موسى ﷺ وكانوا على شريعة التوراة، ثم بعث الله -تبارك وتعالى- إليهم المسيح ﷺ ووجب عليهم الإيمان به ومن لم يؤمن به كان كافرًا وإن قال إنى متمسك بالكتاب الذى أنزل إلىّ.

فكذلك إذا أرسل الله رسولاً بعد المسيح وجب الإيمان به ومن لم يؤمن به كان كافرًا، كما أن من لم يؤمن بالمسيح من بنى إسرائيل كان كافرًا.

وبنوا إسرائيل أكثر اختصاصًا بموسى والتوراة من الروم وغيرهم، فالمسيح والإنجيل فإنهم كانوا عبرانيين والتوراة عبرانية.

الوجه الثانى: دعواهم أنهم متمسكون فى هذا الوقت بالدين الذى نقله الحواريون عن المسيح ﷺ كذب ظاهر، بل هم عامة ما هم عليه من الدين: عقائده وشرائعه، كالأمانة، والصلاة إلى المشرق، واتخاذ الصور والتماثيل فى

---

(١) سورة إبراهيم: ٤.
(٢) سورة النحل: ٣٦.

الكنائس، واتخاذها وسائط، والاستـشفاع بأصحابها، وجعل الأعـياد بأسمائهم، وبناء الكنائس على أسمائهم، واستحـلال الخنزير، وترك الختان والرهبانية، وجعل الصيام فى الربيع، وجعله خمـسين يومًا، والصلوات والقرابين والناموس لم ينقله الحـواريون عن المسـيح ولا هو موجـود لا فى التـوراة ولا فى الإنجـيل، وإنما هم متمسكون بقليل مما جاءت به الأنبياء، وأما كفرياتهم وبدعهم فكثيرة جداً لم ينقل أحـد عن المسـيح والحواريـين أنهم أمروهم أن يـقولوا مـا يقـولونه فى صـلاتهم السحرية: «تعالوا بنا نسجد للمسـيح إلهنا»، وفى الصلاة الثانية والثالثة: «يا والدة الإله مريم العذراء افتحى لنا أبواب الرحمة».

الوجه الثالث: قولهم أنهم سلموا إليهم التوراة والإنجـيل بلغاتهم إنما يستقيم إن كان صحيحًا فى بعض النصارى لا فى جميعهم، فإن العرب من النصارى وغير العرب لم يسلم أحد إليهم توراة ولا إنجيـلاً بلسانهم، وهذا أمر معروف ولا توجد قط توراة ولا إنجيل معرب من زمن الحواريين، وإنما عربت فى الأزمان المتأخرة فإذا كانت النصـارى من العرب تقوم عليهم الحـجة قبل محـمد ﷺ بكتاب نزل بغير لسانهم ثم عرب لهم، فكيف لا تقوم على الروم وغيـرهم الحجة بكتاب نزل بغير لسانهم ثم ترجم بلسانهم؟.

الوجه الرابع: أن يقال: **الأمة إذا غيرت دين رسولها الذى أرسل إليها وبدلته** أرسل الله إليها من يدعوها إلى الدين الذى يحبه الله ويرضاه، كما أن بنى إسرائيل لما غيروا دين موسى وبدلوه، بعث الله إليهم وإلى غيرهم المسيح بالدين الذى يحبه ويرضـاه، وكذلك النصـارى لما بدلوا دين المسيح وغـيروه، بعث الله إليـهم وإلى غيرهم محمدًا ﷺ بالدين الذى يحبه ويرضاه.

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»(١).

وأولئك البقـايا الذين كانوا متـمسكين بدين المسيح قـبل مبعث محـمد ﷺ كانوا على دين الله -عز وجل-، وأما من حين بعث محمد ﷺ فمن لم يؤمن به فهو من أهل النار، كـما قال ﷺ فى الحديث الصـحيح: «**والذى نفسى بيده لا**

---

(١) صحـيح: أخرجـه مسلم (٢٨٦٥)، وأحـمد (٤/ ١٦٢، ٢٦٦)، وأبو نعيم فـى «الحلية» (١٣٨٢)، من حديث عياض بن حمار.

يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلاّ كان من أصحاب النار»(١).

الوجه الخامس: أن يقال: دعواهم أن الرسل سلموا إليهم التوراة والإنجيل وسائر النبوات باثنين وسبعين لسانًا، وأنها باقية إلى اليوم على لفظ واحد دعوى يعلم أن قائلها يتكلم بلا علم بل مفتر كذاب، وذلك أن هذا يقتضى أنه الآن فى الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لسانًا كلها منقولة عن الحواريين وكلها متفقة غير مختلفة البتة فهذا أربع دعاوى: أنها موجودة باثنين وسبعين لسانًا، وأنها متفقة، وأنها كلها منقولة عن الحواريين، الرابعة أنهم معصومون.

فيقال: من الذى منكم لو قدر أن هذه الكتب التى باثنين وسبعين لسانًا هى عن الحواريين، وهى موجودة اليوم، فمن الذى يمكنه أن يشهد بموافقة بعضها بعضًا؟ وذلك لا يمكن إلا لمن يعلم الاثنين وسبعين لسانًا ويكون ما عنده من الكتب يعلم أنها مأخوذة عن الحواريين ويعلم أن كل نسخة فى العالم بهذا اللسان توافق النسخة التى عنده وإلا فلو جمع اثنين وسبعين نسخة باثنين وسبعين لسانًا لم يعلم أن كل نسخة من هذه هى المأخوذة عن الحواريين إن قدر أنه أخذ عنهم اثنان وسبعون لسانًا. *ولا يعلم أن كل نسخة فى العالم توافق تلك النسخة*، فإنه من المعلوم أنه فى زماننا وقبل زماننا لم تزل هذه الكتب تنقل من لسان إلى لسان كما يترجم من العبرانية إلى العربية ومن السريانية والرومية واليونانية إلى العربية وغيرها.

وحينئذ فإذا وجدت نسخة بالعربية لم يعلم أنها مما عربت بعد الحواريين أو هى من المأخوذ عن الحواريين إذا قدر أنه أخذ عنهم نسخة بالعربية ولا يمكن لأحد أن يجمع جميع النسخ المعربة ويقابل بينها، بل وقد وجدنا النسخ المعربة يخالف بعضها بعضًا فى الترجمة مخالفة شديدة تمنع الثقة ببعضها، وقد رأيت أنا بالزبور عدة نسخ معربة بينها من الاختلاف ما لا يكاد ينضبط وما يشهد بأنها مبدلة مغيرة لا يوثق بها، ورأيت من التوراة المعربة من النسخ ما يكذب بكثير من ترجمتها طائفة من أهل الكتاب، فكيف يمكنه أن يجمع جميع النسخ التى بالاثنين وسبعين لسانًا ويقابل بين نسخ كل لسان حتى يكون فيها النسخة القديمة المأخوذة عن الحواريين؟ ثم يقابل بين نسخ جميع الألسنة ولا يمكن ذلك إلا لمن يكون عارفًا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبى هريرة.

بالاثنين وسبعين لسانًا معرفة تامة، وليس فى بنى آدم من يقدر على ذلك، ولو قدر وجود ذلك فلم يعرف أن القادر على ذلك فعل ذلك وأخبرنا باتفاقها.

ولو وجد ذلك لكان هذا خبر واحد أو أن يترجم كل لسان من يعلم صحة ترجمته حتى تنتهى الترجمة إلى لسان واحد كالعربى مثلاً ويعلم حينئذ اتفاقها، وإلا فإذا ترجم هذا الكتاب بلسان أو لسانين أو أكثر وترجم الآخر كذلك لم يعلم اتفاقها إن لم يعلم أن المعنى بهذا اللسان هو المعنى بهذا اللسان وهذا لا يكون إلا ممن يعرف اللسانين أو من يترجم له اللسانين باللسان الذى يعرفه.

ومعلوم أن أحدًا لم يترجم له الاثنان وسبعون لسانًا بلسانٍ واحد أو ألسنة يعرفها ولا يعرف أحد باثنين وسبعين لسانًا.

وحينئذ فالجزم باتفاق جميع الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لسانًا أو الجزم بأن نسخ كل لسان متفقة جزم بما لا يعلم صحته لو لم يكن فى الأرض اليوم الاثنان وسبعون لسانًا منقولة عن الحواريين لم تختلط بالمترجم بعد ذلك، فكيف وأكثر ما بأيدى الناس هو مما ترجم بعد ذلك بالعربى وغيره؟.

هذا إذا ثبت أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لسانًا وأنها باقية إلى اليوم وهذا أمر لا يمكن أحدًا معرفته، فليس اليوم توراة، وإنجيل، ونبوات يشهد لها أحد أنها مترجمة باللسان العربى من عهد الحواريين، بل ولا بأكثر الألسنة، وإلا فإذا قدر أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لسانًا مع حصول الترجمة بعد ذلك وكثرة المترجمات أمكن وقوع التغيير فى بعض المترجمات، وحينئذ فالعلم بأن تلك النسخ القديمة لا تغير فيها لا يمنع وقوع التغيير فى بعض ما ترجم بعدها أو فى بعض ما نسخ منها، ولا سبيل إلى العلم باتفاقها مع كونها باثنين وسبعين لسانًا بخلاف القرآن الذى هو بلسان العرب وخط العرب، فإن العلم باتفاق ما يوجد من نسخة ممكن وهو محفوظ فى الصدور ولا يحتاج إلى حفظ فى الكتب فهو منقول بالتواتر لفظًا وخطًّا.

الوجه السادس: قولهم وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا على ما يشهد لهما الكتاب الذى أتى به هذا الرجل، فيقال لهم: ليس فى القرآن ما يشهد لكم أن التوراة والإنجيل سلمت إليكم بلسانكم فاستشهادكم بالقرآن على هذه الدعوى من جنس استشهادكم به على أن دينكم حق.

ومن جنس استشهادكم بالنبوات على ما أحدثتموه وغيرتم به دين المسيح عليه السلام من التثليث والاتحاد وغير ذلك وقولهم حيث يقول الله:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ... ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً... ﴾(٢).

فيقال: لا ريب أن قوم موسى عليه السلام هم بنو إسرائيل وبلسانهم نزلت التوراة، وكذلك بنو إسرائيل هم قوم المسيح عليه السلام وبلسانهم كان المسيح يتكلم فلم يخاطب أحد من الرسولين أحد إلا باللسان العبرانى، لم يتكلم أحد منهما لا برومية، ولا سريانية، ولا يونانية، ولا قبطية.

وقوله -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً... ﴾(٣).

كلام مطلق عام، كقوله:

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ... ﴾(٤).

ليس فى هذا تعرض لكون التوراة والإنجيل سلمت إليهم بألسنتهم.

الوجه السابع: أن يقال عمدتهم فى هذه الحجة أنهم يقولون:

الحواريون هم عندنا رسل الله كإبراهيم وموسى، والمسيح عندنا هو الله وهو أرسل إلينا هؤلاء فيجب أن يكونوا أرسلوا إلينا بلساننا، وأن يكونوا سلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا.

فيقال لهم: هب أنكم تدعون هذا وتعتقدونه ونحن سنبين -إن شاء الله تعالى- أن هذه دعاوى باطلة لكن أنتم فى هذا المقام تذكرون أن هذا الكتاب الذى هو القرآن الذى جاء به محمد ﷺ يشهد لكم بذلك وهذا كذب ظاهر على محمد ﷺ وعلى كتابه وأنتم صدرتم كتابكم بأن كتابه يشهد لكم، ونحن نبين كذبكم وافتراءكم عليه سواء أقررتم بنبوته أو لم تقروا بها: فإنه من المعلوم يقينًا عنه أنه لم يشهد للمسيح بأنه الله، بل كفر من قال ذلك، ولا يشهد للحواريين

---

(١) سورة إبراهيم: ٤.

(٢)،(٣) سورة النحل: ٣٦.

(٤) سورة فاطر: ٢٤.

بأنهم رسل أرسلهم الله، بل إنما شهد للحواريين بأنهم قالوا إنا مؤمنون مسلمون وأنهم قالوا نحن أنصار الله كما شهد لمن آمن به بأنهم مؤمنون مسلمون ينصرون الله ورسوله، بل وأنهم أفضل من الحواريين لكون أمته خير الأمم كما قال -تعالى-:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾(٣).

وسيأتى الكلام على هذا مبسوطًا ونبين أن الرسل المذكورين فى سورة «يس» ليس هم الحواريين ولا كانوا رسلاً للمسيح، بل كان هذا الإرسال قبل المسيح وأهل القرية كذبوا أولئك الرسل فأهلكهم الله كما قال -تعالى-:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾(٤).

والرسل المذكورون فى سورة «يس» هم ثلاثة، وكان فى القرية رجل آمن بهم وهذه وإن كانت أنطاكية فكان هذا الإرسال قبل المسيح، والمسيح عليه السلام ذهب إلى أنطاكية اثنان من أصحابه بعد رفعه إلى السماء ولم يعززوا بثالث ولا كان حبيب النجار موجوداً إذ ذاك، وآمن أهل أنطاكية بالمسيح عليه السلام وهى أول مدينة آمنت به كما قد بسط فى غير هذا الموضع.

---

(١) سورة آل عمران: ٥٢.
(٢) سورة المائدة: ١١١.
(٣) سورة الصف: ١٤.
(٤) سورة يس: ٢٨، ٢٩.

والمقصود هنا: أن محمداً ﷺ لم يشهد للمسيح بالإلهية ولا للحواريين بأنهم رسل الله ولا أنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلسانهم ولا بأنهم معصومون وما ذكروه من قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ...﴾(١).

إنما يتناول رسل الله لا رسل رسل الله بل رسل رسل الله يجوز أن يبلغوا رسالات الرسل بلسان الرسل إذا كان هناك من يترجم لهم ذلك اللسان، وإن لم يكن هناك من يترجم ذلك اللسان كانت رسل الرسل تخاطبهم بلسانهم لكن لا يلزم من هذا أن يكونوا قد كتبوا الكتب الإلهية بلسانهم بل يكفى أن يقرأوها بلسان الأنبياء -عليهم السلام- ثم يترجموها بلسان أولئك وهو -سبحانه- قال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ...﴾(٢).

ولم يقل وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه بل محمد أرسل بلسان قومه وهم قريش وأرسل إلى قومه وغير قومه كما يذكرون ذلك عن المسيح عليه السلام.

• • •

---

(١) سورة إبراهيم: ٤.

(٢) سورة إبراهيم: ٤.

فصـل

وأما قوله -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً... ﴾(١).

فحق. وتمام الآية:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾(٢).

وهذا كقوله -تعالى- فى الآية الأخرى:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(٣).

وقوله:

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾(٤).

-فى أصح الأقوال- أى: ولكل قوم داعٍ يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته كما أنت هادٍ أى داعٍ لمن أرسلت إليه، والهادى: بمعنى الداعى المعلم المبلغ لا بمعنى الدى يجعل الهدى فى القلوب كقوله:

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ... ﴾(٥).

وقوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ... ﴾(٦).

ومعلوم أن بنى إسرائيل كانوا أكثر الأمم أنبياء، بعث إليهم موسى، وبعث

---

(١)، (٢) سورة النحل: ٣٦.
(٣) سورة فاطر: ٢٤.
(٤) سورة الرعد: ٧.
(٥) سورة الشورى: ٥٢، ٥٣.
(٦) سورة فصلت: ١٧.

إليهم بعده أنبياء كثيرون حتى قيل: إنهم ألف نبى وكلهم يأمرون بشريعة التوراة ولا يغيرون منها شيئًا، ثم جاء المسيح بعد ذلك بشريعة أخرى غيَّر فيها بعض شرع التوراة بأمر الله -عز وجل-.

فإذا كان إرسال موسى والأنبياء بعده إليهم لم يمنع إرسال المسيح إليهم فكيف يمتنع إرسال محمد ﷺ إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولهم من حين المسيح لم يأتهم رسول من الله كما قال -تعالى-:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

وهذه الفترة التى كانت بين المسيح ومحمد -صلوات الله عليهما وسلامه- وهى فيما ذكره غير واحد من العلماء كسلمان الفارسى وغيره كانت ستمائة سنة وقد قيل: ستمائة سنة شمسية وهى ستمائة وعشرون أو ثمانية عشر هلالية وذلك أن كل مائة سنة شمسية تكون مائة وثلاث سنين هلالية. كما قال -تعالى-:

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[2].

وهذه التسع وبعض العاشرة، والتاريخ قد تحسب فيه التامة وتحسب فيه الناقصة، فمن قال عشرين حسب الناقصة، ومن قال ثمانية عشر حسب التامة فقط.

• • •

(١) سورة المائدة: ١٩.

(٢) سورة الكهف: ٢٥.

فصـل

[الجواب عن ادعائهم أن اتباع النبى ﷺ لا يلزمهم]

وأما قـولهم: نعلم أن الله عدل وليس من عـدله أن يطالب أمة يوم القيـامة باتباع إنسان لم يأت إليـهم ولا وقفوا له على كتاب بلسـانهم ولا من جهة داعٍ من قبله، فيقال الجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا الكلام لا يجـوز أن يقوله من كـتب هذا الكتـاب ولا أحد يفهم بالعربية *فإن هؤلاء يفهمـون هذا الكتاب بالعربية* وقد قرءوه وناظروا بما فيه، وإذا كانوا مع ذلك يفهمون بغير العربية كان ذلك أبلغ فى قيام الحجة عليهم، فإنهم يمكنهم فهم ما قال بالعربية وتفهيم ذلك لقومهم باللسان الآخر.

الثانى: كما أنهم يفهمون ما فى كتبهم الرومية، والسريانية والقبطية، وغيرها ويترجمونهـا للعرب من النصارى بالعربية، فإذا قامت الحـجة على عرب النصارى باللسان الرومى فـلأن تقوم على الروم باللسـان العربى أولى، فإن اللسـان العربى أكثر انتشـارًا فى العالم من اللسان الرومى، والناطقون به بعد ظهـور الإسلام أكثر من الناطقين بغيره وهو أكمل بيانًا وأتم تفهمًا.

وحينئـذ فيكون وصـول المعانى به إلى غـير أهل لسـانه أيسر لكمـال معناه ولكثرة العارفينَ به، وهؤلاء علماء النصارى يقرءون كتب الطب والحساب والفلسفة وغير ذلك باللسـان العربى مع أن مصنفيـها كانوا عجمًـا من رومى ويونانى وغير ذلك، فما المانع أن يقرأ القرآن العربى وتفسيره وحديث النبى ﷺ باللسان العبرى؟ مع أنه أخذ عن الرسول بالعربى فهو أولى بأن يعرف مراد المتكلم به.

الوجه الثالث: أن يقال الناس لهم فـى عدل الله ثلاثة أقوال، قـيل: كل ما يكون مقدورًا فـهو عدل، وقيل: العـدل منه نظير العدل من عبـاده، وهما قولان ضعيفان وقيل: من عدله أن يجزى المحسن بحسناته لا ينقصه شيئًا منها ولا يعاقبه بلا ذنب.

ومعلوم أنه إذا أمر العـبد بما يقدر عليه كان جـائزًا باتفاق طوائف أهل الملل

من المسلمين واليهود والنصارى، وإن كان الفعل مكروهًا للإنسان فإن الجنة حفت بالمكاره وحفت النار بالشهوات، وقد كلفت بنو إسرائيل والنصارى من الأعمال ما هو مكروه لهم وشاق عليهم، فكيف يمتنع أن يأمرهم وينهاهم بلغة يبين بعض المسلمين معناها لهم والعرب الذين نزل القرآن بلسانهم طبقوا الأرض، ومنهم نصارى لا يحصون، فكل من عرف بالعربية من النصارى أمكنه فهم ما يقال بالعربى، ومن كان منهم روميًا كان له أسوة من أسلم من سائر طوائف الأعاجم كالفرس، والترك، والهند، والبربر، والحبشة، وغيرهم وهو متمكن من معرفة ما أمره الله والعمل به، كما يمكن هؤلاء كلهم، بل الروم أقدر على ذلك من غيرهم، فلأى وجه يمتنع أن يأمرهم الله بذلك؟ وما لا يتم الواجب إلا به إذا كان مقدورًا للعبد، فعليه أن يفعله باتفاق أهل الملل: المسلمين، واليهود، والنصارى.

وإنما تنازع الناس فيه هل يسمى واجبًا؟ فقيل: يسمى واجبًا، وقيل: لا يسمى واجبًا، فإن الآمر لم يقصده بالأمر وقد لا يخطر بباله إذا كان الآمر مخلوقًا.

قال هؤلاء: ولأن الواجب ما يذم تاركه شرعًا، أو يعاقب تاركه شرعًا، أو ما يستحق تاركه الذم، أو ما يكون تركه سببًا للذم أو العقاب، وقالوا: وما لا يتم الواجب إلا به لا يستحق تاركه الذم والعقاب، فإن الحج إذا وجب على شخصين أحدهما بعيد والآخر قريب ولم يفعلاه لم تكن عقوبة البعيد على الترك أعظم من عقوبة القريب، مع أن المسافة التى لابد لهما من قطعها أكثر.

وكذلك من وجب عليه قضاء دينه من غير احتياج إلى بيع شىء من ماله ليست عقوبته على الترك بأقل من عقوبة من يحتاج إلى بيع مال له ليقضى به دينه.

وفصل الخطاب أن ما لا يتم الواجب إلا به هو من لوازم وجود الواجب، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، فالمأمور به لا يمكن فعله إلا بلوازمه، والمنهى عنه لا يمكن تركه إلا بترك ملزوماته، لكن هذا الملزوم لزوم عقلى أو عادى، فوجوبه وجوب عقلى عادى، لا أن الآمر نفسه قصد إيجابه والذم والعقاب على تركه.

وتنازع الناس هل يقال ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، سواء كان وجوبه شرعيًا أو عقليًا؟ أو يحتاج أن يقال ما لا يتم الواجب إلا به وكان مقدورًا للمكلف فهو واجب؟

فالجمهور أطلقوا العبارة الأولى، وبعض المتأخرين قيدوها بالقدرة ولا حاجة إلى ذلك. فإن ما لم يكن مقدوراً ينتفي الوجوب مع انتفائه فيكون شرطًا في الوجوب لا في فعل الواجب والجمهور قالوا: ما لا يتم الواجب إلا به فإنه يجب.

والمقصود هنا: أن الله إذا أوجب على العباد شيئًا واحتاج أداء الواجب إلي تعلم شيء من العلم كان تعلمه واجبًا فإذا كان معرفة العبد لما أمره الله به تتوقف على أن يعرف معنى كلام تكلم به بغير لغته وهو قادر على تعلم معنى تلك الألفاظ التي ليست بلغته أو على معرفة ترجمتها بلغته وجب عليه تعلم ذلك.

ولو جاءت رسالة من ملك إلى ملك بغير لسانه، لطلب من يترجم مقصود الملك المرسل ولم يجز أن يقول: أنت لم تبعث إليَّ من يخاطبني بلغتي مع قدرته على أن يفهم مراده بالترجمة، فكيف يجوز أن يقال ذلك لرب العالمين؟ ولو أمر به بعض الملوك بعض رعاياه وجنوده بلغته وهم قادرون على معرفة ما أمرهم به إما بتعلم لغته وإما بمن يترجم لهم ما قاله لم يكن ذلك ظلمًا، فكيف يكون ظلمًا من رب العالمين مع أنه ليس بظلم من المخلوقين؟

ولو وجب لبعض الرعية حق على بعض أو ظلم بعضهم بعضًا لوجب على الملك أن ينصف المظلوم ويرسل إلى الظالم من يأمره بالعدل والإنصاف، ويعاقبه إذا لم ينصف إذا كان الظالم متمكنًا من معرفة أمر الملك بالترجمة أو غيرها وهذا هو العدل، ليس العدل أن يترك الناس ظالمين في حق الله وحق عباده والله -تعالى- أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط كما قال -تعالى-:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾(١).

فليس لأحد ممن أرسل إليه رسول وهو قادر على معرفة ما أرسل به إليه بالترجمة أو غير الترجمة أن يمتنع من شرع الله الذي أنزله، وهو القسط الذي بعث به رسوله لكون الرسول ليس لغته لغته، مع قدرته على أن يعرف مراده بطرق متعددة.

والناس في مصالح دنياهم يتوسل أحدهم إلى معرفة مراد الآخر بالترجمة

(١) سورة الحديد: ٢٥.

وغيرها فيتبايعون، وبينهم ترجمان يبلغ بعضهم عن بعض، ويتراسلون في عمارة بلادهم، وأغراض نفوسهم بالتراجم الذين يترجمون لهم، وأمر الدين أعظم من أمر الدنيا، فكيف لا يتوسلون إلى معرفة مراد بعضهم من بعض؟! وكيف يكون أمر الدنيا أهم من أمر الدين إلاَّ عند من أغفل الله قلبه عن ذكر ربه، واتبع هواه وأعرض عن ذكر ربه، ولم يرد إلاَّ الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم.

قال -تعالى-:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(٢).

الوجه الرابع: أنه من العجب أن تعد النصارى مثل هذا ظلمًا خارجًا عن العدل، وهم قد نسبوا إلى الله من الظلم العظيم على هذا الأصل ما لم ينسبه إليه أحد من الأمم كما سبوه وشتموه، مسبة ما سبه إياها أحد من الأمم فهم من أبعد الأمم عن توحيده وتمجيده، وحمده، والثناء عليه، وذلك أنهم يزعمون أن آدم لما أكل من الشجرة غضب الرب عليه وعاقبه، وأن تلك العقوبة بقيت في ذريته إلى أن جاء المسيح وصلب، وأنه كانت الذرية في حبس إبليس، فمن مات منهم ذهبت روحه إلى جهنم في حبس إبليس حتى قالوا ذلك في الأنبياء: نوح وإبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وغيرهم.

ومعلوم أن إبراهيم كان أبوه كافرًا ولم يؤاخذه الله بذنب أبيه فكيف يؤاخذه بذنب آدم وهو أبوه الأبعد هذا لو قُدِّر أن آدم لم يتب، فكيف وقد أخبر الله عنه بالتوبة؟ ثم يزعمون أن الصلب الذي هو من أعظم الذنوب والخطايا به خلص الله آدم وذريته من عذاب الجحيم، وبه عاقب إبليس مع أن إبليس ما زال عاصيًا لله مستحقًّا للعقاب من حين امتنع من السجود لآدم ووسوس لآدم إلى حين مبعث المسيح والرب قادر على عقوبته، وبنو آدم لا عقوبة عليهم في ذنب أبيهم، فمن

---

(١) سورة النجم: ٢٩.

(٢) سورة الكهف: ٢٨.

كان قولهم مثل هذه الخرافات التى هى مضاحك العقلاء، والتى لا تصلح أن تضاف إلى أجهل الملوك وأظلمهم، فكيف يدعون مع هذا أنهم يصفون الله بالعدل، ويجعلون من عدله أنه لا يأمر الإنسان بتعلم ما يقدر على تعلمه، وفيه صلاح معاشه، ومعاده، ويجعلون مثل هذا موجبًا لتكذيب كتابه، ورسله، والإصرار على تبديل الكتاب الأول، وتكذيب الكتاب الآخر وعلى أنه يتضمن مخالفة موسى، وعيسى، وسائر الأنبياء والرسل؟

والنصارى يقولون: إن المسيح الذى هو عندهم اللاهوت والناسوت جميعًا إنما مكن الكفار من صلبه ليحتال بذلك على عقوبة إبليس، قالوا: فأخفى نفسه عن إبليس لئلا يعلم، ومكن أعداءه من أخذه وضربه، والبصاق فى وجهه، ووضع الشوك على رأسه وصلبه وأظهر الجزع من الموت وصار يقول: يا إلهى لم سلطت أعدائى علىَّ ليختفى بذلك عن إبليس، فلا يعرف إبليس أنه الله أو ابن الله ويريد إبليس أن يأخذ روحه إلى الجحيم كما أخذ أرواح نوح، وإبراهيم، وموسى وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين، فيحتج عليه الرب، حينئذ ويقول: بماذا استحللت يا إبليس أن تأخذ روحى؟ فيقول له إبليس: بخطيئتك، فيقول ناسوتى: لا خطيئة له كنواسيت الأنبياء، فإنه كان لهم خطايا استحقوا بها أن تؤخذ أرواحهم إلى جهنم، وأنا لا خطيئة لى.

وقالوا: فلما أقام الله الحجة على إبليس جاز للرب حينئذ أن يأخذ إبليس ويعاقبه ويخلص ذرية آدم من إذهابهم إلى الجحيم، وهذا الكلامُ فيه من الباطل ونسبة الظلم إلى الله ما يطول وصفه، فمن هذا قوله: فقد قدح فى علم الرب وحكمته وعدله قدحًا ما قدحه فيه أحد، وذلك من وجوه:

أحدها: أن يقال: إبليس إن كان أخذ الذرية بذنب أبيهم فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره، وإن كان بخطاياهم فَلَمْ يأخذهم بذنب أبيهم، وهم قالوا: إنما أخذهم بذنب آدم.

الثانى: أن يقال من خلق بعد المسيح من الذرية كمن خلق قبله فكيف جاز أن يمكن إبليس من الذرية المتقدمين دون المتأخرين، وكلهم بالنسبة إلى آدم سواء، وهم أيضًا يخطئون أعظم من خطايا الأنبياء المتقدمين، فكيف جاز تمكين إبليس من عقوبة الأنبياء المتقدمين، ولم يمكن من عقوبة الكفار والجبابرة الذين كانوا بعد المسيح؟

الوجه الثالث: أن يقال أخذ إبليس لذرية آدم وإدخالهم جهنم: إما أن يكون ظلمًا من إبليس، وإما أن يكون عدلاً، فإن كان عدلاً فلا لوم على إبليس، ولا يجوز أن يحتال عليه ليمتنع من العدل الذى يستحقه بل يجب تمكينه من المتأخرين والمتقدمين.

وإن كان ظلمًا فلم لا يمنعه الرب منه قبل المسيح؟

فإن قيل: لم يقدر فقد نسبوه إلى العجز، وإن قيل: قدر على دفع ظلم إبليس ولم يفعله فلا فرق بين دفعه فى زمان دون زمان، إن جاز ذلك جاز فى كل زمان وإن امتنع امتنع فى كل زمان.

الوجه الرابع: أن إبليس إن كان معذورًا قبل المسيح فلا حاجة إلى عقوبته ولا ملام عليه، وإن لم يكن معذورًا استحق العقوبة ولا حاجة إلى أن يحتال عليه بحيلة تقام بها الحجة عليه.

الوجه الخامس: إنه بتقدير أنه لم يقم عليه الحجة قبل الصلب فلم يقم عليه حجة بالصلب، فإنه يمكنه أن يقول أنا ما علمت أن هذا الناسوت هو ناسوت الرب، وأنت يا رب قد أذنت لى أن آخذ جميع ذرية آدم فأوديهم إلى الجحيم، فهذا واحد منهم، وما علمت أنك أو ابنك اتحد به، ولو علمت ذلك لعظمته فأنا معذور فى ذلك فلا يجوز أن تظلمنى.

الوجه السادس: أن نقول أن إبليس يقول حينئذ: يا رب فهذا الناسوت الواحد أخطأت فى أخذ روحه لكن سائر بنى آدم الذين بعده لى أن أحبس أرواحهم فى جهنم كما حبست أرواح الذين كانوا قبل المسيح، إما بذنب أبيهم، وإما بخطاياهم أنفسهم وحينئذ فإن كان ما يقوله النصارى حقًا فلا حجة لله على إبليس.

الوجه السابع: أن يقال هب أن آدم أذنب وبنوه أذنبوا بتزيين الشيطان، فعقوبة بنى آدم على ذنوبهم هى إلى الله أو إلى إبليس؟ فهل يقول عاقل أن إبليس له أن يغوى بنى آدم بتزيينه لهم ثم له أن يعاقبهم جميعًا بغير إذن من الله فى ذلك، وهل هذا القول إلاَّ من قول المجوس الثنوية الذين يقولون إن كل ما فى العالم من الشر من الذنوب والعقاب وغير ذلك هو من فعل إبليس لم يفعل الله شيئًا من ذلك، ولا عاقب الله أحدًا على ذنب؟

ولا ريب أن هذا القول سرى إلى النصارى من المجوس، لهذا لا ينقلون هذا القول فى كتاب منزل ولا عن أحد من الحواريين ولهذا كان المانوية دينهم مركبًا من دين النصارى والمجوس، وكان رأسهم مانى نصرانيًّا مجوسيًّا فالنسب بين النصارى والمجوس، بل وسائر المشركين نسب معروف.

الوجه الثامن: أن يقال إبليس عاقب بنى آدم وأدخلهم جهنم بإذن الله أو بغير إذنه؟

إن قالوا بإذنه: فلا ذنب له ولا يستحق أن يحتال عليه ليعاقب ويمتنع، وإن كان بغير إذنه فهل جاز فى عدل الله أن يمكنه من ذلك أم لم يجز؟ فإن جاز ذلك فى زمان جاز فى جميع الأزمنه، وإن لم يجز فى زمان لم يجز فى جميع الأزمنة، فلا فرق بين ما قبل المسيح وما بعده.

الوجه التاسع: أن يقال هل كان الله قادراً على منع إبليس وعقوبته بدون هذه الحيلة وكان ذلك عدلاً منه لو فعله أم لا؟ فإن كان ذلك مقدوراً له وهو عدل منه لم يحتج أن يحتال على إبليس ولا يصلب نفسه أو ابنه، ثم إن كان هذا العدل واجبًا عليه وجب منع إبليس وإن لم يكن واجبًا جاز تمكينه فى كل زمان فلا فرق بين زمان وزمان.

وإن قيل: لم يكن قادراً على منع إبليس فهو تعجيز للرب عن منع إبليس، وهذا من أعظم الكفر باتفاق أهل الملل من جنس قول الثنوية الذين يقولون: لم يكن يقدر النور أن يمنع الظلمة من الشر، ومن جنس قول ديمقراطيس والحنانين الذين يقولون: لم يمكن واجب الوجود أن يمنع النفس من ملابسه الهيولى بل تعلقت النفس بها بغير اختياره.

الوجه العاشر: أن ما فعله به الكفار اليهود الذين صلبوه طاعة لله أو معصية فإن كان طاعة لله: استحق اليهود الذين صلبوه أن يثيبهم ويكرمهم على طاعته كما يثيب سائر المطيعين له، والنصارى متفقون على أن أولئك من أعظم الناس إثمًا -وهم من شر الخلق- وهم يستحلون من دمهم ولعنتهم ما لا يستحلونه من غيرهم، بل يبالغون فى طلب اليهود، وعقوبتهم فى آخر صومهم الأيام التى تشبه أيام الصليب، وإن كان أولئك اليهود عصاة لله فهل كان قادراً على منعهم من هذه المعصية أم لا؟ فإن لم يكن قادراً لم يكن قادراً على منع إبليس من ظلم الذرية فى

الزمن المستقبل وإن كان قادراً على منعهم من المعاصى ولم يمنعهم كان قادراً على منع إبليس بدون هذه الحيلة، وإذا كان حسنًا منه تمكينهم من هذه المعصية كان حسنًا منه تمكين إبليس من ظلم الذرية فى الماضى والمستقبل فلا حاجة إلى الحيلة عليه.

واعلم: أن الوجوه الدالة على فساد دين النصارى كثيرة جدًا، وكلما تصور العاقل مذهبهم، وتصور لوازمه، تبين له فساده، لكن المقصود هنا بيان تناقضهم فى أنهم يقيمون عذر أنفسهم فى ترك الإيمان بكتابه ورسوله ودينه لكونه -سبحانه- عدلاً لا يأمر الناس بما يعجزون عنه، وهو -سبحانه- لم يأمرهم إلاً بما يقدرون عليه وقد نسبوا إليه من الظلم ما لم ينسبه إليه أحد من بنى آدم يوضح هذا:

الوجه الحادى عشر: وهو أنه إما أن يقال فى الظلم بقول الجهمية المجبرة الذين يقولون يفعل ما يشاء بلا حكمة ولا سبب ولا مراعاة عدل، وإما أن يقال بقول القدرية أنه يجب عليه العدل الذى يجب على المخلوقين، وإما أن يقال هو عادل منزه عن الظلم ولكن ليس عدله كعدل المخلوق، فهذه أقوال الناس الثلاثة.

فإن قيل بالأول: جاز أن يسلط إبليس على جميع الذرية بلا ذنب وأن يعاقبهم جميعًا بلا ذنب، ولا حاجة حينئذٍ إلى الحيلة على إبليس.

وإن قيل بالثانى: فمعلوم أن الواحد من الناس لو علم أن بعض مماليكه أمر غيره بذنب يكرهه السيد ففعله كان العدل منه أن يعاقب الآمر والمأمور جميعًا.

وأما تسليطه للآمر على عقوبة المأمور فليس من العدل وكذلك تسليط الآمر الظالم على جميع ذرية المأمور الذين لم يذنبوا ذنب أبيهم ليس من العدل.

وإن قيل: بل هو استحق أن يستعبدهم لكون أبيهم أطاعه قيل: فحينئذٍ يستحق أن يأسر الأولين والآخرين فلا يجوز أن يمنع من حقه بالاحتيال عليه.

وإن قيل: إنما يستحق أخذهم خطاياهم، قيل: فله أن يأخذ الأولين والآخرين.

وإن قيل: هو لما طلب أخذ روح ناسوت المسيح منع بهذا الذنب؟ قيل: هذا إن كان ذنبًا فهو أخف ذنوبه فإنه لم يعلم أنه ناسوت الإله وإذا استحق الرجل أن

يسترق أولاد غيره فطلب رجلاً ليسترقه لظنه أنه منهم، ولم يكن منهم لم يكن هذا ذنبًا يمنع استرقاق الباقين.

وإن قيل: إن عدل الرب ليس كعدل المخلوقين بل من عدله أن لا ينقص أحداً من حسناته ولا يعاقبه إلا بذنبه لم يجز حينئذ أن يعاقب ذرية آدم بذنب أبيهم، ولم يجز أن يعاقب الأنبياء الذين ليس لهم ذنب إلا ذنب تابوا منه بذنب غيرهم فإن الأنبياء معصومون أن يقروا على ذنب، فكل من مات منهم مات وليس له ذنب يستحق عليه العقوبة فكيف يعاقبون بعد الموت بذنب أبيهم إن قدر أنه مات مصرًّا على الذنب مع أن هذا تقدير باطل، ولو قدر أن الأنبياء لهم خطايا يستحقون بها العقوبة بعد الموت وتسليط إبليس على عقوبتهم مع أن هذا تقدير باطل، فمن بعد المسيح من غير الأنبياء أولى بذلك، فكيف يجوز فى العدل الذى يوجب التسوية بين المتماثلين عقوبة الأنبياء ومنع عقوبة من هو دونهم بل من هو من الكفار؟

الوجه الثانى عشر: أن الرب إذا قصد بهذا دفع ظلم إبليس فهلا اتحد بناسوت بعض أولاد آدم ليحتال على إبليس فيمنعه من ظلم من تقدم، فإن المنع من الشر الكثير أولى من المنع من الشر القليل، أتراه ما كان يعلم أن إبليس يعمل هذا الشر كله؟ فهذا تجهيل له، أو كان يعرف وعجز عن دفعه فهذا تعجيز له، ثم ما الفرق بين زمان وزمان؟ أم كان ترك منعه عدلاً منه فهو عدل فى كل زمان؟



فصل

[بقية الجواب عن ادعائهم خصوصية الرسالة]

وأما تفسيرهم لقوله -تعالى-:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(١).

بأن مراده قومه كما قالوا.

وأما قول -تعالى-:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٢).

يريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين أتاهم بلغتهم لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء فيه.

فيقال لهم من فسر مراد متكلم: أى متكلم كان بما يعلم الناس أنه خلاف مراده فهو كاذب مفتر عليه، وإن كان المتكلم من آحاد العامة، ولو كان المتكلم من المتنبئين الكذابين، فإن مَن عرف كذبه إذا تكلم بكلام وعرف مراده به لم يجز أن يكذب عليه، فيقال: أراد كذا وكذا فإن الكذب حرام قبيح على كل أحد سواء كان صادقًا أو كاذبًا، فكيف بمن يفسر مراد الله ورسوله بما يعلم كل من خبر حاله علمًا ضروريًا أنه لم يرد ذلك بل يعلم علمًا ضروريًا أنه أراد العموم؟

فإن قوله -تعالى-: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا... ﴾ صيغة عامة، وصيغة «من» الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله -تعالى-:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾(٣).

ثم إن سياق الكلام يدل على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم، فإن هذا فى سورة آل عمران فى أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى، فإنها نزلت لما

---

(١)، (٢) سورة آل عمران: ٨٥.

(٣) سورة الزلزلة: ٧، ٨.

قدم على النبى ﷺ وفد نجـران النصارى، وروى أنهم كانوا سـتين راكبًا، وفـيهم السيد، والأيهم، والعاقب، وقصتهم مشهورة معروفة كما تقدم ذكرها.

وقد قال قـبل هذا الكلام بذم دين النصارى الذى ابتدعـوه وغيروا به *دين المسيح ولبـسوا الحق الذى بعث به المسيح بالبـاطل الذى ابتدعوه حـتى صار دينهم مركبًا من حق وباطل، واخـتلط أحدهما بالآخر فلا يكاد يوجد مـعه من يعرف ما نسخـه المسيح من شريعـة التوراة مما أقره والمسـيح قرر أكثـر شرع التوراة، وغـير المعنى، وعامة النصارى لا يميزون ما قرره مما غيره فلا يعرف دين المسيح*.

قال -تعالى-:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

فقد بين أن من اتخذ الملائكة والنبيين أربابًا فهو كافر، فمن اتخذ من دونهم أربابًا كان أولى بالكفـر، وقد ذكر أن النصارى اتخـذوا من هو دونهم أربابًا بقوله -تعالى-:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢).

ثم قال -تعالى- فى سورة آل عمران:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾(٣).

قال ابن عباس وغيره من السلف: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محـمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه، وأمـره أن يأخذ الميثاق على أمـته لئن

(١) سورة آل عمران: ٧٩، ٨٠.
(٢) سورة التوبة: ٣١.
(٣) سورة آل عمران: ٨١.

بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه، والآية تدل على ما قالوا، فإن قوله -تعالى-:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾. يتناول جميع النبيين.

﴿ ... لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ... ﴾(١).

وهذه اللام الأولى تسمى: اللام الموطئة للقسم، واللام الثانية تسمى: لام جواب القسم، والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط، والقسم كقوله -تعالى-:

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾(٢).

ومنه قوله -تعالى-:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٣).

وقوله:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ... ﴾(٤).

وقوله:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لاَّ تُقْسِمُوا ... ﴾(٥).

وقوله:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ ... ﴾(٦).

ومنه قوله:

---

(١) سورة آل عمران: ٨١.
(٢) سورة الحشر: ١٢.
(٣) سورة التوبة: ٧٥.
(٤) سورة الأنعام: ١٠٩.
(٥) سورة النور: ٥٣.
(٦) سورة فاطر: ٤٢.

﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ... ﴾(١).

ومنه قوله:

﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ... ﴾(٢).

(وقوله):

﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ... ﴾(٣).

(وقوله):

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ... ﴾(٤).

وقوله:

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ... ﴾(٥).

وقوله:

﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٦).

وقوله:

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ... ﴾(٧).

وقوله:

﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾(٨).

وقوله:

---

(١) سورة لقمان: ٢٥.
(٢) سورة التوبة: ٦٥.
(٣) سورة الأعراف: ١٤٩.
(٤) سورة الأحزاب: ٦٠.
(٥) سورة الإسراء: ٨٦.
(٦) سورة المائدة: ٧٣.
(٧) سورة يوسف: ٣٢.
(٨) سورة الروم: ٥٨.

﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ... ﴾(١).

وقوله:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ... ﴾(٢).

ومثل هذا كثير وحيث لم يذكر القسم فهو محذوف مراد تقدير الكلام -والله- ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ... ﴾ -والله- ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ... ﴾(٣).

ومن محاسن لغة العرب أنها تحذف من الكلام ما يدل المذكور عليه اختصاراً وإيجازاً، لا سيما فيما يكثر استعماله كالقسم، (وقوله):

﴿ ... لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ... ﴾(٤).

هي ما الشرطية والتقدير، أي شيء أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به ولا يحملنكم ما آتيتكم من كتاب وحكمة على أن تتركوا متابعته، بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه، وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا يغنيكم ما آتيتكم عما جاء به فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله.

فدل ذلك على أنه من أدرك محمداً من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قال:

﴿ ... لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ... ﴾(٥).

وقد أقر الأنبياء بهذا الميثاق وشهد الله عليهم به كما قال -تعالى-:

﴿ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾(٦).

---

(١) سورة العنكبوت: ١٠.

(٢) سورة هود: ٨.

(٣) سورة الحشر: ١٢.

(٤)، (٥) سورة آل عمران: ٨١.

(٦) سورة آل عمران: ٨١.

ثم قال -تعالى-:

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

ثم قال -تعالى-:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(٢).

ثم قال -تعالى-:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٣).

ثم قال -تعالى-:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٤).

قالت طائفة من السلف: لما أنزل الله هذه الآية قال من قال من اليهود والنصارى نحن مسلمون. فقال -تعالى-:

﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ...﴾(٥).

فقالوا: لا نحج. فقال -تعالى-:

﴿... وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(٦).

فكل من لم ير حج البيت واجبًا عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دل عليه القرآن.

واليهود والنصارى لا يرونه واجبًا عليهم فهم من الكفار حتى أنه روى فى

(١) سورة آل عمران: ٨٢.
(٢) سورة آل عمران: ٨٣.
(٣) سورة آل عمران: ٨٤.
(٤) سورة آل عمران: ٨٥.
(٥)، (٦) سورة آل عمران: ٩٧.

حديث مرفوع إلى النبي ﷺ: «من ملك زادًا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًا وإن شاء نصرانيًا»(١).

وهو محفوظ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد اتفق المسلمون على أن من جحد وجوب *مباني الإسلام الخمس*: الشهادتين، والصلوات الخمس، والزكاة وصيام شهر رمضان، وحج البيت فإنه كافر.

وأيضًا فقد قال -تعالى- في أول السورة:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(٢).

فقد أمره -تعالى- بعد قوله:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ...﴾(٣).

أن يقول أسلمت وجهي لله، ومن اتبعن، وأن يقول للذين أوتوا الكتاب: وهم اليهود والنصارى، والأميين، وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم أأسلمتم فالعرب الأميون يدخلون في لفظ الأميين باتفاق الناس.

وأما من سواهم: فإما أن يشمله هذا اللفظ أو يدخل في معناه بغيره من الألفاظ المبينة أن أرسل إلى جميع الناس.

قال -تعالى-:

﴿... فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(٤).

---

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي (٨١٢)، وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٨٦): قال ابن عدي: هذا الحديث غير محفوظ.

وقال الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (١٣٢): ضعيف.

(٢) سورة آل عمران: ١٨-٢٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٩.

(٤) سورة آل عمران: ٢٠.

فقـد أمر أهـل الكتاب بالإسـلام كمـا أمر به الأمـيين وجعلهم إذا أسلـموا مهتـدين، وإن لم يسلموا فقد قال: إنما عليك البـلاغ، أى: تبلغهم رسالات ربك إليهم والله هو الذى يحاسبهم، فدل هذا كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأميين، وأن الله يحـاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين.

وفى الصـحيـحين عن النبى ﷺ فى الكتـاب الذى كتبـه إلى هرقل ملك النصـارى: «من مـحمـد رسـول الله إلى هرقل عظيم الروم سـلام على من اتبع الهدى، أمـا بعد: فإنـى أدعوك بدعاية الإسـلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين».

و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِـذَ بَعْضُـنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّـن دُونِ اللَّـهِ فَإِن تَوَلَّـوْاْ فَقُولُـوا اشْهَـدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١).

وأبلغ من ذلك أن الله -تعالى- أخبر فى كتابه أن الإسلام دين الأنبياء كنوح وإبراهيم، ويعقوب، وأتباعهم إلى الحواريين، وهذا تحقيق لقوله -تعالى-:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ...﴾(٢).

وإن الدين عند الله الإسلام فى كل زمان ومكان.

قال -تعالى- عن نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣).

فهذا نوح الذى غرق أهل الأرض بدعوته، وجـعل جميع الآدميين من ذريته يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين.

---

(١) سورة آل عمران: ٦٤.

والخبر أخرجه البخارى (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، من حديث ابن عباس عن أبى سفيان بن حرب ، وقد تقدم فى أول الكتاب.

(٢) سورة آل عمران: ٨٥.

(٣) سورة يونس: ٧١، ٧٢.

وأما الخليل فقال -تعالى-:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(١).

قال -تعالى-:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٢).

فقد أخبر -تعالى- أنه أمر الخليل بالإسلام، وأنه قال أسلمت لرب العالمين وأن إبراهيم وصى بنيه *ويعقوب وصى بنيه* أن لا يموتن إلا وهم مسلمون.

وقال -تعالى-:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣).

وقال -تعالى- عن يوسف الصديق ابن يعقوب أنه قال:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(٤).

وقال -تعالى- عن موسى:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾(٥).

وقال عن السحرة الذين آمنوا بموسى:

---

(١) سورة البقرة: ١٢٧، ١٢٨.
(٢) سورة البقرة: ١٣٠-١٣٢.
(٣) سورة آل عمران: ٦٧، ٦٨.
(٤) سورة يوسف: ١٠١.
(٥) سورة يونس: ٨٤.

﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

وقال أيضًا:

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾(٢).

وقال -تعالى- فى قصة سليمان:

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾(٣).

وقال:

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾(٤).

وقال:

﴿ ... وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ... ﴾(٥).

وقال عن بلقيس التى آمنت بسليمان:

﴿ ... رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٦).

وقال -عن أنبياء بنى إسرائيل-:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا... ﴾(٧).

وقال -تعالى- عن الحواريين:

---

(١) سورة الشعراء: ٥٠، ٥١.
(٢) سورة الأعراف: ١٢٦.
(٣) سورة النمل: ٣٠، ٣١.
(٤) سورة النمل: ٣٨.
(٥) سورة النمل: ٤٢.
(٦) سورة النمل: ٤٤.
(٧) سورة المائدة: ٤٤.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾(٢).

فهؤلاء الأنبياء وأتباعهم. كلهم يذكر تعالى أنهم كانوا مسلمين، وهذا مما يبين أن قوله -تعالى-:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ... ﴾(٣).

وقوله:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ... ﴾(٤).

لا يختص بمن بعث إليه محمد ﷺ، بل هو حكم عام في الأولين والآخرين، ولهذا قال -تعالى-:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾(٥).

وقال -تعالى-:

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٦).

• • •

---

(١) سورة المائدة: ١١١.

(٢) سورة آل عمران: ٥٣.

(٣) سورة آل عمران: ٨٥.

(٤) سورة آل عمران: ١٩.

(٥) سورة النساء: ١٢٥.

(٦) سورة البقرة: ١١١، ١١٢.

فصل
[التوسط فى تعظيم المسيح]

قولهم: ثم وجدنا فى هذا الكتاب من تعظيم السيد المسيح وأمه حيث يقول فى سورة الأنبياء:

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[١].

وقال فى سورة آل عمران:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾[٢].

مع الشهادات للسيد المسيح بالمعجزات، وأنه حبلت به أمه من غير مباضعة رجل لبشارة ملائكة الله لأمه، وأنه تكلم فى المهد، وأحيا الميت، وأبرأ الأكمه[٣]، ونقى الأبرص وأنه خلق من الطين كهيئة الطير فنفخ فيه فكان طائراً بإذن الله. أى: بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت، ووجدنا أيضًا فى الكتاب أن الله رفعه إليه.

وقال فى سورة النساء:

﴿ ... وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ... ﴾[٤].

وفى سورة آل عمران:

﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾[٥].

---

(١) سورة الأنبياء: ٩١.

(٢) سورة آل عمران: ٤٢.

(٣) الأكمه: الأعمى. «المعجم الوسيط» (٧٩٩).

(٤) سورة النساء: ١٥٧، ١٥٨.

(٥) سورة آل عمران: ٥٥.

وقال فى سورة البقرة:

﴿ ... وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ... ﴾(١).

وقال فى سورة الحديد:

﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ... ﴾(٢).

وقال فى سورة آل عمران:

﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٣).

ثم وجدناه يعظِّم إنجيلنا:

الجواب: أما تعظيم المسيح وأمه فهو حق، وكذلك مدح من كان على دينه الذى لم يبدل قبل أن يبعث ﷺ، أو بقى على ذلك إلى أن بعث محمد ﷺ فآمن به، فإن هؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون، وكذلك من كان على دين موسى الذى لم يبدل إلى أن بعث المسيح فآمن به فهؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون، وقد قدمنا أن المسلمين هم عدل متوسطون لا ينحرفون إلى غلو، ولا إلى تقصير.

وأما اليهود والنصارى: فهم على طرفى نقيض، هؤلاء ينحرفون إلى جهة، وهؤلاء إلى الجهة التى تقابلها كما ذكرنا تقابلهم فى النسخ، وكذلك تقابلهم فى التحريم، والتحليل، والطهارة، والنجاسة. فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات وهم يبالغون فى اجتناب النجاسات حتى أن الحائض لا يؤاكلونها، ولا يساكنونها، ولا يجامعونها(٤) وكانوا لا يرون إزالة النجاسة من الثوب بل يقرض موضعها،

---

(١) سورة البقرة: ٨٧.

(٢) سورة الحديد: ٢٧.

(٣) سورة آل عمران: ١١٣، ١١٤.

(٤) أخرج مسلم (٣٠٢)، وأبو داود (٢٥٨)، والترمذى (٢٩٨٨)، والنسائى (١/ ١٥٢)، وابن ماجه (٦٤٤)، والدارمى (١٠٥٣)، والواحدى فى «أسباب النزول» (٧٦)، عن أنس قال: «كانت اليهود إذا حاضت امرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى البيوت...» الحديث، وقد تقدم فى أول الكتاب.

ويستـخرجون الـدم من العروق إلى غيـر ذلك من الآصار، والأغـلال التى كانت عليهم.

وأما النصارى: ففى مقابلتهم تجد عامتهم لا يرون شيئًا حرامًا، ولا نجسًا إلا ما كـرهه الإنسـان بطبعـه، ويصلون مع الجنابة، والحدث، وحـمل النجـاسات، ويأكلون الخبائث، كـالدم، والميتة، ولحم الخنزير، إلا من كره منهم شيئًـا فتركه، والمسلمون وسط كما قال -تعالى- فيهم:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(١).

أى: عدلاً خيارًا، قال -تعالى-:

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٢).

ولهذا كان من انحرف من المسلمين إلى شبه اليـهود والنصارى، مأمورًا بترك ذلك الانحراف، واتباع الصراط المستـقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصـالحين، وحسن أولئك رفيقًا، غيـر المغضوب عليهم كاليهود، وغير الضالين كالنصارى.

وذلك مـثل من يبالغ فى اجـتناب النجـاسات فـينجس مـا لم ينجسـه الله ورسـوله، ويحـرم ما لم يحـرمـه الله ورسولـه، ويأخذه الوسـواس فى اجـتناب النجاسـات، ويحرم طيـبات أحلها الله للمـسلمين، مثل: من يرى أن القـياس أن النجاسة لا تزول لا بماء ولا بغيره، أو يرى أن القـياس أنها وإن زالت فلم يبقَ لها أثر فالمحل نجس إذا لم تزل بما يشـترطه هو من الماء أو غيره، أو يرى أن الطـيبات التى أحلها الله حرام خبيثة لأنها مـستحيلة عن المحرم مع أن الخل حلال، وإن كان

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٦، ١٥٧.

قد كان خمرًا باتفاق المسلمين إذا بدا إلى حالته، أو يرى أن الماء الطيب، والمائعات الطيبة التى ليس فيها أثر من الخبيث حرام لكون الخبيث لاقاها، أو استهلك فيها مع أنها من الطيبات لا من الخبائث، أو يرى تحريم ما سوى موضع الدم الذى هو أذى، إلى غير ذلك من أقوال قالها بعض العلماء، ولكن غيرهم نازعهم فى ذلك واتبع ما دلَّ عليه الكتاب والسنة.

وأعظم من ذلك من يكفر من خالفه من المسلمين، ويرى نجاسة الكفار كما عليه كثير من أهل البدع من الرافضة والخوارج وغيرهم، فإذا أكل غيرهم من وعائهم نجسه عندهم، وأما ما يفعله كثير من الناس من غير أن يقوله عالم مثل من يغسل يديه، وثيابه، وحصر بيته بتوهم نجاستها، أو يأمر الحائض إذا طهرت أن تبدل ثيابها الأول أو تغسلها، أو يمنع الجنب أن يأكل *أو يشرب حتى يغتسل*، فهذا كثير فيمن يشبه اليهود بل يشبه سامرة اليهود.

وأما من يشبه النصارى: فمثل من يحسن الظن بمن لا يتطهر، ولا يصلى من المنسوبين إلى الفقر والزهد والعبادة، مثل من يكون فى مواضع الشياطين والنجاسات. كالحمام، والأتاتين(١)، والمزابل وهو متلوث، بالبول والعذرة ويعاشر الكلاب ولا يتوضأ ولا يغتسل من الجنابة، بل ولا يصلى أو يصلى بلا وضوء، وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن الصلوات الخمس فرض على كل أحد، وأن الوضوء من الحدث، والاغتسال من الجنابة فرض لا يصلى إلا به مع القدرة، ولا يتيمم مع القدرة. فمن أنكر وجوب ذلك فهو كافر باتفاق المسلمين.

ومن جعل الزاهد العابد الذى له نوع من الخوارق مثل نوع من الكشف والتصرف الذى يكون من الشياطين، والجهال يظنون أنه من كرامات أولياء الله إذا لم يكن يصلى الصلوات الخمس ويتوضأ ويغتسل من الجنابة من المؤمنين، أو من أولياء الله فهو كافر باتفاق المسلمين، ومن لم يحرم الخبائث التى حرمها الله ورسوله كالبول والعذرة والدم والميتة ولحم الخنزير والخمر فهو كافر باتفاق المسلمين، ومن جعل مستحل ذلك مع العلم بمخالفته لدين الرسول وليًا لله فهو كافر باتفاق المسلمين، وكذلك فيمن ينتحل الإسلام ويذم أهل الكتاب من يكون منافقًا فى الدرك الأسفل من النار، ويكون كثير من اليهود والنصارى أخف عذابًا فى الآخرة منه. قال الله -تعالى-:

---

(١) الأتون: الموقد الكبير كموقد الحمام. «المعجم الوسيط»(٤).

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴿١٤٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾(١).

وكذلك المسلمون وأهل السنة في المسلمين وكذلك فى التوحيد فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فيما يختص بالمخلوق، وهو صفات النقص الذى يجب تنزيه الرب عنها. والنصارى شبهوا المخلوق بالخالق فيما يختص بالخالق، وهو صفات الكمال التى لا يستحقها إلا الله -تبارك وتعالى-: فقال من قال من اليهود:

﴿... إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾(٢).

وقالوا:

﴿... يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ...﴾(٣).

وهو بخيل، وقالوا: إنه خلق العالم فتعب فاستراح.

وحكى عن بعضهم أنه قال: بكى على الطوفان حتى رمد وعادته الملائكة، وأنه ناح على بعض من أهلكه من عباده كما ينوح المصاب على ميته، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه ويتقدس -سبحانه وتعالى-.

وأيضًا فهم يستكبرون عن عبادة الله وطاعة رسله، ويعصون أمره ويتعدون حدوده، ولا يجوزون له أن ينسخ ما شرعه بل يحجرون عليه.

والنصارى يصفون المخلوق بما يتصف به الخالق فيجعلونه رب العالمين خالق كل شيء ومليكه الذى هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو -سبحانه- عما يشركون واتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا وصوروا تماثيل لمخلوقات واتخذوهم شفعاء يشفعون لهم عند الله كما فعل عباد الأوثان كما قال الله -تعالى-:

(١) سورة النساء: ١٤٥، ١٤٦.
(٢) سورة آل عمران: ١٨١.
(٣) سورة المائدة: ٦٤.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ... ﴾(١).

لهذا قال -تعالى-:

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ... ﴾(٣).

والمسلمون وسط يصفون الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، يصفونه بصفات الكمال، وينزهونه عن النقائص التى تمتنع على الخالق ولا يتصف بها إلا المخلوق، فيصفونه بالحياة والعلم والقدرة، والرحمة والعدل، والإحسان وينزهونه عن الموت. والنوم، والجهل، والعجز، والظلم، والفناء، ويعلمون مع ذلك أنه لا مثيل له فى شىء من صفات الكمال فلا أحد يعلم كعلمه، ولا يقدر كقدرته، ولا يرحم كرحمته، ولا يسمع كسمعه ولا يبصر كبصره، ولا يخلق كخلقه، ولا يستوى كاستوائه، ولا يأتى كإتيانه، ولا ينزل كنزوله كما قال -تعالى-:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾(٤).

ولا يصفون أحدًا من المخلوقين بخصائص الخالق -جل جلاله-، بل كل ما سواه من الملائكة والأنبياء وسائر الخلق فقير إليه عبد له، وهو الصمد الذى يحتاج إليه كل شىء، ويسأله كل واحد، وهو غنى بنفسه لا يحتاج إلى أحد فى شىء من الأشياء كما قال -تعالى-:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ

(١) سورة يونس: ١٨.
(٢) سورة الأنعام: ٥١.
(٣) سورة السجدة: ٤.
(٤) سورة الإخلاص.

يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿١٧١﴾ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾(٢).

وكذلك هم فى المسيح، فالنصارى يقولون: هو الله، ويقولون: أيضًا هو: ابن الله وهو إله تام وإنسان تام، واليهود يقولون: هو ولد زنا، وهو ابن يوسف النجار *ويقولون عن مريم: إنها بغى بعيسى كما قال -تعالى-: ﴿ ... وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾(٣)*.

ويقولون هو ساحر كذاب.

وأما المسلمون فيقولون: هو عبد الله ورسوله * وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه*، وهو وجيه فى الدنيا والآخرة، ومن المقربين، ويصفونه بما وصفه الله به فى كتابه لا يعلون فيه غلو النصارى، ولا يقصرون فى حقه تقصير اليهود، وكذلك قولهم فى سائر الأنبياء والمرسلين: وفى أولياء الله. فاليهود قتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس. والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو -سبحانه- عما يشركون ، ومع هذا فقد شارك النصارى اليهود فى نقص حق كثير من الأنبياء فيقولون أن سليمان لم يكن نبيًا، ويقولون: إن

(١) سورة مريم: ٨٨-٩٥.
(٢) سورة النساء: ١٧١-١٧٣.
(٣) سورة النساء: ١٥٦.

الحواريين مثل موسى وإبراهيم، ويقولون: إن من عمل بوصايا الله من غير الأنبياء صار مثل الأنبيـاء، وكان له أن يشرع شريعة، وبعض اليهـود غلوا فى العزير حتى قالوا -إنه ابن الله.

ولهذا قال نبينا ﷺ فى الحديث الصحيح: «**لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله**»(١).

والله -تعالى- ذكر فى القـرآن فى سورة (كهيعص) قصـة ابنى الخالة يحيى وعـيسى. ويحـيى يسمـونه النصارى يوحنـا وهو يوحنا المعمـدانى عندهم فقـال -تعالى- بعد أن ذكر قصة يحيى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(٢).

ثم قال الله -تعالى-:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٣٤٤٥)، من حديث عمر بن الخطاب.

(٢) سورة مريم: ١٦-٣٣.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(١).

فذكر -سبحانه- قصة مريم والمسيح فى هذه السورة المكية التى أنزلها فى أول الأمر بمكة فى السور التى ذكر فيها أصول الدين المدنية التى يخاطب فيها من اتبع الأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين، لما قدم عليه نصارى نجران فكان فيها الخطاب لأهل الكتاب فقال -تعالى-:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(٢).

* وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «**ما من مولود إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخًا من الشيطان إلا مريم وابنها**». ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)*(٣).

قال -تعالى-:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٤).

ثم ذكر قصة زكريا ويحيى ثم قال:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ

---

(١) سورة مريم: ٣٤-٣٨.
(٢) سورة آل عمران: ٣٣-٣٦.
(٣) صحيح: أخرجه البخارى(٣٤٣١)، ومسلم(٢٣٦٦).
(٤) سورة آل عمران: ٣٧.

أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾

هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

فهو -سبحانه- قد ذكـر قصة مريم والمسيح فى هاتين السورتين: إحداهما: مكية نزلت فى أول الأمر مع السور الممهدة لأصول الدين، وهى سورة (كهيعص) والثانية: مدنيـة نزلت بعد أن أمر بالهجـرة والجهاد، ولهـذا تضمنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتهم، كما نزلت فى «براءة» مجاهدتهم، فأخبر فى السورة المكية أنها لما انفردت للعبادة أرسل الله إليها روحه فتمثل لها بشراً سويًا. فقالت:

﴿... إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾(٢).

قال أبو وائل: علمت أن المتـقى ذو نهية، أى: تقـواه ينهاه عن الفاحـشة. وأنها خافت منه أن يكون قـصده الفاحشة، فقـالت: أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا، أى: تتقى الله، وما يقـول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فـاجر اسمه تقى فـهو من نوع الهـذيان وهو من الكذب الظاهر الذى لا يقوله إلا جـاهل، ثم قال:

﴿... إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِيَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾(٣).

وفى القراءة الأخرى: ﴿لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾(٤).

فأخبر هذا الروح الذى تمثل لها بشراً سويًا أنه رسول ربها، فدل الكلام على أن هذا الروح عين قائمة بنفسها ليست صفة لغيرها، وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله، ولهذا قال جماهير العلماء: أنه جبريل عليه السلام فإن الله سماه الروح الأمين وسماه روح القدس، وسماه جبريل، وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسد من مريم ومن روح القدس، لكن ضلالهم حـيث يظنون أن روح القدس حياة الله وأنه إله يخلق ويرزق ويعبد وليس فى شىء من الكتب الإلهـية ولا فى كلام الأنبياء أن الله سمى صفـته القائمة به روح القدس، ولا سـمى كلامه، ولا شيئًـا من صفاته ابنًا، وهذا أحد مـا يثبت به ضلال النصـارى، وأنهم حرفوا كلام الأنبـياء وتأولوه

(١) سورة آل عمران: ٦٦-٦٨.

(٢) سورة مريم: ١٨.

(٣)، (٤) سورة مريم: ١٩.

على غير ما أرادت الأنبياء، فإن أصل تثليثهم مبنى على ما فى أحد الأناجيل من أن المسيح عليه السلام قال لهم: «عمدوا الناس باسم الآب والابن وروح القدس»(١). فيقال لهم: هذا إذا كان قد قاله المسيح، وليس فى لغة المسيح ولا لغة أحد من الأنبياء، أنهم يسمون صفة الله القائمة به ولا كلمته ولا حياته لا ابنًا ولا روح قدس، ولا يسمون كلمته ابنًا، ولا يسمونه نفسه ابنًا، ولا روح قدس، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يصفون المصطفى المكرم ابنًا، وهذا موجود فى حق المسيح وغيره كما يذكرون أنه قال -تعالى- لإسرائيل: «أنت ابنى بكرى»(٢).

أى: بنى إسرائيل.

وروح القدس. يراد به الروح التى تنزل على الأنبياء كما نزلت على داود وغيره، فإن فى كتبهم أن روح القدس كانت فى داود وغيره، وأن المسيح قال لهم: «أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم» فسماه أبا للجميع، لم يكن المسيح مخصوصًا عندهم باسم الابن، ولا يوجد عندهم لفظ الابن إلا اسمًا للمصطفى المكرم لا اسمًا لشىء من صفات الله، ولا فى كتب الأنبياء أن صفة الله تولدت منه.

وإذا كان كذلك كان فى هذا ما يبين أنه ليس المراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية التى يقولون أنها تولدت من الله عندهم مع كونها أزلية، ولا بروح القدس حياة الله، بل المراد بالابن ناسوت المسيح، وبروح القدس ما أنزل عليه من الوحى والملك الذى نزل به فيكون قد أمرهم بالإيمان بالله، وبرسوله، وبما أنزله على رسوله، والملك الذى نزل به، وبهذا أمرت الأنبياء كلهم وليس للمسيح خاصة استحق بها أن يكون فيه شىء من اللاهوت، لكن ظهر فيه نور الله وكلام الله وروح الله كما ظهر فى غيره من الأنبياء والرسل، فإن غيره أيضًا فيما ينقلونه عن الأنبياء يسمى ابنًا وروح القدس حلت فيه، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: التنبيه على أن كلام الأنبياء -عليهم السلام- يصدق بعضه بعضًا، وأنه ليس مع النصارى لا حجة سمعية، ولا عقلية توافق ما ابتدعوه، ولكن فسروا كلام الأنبياء بما لا يدل عليه، وعندهم فى الإنجيل أنه قال: «إن الساعة لا يعلمها الملائكة ولا الابن وإنما يعلمها الأب وحده»(٣) فبين أن الابن لا يعلم الساعة فعلم أن الابن ليس هو القديم الأزلى وإنما هو المحدث الزمانى.

---

(١) إنجيل متى: (٢٨/ ١٩).

(٢) فى سفر الخروج: (٤/ ٢٢). «هكذا يقول الرب: إسرائيل ابنى البكر».

(٣) إنجيل متى: (٢٤/ ٣٦).

فصـل

[الفرق بين إضافة الصفة وإضافة العين إلى الله -عز وجل-]

والمضاف إلى الله نوعـان: فإن المضاف إمـا أن يكون صفـة لا تقوم بنفسـها كالعلم، والقدرة، والكلام، والحياة، وإما أن يكون عينًا قائمة بنفسها.

فالأول: إضافة صفة كقوله:

﴿... وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ...﴾(١).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(٢).

وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً...﴾(٣).

وقول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح حـديث الاستخارة: «**إذ هم أحدكم بالأمر فليـركع ركعتـين من غير الفـريضة ثم ليقل: اللهم إنـى أستخـيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك**»(٤).

وقوله -تعالى-: ﴿... وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً...﴾(٥).

وقوله: ﴿... ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ...﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٢) سورة الذاريات ٥٨.

(٣) سورة فصلت: ١٥.

(٤) صحـيح: أخرجـه البخارى (٦٣٨٢)، وأبو داود (١٥٣٨)، والترمـذى (٤٧٩) والنسائى (٦/ ٨٠)، وابن مـاجه (١٣٨٣)، وأحمـد (٣/ ٣٤٤)، من حديث جـابر بن عـبد الله. وتمامه «**... وأسألك مـن فضلك العظيم، فـإنك تقدر ولا أقـدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيـرٌ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى -أو قال: فـى عاجل أمـرى وآجله- فاقـدره لى. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شـرٌ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمر -أو قـال: فى عاجل أمرى وآجله- فاصرفه عنى واصرفنى عنه، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضِّنى به**». ويسمى حاجته.

(٥) سورة الأنعام: ١١٥.

(٦) سورة الممتحنة: ١٠.

وقوله: ﴿ ... ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ... ﴾(١).

والثانى: إضافة عين، كقوله -تعالى-:

﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ... ﴾(٢).

وقوله: ﴿ ... نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾(٣).

وقوله: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ... ﴾(٤).

فالمضاف فى الأول: صفة لله قائمة به ليست مخلوقة له بائنة عنه والمضاف فى الثانى: مملوك لله مخلوق له بائن عنه، لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التى اقتضت إضافته إلى الله -تبارك وتعالى-، كما خص ناقة صالح من بين النوق، وكما خص بيته بمكة من بين البيوت، وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق، ومن هذا الباب قوله -تعالى-: ﴿ ... فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ... ﴾(٥).

فإنه وصف هذا الروح بأنه تمثل لها بشرًا سويًا، وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقيًا وأنه قال: ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾(٦).

وهذا كله يدل على أنها عين قائمة بنفسها، وهى التى تسمى فى اصطلاح النظار جوهرًا، وقد تسمى جسمًا إذا كانت مشارًا إليها مع اختلاف الناس فى الجسم، هل هو مركب من الجواهر المفردة، أم من المادة والصورة، أم ليس مركبًا لا من هذا ولا من هذا؟ وإذا كان الله قد بين أن المضاف هنا ليس من الصفات القائمة بغيرها بل من الأعيان القائمة بنفسها علم أن المضاف مملوك لله مخلوق له، لكن إضافته إلى الله تدل على تخصيص الله له من الاصطفاء والإكرام بما أوجب التخصيص بالإضافة، وقد ذكرت فيما كنت كتبته قبل هذا من الرد على النصارى، الكلام فى ذلك وغيره وبينت أن المضافات إلى الله نوعان: أعيان، وصفات.

فالصفات إذا أضيفت إليه كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب

---

(١) سورة الطلاق: ٥.
(٢) سورة الحج: ٢٦.
(٣) سورة الشمس: ١٣.
(٤) سورة الإنسان: ٦.
(٥) سورة مريم: ١٧.
(٦) سورة مريم: ١٩.

ونحو ذلك دلت الإضافـة على أنها إضافة وصف له قائم به ليـست مخلوقة، لأن الصفة لا تقوم بنفسها فلا بد لها من مـوصوف تقوم به، فإذا أضيفت إليه علم أنها صفة له لكن قد يعـبر باسم الصفة عن المفعول بها فيـسمى المقدور قدرة، والمخلوق بالكلمةكلامًـا، والمعلوم علمًا، والمرحوم به رحمـة كقول النبى ﷺ: **«إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة»**(١).

وقوله -تعالى- فيما يروى عنه نبيه أنه قال للجنة: **«أنت رحمتى أرحم بك من أشاء»**(٢).

ويقال للمطر والسـحاب: هذه قدرة قادر، وهذه قدرة عظيـمة، ويقال فى الدعاء: غفر الله لك علمه فيك، أى: معلومة.

وأما الأعيان إذا أضيفت إلى الله -تعالى- فـإما أن تضاف بالجهة العامة التى يشترك فيهـا المخلوق مثل كونها مخلوقة ومملوكة له ومـقدورة، ونحو ذلك، فهذه إضافة عامة مشتركة كقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾(٣).

وقد يضاف لمعنى يختص بها يميز به المضاف عن غيره مثل: بيت الله، وناقة الله، وعبد الله، وروح الله، فـمن المعلوم اختصاص ناقة صـالح بما تميزت به عن سائر النياق، وكذلك اخـتصاص الكعبة، واختصاص العبـد الصالح الذى عبد الله وأطاع أمره، وكذلك الروح المقدسة التى امتازت بما فارقت به غيرها من الأرواح، فإن المخلوقات اشتـركت فى كونها مخلوقة مملوكة مربوبة لله يجـرى عليها حكمه وقضـاؤه وقدره، وهذه الإضافـة لا اختصـاص فيهـا، ولا فضيلة للمـضاف على غيره.

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢)، والترمذى (٣٥٥٢)، وابن ماجه (٤٢٩٣)، وأحمـد (٢/ ٣٣٤)، وابن أبى الدنيا فى «حـسن الظن بالله» (٥/ ١٤٦)، من حديث أبى هريرة.
وله شاهد من حديث سلمان، أخرجه مسلم (٢٧٥٣).

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، والترمذى (٢٥٧٠)، من حديث أبى هريرة مرفوعًا «احتجت الجنة والنار فقالت الجنة: يدخلنى الضعفاء والمساكين، وقالت النار: يدخلنى الجبارون والمتكبرون، فقـال للنار: أنت عذابى أنتقم بك ممن شئت. وقال للجنة: أنت رحمتى أرحم بك من شئت.

(٣) سورة لقمان: ١١.

وامتاز بعضها بأن الله يحبه ويرضاه ويصطفيه ويقربه إليه، ويأمر به، أو يعظمه ويحبه فهذه الإضافة يختص بها بعض المخلوقات كإضافة البيت، والناقة، والروح، وعباد الله من هذا الباب.

وقد قال -تعالى- في سورة الأنبياء:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١).

وقال في سورة التحريم:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾(٢).

فذكر امرأة فرعون التى ربت موسى بن عمران، وجمعت بينه وبين أمه حتى أرضعته أمه عندها، وذكر مريم أم المسيح التى ولدته وربته فهاتان المرأتان ربتا هذين الرسولين الكريمين، فلما قال هنا: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾، أى: فى المرأة، و﴿فِيهِ﴾، أى: في فرجها من روحنا، وقال هنا: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ -إلى قوله ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾(٣). دل على أن قوله: روحنا ليس المراد به أنه صفة لله لا الحياة، ولا غيرها، ولا هو رب خالق فلا هو الرب الخالق، ولا صفة الرب الخالق، بل هو روح من الأرواح التى اصطفاها الله وأكرمها كما تقدم فى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، وأن الأكثرين على أنه جبريل.

وهذا الأصل الذى ذكرناه من الفرق فيما يضاف إلى الله بين صفاته، وبين مملوكاته أصل عظيم ضل فيه كثير من أهل الأرض من أهل الملل كلهم، فإن كتب الأنبياء: التوراة، والإنجيل، والقرآن، وغيرها أضافت إلى الله أشياء على هذا الوجه، وأشياء على هذا الوجه: فاختلف الناس فى هذه الإضافة، فقالت المعطِّلة نفاة الصفات من أهل الملل: إن الجميع إضافة ملك وليس لله حياة قائمة به، ولا

---

(١) سورة الأنبياء: ٩١.

(٢) سورة التحريم: ١١، ١٢.

(٣) سورة مريم: ـ١٧-١٩.

علم قـائم به، ولا قدرة قائمـة به، ولا كلام قـائم به، ولا حب، ولا بغض ولا غضب، ولا رضا، بل جميع ذلك مخلوق من مخلوقاته.

وهذا أول ما ابتدعـته فى الإسلام الجهمـية وإنما ابتدعوه بعد انقـراض عصر الصحـابة وأكابر التـابعين لهم بإحسـان وكان مقـدمهم رجل يقـال له: الجهم بن صفوان، فنسبت الجهمية إليه، ونفوا الأسـماء والصفات، واتبعهم المعتزلة وغيرهم فنفوا الصفات دون الأسماء، ووافقهم طائفة من الفلاسفة أتباع أرسطو.

وقالت الحلوليـة: بل ما يضاف إلى الله قد يكون هو صفـة له وإن كان بائنًا عنه، بل قالوا: هو قديم أزلى، فـقالوا: روح الله قديمة أزلية صفـة لله، حتى قال كثير منهم: إن أرواح بنى آدم قديمة أزلية وصـفة لله، وقالوا: إن ما يسمعه الناس من أصوات القراء ومداد المصاحف قديم أزلى، وهو صفة لله.

وقال حذاق هؤلاء بل غـضبه، ورضاه، وحبه، وبغـضه، وإرادته لما يخلقه قديم أزلى *وهو صفة الله* وكلامه الذى سمـعه موسى قديم أزلى، وأنه لم يزل راضيًا محبًّا لمن علم أنه يطيعه قبل أن يخلق، ولم يزل غـضبانًا ساخطًا على من علم أنه يكفر قبـل أن يخلق، ولم يزل ولا يزال قائلاً: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم قبل أن يوجدوا، وبعد موتهم، ولم يـزل ولا يزال يقول: يا معشر الجن والإنس، قبل أن يخلقوا وبعد ما يدخلون الجنة والنار.

وأما سلف المسلمـين من الصحابة والتـابعين لهم بإحسان، وأئـمة المسلمين المشـهورون بالإمـامة فيـهم كـالأربعة، وغـيرهم، وأهل العلم بالكتـاب والسنة، فيفرقون بين مملوكاته، وبين صفاته، فيعـلمون أن العباد مخلوقون، وصفات العباد مخلوقة، وأجسادهم، وأرواحهم، وكلامـهم، وأصواتهم بالكتب الإلهية وغيرها، ومدادهم، وأوراقهم، والملائكة، والأنبياء وغيرها، ويعلمون أن صفات الله القائمة به ليست مخلوقة كعلمه، وقدرته، وكـلامه، وإرادته، وحياته، وسمعه، وبصره، ورضاه، وغضبـه، وحبه وبغضه، بل هو موصوف بما وصف به نفســه وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غيـر تكييف ولا تمثيل، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، ولا يحـرفون الكلم عن مواضعه، ولا يتأولون كلام الله بغير ما أراده، ولا يمثلون صفات الخالق بصفات المخلوق، بل يعلمون أن الله -سبحانه- ليس كمثله شىء لا فى ذاته، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله بل هو

موصوف بصفات الكمال، منزه عن النقائص، وليس له مثل فى شىء من صفاته، ويقولون: إنه لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الكمال، لم يزل متكلمًا إذا شاء بمشيئته وقدرته، ولم يزل عالمًا، ولم يزل قادرًا، ولم يزل حيًّا سميعًا بصيرًا، ولم يزل مريدًا، فكل كمال لا نقص فيه يمكن اتصافه به فهو موصوف به لم يزل ولا يزال متصفًا بصفات الكمال منعوتًا بنعوت الجلال والإكرام سبحانه وتعالى.

والنصارى من أعظم الناس اضطرابًا فى هذا الأصل، فتارة: يجعلون كلامه الذى تكلم به كالتوراة والإنجيل مخلوقًا منفصلاً عنه وينفون عنه الصفات، وتارة يجعلون كلمته قديمة أزلية متولدة عنه لم تزل ولا تزال، ثم يقولون هذه الكلمة هى ابنه، ويجعلون هذه الكلمة علمه، أو حكمته ويقولون إن هذه الكلمة هى إله خالق وهو الذى خلق السمٰوات والأرض وأن هذه الكلمة هى المسيح، والمسيح إله خالق العالم.

ويقولون: مع هذا أن هذه الكلمة ليست هى الآب الذى خلق السمٰوات والأرض فيجعلون كلمته صفة قديمة أزلية، ويجعلونها ابنًا له، ويجعلون الصفة إلهًا خالقًا، ويجعلون المسيح هو الإله الخالق، ويقولون مع هذا: هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه.

ولهم فى كلام الله وصفاته من التناقض والاضطراب، ومخالفة كلام الأنبياء، وتفسيره بغير ما أرادوه، ومخالفة صريح المعقول وصحيح المنقول ما سنذكر -إن شاء الله- منه ما ييسره الله، -سبحانه وتعالى-، إذ بيان فساد أقوال النصارى بالاستقصاء لا يتسع له هذا الكتاب، ولما قص -تعالى- قصة المسيح قال:

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ...﴾(١).

أى: يشكون ويتمارون كتمارى اليهود والنصارى.

ثم قال -تعالى-: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ...﴾(٢).

فاختلف اليهود والنصارى فيه، ثم اختلفت النصارى فيه وصاروا أحزابًا كثيرة جدًا، كالنسطورية، واليعقوبية، والملكية، *والباروبية، والمريمانية،

(١) سورة مريم: ٣٤.
(٢) سورة مريم: ٣٧.

والسمياطية. وأمثال هذه الطوائف، كمـا سنذكر -إن شاء الله- كثيراً من طوائفهم واختـلافهم فى مجامـعهم كما حكى ذلك عنـهم أحد أكابرهم سعـيد بن البطريق وغيـره، فإنه ليس فى الأمم أكـثر اخـتلافًا فى رب العـالمين منهم*، فويل للذين كفروا من هذه الطوائف كلها من مشهد يوم عظيم:

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا... ﴾(١).

يقول -تعالى-: مـا أسمعهم وما أبصـرهم يوم يأتوننا، لكن الظالمون اليوم كـالنصارى الذين ظلمـوا بإفكهم وشـركهم فـى ضلال مـبين ضلوا عن الحق فى المسيح، وقد وصف الله النصارى بالضلال فى مثل قوله -تعالى-:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾(٣).

لأن الغالب علـيهم الجهل بالدين، وأنهم يـتكلمون بكلام لا يعقـلون معناه *ليس منقولاً عن الأنبياء حتى يسلم لقائله بل هم ابتدعوه، وإذا سألتهم عن معناه قالوا: هذا لا يعرف بالعـقول فيبتـدعون كلامًا يعرفـون بأنهم لا يعقلونه*، وهو كلام مـتناقض ينقض أوله آخـره، ولهذا لا تجـدهم يتفـقون على قـول واحد فى معبودهم حتى قال بعض الناس: لو اجتمع عشرة نصارى، افترقوا على أحد عشر قولاً.

وقال الربعى: النصـارى أشد الناس اختلافًـا فى مذاهبهم، وأقلهم تحـصيلاً لها، لا يمكن أن يعرف لهم مذهب، ولو سألت قسًّا من أقسائهم عن مذهبهم فى المسيح، وسألت أباه وأمـه لاختلفوا عليك الثلاثة، ولقـال كل واحد منهم قولاً لا يشبه قول الآخر.

وقـال بعض النظار: وما من قـول يقولـه طائفة من العـقلاء إلا إذا تأملتـه

---

(١) سورة مريم: ٣٨.

(٢) سورة المائدة: ٧٧.

(٣) سورة الكهف: ٤، ٥.

تصورت منه معنى معقولاً وإن كـان باطلاً، إلا قول النصارى فإنك كلما تأملته لم تتصـور له حقيـقة تعقل لكن غـايتهم أن يحـفظوا الأمانة أو غيـرها، وإذا طولبوا بتفسير ذلك فسره كل منهم بتفسير يكفر به الآخر، كما يكفر اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية بعضهم بعضًا لاختلافـهم فى أصل التوحيد والرسالة إذ كان قولهم فى التوحيد. والرسالة من أفسد الأقوال وأعظمها تناقضًا كما بين فى موضع آخر.

• • •

فصـل

وأما قـولهم: فكان طيراً بإذن الله. أى: بإذن اللاهوت الـذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت، فهذا إذا قالوه على أنه مذهبهم من غير أن يقولوا أن محمداً أراده تكلمنا معهم فى ذلك وبينا فساد ذلك عقلاً ونقلاً.

وأما قـولهم: أن محـمداً ﷺ كان يقـول: أن المراد إذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت، فهذا من البهتان الظاهر على محمد ﷺ، وهو من جنس قولهم أن قوله:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ...﴾(١).

أراد به: النصارى. ومن جنس قولهم أن قوله:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا...﴾(٢).

أراد به: العرب، ومن جنس قولهم:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ...﴾(٣).

أراد بهم: الحواريين، ومن جنس قولهم:

﴿الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٤).

أراد به الإنجيل، فهذه المواضع التى فسروا بها القرآن وزعموا أن محمداً ﷺ الذى بين للناس مـا أنزل إليهم، كـان يريد ما يـتلوه من القرآن هذه المعـانى التى ذكروها هى من الكذب الظاهر الذى يدل على غاية جهل قائلها، أو غاية معاندته، ولكن مثل هذا التأويل غيـر مستنكر من النصارى، فإنهم قد فسـروا مواضع كثيرة من التوراة والإنجيل، والزبور، والنبوات بنحو هذه التفاسير التى حرفوا فيها الكلام الذى جاءت به الأنبـياء عن مواضعـه تحريفًا ظاهرًا، فبـدلوا بذلك كتب الله ودين

(١) سورة الفاتحة: ٦، ٧.

(٢) سورة آل عمران: ٨٥.

(٣) سورة الحديد: ٢٥.

(٤) سورة البقرة: ١، ٢.

الله، وضاهوا بذلك اليهود الذين حرفوا وبدلوا، وإن اختلفت جهة التحريف والتبديل، فتحريفهم للقرآن من جنس تحريفهم للتوراة والإنجيل وهم من الذين يدعون المحكم ويتبعون ما نشأ به منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، لكن فى هذه المواضع حرفوا المحكم الذى معناه ظاهر لا يحتمل إلا معنى واحد فكانوا من الجهل والمعاندة أبعد من الصواب ممن حرف معنى المتشابه، وذلك أنه قد علم بالاضطرار من دين محمد ﷺ أنه كان يقول أن المسيح عبد الله مخلوق كسائر المرسلين وأنه يكفر النصارى الذين يقولون: هو الله أو ابن الله.

قال -تعالى-:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(٢).

فقد ذكر كفر النصارى فى قولهم: هو الله مرتين، وذكر أنه ليس المسيح إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فغايته الرسالة كما قال فى محمد ﷺ:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾(٣).

---

(١) سورة المائدة: ١٧.

(٢) سورة المائدة: ٧٢-٧٧.

(٣) سورة آل عمران: ١٤٤.

وغاية أمه أن تكون صـديقة ودل بهذا أنها ليـست بنبية(١)، ثم قال: (كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ).

وهذا من أظهر الصفات النافية للإلهية: لحاجة الأكل إلى ما يدخل فى جوفه ولما يخرج منه مع ذلك من الفضلات.

والرب -تعالى- أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

والنصارى يقولون: إنه يلد، وأنه يولد، وأن له كفوًا كما قد بين فى موضع آخر، وقد أخبر بعبودية المسيح فى غير موضع كقوله -تعالى-:

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ... ﴾(٢).

وأخبر -تعالى- أن أول شىء نطق به المسيح قوله:

﴿ ... إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ... ﴾ الآيات -إلى قوله-: ﴿ ... شَهِيدٌ ﴾(٤).

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿وَأُمُّـهُ صِدِّيقَـةٌ﴾ [سورة المائدة: ٧٥]: وقوله ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أى مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقامـاتها، فدل على أنها ليست بنبية كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نـبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيـسى استـدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسـارة ومريم، وبقـوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [سورة القصص: ٧] وهذا معنى النبوة.
والذى عليه الجمهور: أن الله لم يبعث نبيًا إلا من الرجال، قال الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [سورة يوسف:١٠٩] وقد حكى الـشيخ أبو الحسن الأشعرى -رحمه الله- الإجماع على ذلك اهـ.

(٢) سورة الزخرف: ٥٧-٥٩.

(٣) سورة مريم: ٣٠.

(٤) سورة المائدة: ١١٦، ١١٧.

وقال -تعالى-:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ...﴾(١). الآيات كلها.

فإذا كان قد علم بالاضطرار من دين محمد ﷺ، وبالنقل المتواتر عنه، وبإجماع أمته إجماعًا يستندون فيه إلى النقل عنه، وبكتابه المنزل عليه وسنته المعروفة عنه أنه كان يقول أن المسيح عبد الله ورسوله ليس هو إلا رسول، وأنه يكفر النصارى الذين يقولون هو الله وهو ابن الله، والذين يقولون ثالث ثلاثة وأمثال ذلك، كان بعد هذا تفسيرهم لقول الله الذى بلغه نبيه محمد ﷺ فيكون طيرًا بإذن الله، أى: بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة بالناسوت كذبًا ظاهرًا على محمد ﷺ.

وهذا مما يعرف كذبهم فيه على محمد ﷺ جميع أهل الأرض العالم بحال محمد ﷺ، سواء أقروا بنبوته أو أنكروها.

فالمقصود فى هذا المقام: أن هؤلاء كذبوا على محمد ﷺ كذبًا ظاهرًا معلومًا للخلق المؤمنين به والمكذبين له ليس هو كذبًا خفيًّا.

وإن قدر أن ما قالوه يكون معقولاً، فكيف إذا كان ممتنعًا فى صرائح العقول؟ بل هو قول غير معقول، أى: غير معقول ثبوته فى الخارج، وإن كان يعقل ما يختلفون ويعلم به فساد عقولهم لمن قال سائر الأقوال المتناقضة الفاسدة التى يمتنع ثبوتها فى الخارج، وذلك كما قد بسط فى موضع آخر، فإن قولهم: بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت باطل من وجوه:

منها: أن تلك الكلمة إما أن تكون هى الله أو صفة لذاته، أو لا هى ذاته ولا صفة له، أو الذات والصفة جميعًا.

فإن لم تكن هى ذات الله ولا صفته، ولا الذات والصفة كانت بائنة عنه مخلوقة له، ولم يكن لاهوتًا، بل ولا خالقه، وحينئذ فلم يتحد بالمسيح لاهوت، بل إن لم يتحد به أنه كان اتحد به إلا مخلوق.

وإن كانت الكلمة هى الذات أو الذات والصفة فهى رب العالمين، وهى

---

(١) سورة النساء: ١٧١.

الآب عندهم، وهم متفقون على أن المسيح ليس هو الآب، ولم يتحد به الآب بل الابن.

وإن كانت الكلمة صفة لله -عز وجل- ، فصفة الله ليست هى الإله الخالق والمسيح عندهم هو الإله الخالق، وأيضًا فصفة الله قائمة بذاته لا تفارق ذاته وتحل بغيره وتتحد به وكلمة الله عندهم اتحدت بالمسيح.

وإن قالوا: قولنا هذا كما تقول طائفة من المسلمين: إن القرآن أو التوراة، أو الإنجيل حل فى القراء أو اتحد بهم، وأن القديم حل فى المخلوق أو اتحد به، ونحو ذلك.

قيل: لو كان قول هؤلاء صوابًا لم يكن لهم فيه حجة، فإنه على هذا التقدير لا فرق بين المسيح وبين سائر من يقرأ التوراة، والإنجيل، والزبور والقرآن، وأنتم تدعون أن المسيح هو الله أو ابن الله مخصوصًا بذلك دون غيره، وأيضًا فهؤلاء وجميع الأمم متفقون على أن قراء القرآن، وسائر الكتب الإلهية ليس واحد منهم هو الله، ولا هو ابن الله، ولا أنه خالق العالم، فإذا جعلتم قولكم مثل قول هؤلاء لزمكم أن لا يكون المسيح هو الله، ولا ابن الله، ولا ربًا للعالم، وأيضًا فلم نعلم أحدًا من هؤلاء قال: أن اللاهوت اتحد بالناسوت ولا أن القديم اتحد بالمحدث، ولا أن كلام الله صار هو والمخلوق شيئًا واحدًا، فالاتحاد باطل باتفاق هؤلاء وغيرهم.

ولكن طائفة منهم أطلقت لفظ الحلول، وطائفة أنكرت لفظ الحلول، وقالوا: إنما نقول ظهر القديم فى المحدث لا حل فيه، لكن قالوا ما يستلزم الحلول.

وسلف المسلمين وجمهورهم يخطئون هؤلاء، ويبينون خطأهم عقلاً ونقلاً، وقولم ليس هو قول أحد من أئمة المسلمين، ولا قول طائفة مشهورة من طوائف المسلمين كالمالكية، والشافعية، والحنفية، والحنبلية، والثورية[١]، والداودية[٢]، والإسحاقية[٣]، وغيرهم، ولا قول طائفة من طوائف المتكلمين من المسلمين، لا

(١) نسبة إلى سفيان الثورى.
(٢) نسبة إلى داود بن على الظاهرى إمام الظاهرية.
(٣) نسبة إلى إسحاق بن راهويه.

المتسبين إلى السنة كالأشـعرية، والكرامية ولا غيرهم كالمعتزلة والشـيعة، وأمثالهم وإنما قال ذلك طائفة قليلة انتسبت إلى بعض علماء المسلمين مثل قليل من المالكية، والشافـعية، والحنبليـة، وهؤلاء غايتهم أن يقـولوا بحلول صفة من صـفات الله، وكذلك من قـال بحلول الرب واتحاده فـى العبد من طوائـف الغلاة المتسـبين إلى التشيع، والتـصوف أو غيرهم، فـهم ضلال كالنصارى مع أنه لا حـجة للنصارى على هؤلاء، إذ كان ما يقولونه لا يختص به المسيح، بل هو مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء، والصالحين.

والنصارى تدعى اختصاص المسيح بـالاتحاد مع أن المتحد بالناسوت صار هو والناسوت شيئًا واحدًا، ومع الاتحاد فيمتنع أن يكون لأحدهما فعل أو صفة خارج عن الآخر، والنصـارى يدعون الاتحـاد ثم يتناقضـون. فمنهم من يقـول: جوهر واحد، ومنهم من يقول: جـوهران، ومنهم من يقول: مشيـئة واحدة، ومنهم من يقول: مشيئتان، كما سيأتى الكلام -إن شاء الله تعالى- على ذلك.



فصـل

[إبطال استدلال النصارى بالقرآن على تفضيلهم على المسلمين]

وأما قوله -تعالى-:

﴿... يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ...﴾(1).

فهـذا حق كما أخـبر الله به، فمـن اتبع المسيح عليه السلام جعله الله فوق الذين كفروا إلى يوم القـيامة وكان الذين اتبعوه على دينه الذى لم يبـدل قد جعلهم الله فوق اليهود، وأيضًا فالنصارى فوق اليهود الذين كفروا به إلى يوم القيامة.

وأما المسلمـون فهم مـؤمنون به ليسـوا كافرين به بل لما بدل الـنصارى دينه وبعث الله محمدًا ﷺ بدين الله الذى بعث به المسيح وغيـره من الأنبياء جعل الله محمدًا وأمته فوق النصارى إلى يوم القيـامة، كما فى الصحيحين عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «إنا معاشر الأنبـياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بينى وبينه نبى»(2).

وقال -تعالى-:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾(3).

وقال -تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(4).

---

(1) سورة آل عمران: ٥٥.

(2) صحيح: أخرجه البخارى (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥)، وأبو داود (٤٦٧٥).

(3) سورة الشورى: ١٣.

(4) سورة المؤمنون: ٥١-٥٣.

فكل من كان أتم إيمانًا بالله ورسله، كان أحق بنصر الله -تعالى-، فإن الله يقول في كتابه:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(١).

وقال في كتابه:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(٢).

واليهود كذبوا المسيح ومحمدًا ﷺ كما قال الله فيهم:

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ...﴾(٣).

فالغضب الأول: بتكذيبهم المسيح، والثاني: بتكذيبهم لمحمد ﷺ والنصارى لم يكذبوا المسيح، فكانوا منصورين على اليهود، والمسلمون منصورون على اليهود والنصارى، فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله، ولم يكذبوا بشيء من كتبه ولا كذبوا أحدًا من رسله، بل اتبعوا ما قال الله لهم، حيث قال:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(٥).

ولما كان المسلمون هم المتبعون لرسل الله كلهم المسيح وغيره، وكان الله قد وعد أن ينصر الرسل وأتباعهم قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا تزال

(١) سورة غافر: ٥١.
(٢) سورة الصافات: ١٧١-١٧٣.
(٣) سورة البقرة: ٩٠.
(٤) سورة البقرة: ١٣٦.
(٥) سورة البقرة: ٢٨٥.

طائفة من أمتى ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة»(١).

وقال أيضًا: «سألت ربى أن لا يسلط على أمتى عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها»(٢).

فكان ما احتجوا به حجة عليهم لا لهم(٣).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٢٠)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذى (٢٢٣٦)، وابن ماجه (٢٢٣٦)، من حديث ثوبان.
وقد تقدم وذكرت له هناك عدة شواهد.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذى (٢١٨٣)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٥/٢٧٨، ٢٨٤)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٢٤٣٥)، والبيهقى فى «الدلائل» (٦/٥٢٦، ٥٢٧)، والبغوى فى «شرح السنة» (١٥ ٤٠) من حديث ثوبان.

(٣) وأجاب الإمام القرافى على هذه الشبهة بقوله:
أن الذين اتبعوه ليسوا النصارى الذين اعتقدوا أنه ابن الله، وسلكوا مسلك هؤلاء الدبراء فإن اتباع الإنسان موافقته فيما جاء به وكون هؤلاء المتأخرين اتبعوه محل النزاع، بل متبعوه هم الحواريون، ومن تابعهم قبل ظهور القول بالتثليث، وأولئك هم الذين رفعهم الله فى الدنيا والآخرة، ونحن منهم وهم منا، ونحن إنما نطالب هؤلاء بالرجوع إلى ما كان أولئك عليه فإنهم قدس الله أرواحهم آمنوا بعيسى وبجملة النبيين -صلوات الله عليهم أجمعين-، وكان عيسى عليه السلام بشرهم بمحمد ﷺ كما تقف على نصوصه فى آخر هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، فكانوا ينتظرون ظهوره ليؤمنوا به عليه السلام، وكذلك لما ظهر عليه السلام جاءه أربعون راهبًا من نجران فتأملوه فوجدوه هو الموعود به فآمنوا به فى ساعة واحدة بمجرد النظر والتأمل لعلاماته، فهؤلاء هم الذين اتبعوه وهم المرفوعون المعظمون، وأما هؤلاء النصارى هم الذين كفروا به مع من كفر، وجعلوه سببًا لانتهاك حرمة الربوبية بنسبة واجب الوجود المقدس عن صفات البشر إلى الصاحبة والولد الذى ينفر منها أقل رهبانهم حتى أنه قد ورد أن الله تعالى إذا قال لعيسى عليه السلام يوم القيامة ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [سورة المائدة: ١١٦] يسكت أربعين سنة خجلاً من الله تعالى حيث جعل سببًا للكفر به، وانتهاك حرمة جلاله، فخواص الله تعالى يألمون ويخجلون من اطلاعهم على انتهاك الحرمة، وإن لم يكن لهم فيها مدخل ولا لهم فيها تعلق، فكيف إذا كان لهم فيها تعلق من حيث الجملة، ومن عاشر أماثل الناس ورؤسائهم، وله عقل قويم وطبع مستقيم غير طبع النصارى أدرك هذا، فما آذى أحد عيسى عليه السلام ما آذته هؤلاء النصارى، نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه أهـ «الأجوبة الفاخرة» (١٦-١٧).

فصــل

[معنى الروح القدس]

وأما قوله -تعالى-:

﴿... وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾(١).

فهو حق كما أخبر الله به، وقد ذكر -تعالى- تأييد عيسى ابن مريم بروح القدس في عدة مواضع، فقال -تعالى- في سورة البقرة:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي...﴾(٤).

وقال -تعالى- في القرآن:

---

(١)، (٢) سورة البقرة: ٨٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٣.

(٤) سورة المائدة: ١١٠.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا ﴾(٣).

فروح القدس الذى نزل بالقرآن من الله هو الروح الأمين، وهو جبريل.

وثبت فى الصحيح عن أبى هريرة أنه سمع النبى ﷺ يقول لحسان بن ثابت: **«أجب عنى اللهم أيده بروح القدس»**(٤).

وفى صحيح مسلم وغيره عن عائشة ﵂ قالت: سمعت النبى ﷺ يقول لحسان بن ثابت: **«إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»**(٥).

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: **«اهجهم أو هاجهم وجبريل معك»**(٦).

فهذا حسان بن ثابت واحد من المؤمنين لما نافح عن الله ورسوله، وهجا المشركين الذين يكذبون الرسول أيده الله بروح القدس وهو جبريل ﵇ وأهل الأرض يعلمون أن محمداً ﷺ لم يكن يجعل اللاهوت متحداً بناسوت حسان بن ثابت، فعلم أن إخباره بأن الله أيده بروح القدس لا يقتضى اتحاد اللاهوت بالناسوت، فعلم أن التأييد بروح القدس ليس من خصائص المسيح، وأهل الكتاب يقرون بذلك وأن غيره من الأنبياء كان مؤيداً بروح القدس، كداود وغيره، بل يقولون إن الحواريين كانت فيهم روح القدس، وقد ثبت باتفاق المسلمين واليهود والنصارى أن روح القدس يكون فى غير المسيح، بل فى غير الأنبياء -كما سيأتى إن شاء الله-.

---

(١) سورة النحل: ١٠١، ١٠٢.
(٢) سورة الشعراء: ١٩٣، ١٩٤.
(٣) سورة البقرة: ٩٧.
(٤) صحيح: أخرجه البخارى (٣٢١٢)، ومسلم (٢٤٨٥).
(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٩٠).
(٦) صحيح: أخرجه البخارى (٤١٢٤)، ومسلم (٢٤٨٦).

وإنما المقصود فى هذا المقام، بيان كذبهم على محمد ﷺ وهذا التأييد نظير قوله -تعالى-:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾(١).

فهذا التأييد بروح منه عام لكل من لم يحب أعداء الرسل وإن كانوا أقاربه، بل يحب من يؤمن بالرسل وإن كانوا أجانب، ويبغض من لم يؤمن بالرسل وإن كانوا أقارب وهذه ملة إبراهيم.

وقال -تعالى-:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣).

وقال: ﴿... فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ...﴾(٤).

وهذا التأييد بروح القدس لمن ينصر الرسل عام فى كل من نصرهم على من خالفهم من المشركين وأهل الكتاب كما تقدم وليس فى القرآن، ولا فى الإنجيل، ولا غير ذلك من كتب الأنبياء أن روح القدس الذى أيد به المسيح هو صفة الله القائمة به وهى حياته ولا أن روح القدس رب يخلق ويرزق فليس روح القدس هى الله، ولا صفة من صفات الله، بل ليس فى شىء من كلام الأنبياء أن صفة الله القائمة به تسمى ابنًا، ولا روح القدس.

فإذا تأول النصارى قول المسيح عمدوا الناس باسم الآب والابن وروح

(١) سورة المجادلة: ٢٢.

(٢) سورة الممتحنة: ٤.

(٣) سورة الزخرف: ٢٦-٢٨.

(٤) سورة التوبة: ١١٤.

القدس على أن الابن صفته التى هى العلم، وروح القـدس صفته التى هى الحياة، كان هذا كذبًا بينًا على المسيح، فلا يوجد قط فى كـلامه ولا كلام غيره من الأنبياء تسمية الله، ولا شيئًا من صفاته ابنًا، ولا حياته روح القدس.

وأيضًا: فهم يذكرون فى الأمانة أن المسيح تجسد من مريم ومن روح القدس وهذا يوافق مـا أخـبر الله به من أنـه أرسل روحه الذى هو جـبـريل، وهو روح القدسى فنفخ فى مـريم فحملت بالمسيح، فكان المسـيح متجسدًا مـخلوقًا من أمه ومن ذلك الروح -وهذا الروح ليس صـفـة لله، لا حيـاته ولا غيـرها، بل روح القدس قد جاء ذكرها كثيرًا فى كـلام الأنبياء، ويراد بها إما الملك، وإما ما يجعله الله فى قلوب أنبيائه وأوليائه من الهدى والتأييد ونحو ذلك كما قال -تعالى-:

﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ ﴾(٤).

فسـمـى الملـك روحًا وسمـى مـا ينـزل بـه المـلك روحًا وهـما متـلازمان، والمسيح عليه السلام مؤيد بهذا وهذا.

ولهذا قال كثير من المفسـرين: إنه جبريل، وقال بعضهم: إنه الوحى، وهذا كلفظ الناموس يراد به صـاحب سر الخير كـما يراد بالجاسوس صاحـب سر الشر

---

(١) سورة المجادلة: ٢٢.

(٢) سورة الشورى: ٥٢.

(٣) سورة النحل: ٢.

(٤) سورة غافر: ١٥.

فيكون الناموس جبريل، ويراد به الكتاب الذى نزل به وما فيه من الأمر والنهى والشرع. ولما قال ورقة بن نوفل للنبى ﷺ: «هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى»[(١)] فسر الناموس بهذا وهذا وهما متلازمان.

• • •

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٣)، ومسلم (١٦٠)، والواحدى فى «أسباب النزول» (٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

فصل

[الجواب عن استدلالهم بالقرآن على مدح الرهبانية]

وأما قوله -تعالى-:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(١).

فهو حق كما قال -تعالى- وليس فى ذلك مدح للرهبانية ولا لمن بدل دين المسيح، وإنما فيه مدح لمن اتبعه بما جعل الله فى قلوبهم من الرحمة والرأفة حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

ثم قال: ﴿... وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ...﴾.

أى وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم «وهذه الرهبانية لم يشرعها الله ولم يجعلها مشروعة لهم، بل نفى جعله عنها كما نفى ذلك عما ابتدعه المشركون بقوله:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ﴾(٢).

وهذا الجعل المنفى عن البدع هو الجعل الذى أثبته للمشروع بقوله -تعالى-: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(٣).

---

(١) سورة الحديد: ٢٥-٢٧.

(٢) سورة المائدة: ١٣.

(٣) سورة المائدة: ٤٨.

وقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾(١).

فالرهبانية ابتدعوها لم يشرعها الله. وللناس في قوله: «ورهبانية» قولان:

أحدهما: أنها منصوبة: يعنى ابتدعوها إما بفعل مضمر يفسره ما بعده، أو يقال هذا الفعل عمل فى المضمر والمظهر كما هو قول الكوفيين. حكاه عنهم ابن جرير وثعلب وغيرهما ونظيره قوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٢).

وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ...﴾(٣).

وعلى هذا القول، فلا تكون الرهبانية معطوفة على الرأفة، والرحمة.

والقول الثانى: أنها معطوفة عليها فيكون الله قد جعل فى قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية المبتدعة، ويكون هذا جعلاً خلقيًّا كونيًّا والجعل الكونى يتناول الخير والشر كقوله -تعالى-:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ...﴾(٤).

وعلى هذا القول: فلا مدح للرهبانية بجعلها فى القلوب، فثبت على التقديرين أنه ليس فى القرآن مدح للرهبانية.

ثم قال: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾(٥).

أى لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله بفعل ما أمر به لا بما يبتدع، وهذا يسمّى استثناء منقطعًا.

كما فى قوله:

﴿اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ﴾(٦).

وقوله -تعالى-:

---

(١) سورة الحج: ٦٧.
(٢) سورة الإنسان: ٣١.
(٣) سورة الأعراف: ٣٠.
(٤) سورة القصص: ٤١.
(٥) سورة الحديد: ٢٧.
(٦) سورة النساء: ١٥٧.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا ... ﴾(١).

وقوله -تعالى-:

﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى ... ﴾(٢).

وقوله -تعالى-:

﴿ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾(٣).

وقوله -تعالى:

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾(٤).

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا ﴾(٥).

وهذا أصح الأقوال فى هذه الآية كما هو مبسوط فى موضع آخر.

ولا يجوز أن يكون المعنى أن الله كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله، فإن الله لا يفعل شيئًا ابتغاء رضوان نفسه، ولا أن المعنى أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانه كما يظن هذا وهذا بعض الغالطين، كما قد بسط فى موضع آخر.

وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية، وما رعوها حق رعايتها، وليس فى ذلك مدح لهم بل هو ذم، ثم قال -تعالى-:

﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ... ﴾(٦).

وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ وكثير منهم فاسقون، ولو أريد الذين آمنوا بالمسيح أيضًا فالمراد من اتبعه على دينه الذى لم يبدل وإلا فكلهم يقولون أنهم مؤمنون بالمسيح، وبكل حال فلم يمدح -سبحانه- إلا من اتبع المسيح على دينه

---

(١) سورة النساء: ٢٩.
(٢) سورة الدخان: ٥٦.
(٣) سورة الانشقاق: ٢٠-٢٥.
(٤) سورة الواقعة: ٢٥، ٢٦.
(٥) سورة النساء: ٩٢.
(٦) سورة الحديد: ٢٧.

الذى لم يبدل، ومن آمن بمحمد ﷺ لم يمدح النصارى الذين بدلوا دين المسيح ولا الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

فإن قيل: قد قال بعض الناس: إن قوله -تعالى-: ورهبانية ابتدعوها عطف على رأفة ورحمة، وإن المعنى أن الله جعل فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية أيضًا ابتدعوها وجعلوا الجعل شرعيًا ممدوحًا. قيل: هذا غلط لوجوه:

منها: أن الرهبانية لم تكن فى كل من اتبعه، بل الذين صحبوه كالحواريين لم يكن فيهم راهب، وإنما ابتدعت الرهبانية بعد ذلك بخلاف الرأفة والرحمة فإنها جعلت فى قلب كل من اتبعه.

ومنها: أنه أخبر أنهم ابتدعوا الرهبانية بخلاف الرأفة والرحمة، فإنهم لم يبتدعوها، وإذا كانوا ابتدعوها لم يكن قد شرعها لهم، فإن كان المراد هو الجعل الشرعى الدينى لا الجعل الكونى القدرى فلم تدخل الرهبانية في ذلك، وإن كان المراد الجعل الخلقى الكونى فلا مدح للرهبانية فى ذلك.

ومنها: أن الرأفة والرحمة جعلها فى القلوب، والرهبانية لا تختص بالقلوب بل الرهبانية ترك المباحات من النكاح واللحم وغير ذلك، وقد كان طائفة من الصحابة -رضوان الله عليهم- هموا بالرهبانية، فأنزل الله -تعالى- نهيهم عن ذلك بقوله -تعالى-:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾(١).

وثبت فى الصحيحين: أن نفرًا من أصحاب النبى ﷺ قال أحدهم: أما أنا فأصوم لا أفطر، وقال آخر: أما أنا فأقوم لا أنام. وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال آخر: أما أنا فلا آكل اللحم.

فقام النبى ﷺ خطيبًا فقال: **«ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا لكنى أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس منى»**(٢).

وفى صحيح البخارى أن النبى ﷺ رأى رجلاً قائمًا فى الشمس فقال: ما

(١) سورة المائدة: ٨٧.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، والنسائى (٦/ ٦٠)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٣٨٩٩)، من حديث أنس بن مالك.

هذا؟ قـالوا: هذا أبو إسـرائيل نذر أن يقـوم فى الشـمس ولا يسـتظل ولا يتكلم ويصوم. فقال: «**مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه**»(١).

وثبت فى صحـيح مسلم عن النبى ﷺ أنه كان يـقول فى خطبـته: «**خيـر الكلام كلام الله، وخـير الهـدى هدى محمـد، وشر الأمور مـحدثاتهـا، وكل بدعة ضلالة**»(٢).

وفى السنن عن العرباض بن سارية أن النبى ﷺ قال: «**عليكم بسنتى وسنَّة الخلفاء الراشدين المهـديين من بعدى، تمسكوا بها وعضّوا عليـها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**»(٣).

قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

وقد بينت النصـوص الصحيحة أن الرهبـانية بدعة وضلالة، ومـا كان بدعة وضلالة لم يكن هدى، ولم يكن الله جعلها بمعنى أنه شـرعها، كما لـم يجعل الله ما شرعه المشركون من البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام(٤).

---

(١) صحـيح: أخرجـه البخارى (٦٧٠٤)، وأبو داود (٣٣٠٠)، وابن مـاجه (٢١٣٦)، من حديث ابن عباس.
وأخرجه الشافعى فى «الأم» (٢٠٤٥) عن طاووس مرسلاً.

(٢) صحـيح: أخـرجه مـسلم (٨٦٧)، والنسـائى (٣/١٨٨)، وابن ماجـه (٤٥)، وأحمـد (٣/ ٣١٠، ٣١١)، وأبو نعيم فى «الحليـة» (٣٧٧٣)، ولفظ مسلم «خير الحـديث كتاب الله»، ولفظ النسائى: «أصدق الحديث كتاب الله»، ولفظ ابن مـاجه: «خير الأمور كتاب الله».

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذى (٢٦٨٥)، وابن ماجه (٤٢-٤٤)، وأحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، والدارمى (٩٥)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٧٠١١، ١٤٦٨٨).
وقال التـرمذى: حسن صـحيح وصححـه شيخ الإسلام ابن تيـمية -المصنف- كـما فى «مجمـوع الفتاوى» (٤/ ٣٩٩)، وصححـه أيضًا الحافظ الذهبى فى «سيـر أعلام النبلاء» (١٣/ ٣١٢، ٥٤٣)، والألبانى فى «صحيح الجامع» (٢٥٤٩).

(٤) أما البحيرة فقد فسرها سعيد بن المسيب أنها: التى يُمنع دَرُّها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس. والسائبة فسرها بأنها: التى يسبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شىء.
والوصيلة: فسرها بأنها: الناقـة البكر تُبكر فى أول نتاج الإبل بأنثى، ثم تثنى بعد بأنثى، وكانوا يسيبونهم لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر.
والحام فـسرها بأنهـا: فصل الإبل يضـرب الضراب المعدود، فـإذا قضى ضـرابه ودعوه للطواغـيت وأعـفوه من الحـمل فلم يُحـمل عليـه شىء وسمّـوه الحـامى. أخرجـه عنه البخارى(٤٦٢٣).

فإن قيل: قد قال طائفة: معناها ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله.

وقالت طائفة: ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله.

قيل: كلا القولين خطأ والأول أظهر خطأ، فإن الرهبانية لم يكتبها الله عليهم، بل لم يشرعها لا إيجابًا ولا استحبابًا، ولكن ذهبت طائفة إلى أنهم لما ابتدعوها كتب عليهم إتمامها وليس في الآية ما يدل على ذلك فإنه قال:

﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا . . . ﴾(١).

فلم يذكر أنه كتب عليهم نفس الرهبانية ولا إتمامها ولا رعايتها، بل أخبر أنهم ابتدعوا بدعة، وأن تلك البدعة لم يرعوها حق رعايتها.

فإن قيل: قوله -تعالى-: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

يدل على أنهم لو رعوها حق رعايتها لكانوا ممدوحين.

قيل: ليس في الكلام ما يدل على ذلك، بل يدل على أنهم -مع عدم الرعاية- يستحقون من الذم ما لا يستحقونه بدون ذلك، فيكون ذم من ابتدع البدعة ولم يرعها حق رعايتها أعظم من ذم من رعاها، وإن لم يكن واحد منهما محمودًا، بل مذمومًا مثل نصارى بنى تغلب ونحوهم ممن دخل فى النصرانية ولم يقوموا بواجباتها، بل أخذوا منها ما وافق أهواءهم، فكان كفرهم وذمهم أغلظ ممن هو أقل شرًّا منهم والنار دركات كما أن الجنة درجات.

وأيضًا: فالله تعالى إذا كتب شيئًا على عباده لم يكتب ابتغاء رضوانه، بل العباد يفعلون ابتغاء رضوان الله.

وأيضًا: فتخصيص الرهبانية بأنه كتبها ابتغاء رضوان الله دون غيرها تخصيص بغير موجب، فإن ما كتبه ابتداء لم يذكر أنه كتبه ابتغاء رضوانه فكيف بالرهبانية؟

وأما قول من قال: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله، فهذا المعنى لو دل عليه الكلام لم يكن فى ذلك مدح للرهبانية، فإن من فعل ما لم يأمر الله به، بل نهاه عنه مع حسن مقصده، غايته أن يثاب على قصده لا يثاب على ما نهى عنه، ولا على ما ليس بواجب، ولا مستحب، فكيف والكلام لا يدل عليه فإن الله قال:

(١) سورة الحديد: ٢٧.

﴿ ... مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ... ﴾[1].

ولم يقل ما فعلوها إلا ابتـغاء رضوان الله، ولا قال: ما ابتدعـوها إلا ابتغاء رضوان الله، ولو كان المراد ما فعلوها أو ما ابـتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله، لكان منصوبًا على المفعولية، ولم يتقدم لفظ الفعل ليعمل فيه ولا نفى الابتداع، بل أثبته لهم، وإنما تقدم لفظ الكتابة فعلم أن القول الذى ذكرناه هو الصواب، وأنه استثناء منقطع فتقديره وابتدعوا رهبانية ما كـتبناها عليهم، لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، فإن إرضـاء الله واجب مكتوب على الخلق وذلك يكون بفعل المأمـور وبترك المحظور، لا بفعل ما لم يأمر بفعله وبترك ما لم ينهَ عن تركه، والرهبانية فيها فعل ما لم يؤمر به وترك ما لم ينهَ عنه.

• • •

(١) سورة الحديد: ٢٧.

فصل

[الجواب عن استدلالهم بمدح الله إياهم في القرآن]

وأما قوله -تعالى-:

﴿ ... مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١).

فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى، بل هي مذكورة بعد قوله -تعالى-:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(٢).

ثم قال:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ...﴾(٣).

ومعلوم أن الصفة المذكورة في قوله:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

صفة اليهود، وكذلك قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾.

فقوله: عقب ذلك: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾.

لابد أن يكون متناولاً لليهود، ثم قد اتفق المسلمون والنصارى على أن

---

(١) سورة آل عمران: ١١٣، ١١٤.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠-١١٢.

(٣) سورة آل عمران: ١١٣.

اليهود مع كفرهم بـالمسيح ومحمد ﷺ ليس فيهم مؤمن، وهذا معلوم بالاضطرار من دين مـحمـد ﷺ ، والآية إذا تناولت النصـارى كان حكمـهم فى ذلك حكم اليهود، والله -تعالى- إنما أثنى على من آمن من أهل الكتاب، كما قال -تعالى-:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(١).

وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية الأخرى فى آل عمران نزلت فى النجاشى ونحـوه ممن آمن بالنبى ﷺ لكنه لم تمكنه الهـجـرة إلى النبى ﷺ ، ولا العـمل بشرائع الإسلام لكـون أهل بلده نصارى لا يوافقونه على إظهـار شرائع الإسلام، وقد قيل: أن النبى ﷺ إنما صلَّى عليه لما مـات، لأجل هذا، فإنه لم يكن هناك من يظهـر الصلاة عليـه فى جمـاعة كـثيـرة ظاهرة، كـما يصلى المسلمـون على جنائزهم.

ولهـذا جعل من أهل الكتـاب مع كـونه آمن بالنبى ﷺ بمنـزلة مـن يؤمـن بالنبى ﷺ فى بلاد الحرب، ولا يتـمكن من الهجـرة إلى دار الإسلام، ولا يمكنه العمل بشرائع الإسلام الظاهرة، بل يعمل ما يمكنه ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال -تعالى-

﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ... ﴾(٢).

فقد يكون الرجل فـى الظاهر من الكفار، وهو فى الباطن مؤمن، كـما كان مؤمن آل فرعون.

قال -تعالى-:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾

(١) سورة آل عمران: ١٩٩.
(٢) سورة النساء: ٩٢.

مثْلَ دَأْب قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَـٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾(١).

فقد أخبر -سبحانه- أنه حـاق بآل فرعون سوء العذاب، وأخبر أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه وأنه خـاطبهم بالخطاب الذى ذكره، فهو من آل فرعون باعـتبار النسب والجنس والظاهر، وليس هو من آل فـرعون الذين يدخلون أشد العذاب وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون هؤلاء. قال الله -تعالى-:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

وامرأة الرجل من آله بدليل قوله:

---

(١) سورة غافر: ٢٨-٤٦.

(٢) سورة التحريم: ١١.

﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾(١).

وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو فى الظاهر منهم، وهو فى الباطن يؤمن بالله ورسوله محمد ﷺ، يعمل بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه علمًا وعملاً: و﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(٢)، وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام، كعجز النجاشى، وكما أن الذين يظهرون الإسلام فيهم من هم فى الظاهر مسلمون، وفيهم من هو منافق كافر فى الباطن، إما يهودى، وإما نصرانى، وإما مشرك، وإما معطل.

كذلك فى أهل الكتاب والمشركين، من هو فى الظاهر منهم، ومن هو فى الباطن من أهل الإيمان بمحمد ﷺ، يفعل ما يقدر على علمه وعمله، ويسقط ما يعجز عنه فى ذلك.

وفى حديث حماد بن سلمة عن ثابت، عن أنس قال: لما مات النجاشى قال النبى ﷺ: «**استغفروا لأخيكم**» فقال بعض القوم: تأمرنا أن نستغفر لهذا العلج(٣) يموت بأرض الحبشة. فنزلت:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ...﴾(٤).

ذكره ابن أبى حاتم وغيره بأسانيدهم، وذكره حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن البصرى أن رسول الله ﷺ قال: «**استغفروا لأخيكم النجاشى**» فذكر مثله(٥).

وكذلك ذكر طائفة من المفسرين، عن جابر بن عبد الله وابن عباس وأنس وقتادة أنهم قالوا: نزلت هذه الآية فى النجاشى ملك الحبشة، واسمه أصحمة. وهو بالعربية عطية. وذلك أنه لما مات نعاه جبريل للنبى ﷺ فى اليوم الذى مات فيه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير**

(١) سورة الحجر: ٥٩-٦٠.
(٢) سورة البقرة: ٢٨٦.
(٣) العلج: كل جاف شديد من الرجال «المعجم الوسيط» (٦٢١).
(٤) سورة آل عمران: ١٩٩.
والخبر قد تقدم أوله.
(٥) مرسل: وقد تقدم أوله.

أرضكم» قالوا: من هو؟ قال: **«النجاشي»** فخرج رسول الله ﷺ إلى البقيع. وزاد بعضهم وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه، وكبر أربع تكبيرات، واستغفر له، وقال لأصحابه: **«استغفروا له»**. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلى على علج حبشى نصرانى لم يره قط: وليس على دينه. فأنزل الله -تعالى-:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(١).

وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح عليه السلام إلى أن بعث محمد ﷺ فآمن به، كما نقل ذلك عن عطاء.

وذهبت طائفة إلى أنها نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب كلهم.

والقول الأول أجود، فإن من آمن بمحمد ﷺ وأظهر الإيمان به، وهو من أهل دار الإسلام، يعمل ما يعمله المسلمون ظاهرًا وباطنًا فهذا من المؤمنين وإن كان قبل ذلك مشركًا يعبد الأوثان، فكيف إذا كان كتابيًّا؟ وهذا مثل عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسى وغيرهما، وهؤلاء لا يقال: إنهم من أهل الكتاب، كما لا يقال فى المهاجرين والأنصار: إنهم من المشركين وعباد الأوثان، ولا يُمكِّن أحد من المنافقين ولا من غيرهم من أن يصلى على واحد منهم، بخلاف من هو فى الظاهر منهم، وفى الباطن من المؤمنين.

وفى بلاد النصارى من هذا النوع خلق كثير، يكتمون إيمانهم، إما مطلقًا، وإما يكتمونه عن العامة ويظهرونه لخاصتهم، وهؤلاء قد يتناولهم قوله -تعالى-:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ...﴾ الآية(٢).

فهؤلاء لا يدعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مال يأخذونه، كما يفعل كثير من الأحبار والرهبان، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدونهم عن سبيل الله، فيمنعونهم الإيمان بمحمد ﷺ.

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٩.

(٢) سورة آل عمران: ١٩٩.

وأما قوله -تعالى-:

﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(١).

فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصارى، ونظيرها قوله -تعالى-: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾(٢).

وهذا مدح مطلق لمن تمسك بالتوراة، ليس فى ذلك مدح لمن كذب المسيح، ولا فيها مدح لمن كذب محمداً ﷺ.

وهذا الكلام يفسره سياق الكلام، فإنه قال -تعالى-:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... ﴾(٣).

ثم قال -تعالى-:

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٤).

فقد جعلهم نوعين: نوعًا مؤمنين ونوعًا فاسقين وهم أكثرهم وقوله -تعالى-: ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾.

يتناول من كان منهم مؤمنًا قبل مبعث محمد ﷺ، كما يتناولهم قوله -تعالى-:

﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾(٥).

وكذلك قوله -تعالى-:

---

(١) سورة آل عمران: ١١٣، ١١٤.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٩.

(٣) سورة آل عمران: ١١٠.

(٤) سورة آل عمران: ١١٠.

(٥) سورة الحديد: ٢٧.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾(١).

وقوله عن إبراهيم الخليل:

﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾(٢).

ثم لما قال: ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٣).

قال:

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾(٤).

وضرب الذلة عليهم أينما ثقفوا ومباؤهم بغضب الله -وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتداؤهم كان اليهود متصفين به قبل مبعث محمد- ﷺ كما قال -تعالى- في سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾.

ثم قال بعد ذلك:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة الحديد: ٢٦.
(٢) سورة الصافات: ١١٣.
(٣) سورة آل عمران: ١١٠.
(٤) سورة آل عمران: ١١١، ١١٢.
(٥) البقرة: ٦١، ٦٢.

فتناولت هذه الآية من كان من أهل هذه الملل الأربع متمسكًا بها قبل النسخ بغير تبديل، كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفًا به أكثرهم قبل محمد ﷺ من الكفر، قال:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١).

وهذا يتناول من كان متـصفًا منهم بهذا قبل النسـخ، فإنهم كانوا على الدين الحق الذى لم يبدل ولم ينسخ، كما قال فى الأعراف.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾(٢).

وقوله:

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾(٣).

وقد قال -تعالى-:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾(٤).

فهذا خبر من الله عـمن كان متصفًا بهذا الوصف قبل مـبعث محمد ﷺ، ومن أدرك من هؤلاء محمداً ﷺ، فآمن به كان له أجره مرتين.

• • •

(١) سورة آل عمران: ١١٣، ١١٤.
(٢) سورة الأعراف: ١٥٩.
(٣) سورة الأعراف: ١٦٨-١٧٠.
(٤) سورة الأعراف: ١٨١.

فصـل

[الجواب عن قولهم بتعظيم القرآن لمعابدهم]

قالوا: ثم وجدناه يعظم إنجيلنا، ويقدم صوامعنا ويشرف مساجدنا ويشهد بأن اسم الله يذكر فيها كثيرًا وذلك مثل قوله -تعالى-:

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا...﴾(١).

والجواب: أن فيها ذكر الصوامع والبيع، وأما قوله: ﴿وَيُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ فإنما ذكره عقب ذكره المساجد، والمساجد للمسلمين، وليس المراد بها كنائس النصارى، فإنها هي البيع. ثم قوله -تعالى-: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾:

إما أن يكون مختصًا بالمساجد، فلا يكون فى ذلك إخبار بأن اسم الله يذكر كثيرًا فى البيع والصوامع، وإما أن يكون ذكر اسم الله فى الجميع، فلا ريب أن الصوامع والبيع قبل أن يبعث الله محمدًا ﷺ كان فيها من يتبع دين المسيح الذى لم يبدل ويذكر فيها اسم الله كثيرًا. وقد قيل: إنها بعد النسخ والتبديل يذكر فيها اسم الله كثيرًا وإن الله يحب أن يذكر اسمه.

قال الضحاك: «إن الله يحب أن يذكر اسمه وإن كان يشرك به» يعنى: أن المشرك به خير من المعطل الجاحد الذى لا يذكر اسم الله بحال.

وأهل الكتاب خير من المشركين، وقد ذكرنا أنه لما اقتتل فارس والروم وانتصرت الفرس، ساء ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وكرهوا انتصار الفرس على النصارى، لأن النصارى أقرب إلى دين الله من المجوس، والرسل بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وتقديم خير الخيرين على أدناهما حسب الإمكان، ودفع شر الشرين بخيرهما، فهدم صوامع النصارى وبيعهم فساد إذا هدمها المجوس والمشركون، وأما إذا هدمها المسلمون وجعلوا أماكنها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا، فهذا خير وصلاح.

---

(١) سورة الحج: ٤٠.

وهذه الآية ذكرت فى سياق الإذن للمسلمين بالجهاد بقوله -تعالى-:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾(١).

وهذه الآية أول آية نزلت فى الجهاد، ولهذا قال:

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ... ﴾(٢).

ثم قال: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ... ﴾(٣).

فيدفع بالمؤمنين الكفار ويدفع شر الطائفتين بخيرهما، كما دفع المجوس بالروم النصارى، ثم دفع النصارى بالمؤمنين أمة محمد ﷺ، وهذا كما قال -تعالى- فى سورة البقرة:

﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(٤).

وأما التقديم فى اللفظ، فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى، كقوله -تعالى-:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(٥).

وقوله: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾(٦).

وقوله:

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾(٧).

ونظائره متعددة.

وكذلك فى قوله -تعالى-:

---

(١) سورة الحج: ٣٩.
(٢)، (٣) سورة الحج: ٤٠.
(٤) سورة البقرة: ٢٥١.
(٥) سورة الأعراف: ٣٣.
(٦) سورة عبس: ٣٤-٣٦.
(٧) سورة الذاريات: ١-٤.

﴿ ... لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾(١).

فبيَّن -سبحانه- أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت مواضع العبادات، وهدمها فساد إذا هدمها من لا يبدلها بخير منها وأدناها هى الصوامع، فإن الصومعة تكون لواحد أو لطائفة قليلة فبدأ بأدنى المعابد، وختم بأشرفها وهى المساجد التى يذكر فبها اسم الله كثيرًا.

ففى الجملة حكم هذه المعابد حكم أهلها، وأهلها قبل النسخ والتبديل مؤمنون مسلمون، وهدم معابد المؤمنين المسلمين فساد، وبعد النسخ والتبديل، إذا غلب أهل الكتاب من هو شر منهم، كالمجوس والمشركين، وهدموا معابدهم، كان ذلك فسادًا وإذا هدمها من هو خير منهم كأمة محمد ﷺ وأبدلوها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا، ولا يشرك به، ويذكر فيها الإيمان بجميع كتبه ورسله، كان ذلك صلاحًا لا فسادًا.

ولهدا أمر النبى ﷺ أن يتخذ المساجد مواضع معابد الكفار كما كان لثقيف أهل الطائف معبد يعبدون فيه اللات، التى قال الله فيها: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾(٢).

فأمر النبى ﷺ أن يهدم ذلك المعبد، ويتخذ مكانه المسجد الذى يعبد الله وحده فيه(٣) فإن المساجد هى بيوت الله فى الأرض قال -تعالى-:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

---

(١) سورة الحج: ٤٠.
(٢) سورة النجم: ١٩.
(٣) وفى الباب عن طلق بن على قال: «خرجنا وفدًا إلى النبى ﷺ فبايعناه وصلينا معه، وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا، فاستوهبناه من فضل طهوره، فدعا بماء فتوضأ وتمضض ثم صبه فى إداوة، وأمرنا فقال: «اخرجوا فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بيعتكم وانضحوا مكانها بهذا الماء واتخذوها مسجدًا...» الحديث، أخرجه النسائى (٢/٣٨-٣٩)، وقال الألبانى فى «صحيح سنن النسائى»: صحيح الإسناد.
(٤) سورة الأعراف: ٢٩.

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ... ﴾ الآية إلى قوله: ﴿ ... الْمُهْتَدِينَ ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ الآية. إلى قوله: ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ... ﴾(٣).

ثم لما ذكر المؤمنين ذكر الكفار من أهل الكتاب والمشركين، فذكر أهل الجهل المركب والبسيط، فقال -تعالى-:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾(٤).

فقد تبيَّن أنه ليس لهم حجة في شيء مما جاء به محمد ﷺ، بل ما جاء به حجة عليهم من وجوه متعددة(٥).

---

(١) سورة الجن: ١٨.

(٢) سورة التوبة: ١٧، ١٨.

(٣) سورة النور: ٣٥-٣٨.

(٤) سورة النور: ٣٩، ٤٠.

(٥) وأجاب الإمام القرافي عن هذه الشبهة وهي استدلالهم بقوله -تعالى- ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [سورة الحج: ٤٠] على تفضيل الصوامع والبيع على المساجد بقوله:

والجواب: من وجوه:

أحدها: أن المراد بهذه الآية أن الله تعالى يدفع المكاره عن الأشرار بوجود الأخيار، فيكون وجود الأخيار سببًا لسلامة الأشرار من الفتن والمحن، فزمان موسى عليه السلام يسلم فيه أهل الأرض من بلاء يعمهم بسبب من فيه من أهل الاستقامة على الشريعة الموسوية، وزمان عيسى عليه السلام يسلم فيه أهل الأرض بسبب من فيه من أهل الاستقامة على الشريعة العيسوية، وزمان محمد ﷺ يسلم فيه أهل الأرض بسبب من فيه من أهل الاستقامة =

. . . .

= على الشريعة المحمدية، وكذلك سائر الأزمان الكائنة بعد الأنبياء -عليهم السلام- كل من كان مستقيمًا على الشريعة الماضية هو سبب لسلامة البقية، فلولا أهل الاستقامة فى زمن موسى عليه السلام لم يبق صوامع يعبد الله تعالى فيها على الدين الصحيح لعموم الهلاك، فينقطع الخير بالكلية، وكذلك فى سائر الأزمان، فلولا أهل الخير فى زماننا لم يبق مسجد يعبد الله فيه على الدين الصحيح، ولغضب الله تعالى على أهل الأرض.

والصوامع أمكنة الرهبان فى زمن الاستقامة حيث يعبد الله تعالى فيها على دين صحيح، وكذلك البيعة والصلاة والمسجد، وليس المراد هذه المواطن إذا كفر بالله تعالى فيها وبدلت شرائعه، وكانت محل العصيان والطغيان لا محل التوحيد والإيمان، وهذه المواطن فى أزمنة الاستقامة لا نزاع فيها، إنما النزاع لما تغيرت أحوالها، وذهب التوحيد وجاء التثليث وكذبت الرسل والأنبياء -عليهم السلام-، وصار ذلك يتلى فى الصباح والمساء، فحينئذ هى أقبح بقعة على وجه الأرض وألعن مكان يوجد، فلا تجعل هذه الآية دليلاً على تفضيلها.

وثانيها: أن الله تعالى قال: صوامع وبيع وصلوات بالتنكير، والجمع المنكر لا يدل عند العرب على أكثر من ثلاثة من ذلك المجموع بالاتفاق، ونحن نقول: إنه قد وقع فى الدنيا ثلاث من البيع، وثلاث من الصوامع كانت أفضل مواضع العبادات بالنسبة إلى ثلاثة مساجد، وذلك أن البيع التى كان عيسى عليه السلام وخواصه من الحواريين يعبدون الله تعالى فيها هى أفضل من جميع المساجد، ثلاث أو أربعة لم يصل فيها إلا السفلة من المسلمين، وهذا لا نزاع فيه إنما النزاع فى البيع والصوامع على العموم واللفظ لا يقتضيه، لأنه جمع منكر، وإنما يقتضيه أن لو كان معرفًا كقولنا: البيع باللام.

وثالثها: أن هذه الآية تقتضى أن المساجد أفضل بيت عند الله تعالى على عكس ما قاله هذا الجاهل بلغة العرب، وتقريره أن الصنف القليل المنزلة عند الله تعالى أقرب للهلاك من العظيم المنزلة، والقاعدة العربية أن الترقى فى الخطاب إلى الأعلى فالأعلى أبدًا فى المدح والذم والتفخيم، والامتنان فيقول فى المدح الشجاع البطل، ولا يقول البطل الشجاع لأنك تعد راجعًا عن الأول، وفى الذم العاصى الفاسق، ولا يقول الفاسق العاصى، وفى التفخيم فلان يغلب المائة والألف، ولا يقول: يغلب الألف والمائة، وفى الامتنان لا أبخل عليك بالدرهم، ولا بالدينار، ولا يقول بالدينار والدرهم والسر فى الجميع أنك تعد راجعًا عن الأول كقهقرتك عما كنت فيه إلى ما هو أدنى منه إذا تقرر ذلك ظهرت فضيلة المساجد ومزيد شرفها على غيرها، وإن هدمها أعظم من تجاوز ما يقتضى هدم غيرها، كما نقول: لولا السلطان لهلك الصبيان والرجال والأمراء فترتقى أبدًا للأعلى فالأعلى لتفخيم أمر عزم السلطان، وإن وجوده سبب عصمة هذه الطوائف، أما لو قلت: لولا السلطان لهلك الأبطال والصبيان لعد كلامًا متهافتًا.

ورابعها: أن الآية تدل على أن المساجد أفضل بيت وضع على وجه الأرض للعابدين =

. . . .

= من وجـه آخر، وذلك أن القـاعدة العـربية أن الضـمائـر إنما يحكم بعودها على أقـرب مذكور، فإذا قلت: جاء زيد، وخالد، وأكرمته فالإكرم خاص بخالد، لأنه الأقرب فقوله تعالى: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [سورة الحج: ٤٠] يختص بالأخير الذى هو المساجد، فقد اخـتصت بكثرة ذكر الله تعالى، وهو يقـتضى أن غيرها لم يساوها فى كـثرة الذكر، فتكون أفضل وهو المطلوب.

فائدة: الصومعة موضع الرهبان، وسمـيت بذلك لحدة أعلاها ودقته، ومنه قول العرب: أصمـعت الشـريدة إذا رفعت أعـلاها، ومنه قولهم: رجل أصـمع القلب، إذا كـان حاد الفطنة. والصلاة: اسم لمتعبد اليهود، وأصلها بالعبرانى صلوتا فعربت، والبيعُ اسم لمتعبد النصارى، اسم مـرتجل غير مـشتق، والمسجـد اسم لمكان السجود فـإن مفعـلاً فى لسان العرب: اسم للمكان، واسـم للزمان الذى يقع فيـه الفعل نحو: المضـرب لمكان الضرب ورُماته اهـ. «الأجوبة الفاخرة» (١٧-١٨).

فصل

[الجواب عن دعواهم وجوب التمسك بدينهم]

قالوا: وهذا وغيره أوجب لنا التمسك بديننا وأن لا نهمل ما معنا ولا نرفض مذهبنا، ولا نتبع غير السيد المسيح، كلمة الله، وروحه وحوارييه الذين أرسلهم إلينا.

والجواب: إنهم احتجوا بحجتين باطلتين:

إحداهما: أن محمداً ﷺ لم يرسل إليهم بل إلى العرب، وقد تبيَّن أن الاحتجاج بها من أعظم الكذب والافتراء على محمد ﷺ، فإنه لم يقل قط: إني لم أرسل إلى أهل الكتاب، ولا قال قط: إني لم أرسل إلا إلى العرب، بل نصوصه المتواترة عنه وأفعاله تبيِّن أنه مرسل إلى جميع أهل الأرض: أميهم، وكتابيهم.

والحجة الثانية: قولهم أن محمدًا ﷺ، أثنى على دين النصارى بعد التبديل والنسخ، وهي أيضًا أعظم كذبًا عليه من التي قبلها، كيف يثني عليهم وهو يكفرهم في غير موضع من كتابه، ويأمر بجهادهم وقتالهم، ويذم المتخلفين عن جهادهم غاية الذم، ويصف من لم يرَ طاعته في قتالهم بالنفاق والكفر، ويذكر أنه يدخل جهنم، وهذا كله يخبر به عن الله ويذكره تبليغًا لرسالة ربه، وإنما يضاف إليه لأنه بلغه وأداه، لا لأنه أنشأه وابتدأه.

كما قال -تعالى-:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾(١).

---

(١) سورة الحاقة: ٤٠-٥٢.

وأما ثـناء الله ورسوله على المسـيح وأمه وعلى من اتبـعه، وكـان على دينه الذى لم يبدل، فـهذا حق وهو لا ينافى وجـوب اتباع محـمد ﷺ على من بعث إليه، فلـو قدر أن شريعـة المسيح لم تبـدل، وأن محـمداً ﷺ أثنى على كل من اتبعها، وقال مع ذلك إن الله أرسلنى إليكم، لم يكن ذلك متناقضًا، وإذا كفر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه.

فكيف وهو إنما مدح من اتبع دينًا لم يبدل؟ وأما الذين بدلوا دين المسيح فلم يمدحهم بل ذمهم، كما قال:

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾(١).

وقد قدمنـا أن النصارى كفروا كـما كفرت اليهـود: كفروا بتبـديلهم ما فى الكتاب الأول، وكفروا بتكذيبهم بالكتاب الثانى.

وأما من لم يبدل الكتـاب أو أدرك محمداً ﷺ فآمن به، فهـؤلاء مؤمنون، ومما يبيِّن ذلك: أن تعظيم المسيح لـلتوراة واتباعه لها، وعمله بشـرائعها أعظم من تعظيم محـمد ﷺ للإنجيل، ومع هذا فلم يكن ذلـك مسقطًا عن اليهـود وجوب اتباعهـم للمسيح، فكيف يكون تعظيم مـحمد ﷺ للإنجيل مسـقطًا عن النصارى وجوب اتباعه؟.



(١) سورة المائدة: ١٤.

فصـل

وأما قولهـم: وحوارييه الذين أرسلهم إلينا أنذرونا بلغـتنا، وسلموا لنا ديننا الذين قد عظموا فى هذا الكتاب، بقوله فى سورة الحديد:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾(١).

وقال فى سورة البقرة:

﴿... فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾(٢).

فأعنى بقوله أنبياءه المبشرين، ورسله ينحـو بذلك الحواريين الذين داروا فى سبعـة أقاليم العالم، وبشروا بالكتاب الواحـد، الذى هو الإنجيل الطاهر، لأنه لو عنى عن إبراهيم وداود، ومـوسى ومحـمد، لكان قـال: معـهم الكتب، لأن كل واحد منـهم جاء بكتـاب دون غيره، ولـم يقل: إلا الـكتاب الواحد، لأنـه ما أتى جماعة مبشرين بكتاب واحد غير الحواريين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر. وجاء أيضًا فى الكتاب:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾(٣).

يعنى الحواريين -لم يقل: رسول، إنما قال: المرسلين، والجواب من وجوه:

أحدها: أنه ليس فيـما ذكر ولا فى غيره، مـا يوجب تكذيب الرسول الذى أرسل إليكم وإلى غيركم وتمسككم بدين مبدل منسوخ، كما أنه ليس فيما يعظم به موسـى والتوراة ومن اتبع مـوسى ما يوجب لليـهود تكذيب الرسـول الذى أرسل إليهم، وتمسكهم بدين مبدل منسوخ.

---

(١) سورة الحديد: ٢٥.
(٢) سورة البقرة: ٢١٣.
(٣) سورة يس: ٢٠.

الثانى: أن قولهم: ولا نتبع غير المسيح وحـوارييه، قول باطل، فإنهم ليسوا متبعين، لا للمسيح ولا لحوارييه، لوجهين:

أحدهما: أن دينهم مبدل ليس كله عن المسيح والحواريين، بل أكثر شرائعهم أو كثير منها ليست عن المسيح والحواريين.

الثانى: أن المسيح بشر بأحمد، كما قال -تعالى-:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ... ﴾(١).

فإذا لم يتـبعوا أحمد، كـانوا مكذبين للمسيح، وعندهم من البـشارات عن المسيح وغيره من الأنبـياء بأحمد، ما هو مبـسوط فى موضع آخر *كما سيأتى إن شاء الله*.

وإنما المقصود هنا منع احـتجاجهم بشىء مما جاء به مـحمد ﷺ، وبيان أنه حجة عليهم لا لهم، إذ زعموا أن فى بعضه حجة لهم.

الثالث: أن قولهم عن الحواريين: أنهم الرسل الذين عظموا فى هذا الكتاب قول باطل، فـسروا به القـرآن تفسيـراً باطلاً من جنس تفسـيرهم ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ بالنصـارى. وتفـسيـرهم ﴿بإذنى﴾ أى: ينفخ فـيه فـيكون طيـراً بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت، وتفسيرهم:

﴿ الم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ... ﴾(٢).

بالإنجيل، وتفسيرهم:

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾(٣). هم النصارى.

وتفسيرهم قوله: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ﴾(٤). هم النصارى.

---

(١) سورة الصف: ٦.
(٢) سورة البقرة: ١، ٢.
(٣) سورة البقرة: ٣، ٤.
(٤) سورة العنكبوت: ٤٦.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾(١) هم اليهود.

وأمثال ذلك من تفسيرهم القرآن، مثل ما يفسرون به التوراة، والإنجيل، والزبور، من التفاسير التى هى من تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد فى آيات الله، والكذب على أنبيائه بما يظهر أنه كذب على الأنبياء لكل من تدبر ذلك. وبطلان ذلك يظهر من وجوه:

أحدها: أن الله قال:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٢).

وقوله -تعالى-: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾.

اسم جمع مضاف، يعم جميع من أرسله الله -تعالى-.

الثانى: أن أحق الرسل بهذا الحكم الذين سماهم فى القرآن كما قال -تعالى-:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(٣).

وقال فى سورة الشعراء:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٤).

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٦.

(٢) سورة الحديد: ٢٥.

(٣) سورة النساء: ١٦٣-١٦٥.

(٤) سورة الشعراء: ١٠٥-١١٠.

(وقوله):

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

(وقوله):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

وقوله:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

وقوله:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾(٥).

وقال -تعالى-:

---

(١) سورة الشعراء: ١٢٣-١٢٧.

(٢) سورة الشعراء: ١٤١-١٤٥.

(٣) سورة الشعراء: ١٦٠-١٦٤.

(٤) سورة الشعراء: ١٧٦-١٨٠.

(٥) سورة المزمل: ١٥، ١٦.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾(٢).

وذكر قصته ثم قال بعد ذلك:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾(٣).

ثم لـمَّا قضى قصته قال -تعالى-:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾(٤).

فذكر إرسال رسله تترى -أي متواترة- ثم ذكر إرسال موسى، وهارون، وإرسال موسى وهارون قبل المسيح بمدة طويلة.

وقال -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾(٥).

فهذا إخبار منه -سبحانه وتعالى- بأنه بعث فى كل أمة رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وقال -تعالى- فى المسيح -صلوات الله عليه-:

---

(١) سورة غافر: ٥.

(٢) سورة المؤمنون: ٢٣.

(٣) سورة المؤمنون: ٣١، ٣٢.

(٤) سورة المؤمنون: ٤٢-٤٦.

(٥) سورة النحل: ٣٦.

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ . . . ﴾(١) .

فأخبر أن المسيح رسول من هؤلاء الرسل:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ .

وقبله قد بعث فى كل أمة رسولاً .

وقد روى فى حديث أبى ذر عن النبى ﷺ : **«أن الأنبياء مائة ألف نبى، وأن الرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر»**(٢) وبعض الناس يصحح هذا الحديث وبعضهم يضعفه، فـإن كان صحيحًا، فـالرسل ثلثمائة وثلاثة عشر، وإن لم تعـرف صحته أمكن أن يكونوا بقدر ذلك وأن يكونـوا أكثر، كمـا يمكن أن يكونوا أقل، فإن الله -تعالى- أخبر أنه بعث فى كل أمة رسولاً .

وقال -تعالى-:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(٣) .

وروى أن النبى ﷺ قال: **«أنتم توفون سبعين أمة أنتم أكرمها وأفضلها على الله»**(٤) وهو حديث جيد.

وقد قال -تعالى- فى سورة الزمر:

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ

---

(١) سورة المائدة: ٧٥.

(٢) أخرجه ابـن حبان فى «صحـيحه» (٣٦١) فى أثناء حديث طويل، وفـيه «. . . قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: مئـة ألف وعشرون ألفًا. قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: «**ثلاث مئة وثـلاثة عشرَ جمًّا غفيراً...**» الحديث وفى إسناده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى، ضعيف ومتهم بالكذب كما فى «لسان الميزان» (٣٧٣).

(٣) سورة فاطر: ٢٤.

(٤) **حسن**: أخرجه الترمذى (٣٠١٢)، وابن ماجه (٤٢٨٧/٤٢٨٨)، وأحمد (٥/٣-٥)، من حديث معاوية بن حيدة: بلفظ: «أنه سمع النبى ﷺ يقول فى قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عـمران: ١١٠] قال: إنكم تـتمون سـبعـين أمة أنتم خـيرها وأكرمها على الله.

قال التـرمذى: حـديث حسن. وقـال الحافظ ابن حـجر فى «الفتـح» (٨/٧٣): حديث حسن صحيح. وقال الألبانى فى «صحيح الجامع» (٢٣٠١): حسن. وجوده المصنف.

خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾(١).

وقال -تعالى- في سورة تبارك:

﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴿٦﴾ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور ﴿٧﴾ تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴿٨﴾ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾(٢).

فهذا إخبار منه بأن كل فوج يلقى فى النار، وقد جاءهم نذير كما قال -تعالى-:

﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾(٣).

وقد قال -تعالى-:

﴿ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾(٥).

فقد أرسل الله قبل المسيح رسلا كثيرين إلى جميع الأمم، فكيف يجوز أن يدعى أن المراد بقوله -تعالى-: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾(٦). هم الحواريون فقط، الذين أرسلهم المسيح، مع أن الحواريين رسل المسيح بمنزلة رسل موسى، وإبراهيم، ورسل محمد ﷺ.

---

(١) سورة الزمر: ٧١.
(٢) سورة الملك: ٦-٩.
(٣) سورة الإسراء: ١٥.
(٤) سورة النساء: ١٦٥.
(٥) سورة الأنعام: ١٣٠.
(٦) سورة الحديد: ٢٥.

ومن أرسله رسول الله ﷺ وجبت طاعته على الناس فـيما يبلغه عن رسول الله، كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «**من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن أطاع أمـيرى فقـد أطاعنى، ومن عـصانى فـقد عـصى الله ومن عصى أمـيرى فـقد عصانى**»(١).

فبين أن أميره إنما تجب طاعـته فى المعروف الذى أمر الله به ورسوله. لا فى كل ما يأمر به، ففى الصـحيحين عن على: «أن رسول الله ﷺ بعث جيشًا وأمر عليهم رجلاً، وأمـرهم أن يسمعوا ويطيعوا، فـأغضبوه. فقال: اجمـعوا لى حطبًا فجمعوا له. ثم قال: أوقـدوا نارًا فأوقدوا نارًا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله أن تسمـعوا لى وتطيـعوا؟ قـالوا: بلى. قال: فـادخلوها، فنظر بعضـهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله من النار، فكانوا كذلك حـتى سكن غضبه، فلما رجعوا ذكـروا ذلك لرسول الله ﷺ، وقال: «**لو دخلوها مـا خرجوا منـها أبدًا**» وقال: «**لا طاعة فى معصـية الله، إنما الطاعة فى المعروف**»(٢) وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمر، عن النبى ﷺ أنه قال: «**على المرء المسلم السمع والطاعة فـيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع وطاعة**»(٣).

وفى مسلم عن أم الحصـين سمعت رسول الله ﷺ فى حجة الوداع يقول: «**ولو استعمل عليكم عبد أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا**»(٤).

وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**ليبلغ الشاهد الغـائب فرب مبلغ أوعى له من سامع**»(٥).

وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال: «**بلغوا**

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٧١٣٧) من حديث أبى هريرة.

(٢) صحيح: أخرجـه البخارى (٧١٤٥)، ومـسلم (١٨٤٠)، وأبو داود (٢٦٢٥)، والنسائى (١٥٩/٧، ١٦٠)، وأحمد (٨٢/١، ٩٤)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٦٢٥٠)، والبيهقى فى «الدلائل» (٣١٢/٤).

(٣) صحيح: أخرجه البخـارى (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩)، وأبو داود (٢٦٢٦)، والترمذى (١٧١٣).

(٤) صحيح بنحوه: أخرجه مسلم (١٢٩٨).

(٥) صحيح: أخرجه البخارى (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبى بكرة.

عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»(١).

وفى السنن عنه أنه قال: «نَضَّر الله امرأ سمع منا حديثًا فبلَّغه إلى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(٢).

فالحواريون فى تبليغهم عن المسيح كسائر أصحاب الأنبياء فى تبليغهم عنهم، وقال الله -تعالى- فى كتابه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(٣).

وأولوا الأمر هم العلماء والأمراء، فإذا أمروا بما أمر الله به ورسوله، وجبت طاعتهم، وإن تنازع الناس فى شىء وجب رده إلى الله والرسول، لا يرد إلى أحد دون الرسل الذين أرسلهم الله، كما قال فى الآية الأخرى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٤).

والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله ليس المراد به كتابًا معينًا. كما قال -تعالى-:

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾(٥).

ولم يرد بهذا أن يؤمن بكتاب معين واحد، بل وهذا يتضمن الإيمان

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٣٤٦١)، والترمذى (٢٦٧٨)، وأحمد (٢/ ١٥٩، ٢٠٢)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٧٨٧١).
(٢) صحيح: وقد تقدم تخريجه.
(٣) سورة النساء: ٥٩.
(٤) سورة البقرة: ٢١٣.
(٥) سورة البقرة: ١٧٧.

بالتوراة، والإنجـيل، والقرآن، وكل مـا أنزله الله من كتاب، كـما قـال فى سورة الشورى:

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ...﴾(١).

فأمره الله -تعالى- أن يؤمن بكل ما أنزله الله من كتاب، وأن يعدل بين من بلغتهم رسالته، كما قال:

﴿... لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ...﴾(٢).

فكل من بلغه القرآن فهو مخـاطب به يتناوله خطاب القرآن وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «**بلغوا عنى ولو آية**»(٣).

وقال -تعالى-:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ...﴾(٤).

وفى القراءة الأخـرى وكتابه ورسله وكـلا القرائتين مـوافقة للأخـرى وقوله -تعالى-: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾(٥).

أى فاختلفوا بعد ذلك. كما قال فى السورة الأخرى:

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا...﴾(٦).

فلما اختلف بنوا آدم بعث النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب.

وذلك يتناول كل كتاب أنزله الله ليحكم الله، ويحكم كتابه بين الناس بالحق فالحـاكم بين الناس هو الله -تعـالى-، وحكمه فى كـتبـه المنزلة، فلهـذا أمر الله المؤمنين إذا تنازعوا فى شىء أن يردوه إلى الله والرسول.

---

(١) سورة الشورى: ١٥.
(٢) سورة الأنعام: ١٩.
(٣) صحيح: وقد تقدم قريبًا.
(٤) سورة البقرة: ٢٨٥.
(٥) سورة البقرة: ٢١٣.
(٦) سورة يونس: ١٩.

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، فأمرهـم بالرد إلى كتابه ورسوله، وقد ذم -تعالى- من لم يتحاكم إلى كتابه ورسوله فقال -تعالى-:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١).

فقد تبيَّن أن الرسل الذين ذكرهم الله فى قوله:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ...﴾(٢).

يتناول الرسل الذين أرسلهم الله -تعالى- كلهم، ومـن أحقهم بذلك الرسل الذين أخبر فى القرآن أنه أرسلهم إلى عباده، فظهر بطلان قولهم أنهم الحواريون.

الوجه الثالث: أنه قال:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٣).

فذكـر أنه أنزل الحـديد أيضًا، ليـتبـين من يجاهد فى سـبيل الله بالحـديد. والنصارى يزعمون أن الحواريين والنصارى لم يؤمروا بقتال أحد بالحديد.

الوجه الرابع: أنه قال بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ

---

(١) سورة النساء: ٦٠-٦٥.

(٢)، (٣) سورة الحديد: ٢٥.

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾(١).

وإخباره بإرسال نوح وإبراهيم بعد قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من باب ذكر الخاص بعد العام، وبيان ما اختص به الخاص من الأحكام التى امتاز بها عن غيره، مما دخل فى العام كما يأمر السلطان العسكر بالجهاد، ويأمر فلانًا وفلانًا بأن يفعلوا كذا وكذا، ومثل أن يقال أرسل رسله إلى فلان، وأرسل إليهم فلانًا، وأمره بكذا وكذا، قال -تعالى-:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ...﴾(٢).

فنوح هو أبو الآدميين الذين حدثوا بعد الطوفان، فإن الله أغرق ولد آدم إلا أهل السفينة، وقال فى نوح: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾(٣).

وإبراهيم جعل الأنبياء بعده من ذريته، كما قال -تعالى- فى إبراهيم:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٤).

ثم قال بعد أن ذكر إرسال نوح وإبراهيم وأنه جعل فى ذريتهما النبوة والكتاب:

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ...﴾(٥).

فأخبر أنه قفى على آثارهم برسله وقفى بعيسى ابن مريم، وآتاه الإنجيل، وهؤلاء رسل قبل المسيح، وآخرهم المسيح ولم يذكر أنه أرسل أحدًا من أتباع المسيح، بل أخبر أنه جعل فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، فكيف يجوز أن يقال: أن مراده بالرسل الذين أرسلهم بالبينات، وأنزل معهم الكتاب، والميزان، هم الحواريون، دون الرسل الذين ذكرهم وأرسلهم قبل المسيح.

(١) سورة الحديد: ٢٦، ٢٧.
(٢) سورة الحديد: ٢٦.
(٣) سورة الصافات: ٧٧.
(٤) سورة العنكبوت: ٢٧.
(٥) سورة الحديد: ٢٧.

الوجه الخامس: أنه ليس فى القرآن آية تنطق بأن الحواريين رسل الله، بل ولا صرح فى القرآن بأنه أرسلهم، لكن قال فى سورة يس:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾(١).

فهذا كلام الله ليس فيه ذكر أن هؤلاء المرسلين كانوا من الحواريين، ولا أن الذين أرسلوا إليهم آمنوا بهم، وفيه أن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم هؤلاء الثلاثة أنزل الله عليهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون.

وقد ذكر طائفة من المفسرين، أن هؤلاء كانوا من الحواريين، وأن القرية أنطاكية، وأن هذا الرجل اسمه حبيب النجار، ثم إن بعضهم يقول: إن المسيح أرسلهم فى حياته، لكن المعروف عند النصارى، أن أهل أنطاكية آمنوا بالحواريين واتبعوهم لم يهلك الله أهل أنطاكية.

والقرآن يدل على أن الله أهلك قوم هذا الرجل الذى آمن بالرسل.

وأيضًا فالنصارى يقولون: إنما جاءوا إلى أهل أنطاكية بعد رفع المسيح، وأن الذين جاءوا كانوا اثنين لم يكن لهما ثالث: قيل: أحدهما: شمعون الصفا. والآخر بولص. ويقولون: إن أهل أنطاكية آمنوا بهم، ولا يذكرون حبيب النجار،

(١) سورة يس: ١٣-٣٠.

ولا مجىء رجل من أقـصى المدينة، بل يقولون: إن شـمعـون وبولص، دعوا الله حـتى أحيـا ابن الملك، فـالأمر المـنقول عند النصـارى، أن هؤلاء المذكـورين فى القرآن، ليـسوا من الحـواريين، وهذا أصح القولين عنـد علماء المسلمـين، وأئمة المفسرين وذكروا أن المذكورين فى القـرآن فى سورة يس، ليسوا من الحواريين، بل كانوا قبل المسيح، وسمـوهم بأسماء غير الحواريين، كما ذكر مـحمد بن إسحاق، قال: سلمـة بن الفضل: كـان من حديث صاحب يس فـيما حـدثنى محـمد بن إسحـاق، عن ابن عباس، وعن كـعب، وعن وهب بن منبه، أنه كـان رجلاً من أهل أنطاكية، وكان اسمه حبيبًا، وكان يـعمل الحرير، وكان رجلاً سقيمًا قد أسرع فيه الجـذام، وكان منزله عند باب من أبواب المدينة، يتاجر، وكان مـؤمنًا ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمسى فيما يذكرون فيقسمه نصفين، فيطعم نصفه عياله، ويتصدق بنصفه وكان بـالمدينة التى هو بها، مدينة أنطاكية، فرعـون من الفراعنة، يقال له: إنطخس بن أنطنخس، يعبد الأصنام، صاحب شرك، فبعث الله إليه المرسلين وهم ثلاثة: صـادق، وصدوق، وشلوم، فـقـدم الله إليه وإلى أهل المـدينة منهم اثنين فكذبوهما، ثم عزز الله بالثالث(١).

وروى الربيع بن أنس، عن أبى العالية فى قوله -تعالى-:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ...﴾(٢).

لكى تكون الحجة علـيهم أشد، فأتوا أهل القرية فـدعوهم إلى الله وحده، وعبـادته لا شريك لـه، فكذبوهم، فأتوا على رجل فى ناحـية القـرية فى زرع له فـسألهم الرجل: مـا أنتم؟ قـالوا: نحن رسل رب العـالمين، أرسلنا إلى أهل هذه القرية ندعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

قال لهم: أتسألون على ذلك أجرًا؟ قـالوا: لا. قال: فألقى ما فى يده، ثم أتى أهل المدينة فقال:

﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٣).

---

(١) إسناده ضعيف: أما طريق ابن عبـاس فمنقطع بينه وبين ابن إسحـاق، وأما طريق كعب ووهب فكلاهما مرسل.

(٢) سورة يس: ١٣-١٤.

(٣) سورة يس: ٢٠، ٢١.

وهذا القول هو الصـواب، وأن هؤلاء المرسلين كانوا رسلاً لله قـبل المسيح، وأنهم كـانوا قد أرسلوا إلى أنطاكـية وآمـن بهم حبـيب النجار، فـهم كانوا قـبل المسيح، ولم تـؤمن أهل المدينة بالرسل. بل أهلكهم الله -تعالى- كـما أخـبر فى القرآن ثم بعد هذا عمـرت أنطاكية. وكان أهلها مشركـين حتى جاءهم من جاءهم من الحواريين فآمنوا بالمسيح على أيديهم. ودخلوا فى دين المسيح.

ويقال: إن أنطاكيـة أول المدائن الكبار الذين آمنوا بالمسيح عليه السلام، وذلك بعد رفعـه إلى السمـاء. ولكن ظن من ظن من المفسـرين أن المذكورين فى الـقرآن هم رسل المسيح. وهم من الحواريين وهذا غلط لوجوه:

منهـا: أن الله قـد ذكر فى كـتـابه أنه أهلك الذين جـاءتهم الرسل، وأهل أنطاكية لما جاءهم من دعاهم إلى دين المسيح آمنوا ولم يهلكوا.

ومنها: أن الرسل فى القرآن ثلاثة، وجاءهم رجـل من أقصى المدينة يسعى، والذين جاءوا من أتباع المسيح كـانوا اثنين، ولم يأتهم رجل يسعى، لا حبيب ولا غيره.

ومنها: أن هؤلاء جاءوا بعد المسيح فلم يكن الله أرسلهم، وهذا كما أن الله ذكر فى القرآن أنه أهلك أهل مدين بالظلة لما جـاءهم شعيب. وذكر فى القرآن أن مـوسى أتاها وتزوج ببنت واحـد منها فظن بعض النـاس أنه شعـيب النبى، وهذا غلط عند علماء المسلمين مثل ابن عباس، والحسن البصرى، وابن جريج وغيرهم كلهم ذكروا أن الذى صاهره موسى ليس هو شعيبًا النبى، وحكى أنه شعيب عمن لا يعرف من العلماء ولم يثـبت عن أحد من الصحابة والتابعـين، كما بسطناه فى موضعه.

وأهل الكتاب يقـرون بأن الذى صاهره موسى ليس هو شعـيبًا بل رجل من أهل مدين، ومنهم من يقول: إنها غير مدين التى أهلك الله أهلها، والله أعلم.

وكذلك ذكـر المفسـرون فى المرسلين هل أرسلهم الله، أو أرسلهم المسـيح؟ قولين:

أحدهما: أن الله هو الذى أرسلهم.

قال أبو الفـرج بن الجوزى: وهذا ظاهر القرآن، وهو مروى عن ابن عـباس وكعب، ووهب بن منبه. قال: وقال المفسرون فى قوله:

﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً...﴾(١).

أخذ جبريل بعضادتى باب المدينة وصاح بهم صيحة واحدة فإذا هم ميِّتون لا يُسمع لهم حس كالنار إذا أطفئت وذلك قوله:

﴿... فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾(٢).

أى: ساكنون كهيئة الرماد الخامد.

ومعلوم عند الناس أن أهل أنطاكية لم يصبهم ذلك بعد مبعث المسيح بل آمنوا قبل أن يبدل دينه، وكانوا مسلمين مؤمنين به على دينه إلى أن تبدل دينه بعد ذلك، ومما يبيِّن ذلك أن المعروف عند أهل العلم أنه بعد نزول التوراة لم يهلك الله مكذبى الأمم بعذاب من السماء يعمهم، كما أهلك قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون وغيرهم، بل أمر المؤمنين بجهاد الكفار، كما أمر بنى إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة، وهذه القرية أهلك الله أهلها بعذاب من السماء، فدل ذلك على أن هؤلاء الرسل المذكورين فى يس كانوا قبل موسى عليه السلام، وأيضًا فإن الله لم يذكر فى القرآن رسولاً أرسله غيره، وإنما ذكر الرسل الذين أرسلهم هو، وأيضًا فإنه قال:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ...﴾(٣).

فأخبر أنه أرسلهم، كما أخبر أنه أرسل نوحًا وموسى وغيرهما، وفى الآية: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ...﴾(٤).

ومثل هذا هو خطاب المشركين لمن قال: إن الله أرسله وأنزل عليه الوحى لا لمن جاء رسولاً من عند رسول، وقد قال بعد هذا:

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٥).

وهذا إنما هو فى الرسل الذين جاءوهم من عند الله لا من عند رسله. وأيضًا: فإن الله ضرب هذا مثلاً لمن أرسل إليه محمدًا ﷺ يحذرهم أن ينتقم الله منهم، كما انتقم من هؤلاء، ومحمد إنما يضرب له المثل برسول نظيره لا بمن

---

(١)، (٢) سورة يس: ٢٩.

(٣) سورة يس: ١٤.

(٤) سورة يس: ١٥.

(٥) سورة يس: ٣٠.

أصحابه أفضل منهم، فإن أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليًا أفضل من الحواريين باتفاق علماء المسلمين، ولم يبعث الله بعد المسيح رسولاً بل جعل ذلك الزمان زمان فترة كقوله:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ...﴾(١).

وأيضًا فإنه قال -تعالى-:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾(٢).

ولو كانوا رسل رسول لكان التكذيب لمن أرسلهم، ولم يكن فى قولهم: إن أنتم إلا بشر مثلنا شبهة، فإن أحدًا لا ينكر أن يكون رسل رسل الله بشرًا، وإنما أنكروا أن يكون رسول الله بشرًا، وأيضًا فلو كان التكذيب لهما وهما رسل الرسول لأمكنهما أن يقولا: فأرسلوا إلى من أرسلنا، أو إلى أصحابه فإنهم يعلمون صدقنا فى البلاغ عنه، بخلاف ما إذا كانا رسل الله وأيضًا فقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾.

صريح فى أن الله هو المرسل ومن أرسلهم غيره إنما أرسلهم ذلك لم يرسلهم الله كما لا يقال لمن أرسله محمد بن عبد الله أنهم رسل الله فلا يقال لدحية بن خليفة الكلبى أن الله أرسله، ولا يقال ذلك للمغيرة بن شعبة، وعبد الله ابن حذافة وأمثالهما ممن أرسلهم الرسول وذلك أن النبى ﷺ أرسل رسله إلى ملوك الأرض، كما أرسل دحية بن خليفة إلى قيصر وأرسل عبد الله بن حذافة إلى كسرى، وأرسل حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس، كما تقدم ذكر ذلك.

ومعلوم أنه لا يقال فى هؤلاء إن الله أرسلهم، ولا يسمون عند المسلمين رسل الله، ولا يجوز باتفاق المسلمين أن يقال هؤلاء داخلون فى قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾(٣).

فإذا كانت رسل محمد ﷺ لم يتناولهم اسم رسل الله فى الكتاب الذى جاء به. فكيف يجوز أن يقال: إن هذا الاسم يتناول رسل رسول غيره، والمقصود هنا بيان معانى القرآن وما أراده الله -تبارك وتعالى- بقوله:

---

(١) سورة المائدة: ١٩.

(٢) سورة يس: ١٤-١٥.

(٣) سورة الحديد: ٢٥.

﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ...﴾(١).

هل مراد الله ورسوله محمد ﷺ من أرسلهم الله، أو من أرسلهم رسوله، وقد علم يقينًا أن محمدًا ﷺ لم يدخل فى مثل هذا فمن قال: إن محمدًا ﷺ، أراد بذلك من أرسله رسول فقد كذب على محمد ﷺ عمدًا أو خطأ.

• • •

(١) سورة يس: ١٣، ١٤.

فصـل

وقد تبيَّن بما ذكرناه فساد قولهم فى تفسير آية البقرة، فإنهم قالوا: وقال فى سورة البقرة:

﴿... فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾(١).

قالوا: فأعنى بقوله أنبياءه المبشرين ورسله ينحو بذلك عن الحواريين الذين داروا فى سبعة أقاليم العالم وبشروا بالكتاب الذى هو الإنجيل الطاهر، لأنه لو كان أعنى عن إبراهيم وموسى وداود ومحمد لكان قال: ومعهم الكتب لأن كل واحد منهم جاء بكتاب دون غيره ولم يقل إلا الكتاب الواحد، لأنه ما أتى جماعة مبشرين بكتاب واحد غير الحواريين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر.

فيقال لهم: قد تقدم بعض ما يدل على فساد هذا التفسير:

وأيضًا فإنه قال -تعالى-: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾(٢).

أى ; فاختلفوا. ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

والحواريون ليسوا من النبيين، وإن كان المسيح أرسلهم ولا يلزم من إرساله لهم أن يكونوا أنبياء كمن أرسلهم موسى ومحمد وغيرهما ولهذا تسميهم عامة النصارى رسلاً ولا يسمونهم أنبياء.

وأيضًا فإنه قال: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾.

والحواريون لم ينزل معهم الكتاب إنما أنزل الكتاب مع المسيح، ولكن الأنبياء أنزل معهم جنس الكتاب، فإن الكتاب اسم جنس فيدخل فيه الكتب المنزلة كلها كما فى قوله:

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ...﴾(٣).

---

(١)، (٢) سورة البقرة: ٢١٣.

(٣) سورة البقرة: ١٧٧.

وفى قوله: ﴿ ... كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾[(١)].

وفى القراءة الأخرى (وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ)، وكذلك قوله عن مريم: ﴿ ... وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ... ﴾[(٢)].

وفى القراءة الأخرى: (وكتابه)، وأيضًا قال -تعالى-:

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ... ﴾[(٣)].

وقال -تعالى- فى سورة يونس:

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ... ﴾[(٤)].

وهذا يدل أنه لما اختلفت بنو آدم بعث الله النبيين، واختلافهم كان قبل المسيح بل قبل موسى، بل قبل الخليل، بل قبل نوح، كما قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم حدث فيهم الشرك والاختلاف على وجهين: تارة يختلفون فيؤمن بعضهم، ويكفر بعضهم، كما قال -تعالى-:

﴿ ... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ... ﴾[(٥)].

وقال -تعالى-: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ... ﴾[(٦)].

يعنى: أهل الإيمان والكفر، وقد يكون المختلفون كلهم على باطل كقوله:

﴿ ... وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾[(٧)].

وقوله:

﴿ ... وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ... ﴾[(٨)].

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٥.
(٢) سورة التحريم: ١٢.
(٣) سورة البقرة: ٢١٣.
(٤) سورة يونس: ١٩.
(٥) سورة البقرة: ٢٥٣.
(٦) سورة الحج: ١٩.
(٧) سورة البقرة: ١٧٦.
(٨) سورة هود: ١١٨، ١١٩.

وأيضًا: فالإنجيل ليس فيه حكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بل عامته مواعظ ووصايا وأخبار المسيح. بخلاف التوراة والقرآن فإن فيهما من الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ما ليس فى الإنجيل.

وأيضًا فإنه قال:

﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ... ﴾(١).

وذلك يقتضى أن الله هدى الذين آمنوا بعد اختلاف الذين أوتوا اكتاب بغيًا بينهم لما اختلفوا فيه من الحق، وهذا ذم لمن أوتوا الكتاب فاختلفوا.

والنصارى داخلون فى هذا الذم. ولو كان المراد الإنجيل لكانوا هم المذمومين دون غيرهم، وليس كذلك، بل اليهود وغيرهم من المختلفين مذمومون أيضًا، وإنما الممدوح هم المؤمنون الذين هداهم الله لما اختلف أولئك فيه من الحق بإذنه.

وهذا يتناول أمة محمد ﷺ قطعًا، وقد يتناول كل من آمن من الأمم المتقدمة، كالذين كانوا على دين موسى، والمسيح، وإبراهيم الخليل، كما قال -تعالى-:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٢).

وأما أمة محمد ﷺ، فإن الله هداهم لما اختلف فيه الأمم قبلهم من الحق بإذنه، وهذا بيِّن فإنهم على الحق والعدل الوسط بين طرفى الباطل وهذا ظاهر فى اتباعهم الحق الذى اختلفت فيه اليهود والنصارى فى التوحيد والأنبياء والأخبار، والتشريع، والنسخ، والحلال والحرام، والتصديق، والتكذيب، وغير ذلك.

أما التوحيد فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فوصفوا الرب -سبحانه- بصفات النقص الذى يختص بها المخلوق، فقالوا: إن الله فقير وبخيل، وإنه يتعب وغير ذلك.

والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق صفات الكمال الذى يختص بها

(١) سورة البقرة: ٢١٣.

(٢) سورة البقرة: ٦٢.

الخالق، فـقالوا عن المسـيح: إنه خالق السـمـٰوات والأرض القـديم الأزلى علاّم الغيوب القادر على كل شىء، و:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(١).

والمسلمون هداهم الله لما اختـلفوا فيه من الحق فلم يشبـهوا الخالق بالمخلوق ولا المخلوق بالخالق، بل أثـبتوا لله ما يـستحـقه من صفـات الكمال، ونزّهوه عن النقائص وأقروا بأنه أحد ليس كمثله شىء وليس له كفوًا أحد فى شىء من صفات الكمـال فنزهوه عن النقـائص خـلافًـا لليـهـود، وعن مماثلة المخلوق له خـلافًـا للنصارى.

وأما الأنبياء -عليهم السـلام- فإن اليهود قتلوا بعضًا وكذبوا بعـضًا كما قال -تعالى-:

﴿... أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُـكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾(٢).

والنصارى أشركـوا بهم وبمن هو دونهم فعبدوا المسيح بل اتخـذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وجعلوا الحواريين رسلاً لله وزعموا أن الإنسان يصير بطاعـته بمنزلة الأنبـياء، وصـوروا تماثيل الأنبيـاء والصالحـين، وصاروا يدعـونهم ويستشفعون بهم بعد موتهم، وإذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تماثيلهم.

وفى الصحيحين أن النبى ﷺ ذكر له كنيسة بأرض الحبشة وذكر من حسنها وتصاوير فيها، فقال: **«أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»**(٣).

وأما المسلمون فـهداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فـآمنوا بأنبياء الله كلهم ولم يفـرقوا بين أحد مـنهم ولم يغلوا فيـهم غلو النصارى ولا قـصروا فى حقـهم تقصـير اليـهود، وكذلك قـتل اليهـود الذين يأمرون بالقسـط من الناس. والنصارى يطيعون من يأمر بالشـرك. وإن الشرك لظلم عظيم، ويطيعون من يحرم

(١) سورة التوبة: ٣١.

(٢) سورة البقرة: ٨٧.

(٣) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

الحلال ويحلل الحرام. والمسلمون يطيعون من يأمر بطاعة الله، ولا يطيعون من يأمر بمعصية الله. والنصارى فيهم الشرك بالله. واليهود فيهم الاستكبار عن عبادة الله كما قال -تعالى- في النصارى:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١).

وقال في اليهود:

﴿... أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾(٢).

والإسلام هو أن يستسلم العبد لله وحده فيعبده وحده بما أمره به. فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا، والله لا يغفر أن يشرك به. ومن لم يستسلم له بل استكبر عن عبادته كان ممن قيل فيه:

﴿... ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٣).

فلهذا كان جميع الأنبياء وأممهم مسلمين لله يعبدونه وحده بما أمرهم به وإن تنوعت شرائعهم. فالمسيح لم يزل مسلمًا لما كان متبعًا لشرع التوراة ولما نسخ الله له نسخة منها.

ومحمد ﷺ لم يزل مسلمًا لما كان يصلي إلى بيت المقدس ثم لما صلى إلى الكعبة ولما بعثه الله إلى الخلق كانوا كلهم مأمورين بطاعته وكانت عبادة الله طاعته، فمن لم يطعه لم يكن عابدًا لله فلم يكن مسلمًا.

وأما التشريع فإن اليهود زعموا أن ما أمر الله به يمتنع منه أن ينسخه.

والنصارى زعموا أن ما أمر الله به يسوغ لأكابرهم أن ينسخوه فهدى الله المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق، فقالوا: إن الله -سبحانه- له أن ينسخ ما شرعه خلافًا لليهود، وليس للمخلوق أن يغير شيئًا من شرع الخالق خلافًا للنصارى.

---

(١) سورة التوبة: ٣١.

(٢) سورة البقرة: ٨٧.

(٣) سورة غافر: ٦٠.

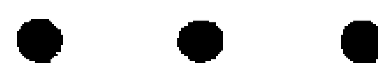
وأما الحلال والحرام والطهـارة والنجاسة فإن اليهود حرمـت عليهم الطيبات وشددت عليـهم من أمر النجاسـات، حتى منعوا من مـؤاكلة الحائض، والجلوس معها فى بيت ومن إزالة النجاسة، وحرم عليهم شحم الثرب والكليتين، وكل ذى ظفر وغير ذلك.

والمسيح عليه السلام أحل لهم بعض الذى حرم عليهم فقـابلهم النصارى، فقالوا: ليس شىء محـرم، لا الخنزير ولا غيره. بل ولا شىء نجس، لا البول، ولا غـيره وزعموا أن بعض أكابرهم رأى مـلاءة صور له فيها صور الحـيوان وقيل له: كل ما طابت نفسك ودع ما تكره وأنه أبيح لهم جميع الحيوان ونسخوا شرع التوراة بمجرد ذلك.

فالحلال عندهم ما اشتهته أنفسهم. والحرام عندهم ما كرهته أنفسهم. فهدى الله الذين آمنوا لما اخـتلف فـيه من الحق فـأحل لهم الله الطيـبـات وحرم عليـهم الخبائث وأزال عنهم الآصـار والأغلال التى كانت على بنى إسرائيل خلافًـا لليهود وأمرهم بالطهـارة طهارة الحدث والخـبث خلافًا للنصـارى. والمسيح عليه السلام جعلته اليهود ولد زنًا كذابًا ساحرًا، وجعلته النصارى هو الله خالق السمـوات والأرض، فهدى الله الذين آمـنوا لما اختلفوا فيه مـن الحق بإذنه فشهدوا أنه عـبد الله مخلوق خلافًا للنصارى وأنه رسـول وجيه فى الدنيا والآخرة ومن المقربين خـلافًا لليهود، وأما التـصديق والتكذيب فـإن اليهـود من شأنهم التكذيب بالحق، والـنصارى من شأنهم التصديق بالبـاطل فإن اليهود كذبوا من كذبوه من الأنبـياء وقد جاءوا بالحق كما قال -تعالى-:

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾(١).

والنصارى يصدقون بمحالات العقول والشـرائع كما صدقوا بالتثليث والاتحاد ونحوهما من المتنعات.



---

(١) سورة البقرة: ٨٧.

فصل

ثم قالوا عن القرآن أنه يشهد لهم أنهم أنصار الله حيث يقول كما قال عيسى ابن مريم: من أنصارى إلى الله قال الحواريون:

﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾(١).

فيقال: هذا حق والحواريون مؤمنون مسلمون وهم أنصار الله، لكن ليس فى هذا أنهم رسل الله، ولا فى هذا أن كل ما أنتم عليه من الدين مأخوذ عنهم، ولا فى هذا أن الواحد من الحواريين معصوم من الغلط، بل أمر الله المؤمنين من أمة محمد ﷺ أن يكونوا أنصار الله كما طلب المسيح ذلك بقوله: (مَنْ أَنْصَارى إلى الله).

وقد وصف الله المؤمنين أصحاب النبى ﷺ من أهل المدينة بأنهم أنصار الله بقوله -تعالى-:

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ... ﴾(٢).

والمهاجرون أفضل من الأنصار، وهم أيضًا من أنصار الله نصروه كما نصره الأنصار، لكن لما كان لهم اسم يخصهم، وهو المهاجرون، وهو أفضل الاسمين، خص الأنصار بهذا الاسم.

والمهاجرون والأنصار أفضل ممن آمن بموسى ومن آمن بعيسى عند المسلمين.

ومع هذا فليس فيهم عندهم نبى ولا رسول لله، ولكن فيهم رسل رسول الله ﷺ تسليمًا.

---

(١) سورة الصف: ١٤.

(٢) سورة التوبة: ١٠٠.

فصـل

[الجواب عن قولهم أن القرآن عظم الإنجيل الذى بأيديهم]

قالوا: وأما تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التى بأيدينا فيقول:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ... ﴾(١).

وقال فى سورة آل عمران:

﴿ الم ۝١ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ... ﴾(٢).

وقال فى سورة البقرة:

﴿ الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٣).

فأعنى بالكتاب الإنجيل، والذين يؤمنون بالغيب نحن النصارى الذين آمنا بالمسيح وما رأيناه، ثم اتبع بالقول والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك فأعنى بهم المسلمين الذين آمنوا بما أتى به وما أتى من قبله، وقال فى سورة المائدة:

﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٦ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٤).

وقال فى سورة آل عمران:

---

(١) سورة المائدة: ٤٨.

(٢) سورة آل عمران: ١-٤.

(٣) سورة البقرة: ١-٥.

(٤) سورة المائدة: ٤٦، ٤٧.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾(١).

فأعنى أيضًا بالكتاب المنير الذى هو الإنجيل المقدس.

وقال أيضًا:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾(٢).

فثبت بهذا ما معنا ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التى فى أيدينا التهم والتبديل والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

والجواب: بعد أن تعرف أن لفظ الآية الأولى من سورة المائدة:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾(٣).

أن يقال: أما تصديق خاتم الرسل محمد رسول الله ﷺ لما أنزل الله قبله من الكتب ولمن جاء قبله من الأنبياء، فهذا معلوم بالاضطرار من دينه متواترًا تواترًا ظاهرًا كتواتر إرساله إلى الخلق كلهم وهذا من أصول الإيمان.

قال -تعالى-:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ

(١) سورة آل عمران: ١٨٤.
(٢) سورة يونس: ٩٤.
(٣) سورة المائدة: ٤٨.
(٤) سورة البقرة: ١٣٦، ١٣٧.

مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(١).

وقال:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(٣).

وتصديقه للتوراة والإنجيل مذكور فى مواضع من القرآن، وقد قال:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ... ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ... ﴾(٥).

وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ... ﴾(٦).

---

(١) سورة آل عمران: ٨٤، ٨٥.
(٢) سورة البقرة: ١٧٧.
(٣) سورة البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦.
(٤) سورة المائدة: ٤٨.
(٥) سورة الزمر: ٢٣.
(٦) سورة يوسف: ٣.

فبيَّن أنه أنزل هذا القرآن مهيمنًا على ما بين يديه من الكتب، والمهيمن الشاهد المؤتمن الحاكم، يشهد بما فيها من الحق وينفى ما حرف فيها ويحكم بإقرار ما أقره الله من أحكامها، وينسخ ما نسخه الله منها وهو مؤتمن فى ذلك عليها، وأخبر أنه أحسن الحديث وأحسن القصص وهذا يتضمن أنه كل من كان متمسكًا بالتوراة قبل النسخ من غير تبديل شىء من أحكامها فإنه من أهل الإيمان والهدى، وكذلك من كان متمسكًا بالإنجيل من غير تبديل شىء من أحكامه قبل النسخ، فهو من أهل الإيمان والهدى، وليس فى ذلك مدح لمن تمسك بشرع مبدل، فضلاً عمن تمسك بشرع منسوخ، ولم يؤمن بما أرسل الله إليه من الرسل وما أنزل إليه من الكتب بل قد بين كفر اليهود والنصارى بتبديل الكتاب الأول وبترك الإيمان بمحمد ﷺ فى غير موضع.

وأما تأويلهم قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾(١)، إنه الإنجيل. و﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٢) -عَنَى بهم النصارى فهو من تحريف الكلم عن مواضعه، وتبديل كلام الله كما فعلوه فى قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا﴾(٣)، وفى قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ أى باللاهوت، وفى قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(٤).

وفى غير ذلك مما ذكروه وتأولوه من القرآن على غير المعنى الذى أراد الله به، وهذا مما يؤيد أنهم فعلوا كذلك بالتوراة والإنجيل، فإنه إذا كان القرآن الذى قد عرف تفسيره، والمراد به: العام والخاص، ونقل ذلك عن الرسول نقلاً متواترًا حتى عرف معناه علمًا يقينًا اضطراريًا فيبدلون معناه ويحرفون الكلم عن مواضعه، فماذا يصنعون بالتوراة والإنجيل ولم ينقل لفظ ذلك ومعناه كما نقل القرآن وليس فى أهل تلك الكتب من يذب عن لفظها ومعناها كما يذب المسلمون عن لفظ القرآن ومعناه؟

وهؤلاء غرهم قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، فظنوا أن لفظ ﴿ذَلِكَ﴾ لما كان يشار بها إلى الغائب أشير بها إلى الإنجيل.

---

(١) سورة البقرة: ٢.
(٢) سورة البقرة: ٣.
(٣) سورة آل عمران: ٨٥.
(٤) سورة الفاتحة: ٦.

فيقال لهم هذا كقوله: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾(١).

وأشار بذلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية، وقوله:

﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ...﴾(٢).

وقوله:

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...﴾(٣).

ومثله -قوله تعالى- بعد أن ذكر خبر يوسف الصديق:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ...﴾(٤).

وقال أيضًا لما ذكر خبر مريم:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ﴾(٥).

كما قال لما ذكر آيات يخبر فيها عن نوح:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾(٦).

وقال:

﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٧).

و«تلك» فى المؤنث مثل «ذلك» فى المذكر، ومع هذا فـأشار إلى القرآن ومنه قوله: ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾(٨).

وقوله: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٩).

---

(١) سورة آل عمران: ٥٨.
(٢) سورة الممتحنة: ١٠.
(٣) سورة الطلاق: ٢.
(٤) سورة يوسف: ١٠٢.
(٥) سورة آل عمران: ٤٤.
(٦) سورة هود: ٤٩.
(٧) سورة يوسف: ١، ٢.
(٨) سورة الحجر: ١.
(٩) سورة النمل: ١.

ومنه قوله: ﴿طسم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[(١)].

ومنه قوله:

﴿حم ۝١ عسق ۝٢ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[(٢)].

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا...﴾[(٣)].

وقوله:

﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ الآية[(٤)].

ومثل هذا كثير، وذلك أنه لما أنزل قوله: ﴿ذلك الكتاب﴾ ﴿وتلك آيات الكتاب﴾ ونحو ذلك لم يكن الكتاب المشار إليه قد أنزل تلك الساعة، وإنما كان قد أنزل قبل ذلك فصار كالغائب الذى يشار إليه كما يشار إلى الغائب وهو باعتبار حضوره عند النبى ﷺ يشار إليه كما يشار إلى الحاضر، كما قال -تعالى-:

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ...﴾[(٥)].

ولهذا قال غير واحد من السلف[(١)] «ذلك الكتاب» أى هذا الكتاب، يقولون: المراد هذا الكتاب وإن كانت الإشارة تكون تارة إشارة غائب، وتارة إشارة حاضر، وقد قال:

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...﴾[(٦)].

وقد وصف النصارى بأنهم لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، وأنهم كافرون ظالمون، فكيف يجعلهم المتقين الذين يؤمنون بالغيب.

قال -تعالى-:

---

(١) سورة القصص: ١، ٢.
(٢) سورة الشورى: ١-٣.
(٣) سورة الشورى: ٧.
(٤) سورة الرعد: ١.
(٥) سورة الأنبياء: ٥٠.
(٦) سورة البقرة: ٢، ٣.

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾(١).

وأول التقوى تقوى الشرك، وقد وصف النصارى بالشرك فى قوله:

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٢).

وقال -تعالى- لما ذكر المسيح:

﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ... ﴾(٤).

وقوله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ... ﴾(٥).

ونهى عن موالاتهم فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ... ﴾(٦).

وقد أخبر أن الله ولى المتقين فقال:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾(٧).

فلو كانوا من المتقين فضلاً عن أن يكونوا هم المتقين لكان الله وليهم،

---

(١) سورة التوبة: ٢٩.

(٢) سورة التوبة: ٣١.

(٣) سورة مريم: ٣٧، ٣٨.

(٤) سورة المائدة: ٧٢.

(٥) سورة المائدة: ٧٣.

(٦) سورة المائدة: ٥١.

(٧) سورة الجاثية: ١٨، ١٩.

ولكانت موالاتهم واجبة على المؤمنين، وهو قد نهى عن موالاتهم وجعل من يتولاهم ظالمًا، وجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والكفار بعضهم أولياء بعض، ولهذا لما قطع الله الموالاة بين المؤمنين وبين الكافرين.

قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح: «**لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم**»(١).

واتفق المسلمون على أن اليهودى والنصرانى لا يرث مسلمًا ولو كان ابنه وأباه لأن الله قطع الموالاة بينهما، وقد قال -تعالى-:

﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ**﴾(٢).

وأيضًا فإنه قال -تعالى-:

﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ**﴾(٣).

وهى الصلاة التى أمر بها فى قوله:

﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾(٤).

وقد قال ﷺ: «**لا يقبل الله صلاة بغير طهور**»(٥). والنصارى يصلون بغير طهور.

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤)، وأبو داود (٢٩٠٩)، والترمذى (٢١١٤)، وابن ماجه (٢٧٢٩)، وأحمد (٥/ ٢٠٠)، ومالك فى «الموطأ» (١١٢٧)، والشافعى فى «الأم» (٥٤٨، ٥٤٩، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٨، ٢٠٠٤، ٢٨٧١)، والطبرانى فى «الأوسط» (٥٠٦)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٣٥٧٥، ٣٥٧٦، ٣٥٧٧)، من حديث أسامة بن زيد.

(٢) سورة المجادلة: ٢٢.

(٣) سورة البقرة: ٣.

(٤) سورة الإسراء: ٧٨.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٤)، والترمذى (١)، وابن ماجه (٢٧٢)، وأحمد (٢/ ٢٠، ٣٩، ٥١، ٥٧، ٧٣)، وابن خزيمة فى «صحيحه» (٨)، وابن حبان فى «صحيحه» (٣٣٦٦)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١٠٢١٣)، والبيهقى فى «سننه الكبرى» (٤/ ١٩١)، من حديث عبد الله بن عمر.

وقال ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[(١)]. وهم لا يقرءونها. والصلاة التى فرضها وأثنى عليها مشتملة على استقبال الكعبة وعلى ركوع وسجدتين فى كل ركعة، وغير ذلك مما لا يفعله النصارى فكيف يمدحهم بإقامة الصلاة وهم لا يقيمون الصلاة التى أمر بإقامتها.

ثم لو قال اليهودى المراد بقوله: (ذلك الكتاب) التوراة، و(بالمتقين) اليهود، لكان هذا مع بطلانه أقرب من قول القائل: إن المراد بالكتاب الإنجيل، لأن التوراة أحق بذلك من الإنجيل فإنها الأصل والله -تعالى- يقرن بينها وبين القرآن فى غير موضع كقوله:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾[(٢)].

وقوله -تعالى-:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[(٣)].

وقد قالت الجن لما سمعت القرآن:

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٤)].

وقال النجاشى -لما سمع القرآن-: «إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»[(٥)] وكذلك ورقة بن نوفل قال: «هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى بن عمران»[(٦)].

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤)، وأبو داود (٨٢٢)، والترمذى (٢٤٧)، والنسائى (٢/ ١٣٧، ١٣٨)، وابن ماجه (٨٣٧)، وأحمد (٥/ ٣١٤، ٣٢١، ٣٢٢)، والشافعى فى «الأم» (١٧١)، والدارمى (١٢٤٢)، وابن حبان فى «صحيحه» (١٧٨٩، ١٧٩٤)، والدارقطنى فى «سننه» (١/ ٣٢٢)، من حديث عبادة بن الصامت.

(٢) سورة هود: ١٧.

(٣) سورة الأحقاف: ١٠.

(٤) سورة الأحقاف: ٣٠.

(٥) صحيح: وقد تقدم.

(٦) صحيح: وقد تقدم.

وقال -تعالى-:

﴿قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾(١).

أي: التوراة والقرآن. وقالوا: ساحران تظاهرا، أي موسى ومحمد. وقالوا: إنا بكل كافرون.

قال الله:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢).

فقد بين أنه لم يأت من عند الله كتاب أهدى من التوراة والقرآن.

وقال -تعالى-:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(٣).

وأما قوله -تعالى-:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ...﴾(٤).

فهي صفة ثانية للذين يؤمنون بالغيب مجملاً، ثم وصفهم بإيمان مفصل بما أنزل إليك، وما أنزل من قبله. والعطف بالواو يكون لتغاير الذوات ويكون لتغاير الصفات كقوله تعالى:

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾(٥).

---

(١) سورة القصص: ٤٨.

(٢) سورة القصص: ٤٩.

(٣) سورة الأنعام: ٩١، ٩٢.

(٤) سورة البقرة: ٤.

(٥) سورة الأعلى: ١-٥.

والذى خلق فسوى هو الذى قدر فهدى وهو الذى أخرج المرعى، وكذلك قوله -تعالى-:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾(١).

ومثله قوله:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٢).

فهم صنف واحد وصفهم بهذه الصفات بحرف الواو، وكذلك فى قوله:

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾(٣).

وقد فسر قبل -قوله يؤمنون بالغيب، صفة المؤمنين من غير أهل الكتاب

---

(١) سورة الزخرف: ٩-١٢.

(٢) سورة المؤمنون: ١-١١.

(٣) سورة المعارج: ١٩-٣٥.

كمشـركى العرب، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قـبلك صفة من آمن به من أهل الكتاب.

وعلى هذا القـول: هؤلاء غـيـر هؤلاء، لكن هذا ضـعـيف فـإنه لابد فى المؤمنين من غير أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أنزل إليه، وما أنزل من قبله، ولابد فى مؤمن أهل الكتـاب أن يؤمن بالغيب. فكل من الإيمـانين واجب على كل واحد، ولا يكون أحد على هدى من ربه مفلحًا إلا بهذا وهذا.

وأما قول النصارى: نحن الذين آمنا بالسيـد المسيح وما رأيناه. فهكذا اليهود آمنوا بموسى عليه السلام وما رأوه. والمسلمون آمنوا بمحمد ﷺ وما رأوه، بل المسلمون آمنوا بموسى، وعيسى وسـائر النبيين، وما رأوهم بخلاف اليـهود والنصارى الذين آمنوا ببعض وكفروا ببـعض. ثم الغيب ليس المراد به صورة النبى عليه السلام فإن صورة النبى ليست من الـغيب فإن الناس يرونهـا وليس فى رؤيتها مـا يوجب إيمانًا ولا كفـرًا، ولكن الغيب ما غـاب عن مشاهدة الخلق وهو مـا أخبرت به الأنبـياء من الغيب فيدخل فيه الإيمان بالله، وملائكته وكتبه، ورسله، وهو الإيمان بأنهم رسل الله وسواء رؤيت أبدانهم أو لم تر فـقد يراهم من لم يؤمن برسالتـهم، وقد يؤمن برسالتهم من لم يرهم.

والمقصود الإيمـان برسالتهم لا بنفس صورهم حتى يقـول القائل: آمنا بنبى ولم نره وقد يعلم من دلائل نبـوته وأعلام رسالتـه من لم يره أكثر مما يعلمـها من رآه(١).

---

(١) وقد أورد الإمام القرافى هذه الشبهات فى كـتابه حيث قال: ومنها -أى من الأسئلة التى أوردها بعض النصارى-.
ومنها: أنه قال القـرآن دل على تعظيم الحواريين والإنجيل، وأنه غير مبـدل بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [سورة المائدة: ٤٨] وإذا قصدها لا تكون مبدلة، ولا يطرأ التغيير عليها بعد ذلك لشهرتها فى الأعصار والأمصار، فيتعذر تغيـيرها، ولقـوله تعالى فـى القرآن: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة: ١، ٢] والكتاب هو الإنجيل لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [سورة فاطر: ٢٥] والكتاب هاهنا هو الإنجيل، ولأنه تعالى لو أراد القرآن لم يقل ذلك، بل قال هذا، ولقوله تعالى ﴿آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ [سورة الشورى: ١٥]. =

. . . .

= والجواب: أن تعظيم الحـواريين لا نزاع فيـه، وأنهم من خواص عـباد الله الذين اتبـعوا عيسى عليه السلام، ولـم يبدلوا، وكانوا معتقـدين لظهور نبينا محمد ﷺ فى آخر الزمان على ما دلت عليه كتـبهم وإنما كفر وخالف الحادثون بعدهم: وأمـا تصديق القرآن لما بين يديه فمعناه: أن الكتب المتقدمة عند نزولها قـبل تغييرها وتخبيطها كانت حقًّا موافقة القرآن، والقـرآن موافق لهـا، وليس المراد الكتب الموجـودة اليوم فـإن لفظ التوراة والإنجـيل إنما ينصرفان إلى المنزلين وسأبين أن الموجود الآن غيرهمـا فى كثير من المعانى والوجوه: وأما قوله تـعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ وأنه المراد به الإنجـيل: فمن الافـتـراء العجـيب والتخـيل الغريب، بل أجمع المسلمون قاطبـة على أن المراد به القرآن ليس إلا وإذا أخبر الناطق بذا اللفظ، وهو رسول الله ﷺ أن المراد هذا الكتاب كيف يليق أن يحـمل على غيره، فإن كل أحد مصـدق فيما يدعـيه فى قول نفسـه إنما ينازع فى تفسير قول غـيره، إن أمكنت منازعته، وأما الإشارة بذلك التى اغتر بها هذا السائل فاعلم أن للإشارة ثلاثة أحوال: ذا للقريب، وذاك للمتـوسط، وذلك للبعيد، لكن البعـد والقرب يكون تارة بالزمان، وتارة بالمكان ، وتارة بالشرف، وتارة بالاسـتحالة، ولذلك قالت زليـخا فى حق يوسف عليه السلام بالحضرة: وقـد قطعن أيديهن من الدهش بحسنه، فذالكن الذى لمتننى فيه، إشـارة لبعده عليه السلام فى شرف الحـسن، وكذلك القـرآن الكريم لما عظمت رتبتـه فى الشرف أشيـر إليه بذلك، وقد أشيـر إليه بذلك لبعد مكانـه، لأنه مكتوب فى اللوح المحفوظ، وقـيل لبعد زمانه لأنه وعـد به فى الكتب المنزلة قديمًا، وقيل: لما كـان أصواتًا، والصوت يسـتحيل بقاؤه، فصار بسبب هذه الاستحالة في غاية البـعد ، لأن المستحيل أبلغ من البعيد: وأما قوله تعالى: ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٤].

فاعلم: أن اللام فى لسان العرب تكون لاستـغراق الجنس نحو حرم الله الخنزير والظلم، وللعهد نحـو قولك لمن رآك أهنت رجلاً أكرمت الرجل بعـد إهانته، ولها محامل كـثيرة ليس هذا موضعها فتحـمل فى كل مكان على ما يليق بها، فهى فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [سورة البقرة: ٢] للعهد، لأنه موعود به مـذكور على ألسنة الأنبياء -عليهم السلام- ، فصـار معلومًا فأشير إليه بلام العـهد وهى فى قوله تعالى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ﴾ للجنس إشارة إلى جميع الكتب المنزلة المتقـدمة، فليس هاهنا المتقدمة، ولا يمكن أن يفهم القرآن الكريم إلا من فهم لسان العرب فهـمًا متقنًا. وقوله تعالى لنبيه عليه السلام، فهـو أمر له بأن يـقول: ﴿آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ فـالمراد الكتب المنزلة لا المبدلة، وهذا لا يمتـرى فيه عاقل، ونحن ننازعهم فى مـا بأيديهم منزلة، بل هى مبدلة مغـيرة فى غاية الوهن والضـعف، وسقم الحفظ، والرواية والسنـد بحيث لا يوثق بشىء منها، وبيانه أن الأناجيل خمسة يعرف النصـارى منها أربعة مشهورة، والخامس لا يعرفه إلا القليل منهم، فالأربعـة: الأول: إنجيل متى، وهو من الحواريين الاثنى عـشر، وبشر بإنجيله باللغة السريانية بأرض فلسطين بعد صعود المسيح عليه السلام إلى السماء بثمان سنين،=

. . . .

= وعدة إصحاحاته ثمانية وستون إصحاحًا، وإنجيل مرقس، وهو من السبعين وبشر بإنجيله باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد صعود المسيح عليه السلام باثنتى عشرة سنة، وعدة إصحاحاته ثمانية وأربعون إصحاحًا، وإنجيل لوقا وهو من السبعين، وبشر بإنجيله بالإسكندرية باللغة اليونانية، وعدة إصحاحاته ثلاثة وثمانون إصحاحًا وإنجيل يوحنا، وهو من الاثنى عشر بشر بإنجيله فى مدينة أقسس من بلاد رومية بعد صعود المسيح عليه السلام بثلاثين سنة، وعدة إصحاحاته فى النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون إصحاحًا، الإنجيل الخامس يسمى إنجيل الصبوة ذكر فيه الأشياء التى صدرت من المسيح فى حال طفولته ينسب لبطرس عن مريم -عليها السلام-، وفيه زيادة ونقصان، وقد ترك فيه كثيرًا من أعلام المسيح عليه السلام ومشاهير معجزاته، ويذكر فيه قدوم المسيح عليه السلام ، وأمه رضي الله عنها ويوسف النجار إلى صعيد مصر، ثم عودته إلى ناصرة قرية عند المقدس، وإليها ينسب النصارى، وفى هذه الأناجيل الأربعة من التناقض والتعارض والتكاذب ومصادمة بعضها لبعض أمر عظيم حتى أن من وقف عليها يشهد بصريح عقله أنها ليست الإنجيل المنزل من عند الله تعالى، وأن أكثره من أقوال الرواة وأقاصيصهم، وإن نقلته أفسدوه بما ألحقوا فيه من حكايات وأمور غير مسموعة من المسيح عليه السلام ، ولا من أصحابه مثال حكاية صورة الصلب والقتل واسوداد الشمس، وتغيير لون القمر، وانشقاق الهياكل، وهذه الأمور إنما جرت فى زعمهم بعد المسيح عليه السلام بسبب قتله، فكيف تجعل من الإنجيل، والإنجيل الحق إنما هو الذى نطق به المسيح عليه السلام ، وإذا كان كذلك انخرمت الثقة بهذا الإنجيل لاسيما وهو أربعة، والمنزل واحد، وهذه الأربعة أمليت فى أقطار متباعدة بلغات مختلفة، وأقلام متباينة مع أن كل واحد منها ذكر من الأقاصيص والحكايات ما لم يذكره الآخر، فليت شعرى أى شىء منها، أو فيها هو المنزل من عند الله تعالى، والمنزل واحد بلغة واحدة على نظام واحد ثم إن لوقا ومرقس ليسا من الحواريين، بل نقلا عن غيرهما عن المسيح عليه السلام فهما نقلا كلام غير المسيح عليه السلام ، والحجة إنما هى فى كلامه عليه السلام ، فلا حجة فى هذين الإنجيلين البتة، وقد قال لوقا فى صدر إنجيله إن أناسًا راموا ترتيب الأمور التى نحن بها عارفون، كما عهد إلينا أولئك الصفوة الذين كانوا خدامًا للكلمة، فرأيت أنا إذ كنت تابعًا أن أكتب إليك أيها الأخ العزيز تأويلاً تعرف به حقائق الأمر الذى وعظت به فقد اعترف أنه لم يلق المسيح عليه السلام ، ولا خدمه، وإنما كتابه تأويلات جمعها مما وعظ به خدام الكلمة اهـ. «الأجوبة الفاخرة» (١٩-٢٢).

فصل

وأما قوله في سورة المائدة:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

فهذا ثناء منه على المسيح والإنجيل وأمر للنصارى بالحكم بما أنزل فيه، كما أثنى على موسى والتوراة بأعظم ما عظم به المسيح والإنجيل فقال -تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ...﴾(٢).

أي: قائلون للكذب مصدقون مستجيبون مطيعون لقوم آخرين لم يأتوك فهم مصدقون للكذب مطيعون لمن يخالفك وأنت رسول الله.

فكل من تصديق الكذب والطاعة لمن خالف رسول الله ﷺ من أعظم الذنوب.

ولفظ «السميع»: يراد به الإحساس بالصوت ويراد به فهم المعنى ويراد به قبوله فيقال: فلان سمع ما يقول فلان. أي: يصدقه أو يطيعه ويقبل منه.

فقوله سماعون للكذب أي: مصدقون به وإلا مجرد سماع صوت الكاذب وفهم كلامه ليس مذمومًا على الإطلاق.

وكذلك سماعون لقوم آخرين لم يأتوك أي: مستجيبون لهم مطيعون. كما قال في حق المنافقين: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾(٣)، أي: مستجيبون مطيعون لهم،

---

(١) سورة المائدة: ٤٦، ٤٧.

(٢) سورة المائدة: ٤١.

(٣) سورة المائدة: ٤١.

ومن قال: إن المراد به الجاسوس فهو غالط كغلط من قال سماعون لهم: هم الجواسيس، فإن الجاسوس إنما ينقل خبر القوم إلى من لا يعرفه، ومعلوم أن النبي ﷺ كان ما يذكره ويأمر به ويفعله يراه ويسمعه كل من بالمدينة مؤمنهم ومنافقهم، ولم يكن يقصد أن يكتم يهود المدينة ما يقوله ويفعله خلاف من كان يأتيه من اليهود وهم يصدقون الكذب ويطيعون لليهود الآخرين الذين لم يأتوه، والله نهى نبيه ﷺ أن يحزنه المسارعون فى الكفر من هاتين الطائفتين المنافقين الذين أظهروا الإيمان به ولم تؤمن قلوبهم ومن أهل الكتاب الذين يطلبون أن يحكم بينهم وليس مقصودهم أن يطيعوه ويتبعوا حكمه بل إن حكم بما يهوونه قبلوه، وإن حكم بخلاف ذلك لم يقبلوه لكونهم مطيعين لقوم آخرين لم يأتوه.

قال -تعالى-:

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾(١).

أى: لم يأتك أولئك القوم الآخرين «يقولون»، أى: يقول السماعون:

﴿... إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

والحكم يفتقر إلى الصدق والعدل فلابد أن يكون الشاهد صادقًا والحاكم عادلاً وهؤلاء يصدقون الكاذبين من الشهود ويتبعون حكم المخالفين للرسل الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، وإذا لم يكن قصدهم اتباع الصدق والعدل فليس عليك أن تحكم بينهم، بل إن شئت فاحكم بينهم، وإن شئت فلا تحكم.

ولكن إذا حكمت فلا تحكم إلا بما أنزل الله إليك، إذ هو العدل.

قال -تعالى-:

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٣).

---

(١)، (٢) سورة المائدة: ٤١.

(٣) سورة المائدة: ٤٢.

ثم قال:

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(١).

فهذا ثناؤه على التوراة، وإخباره أن فيها حكم الله، وأنه أنزل التوراة، وفيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، وقال عقب ذكرها:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٢).

وهذا أعظم مما ذكره فى الإنجيل، فإنه قال فى الإنجيل:

﴿ ... وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ... ﴾(٣).

وقال فيه:

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٤).

وقال فى التوراة:

﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾.

وقال عقب ذكرها:

﴿ ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة المائدة: ٤٣-٤٥.

(٢) سورة المائدة: ٤٤.

(٣) سورة المائدة: ٤٦.

(٤) سورة المائدة: ٤٧.

(٥) سورة المائدة: ٤٤.

فهو -سبحانه- مع إخباره بإنزال الكتابين يصف التوراة بأعظم مما يصف به الإنجيل.

كما قال -تعالى-:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا...﴾(١).

وإذا كان ما ذكره من مدح موسى والتوراة لم يوجب ذلك مدح اليهود الذين كذَّبوا المسيح ومحمداً ﷺ، وليس فيه ثناء على دين اليهود المبدل المنسوخ باتفاق المسلمين والنصارى، فكذلك أيضًا ما ذكره من مدح المسيح والإنجيل ليس فيه مدح النصارى الذين كذبوا محمداً ﷺ وبدلوا أحكام التوراة والإنجيل، واتبعوا المبدل المنسوخ، واليهود توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح للنصارى، والنصارى توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح لليهود بعد النسخ والتبديل. فعلم اتفاق أهل الملل كلها: المسلمون، واليهود والنصارى، على أنه ليس فيما ذكر فى القرآن من ذكر التوراة والإنجيل، وموسى، وعيسى مدح لأهل الكتاب الذين كذبوا محمداً ﷺ، ولا مدح لدينهم المبدل قبل مبعثه فليس فى ذلك مدح لمن تمسك بدين مبدل، ولا بدين منسوخ، فكيف بمن تمسك بدين مبدل منسوخ؟

• • •

(١) سورة المائدة: ٤٤.

فصل
[قيام الحجة بعد بلوغ الرسالة]

وهنا أصل لابد من بيانه وهو أنه قد دلت النصوص على أن الله لا يعذب إلا من أرسل إليه رسولاً تقوم به الحجة عليه.

قال -تعالى-:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

وقال -تعالى-:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[2].

وقال -تعالى- عن أهل النار:

﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ...﴾[3].

وقال:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[4].

وقال -تعالى-:

---

(١) سورة الإسراء: ١٣-١٥.

(٢) سورة النساء: ١٦٥.

(٣) سورة الملك: ٨، ٩.

(٤) سورة الزمر: ٧١.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً...﴾.

إلى قوله:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾(٤).

(وقوله):

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٥).

وإذا كان كذلك فمعلوم أن الحجة إنما تقوم بالقرآن على من بلغه كقوله: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾(٦)، فمن بلغه بعض القرآن دون بعض قامت عليه الحجة

---

(١) سورة الأنعام: ١٣٠.

(٢) سورة القصص: ٥٩.

(٣) سورة القصص: ٤٧، ٤٨.

(٤) سورة المائدة: ١٥.

(٥) سورة المائدة: ١٩.

(٦) سورة الأنعام: ١٩.

بما بلغه دون ما لم يبلغه، فإذا اشـتبه معنى بعض الآيات، وتنازع الناس فى تأويل الآية، وجب رد ما تنازعـوا فيه إلى الله ورسـوله، فإذا اجـتهد الناس فى فـهم ما أراده الرسول فالمـصيب له أجران والمخطئ له أجر فـلا يمنع أن يقال ذلك فى أهل الكتاب قبلنا فمن لم يبلغه جميع نصوص الكتاب قبلنا، لم تقم عليه الحجة إلا بما بلغه ومـا خفى عليهم معناه منه فـاجتهد فى مـعرفته فإن أصــاب فله أجران. وإن أخطأ فله أجر وخطأه محطـوط عنه. فأما من تعمد تحريـف الكتاب لفظه أو معناه وعرف ما جاء به الرسول فعانده فهذا مستحق للعقاب، وكذلك من فرَّط فى طلب الحق واتباعه متبعًا لهواه مشتغلاً عن ذلك بدنياه.

وعلى هذا، فـإذا كان بعض أهل الكتاب قـد حرفـوا بعض الكتاب وفـيهم آخرون لم يعلمـوا ذلك فهم مجـتهدون فـى اتباع ما جـاء به الرسول لم يجب أن يجعل هؤلاء من المستـوجبين للوعيد، وإذا جـاز أن يكون فى أهل الكتاب من لم يعرف جمـيع ما جاء به المسيح، بل خـفى عليه بعض ما جاء به أو بعض مـعانيه فاجتهـد لم يعاقب على ما لم يبلغه. وقد تحمل أخبـار اليهود الذين كانوا مع تبع والذين كانوا ينتظرون الإيمان بمحمد ﷺ من أهل المدينة كابن التيهان وغيره على هذا، وإنهم لم يكونوا مكذبين للمسيح تكذيب غيرهم من اليهود.

وقد تنازع الناس هل يمكن مع الاجتهـاد واستفراغ الوسع أن لا يبيِّن للناظر المستدل صدق الرسول أم لا؟.

وإذا لم يبيِّن له ذلك هل يستحق العقوبة فى الآخرة أم لا؟

وتنازع بعض الناس فى المقلد منهم أيضًا والكلام فى مقامين:

المقام الأول: فى بيـان خطأ المخالف للحق وضـلاله. وهذا مما يعلم بطرق متعددة عقليـة وسمعية، وقد يعرف الخطأ فى أقوال كثـيرة من أهل القبلة المخالفين للحق، وغير أهل القبلة بأنواع متعددة من الدلائل.

والمقام الثاني: الكلام فى كفرهم واستحقاقهم الوعيد فى الآخرة.

فهذا فيـه ثلاثة أقوال للناس من أصحاب الأئمة المشهـورين مالك والشافعى وأحمد لهم الأقوال الثلاثة.

قيل: إنه يعذب فى النار من لم يؤمن وإن لم يرسل إليه رسـول لقيام الحجة

عليه بالعقل، وهذا قول كثير ممن يقول بالحكم العقلى من أهل الكلام والفقه من أصحاب أبى حنيفة وغيرهم، وهو اختيار أبى الخطاب.

وقيل: لا حجة عليه بالعقل، بل لا يجوز أن يعذب من لم يقم عليه حجة لا بالشرع، ولا بالعقل، وهذا قول من يجوِّز تعذيب أطفال الكفار ومجانينهم، وهذا قول كثير من أهل الكلام كالجهم، وأبى الحسن الأشعرى وأصحابه، والقاضى أبى يعلى، وابن عقيل وغيرهم.

والقول الثالث: وعليه السلف والأئمة: إنه لا يعذب إلا من بلغته الرسالة، ولا يعذب إلا من خالف الرسل كما دل عليه الكتاب والسنة.

قال -تعالى- لإبليس:

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١).

وإذا كان كذلك فنحن فيما نناظر فيه أهل الكتاب: متقدميهم ومتأخريهم، تارة نتكلم فى المقام الأول، وهو بيان مخالفتهم للحق وجهلهم وضلالهم، فهذا تنبيه لجميع الأدلة الشرعية والعقلية وتارة نبيِّن كفرهم الذى يستحقون به العذاب فى الدنيا والآخرة، فهذا أمره إلى الله ورسوله لا يتكلم فيه إلا بما أخبرت به الرسل، كما أنّا أيضًا لا نشهد بالإيمان والجنة إلا لمن شهدت له الرسل، ومن لم تقم عليه الحجة فى الدنيا بالرسالة كالأطفال والمجانين وأهل الفترات فهؤلاء فيهم أقوال أظهرها ما جاءت به الآثار أنهم يمتحنون يوم القيامة فيبعث الله إليهم من يأمرهم بطاعته، فإن أطاعوه استحقوا الثواب، وإن عصوه استحقوا العقاب(٢).

---

(١) سورة ص: ٨٥.

(٢) أخرج أحمد (٤/ ٢٤)، عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال: «**أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات فى فترة فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا.**

وأما الأحمق فيقول: رب جاء الإسلام وما أعقل شيئًا، والصبيان يحذفوننى بالبعر.

وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا.

وأما الذى مات فى الفترة فيقول: رب ما أتانى لك رسول.

فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم: أن ادخلوا النار. فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن لم يدخلها سُحب إليها».

قال الحافظ ابن كثير فى «تفسيره» (٣/ ٢٩): إسناده صحيح. وصححه أيضًا الألبانى فى «صحيح الجامع» (٨٨١)، وذكر له شواهد فى «الصحيحة» (١٤٣٤، ٢٤٦٨). =

وإذا كان كذلك فنحن نشهد لمن كان مؤمنًـا بموسى متبعًا له أنه مؤمن مسلم مستحق للثواب.

وكذلك من كـان مؤمنًا بالمسـيح متبـعًا له. ونشهـد لمن قامت عليه الحـجة بموسى فلم يتبعه كآل فرعون أنهم من أهل النار.

وكذلك من قامت عليه الحجة بالمسيح الذين قال الله فيهم:

﴿ ... قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾(١).

والذين قال فيهم:

﴿ ... يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾(٢).

وأما من بعد عهده بالمسيح وبلغته بعض أخباره دون بعض، أو بموسى وبلغه أخباره دون بعض، فهـؤلاء قامت عليهم الحجة بما بلغهـم من أخبارهم دون ما لم يبلغهم من أخبارهم، وإذا اختلفوا فى تأويل بعض التوراة والإنجيل فمن قصد الحق واجتهد فى طلبه لم يجب أن يعذب، وإن كان مخطئًا للحق جاهلاً به ضالاً عنه، كالمجتهد فى طلب الحق من أمة محمد ﷺ.

وعلى هذا فإذا قيل: إن الحواريين، أو بعضـهم، أو كثيرًا من أهل الكتاب، أو أكثرهم كانوا يعتقدون أن المسيح نفسه صلب. كانوا مخطئين فى ذلك ولم يكن هذا الخطأ مما يقدح فـى إيمانهم بالمسيح إذا آمنوا بما جـاء به، ولا يوجب لهم النار فإن الأناجيل التى بأيدى أهل الكتاب فيهـا ذكر صلب المسيح وعندهم أنها مأخوذة عن الأربعة:

= قلت: فى الحديث أن أهل الفـترة هم الذين لم تبلغهم الدعوة، ولا يخـتص ذلك بزمان دون زمان، والله أعلم.

(١) سورة المائدة: ١١٥.

(٢) سورة آل عمران: ٥٥-٥٧.

مرقس، ولوقا، ويوحنا، ومتى. ولم يكن فى الأربعة من شهد صلب المسيح ولا من الحواريين، بل ولا فى أتباعه من شهد صلبه، وإنما الذين شهدوا الصلب طائفة من اليهود فمن الناس من يقول: أنهم علموا أن المصلوب غيره وتعمدوا الكذب فى أنهم صلبوه وشبه صلبه على من أخبروهم. وهذا قول طائفة من أهل الكلام: المعتزلة وغيرهم وهو قول ابن حزم وغيره. ومنهم من يقول: بل اشتبه على الذين صلبوه، وهذا قول أكثر الناس، والأولون يقولون أن قوله:

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ... ﴾(١).

أى: شبه للناس الذين أخبرهم أولئك بصلبه.

الجمهور يقولون: بل شبه للذين يقولون صلبوه كما قد ذكرت القصة فى غير هذا الموضع. والمقصود هنا أن الناس فى هذا المقام على طرفين ووسط.

أما الطرف الواحد: فهم الغلاة من النصارى الذين يدعون أن الحواريين كانوا معصومين فيما يقولونه ويروونه ويرونه، وكذلك يقولون بتصويب علماء النصارى فيما يقولونه من تأويل الإنجيل.

والطرف الآخر يقول: بل كل من غلط وأخطأ فى شىء من ذلك فإنه مستحق للوعيد بل كافر.

والثالث، الوسط: أنهم لا يعصمون، ولا يؤثمون بل قد يكونون مخطئين خطأ مغفورًا لهم إذا كانوا مجتهدين فى معرفة الحق واتباعه بحسب وسعهم وطاقتهم، وعلى هذا تدل الأدلة الصحيحة وكتب الله تدل على ذم الضال والجاحد ومقته مع أنه لا يعاقب إلا بعد إنذاره.

وقد ثبت فى الصحيح عن عياض بن حمار، عن النبى ﷺ أنه قال: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»(٢).

فأخبر أنه مقتهم إلا هؤلاء البقايا، والمقت هو البغض بل أشد البغض ومع هذا فقد أخبر فى القرآن أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولاً، فقال: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(٣).

---

(١) سورة النساء: ١٥٧.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢، ٢٦٦)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١٣٨٢).
(٣) سورة الإسراء: ١٥.

وقال:

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى ﴾(١).

فـدل ذلك على أن المقتـضى لعـذابهم قائم ولـكن شرط العـذاب هو بلوغ الرسالة، ولهذا قال:

﴿ ... لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ... ﴾(٢).

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «**ما أحد أحب إليـه العذر من الله، من أجل ذلك، أرسل الرسل، وأنزل الكتب**».

وفى رواية: «**من أجل ذلك، بعث الرسل مبشـرين ومنذرين، وما أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلـك مدح نفسـه، وما أحد أغـير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»(٣).

وقد تنازع الـناس فى حسن الأفعـال وقبـحها كـحسن العـدل والتوحـيد، والصـدق، وقـبح الظلم، والشـرك، والكذب: هل يعـلم بالعـقل أم لا يعلم إلا بالسمع، وإذا قيل: أنه يعلم بالعقل فهل يعاقب من فعل ذلك قبل أن يأتيه رسول؟ على ثلاثة أقوال معروفة فى أصحاب الأئـمة وغيرهم، وهى ثلاثة أقوال لأصحاب الإمام أحمد وغـيرهم. فقالت طائفة لا يعـرف ذلك إلا بالشرع لا بالعقل، وهذا قول نظار المجـبرة كـالجهم بن صفـوان وأمثاله، وهو قـول أبى الحسن الأشـعرى وأتباعه من أصحاب الأئمة الأربعة كالقاضى أبى بكر بن الطيب، وأبى عبد الله بن حامد، والقاضى أبى يعلى، وأبى المعالى، وأبى الوفـاء بن عقيل وغيرهم، وقيل: بل قد يعلم حسن الأفعال وقبحها بالعقل.

قال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد: وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين.

وهذا هو المنقول عن أبى حنـيفة نفسـه، وعليه عامـة أصحابه، وكثـير من أصحاب مالك، والشـافعى، وأحمد، وأهل الحديث كأبى الحـسن التميمى، وأبى الخطاب، وأبى بكر القـفال، وأبى نصـر السـجزى، وأبى القـاسم سعـد بن على

---

(١) سورة طه: ١٣٤.

(٢) سورة النساء: ١٦٥.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

الزنجانى، وهو قول الكرامية وغيرهم من نظار المثبتة للقدر، وهو قول المعتزلة وغيرهم من نظار القدرية، ثم هؤلاء على قولين:

منهم من يقول: يستحقون عذاب الآخرة بمجرد مخالفتهم للعقل كقول: المعتزلة، والحنفية، وأبى الخطاب، وقول هؤلاء مخالف للكتاب والسنة.

ومنهم من يقول: بل لا يعذبون حتى يبعث إليهم رسول كما دل عليه الكتاب والسنة. لكن أفعالهم تكون مذمومة ممقوتة يذمها الله ويبغضها ويوصفون بالكفر الذى يذمه الله ويبغضه، وإن كان لا يعذبهم حتى يبعث إليهم رسولاً، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح كما تقدم: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وإن ربى قال لى: قم فى قريش فأنذرهم. قلت: إذًا يثلغوا**[١] **رأسى حتى يدعوه خبزة**.

قال: «**إنى مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرأه نائمًا ويقظان فابعث جندًا أبعث مثليهم، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، وأنفق أنفق عليك**»[٢].

وقال: «**إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين. وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمَرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانًا**»[٣].

وقال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح: «**كل مولود يولد على الفطرة**».

وفى رواية: «على هذه الملة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء». ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «اقرءوا إن شئتم: فطرة الله التى فطر الناس عليها. قيل: يا رسول الله أرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير؟ قال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[٤] ومع مقت الله لهم، فقد أخبر أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولاً. وهذا يدل

---

(١) يثلغوا: أى يشدخوه ويشجوه كما يشدخ فى الخبز أى يكسر. «شرح مسلم للنووى» (١٧/ ١٦٧).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢، ٢٦٦)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١٣٨٢) من حديث عياض بن حمار.

(٣) صحيح: هو جزء من حديث عياض بن حمار السابق.

(٤) صحيح بنحوه: أخرجه البخارى (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، وأبو داود (٤٧١٤)، والترمذى (٢١٤٥).

على إبطال قول من قــال أنهم لم يكونوا مسيئـين، ولا مرتكبين لقبـيح حتى جاء السمع. وقول من قال: أنهم كانوا معذبين بدون السمع إما لقيام الحجة بالعقل كما يقوله من يقوله من القدرية وإما لمحض المشيئة، كما يقوله المجبرة.

قال -تعالى-:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾(٣).

فهذا يبـين أنه لم يكن ليعذب الكفار حتى يبـعث إليهم رسولاً، وبين أنهم قبل الرسول كانوا قد اكتسبوا الأعمال التى توجب المقت والذم وهى سبب للعذاب لكن شرط العذاب قيام الحجة عليهم بالرسالة.

• • •

(١) سورة القصص: ٥٩.
(٢) سورة القصص: ٤٧.
(٣) سورة طه: ١٣٤.

فصل

[أسباب ضلال النصارى وأمثالهم]

ومما ينبغي أن يعلم أن سبب ضلال النصارى وأمثالهم من الغالية كغالية العباد والشيعة وغيرهم ثلاثة أشياء:

أحدها: ألفاظ متشابهة مجملة مشكلة منقولة عن الأنبياء، وعدلوا عن الألفاظ الصريحة المحكمة وتمسكوا بها، وهم كلما سمعوا لفظًا لهم فيه شبهة تمسكوا به وحملوه على مذهبهم وإن لم يكن دليلاً على ذلك. والألفاظ الصريحة المخالفة لذلك إما أن يفوضوها، وإما أن يتأولوها كما يصنع أهل الضلال، يتبعون المتشابه من الأدلة العقلية والسمعية ويعدلون عن المحكم الصريح من القسمين.

والثاني: خوارق ظنوها آيات وهي من أحوال الشياطين، وهذا مما ضل به كثير من الضلال المشركين وغيرهم مثل دخول الشياطين في الأصنام وتكليمها للناس. ومثل إخبار الشياطين للكهان بأمور غائبة، ولابد لهم مع ذلك من كذب، ومثل تصرفات تقع من الشياطين.

والثالث: أخبار منقولة إليهم ظنوها صدقًا وهي كذب، وإلا فليس مع النصارى ولا غيرهم من أهل الضلال على باطلهم لا معقول صريح ولا منقول صحيح، ولا آية من آيات الأنبياء. بل إن تكلموا بمعقول تكلموا بألفاظ متشابهة مجملة. فإذا استفسروا عن معاني تلك الكلمات، وفُرِّق بين حقها وباطلها تبين ما فيها من التلبيس والاستثناء.

وإن تكلموا بمنقول: فإما أن يكون صحيحًا لكن لا يدل على باطلهم.

وإما أن يكون غير صحيح ثابت بل مكذوب.

وكذلك ما يذكرونه من خوارق العادات: إما أن يكون صحيحًا قد ظهر على يد نبي كمعجزات المسيح ومن قبله كإلياس واليسع وغيرهما من الأنبياء، وكمعجزات موسى ﷺ فهذه حق.

وإما أن تكون قد ظهرت على يد بعض الصالحين، كالحواريين، وذلك لا

يستلزم أن يكونوا مـعصومين كـالأنبياء، فإن الأنبـياء معصـومون فيمـا يبلغونه لا يتصور أن يقـولوا على الله إلا الحق، ولا يستقر فى كلامـهم باطل، لا عمداً ولا خطأ.

وأما الصالحـون: فقد يغلط أحدهم ويخطئ مع ظهـور الخوارق على يديه، وذلك لا يخرجه عن كونه رجلاً صالحًا، ولا يوجب أن يكون معصومًا إذا كان هو لم يدَّعِ العـصمـة، ولم يأت بالآيات دالة على ذلك، ولو ادعى العـصمـة وليس بنبى، لكان كاذبًا لابد أن يظهر كـذبه وتقترن به الشياطين فـتضله ويدخل فى قوله -تعالى-:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[(١)].

والنصارى عندهم منقول فى الأناجيل أن الذى صلب[(٢)] ودفن فى القبر رآه بعض الحواريين وغـيرهم بعد أن دفن، قام من قبـره رأوه مرتين أو ثلاثًا، وأراهم موضع المسامير، وقال: لا تظنوا أنى شيطان.

وهذا إذا كان صحيحًا فـذاك شيطان ادعى أنه المسيح، والتبس على أولئك، ومثل هذا قـد جرى لخلق عظيـم فى زماننا، وقبل زمـاننا، كناس كانـوا بـ«تدمر» فرأوا شخصـًا عظيمًا طائرًا فى الهواء، وظهر لهم مـرات بأنواع من اللباس، وقال لهم: أنا المسـيح ابن مـريم، وأمـرهم بأمـور يمتنـع أن يأمر بهـا المسـيح عليه السلام، وحضروا إلى عند الناس وبينوا لهم أن ذلك هو شيطان أراد أن يضلهم.

وآخرون يأتى أحـدهم إلى قبـر من يعظمه ويحـسن به الظن من الصـالحين وغيـرهم، فتارة يرى القبـر قد انشق وخرج منه إنسـان على صورة ذلك الرجل، وتارة يرى ذلك الإنسان قد دخل فى القـبر، وتارة يراه إما راكبًا وإما مـاشيًا داخلاً إلى مكان ذلك الميت كالـقبة المبنيـة على القبر، وتارة يراه خـارجًا من ذلك المكان ويظن أن ذلك هو ذلك الرجل الصـالح، وقد يظن أن قـومًا اسـتغاثوا بـه فذهب إليهم، ويكون ذلك شيطانًا تـصور بصورته. وهذا جرى لغير واحـد ممن أعرفهم، وتارة يسـتغيث أقـوام بشخص يـحسنون به الظن إمـا ميت وإمـا غائب، فـيرونه

(١) سورة الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢.

(٢) ذكر صلب المسيح عليه السلام فى إنجيل مـتى إصحاح (٢٨)، وإنجيل مـرقس إصحاح (١٦)، وإنجيل لوقا إصحاح (٢٤).

بعيونهم قد جاء وقد يكلمهم وقد يقضى بعض حاجاتهم فيظنونه ذلك الشخص الميت، وإنما هو شيطان زعم أنه هو، وليس هو إياه، وكثيراً ما يأتى الشخص بعد الموت فى صورة الميت، فيحدثهم ويقضى ديونًا، ويرد ودائع ويخبرهم عن الموتى، ويظنون أنه هو الميت نفسه قد جاء إليهم، وإنما هو شيطان تصور بصورته.

وهذا كثير جداً لا سيما فى بلاد الشرك، كبلاد الهند ونحوها، *ومن هؤلاء من تراه أنت تحت سريره آخذ بيد ابنه فى الجنازة، ومنهم من يقول: إذا مت فلا تدعوا أحداً يغسلنى فأنا آتى من هذه الناحية أغسل نفسى، فيأتى بعد الموت شخص فى الهواء على صورته يغسله هو والذى أوصاه، ويظن ذلك أنه جاء، وإنما هو شيطان تصور بصورته*، وتارة يرى أحدهم شخصًا إما طائراً فى الهواء وإما عظيم الخلقة، وإما أن يخبره بأشياء غائبة ونحو ذلك، ويقول له: أنا الخضر، ويكون ذلك شيطانًا كذب على ذلك الشخص، وقد يكون الرائى من أهل الدين والزهد والعبادة، وقد جرى هذا لغير واحد، وتارة يرى عند قبر نبى أو غيره، أن الميت قد خرج إما من حجرته، وإما من قبره وعانق ذلك الزائر وسلم عليه، ويكون شيطانًا تصور بصورته، وتارة يجىء من يجىء إلى عند قبر ذلك الشخص فيستأذنه فى أشياء: ويسأله عن أمور فيخاطبه شخص يراه أو يسمع صوتًا، ولا يرى شخصًا، ويكون ذلك شيطانًا أضله.

وقد يرى أشخاصًا فى اليقظة، إما ركبانًا، وإما غير ركبان، ويقولون: هذا فلان النبى، إما إبراهيم، وإما المسيح، وإما محمد، وهذا فلان الصديق إما أبو بكر وإما عمر، وإما بعض الحواريين.

وهذا فلان لبعض من يعتقد فيه الصلاح إما جرجس، أو غيره ممن تعظمه النصارى. وإما بعض شيوخ المسلمين، ويكون ذلك شيطانًا ادعى أنه ذلك النبى، أو ذلك الشيخ، أو الصديق، أو القديس.

ومثل هذا يجرى كثيراً لكثير من المشركين والنصارى، وكثير من المسلمين، ويرى أحدهم شيخًا يحسن به الظن، ويقول: أنا الشيخ فلان، ويكون شيطانًا. وأعرف من هذا شيئًا كثيراً وأعرف غير واحد ممن يستغيث ببعض الشيوخ الغائبين، والموتى، يراه قد أتاه فى اليقظة وأعانه.

وقد جرى مثل هذا لى ولغيرى ممن أعرفه، ذكر غير واحد أنه استغاث بى

من بلاد بعـيدة، وأنه رآنـى قد جـئتـه. ومنهم من قـال: رأيتك راكـبًا بلبـاسك وصـورتك، ومنهم من قـال: رأيتـك على جـبل، ومنهم من قـال: غـيـر ذلك فأخـبرتهم أنى لم أغثـهم، وإنما ذلك شيطان تصـور بصورتى ليضلهم لما أشـركوا بالله، ودعوا غير الله.

وكذلك غير واحـد ممن أعرفه من أصحابنا استـغاث به بعض من يحسن به الظن، فرآه قـد جاءه وقـضى حاجتـه، قال صاحـبى: وأنا لا أعلم بذلك، ومن هؤلاء الشيوخ مـن يقول: إنه يسمع صوت ذلك الشـخص المستغيث به ويجـيبه، وتكون الشياطين أسمعتـه صوتًا يشبه صوت الشيخ *المستغيث به، فأجابه الشيخ بصوته فأسمعت المستغيث صوتًا يشبه صوت الشيخ، فيظن أنه صوت الشيخ*.

وهذا جرى لمـن أعرفه وأخـبر بذلك عن نفـسه، ، وقـال: بقى الجنى الذى يحدثنى يبلغنى مثل صوت المستغـيثين بى، ويبلغهم مثل صوتى، ويرينى فى شىء أبيض نظير مـا أسأل عنه، فأخبـر به الناس أنى رأيته، وأنه سيأتـى، ولا أكون قد رأيته، وإنما رأيت شبيهه.

وهكذا تفعل الجن بمن يعزم عليهم ويقسم عليهم.

وكذلك مـا رآه قسطنطين من الصليب الذى رآه من نجـوم، والصليب الذى رآه مـرة أخـرى هو مما مـثله الشـياطـين، وأراهم ذلك ليـضلهم به، كم فـعلت الشياطين ما هو أعظم من ذلك بعباد الأوثان.

وكذلك من ذكـر أن المسيح جاءه فى الـيقظة وخاطبـه بأمور كمـا يذكر عن بولس فإنه إذا كان صادقًا كـان ذلك الذى رآه فى اليقظة وقال: إنه المسيح، شيطانًا من الشياطين، كما جرى *مثل ذلك* لغير واحد.

والشيـطان إنما يضل الناس ويغويهم بما يظـن أنهم يطيعـونه فيـه فيخـاطب النصـارى بما يوافق دينهم، ويخـاطب من يخاطب من ضـلال المسلمـين بما يوافق اعتقاده، وينقله إلى ما يستجيب لهم فيه بحسب اعتقادهم.

ولهذا يتـمثل لمن يسـتغيث من النصـارى بجرجس فى صـورة جرجس، أو بصورة من يستـغيث به النصارى من أكابر دينهم، إمـا بعض البطاركة، وإما بعض المطارنة وإما بعض الرهبان. ويتمثل لمن يسـتغيث به من ضلال المسلمين بشيخ من الشيوخ فى صورة ذلك الـشيخ، كما تمثل لجماعة ممن أعـرفهم فى صورتى، وفى

صورة جماعة من الشيوخ الذين ذكروا فى ذلك، ويتمثل كثيرًا فى صورة بعض الموتى: تارة يقول: أنا الشيخ عبد القادر، وتارة يقول: أنا الشيخ أبو الحجاج الأقصرى، وتارة يقول: أنا الشيخ عدى، وتارة يقول: أنا أحمد بن الرفاعى، وتارة يقول: أنا أبو مدين المغربى، وإذا كان يقول: أنا المسيح، أو إبراهيم، أو محمد:

فغيرهم بطريق الأولى، والنبى ﷺ قال: «**من رآنى فى المنام فقد رآنى حقًا، فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى**»(١). وفى رواية «**فى صورة الأنبياء**».

فرؤيا الأنبياء فى المنام حق. وأما رؤية الميت فى اليقظة فهذا جنى تمثل فى صورته.

وبعض الناس يسمى هذا روحانية الشيخ، وبعضهم يقول: هى رفيقه، وكثير من هؤلاء يرى يقوم من مكانه ويدع فى مكانه صورة مثل صورته، وكثير من هؤلاء، ومن هؤلاء من يقول يرى فى مكانين، ويرى واقفًا بعرفات. وهو فى بلده لم يذهب، فيبقى الناس الذين لا يعرفون حائرين.

فإن العقل الصريح يعلم أن الجسم الواحد لا يكون فى الوقت الواحد فى مكانين.

والصادقون قد رأوا ذلك عيانًا لا يشكون فيه، ولهذا يقع النزاع كثيرًا بين هؤلاء وهؤلاء، كما قد جرى ذلك غير مرة.

وهذا صادق فيما رأى وشاهد، وهذا صادق فيما دل عليه العقل الصريح.

لكن ذلك المرئى، كان جنيًا تمثل بصورة الإنسان.

والحسيات إن لم يكن معها عقليات تكشف حقائقها وإلا وقع فيها غلط كبير.

وهذا القسم المشهود فى الخارج غير ما يتخيله الإنسان فى نفسه، فإن هذا يعرفه جميع الناس، ويصوبه جميع العقلاء، يتخيلون أشياء فى أنفسهم، كما يتخيله النائم فى منامه، وتكون تلك الصورة موجودة فى الخيال لا فى الخارج.

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٧)، وأبو داود (٥٠٢٣)، وابن ماجه (٣٩٠١)، من حديث أبى هريرة.

والفلاسفة وسائر العقلاء يعترفـون بهذا، لكن كثير من الفلاسفة يظن أن ما رأته الأنبياء من الملائكة، وما سمعته من الكلام كان من هذا النوع، ويظنون أن ما يرى من الجن هو من هذا النوع، وهؤلاء جـهـال غالطون فى هذا، كـما جـهلوا وغلطوا فى ظنهم أن خوارق العـادات سببهـا قوى نفسانيـة، أو طبيعـية، أو قوى فلكية، وأن الفـرق بين النبى والساحـر، إنما هو حسن قصـد هذا، وفساد قـصد الآخر، وإلا فكلاهما خوارق سببها قوى نفسانية أو فلكية، وهذا النفى باطل، كما قد بسطنا الكلام عليه، وبيَّنَّا جهل هؤلاء وضلالهم فى غير هذا الموضع.

والذين شاهدوا ذلك فـى الخارج وثبت عندهم بالأخبـار الصادقـة المتواترة، وجود ذلك فى الخـارج يعلمون أن هؤلاء جاهلون ضـالون، ويعلمون أن الملائكة تظهر فى صورة البشر، كمـا ظهرت لإبراهيم، ولوط، ومريم، فى صورة البشر، وكما كان جـبريل يظهر للنبى ﷺ تارة فى صورة دحيـة الكلبى، وتارة فى صورة أعرابى، ويراه كثير من الناس عيانًا، ومـا فى خيال الإنسان لا يراه غيره، وكذلك كمـا ظهر إبليس للمـشركين فى صـورة الشيخ النجدى، وظهـر لهم يوم بدر فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فلما رأى الملائكة هرب.

قال -تعالى-:

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(١).

ورُوى عن ابن عباس وغيره، قال: تبدّى إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من مدلج، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقـال: لا غالب لكم اليوم من النـاس وإنى جار لكم. وأقبل جـبريل عليه السلام على إبليس، فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده وولى مدبراً هو وشيعـته، فقال الرجل: يا سـراقة أتزعم أنك لنا جار؟ فـقال: إنى أرى ما لا ترون، إنى أخاف الله، والله شديد العقاب.

قال ابن عباس: وذلك لما رأى الملائكة، قال الضـحاك: سار الشيطان معهم برايته وجـنوده وألقى فى قلوب المشركـين أن أحدًا لن يغلبكم وأنتم تقـاتلون على دينكم ودين آبائكم.

---

(١) سورة الأنفال: ٤٨.

وكثيـر من الناس تحمله الجن إلى مكان بعيـد، فتحمل كثـيراً من الناس إلى عرفات وغير عرفات، وإذا رأى واحد من هؤلاء فى غير بلده يكون تارة محمولاً، قد(٤) حمـلته الجن، وتارة تصـورت على صورته، ولا يكون هذا من أولـياء الله المتقين الذين لهم كرامات، بل قد يكـون من الكافرين، أو الفاسقين، وأعرف من ذلك قضايا كثيرة ليس هذا موضع تفصيلها.

وعند المشركين والنصارى من ذلك شىء كـثير يظنونه من جنس الآيات التى للأنبياء.

إنما هى من جنس ما للسحرة والكهـان، ومن لم يفرق بين أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان. ويفرق بين معجزات الأنبـياء، وكرامات الصالحين، وبين خوارق السحرة والكهان، ومن تقترن بهم الشيـاطين. وإلا التبس عليه الحق بالباطل، فأما أن يكذب بالحق الذى جـاء به الأنبيـاء الصادقون، وأمـا أن يصدق بالبـاطل الذى يقوله الكاذبون والغالطون.

وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر، والمقصود هنا التنبيه على هذا الأصل وعلماء النصـارى يسلمون هذا وعندهم من ذلك أخبـار كثيـرة من حكايات أولياء الشـيطان الذين عارضـهم أوليـاء الرحمن، وأبطلوا أحـوالهم كـما أبطل مـوسى -صلوات الله عليـه- ما عـارضتـه به السحـرة من الخوارق، كـما ذكـر ذلك فى التوراة، وكما يذكرونه عن فلان وفلان، مـثل حكاية سيمون الساحر مع الحواريين وغير ذلك وإذا كان هذا معلومًا كان ما يذكرونه من هذا الجنس، إذا كان مخالفًا لما ثبت عن الأنبياء من الشيطان، فلا يجوز أن يحتج به على ما يخالف شرائع الأنبياء الثابتة عنهم، بل هؤلاء من جنس الدجال الكبير الذى أنذرت به الأنبياء كلهم حتى نوح أنذر قومه. وقـال خاتم الرسل ﷺ: **«ما من نبى إلا قـد أنذر أمتـه حتى نوح أنذر قـومه وسـأقـول لكم فيـه قولاً لـم يقله نبى لأمتـه: إنه أعـور وإن ربكم ليس بأعور، مكتـوب بين عينيـه كافـر (ك ف ر) يقرؤه كل مؤمن قـارئ وغيـر قارئ»**. وقال: **«واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت»**(١).

وقد أخـبر أن المسيح عيـسى ابن مريم مسـيح الهدى ينزل إلى الأرض على

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٧١٢٧)، ومسلم (٢٩٣١)، والترمذى (٢٢٤٢)، من حديث ابن عمر.

المنارة البيضاء شرقى دمشق، فيقتل مسيح الضلالة، وهذا هو الذى تنتظره اليهود ويجحدون المسيح عيسى ابن مريم، ويقولون: هذا هو الذى بشرت به الأنبياء، **«ويتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفًا مطيلسين»**(١)، **«ويقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم شر قتلة حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم هذا يهودى ورائى تعال اقتله»**(٢) وكل هذا ثابت فى الصحيح عن النبى ﷺ . ولهذا أمر أمته أن يستعيذوا بالله من فتنته، فقال: **«إذا قعد أحدكم فى التشهد فى الصلاة فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»**(٣).

والأنبياء كلهم أنذروا بالكذابين الذين يتشبهون بالأنبياء، لكن من الناس من يتعمد الكذب، وكثير منهم لا يتعمد، بل يلتبس عليه فيغلط فيخبر بما يظنه حقًا، ولا يكون كذلك، ويرى فى اليقظة ما يظنه فلانًا الولى أو النبى، أو الخضر، ولا يكون ذلك.

والغلط جائز على كل أحد إلا الأنبياء -عليهم السلام-، فإنهم معصومون، لا يقرون على خطأ، فمن لم يزن علومه وأعماله وأقواله وأفعاله بالمعلوم عن الأنبياء، وإلا كان ضالاً، فنسأل الله العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على إثبات مسيحين: مسيح هدى من ولد داود، ومسيح ضلال. يقول أهل الكتاب: إنه من ولد يوسف. ومتفقون على أن مسيح الهدى سوف يأتى كما يأتى مسيح الضلالة، لكن المسلمون والنصارى يقولون: مسيح الهدى هو عيسى ابن مريم، وإن الله أرسله ثم يأتى مرة ثانية، لكن المسلمون يقولون: إنه ينزل قبل يوم القيامة فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، ولا يبقى دين إلا دين الإسلام، ويؤمن به أهل الكتاب: اليهود، والنصارى.

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٥٨٨)، وأبو داود (٩٨٣)، والنسائى (٣/٥٨)، وابن ماجه (٩٠٩)، وأحمد (٢/٢٣٧)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٧٨٧٤)، من حديث أبى هريرة.

كما قال -تعالى-:

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ... ﴾(١).

والقول الصحيح الذى عليه الجمهور قبل موت المسيح، وقال -تعالى-:

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا... ﴾(٢).

وأما النصارى فتظن أنه الله، وأنه يأتى يوم القيامة لحساب الخلائق وجزائهم، وهذا مما ضلوا فيه. واليهود تعترف بمجىء مسيح هدى يأتى، لكن يزعمون أن عيسى عليه السلام لم يكن مسيح هدى، لظنهم أنه جاء بدين النصارى المبدل، ومن جاء به فهو كاذب، وهم ينتظرون المسيحين.

• • •

(١) سورة النساء: ١٥٩.

(٢) سورة الزخرف: ٦١.

فصـل

[الخوارق التى تضل بها الشياطين بنى آدم]

والخـوارق التى تضل بها الشـياطين لـبنى آدم مثل تصـور الشيطان بصـورة شخص غائب أو ميت ونحو ذلك، ضل بها خلق كثير من الناس من المتسبين إلى المسلمين، أو إلى أهل الكتاب وغيرهم، وهم بنوا ذلك على مقدمتين:

إحداهما: أن من ظهرت هذه على يـديه فهو ولى لله. وبلغـة النصارى هو قديس عظيم.

الثانية: أن من يكون كذلك فهو معصوم فكـل ما يخبر به فهو حق وكل ما يأمـر به فهـو عدل، وقـد لا يكون ظهـرت على يديه خوارق، لا رحـمانيـة ولا شيطانيـة، ولكن صنع حيلة من حـيل أهل الكذب والفجـور. وحيل أهل الكذب والفجور كثيرة جدًّا، فيظن أن ذلك من العجائب الخارقة للعادة، ولا يكون كذلك مثل الحيل المذكورة عن الرهبان.

وقد صنَّف بعض الناس مـصنفًا فى حيـل الرهبان، مثل الحـيلة المحكية عن أحدهم فى جعل الماء زيتًا بأن يكون الزيت فى جـوف منارة، فإذا نقص صب فيها ماء، فيطفو الزيت على الماء، فيظن الحاضرون أن نفس الماء انقلب زيتًا.

ومثل الحيلة المحكية عنهم فى ارتفاع النخلة، وهو أن بعضهم مر بدير راهب وأسفل منه نخلة فـأراه النخلة صعدت شـيئًا شيـئًا حتى حاذت الدير، فـأخذ من رطبهـا ثم نزلت حتى عـادت كما كـانت فكشف الرجل الحيلة فوجـد النخلة فى سفينة فى مكان منخفض إذا أرسل عليه الماء امتـلأ حتى تصعد السفينة وإذا صرف الماء إلى موضع آخر هبطت السفينة.

ومثل الحيلة المحكية عنهم فى التكحل بدموع السيدة، يضعون كحلاً فى ماء متحرك حركة لطيفة، فيسيل حتى ينزل من تلك الصورة فيخرج من عينها فيظن أنه دموع.

ومثل الحـيلة التى صنعوها بالصـورة التى يسمونهـا القونة بصـيدنايا، وهى

أعظم مزاراتهم بعد القمامة وبيت لحم، حيث ولد المسيح: وحيث قبر، فإن هذه صورة السيدة مريم، وأصلها خشبة نخلة سقيت بالأدهان حتى تنعمت وصار الدهن يخرج منها دهنًا مصنوعًا يظن أنه من بركة الصورة.

ومن حيلهم الكثيرة النار التى يظن عوامهم أنها تنزل من السماء فى عيدهم فى قمامة وهى حيلة قد شهدها غير واحد من المسلمين والنصارى ورأوها بعيونهم أنها نار مصنوعة يضلون بها عوامهم يظنون أنها نزلت من السماء ويتبركون بها وإنما هى صنعة صاحب محال وتلبيس.

ومثل ذلك كثير من حيل النصارى فجميع ما عند النصارى المبدلين لدين المسيح من الخوارق، إما حال شيطانى. وإما محال بهتانى ليس فيه شيء من كرامات الصالحين.

وكذلك أهل الإلحاد المبدلين لدين محمد ﷺ، الذين يتخذون دينًا لم يشرعه الله ورسوله، ويجعلونه طريقًا إلى الله، وقد يختارونه على الطريق التى شرعها الله ورسوله، مثل أن يختاروا سماع الدفوف والشبابات على سماع كتاب الله -تعالى-، فقد يحصل لأحدهم من الوجد والغرام الشيطانى ما يلبسه معه الشيطان حتى يتكلم على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه ذلك الشخص إذا أفاق، كما يتكلم الجنى على لسان المصروع، وقد يخبر بعض الحاضرين بما فى نفسه ويكون ذلك من الشيطان *فإذا فارق الشيطان ذلك الشخص لم يدر ما قال، ومنهم من يحمله الشيطان* ويصعد به قدام الناس فى الهواء.

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين فيموت أو يمرض أو يصير مثل الخشبة.

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين فيلبسه الشيطان ويزول عقله حتى يبقى دائرًا زمانًا طويلاً بغير اختياره.

ومنهم من يدخل النار ويأكلها ويبقى لهبها فى بدنه وشعره.

ومنهم من تحضر له الشياطين طعامًا أو شيئًا من لادن أو سكر أو زعفران أو ماء ورد. ومنهم من تأتيه بدراهم تسرقها الشياطين من بعض المواضع.

ثم من هؤلاء من إذا فرق الدراهم على الحاضرين، أخذت منهم، فلا

يمكنون من التصرف فيها، إلى أمور يطول وصفها، وآخرون ليس لهم من يعينهم على ذلك من الشياطين، فيصنعون حيلاً ومخاريق.

فـالملحدون المبـدلون لدين الرسل، دين المسـيح، أو دين مـحمـد ﷺ هم كـأمثـالهم من أهل الإلحـاد والضـلال: الكفـار، المرتدين والمشركـين، ونحـوهم كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسـى، والحارث الدمشقى، وبابا الرومى وغيرهـم، ممن لهم خوارق شيطانية.

وأما أهل الحيل فيكثرون، وهؤلاء ليـسوا أولياء الله، بل خوارقهم إذا كانت شيطانية من جنس خـوارق الكهنة والسحرة، لم يكن لهم حال شـيطانى بل محال بهتانى. فهم متعمدون للكذب والتلبيس، بخلاف من تقترن به الشياطين فإن فيهم من يلتبس علـيه، فيظن أن هذا من جنس كـرامات الصالحـين، كما أن فـيهم من يعرف أن ذلك من الشـياطين، ويفعله لتحـصيل أغراضه، فـالمقصود أنه كثـير من الخـوارق، ما يكون من الشـيـاطين، أو يكون حيـلاً ومـخاريق، ويظن أنهـا من كرامات الصالحين. فإن ما يكون شـبيه الشرك أو الفجور، إنما يكون من الشيطان، مثل أن يشـرك الرجل بالله فيدعـو الكواكب أو يدعو مخلوقًـا من البشر ميـتًا، أو غائبًـا أو يعزم ويقـسم بأسماء مـجهـولة لا يعرف معناها، أو يعـرف أنها أسـماء الشياطين، أو يستـعين بالفواحش والظلم، فإن ما كان هذا سببـه من الخوارق فهو من الشيطان، كما قد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع.

والصالحون لهم كـرامات، مثل كرامات صالحى هذه الأمـة، ومثل كرامات الحواريـين وغيرهـم ممن كان على دين المسـيح، لكن وجود الكرامـات على أيدى الصالحين لا توجب أن يكونوا معصومـين كالأنبياء، لكن يكون الرجل صالحًا وليًا لله وله كرامات، ومع هذا فقد يغلط ويخطئ فيما يظنه، أو فيما يسمعه، ويرويه، أو فيما يراه، أو فيما يفهمه من الكتب، ولهذا كان كل من سوى الأنبياء يؤخذ من قـولهم ويترك، بخـلاف الأنبـياء -صلوات الله عـليهم أجـمـعين-، فـإنه يجب تصديقـهم فى كل ما أخبـروا به من الغيب، وطاعـتهم فى كل ما أمـروا به ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتوه، ولم يوجب الإيمان بجميع ما يأتى به غيرهم.

قال -تعالى-:

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ... ﴾(٢).

ولهذا اتفق المسلمون على أن من كذب نبيًا معلوم النبوة فهو كافر مرتد. ومن سب نبيًا وجب قتله بل يجب الإيمان بجميع ما أوتيه النبيون كلهم، وأن لا نفرق بين أحد منهم، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض. قال -تعالى-:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾(٣).

وليس هذا لأحد غير الأنبياء، ولو كان من رسل الأنبياء، وكانوا من أعظم الصديقين المقدمين.

فضلال الضلال من هؤلاء مبنى على مقدمتين.

إحداهما: أن هذا له كرامة فيكون وليًا لله.

والثانية: أن ولى الله لا يجوز أن يخطئ، بل يجب تصديقه فى كل ما أخبر، وطاعته فى كل ما أمر، وليس لأحد من البشر أن يصدق فى كل ما أخبر به، ويطاع فى كل أمر إلا أن يكون نبيًا.

والمقدمتان المذكورتان، قد تكون إحداهما باطلة، وقد يكون كلاهما باطلاً، فالرجل المعين، قد لا يكون من أولياء الله، تكون خوارقه من الشياطين، وقد يكون من أولياء الله، ولكن ليس بمعصوم، بل يجوز عليه الخطأ، وقد لا يكون من أولياء الله، ولا يكون له خوارق، ولكن له محالات وأكاذيب.

• • •

---

(١) سورة البقرة: ١٣٦.

(٢) سورة البقرة: ١٧٧.

(٣) سورة النساء: ١٥٠، ١٥١.

فصـل

قالوا: وقال فى سورة آل عمران:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾(١).

فأعنى أيضًا بالكتاب المنير، الذى هو الإنجيل المقدس.

فيقال: قد تقدم أن الرسل تتناول قطعًا الرسل الذين ذكرهم الله فى القرآن، لا سيما أولو العزم كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، فإن هؤلاء مع محمد ﷺ خاتم النبيين -صلوات الله عليهم وسلامه-، خصهم الله وفضلهم بقوله -تعالى-:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٢).

وفى قوله -تعالى-:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٣).

فالدين، دين رسل الله، دين واحد كما بينه الله فى كتابه، وكما ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «**إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وأن أولى الناس بابن مريم لأنا: إنه ليس بينى وبينه نبى**»(٤).

ويتناول أيضًا اسم الرسل من لم يسمهم بأعيانهم فى القرآن.

قال -تعالى-:

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٤.
(٢) سورة الأحزاب: ٧، ٨.
(٣) سورة الشورى: ١٣.
(٤)صحيح: وقد تقدم.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾(٢).

وأما الحواريون فإن الله -تعالى- ذكرهم في القرآن، ووصفهم بالإسلام واتباع الرسول وبالإيمان بالله، كما أنزل في قوله -تعالى-:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾(٥).

ولم يذكر الله -تعالى- في القرآن أنه أرسلهم البتة. بل ذكر أنه ألهمهم الإيمان به وبرسوله وأنهم أمروا باتباع رسوله وقوله:

(١) سورة النساء: ١٦٣-١٦٥.

(٢) سورة غافر: ٧٨.

(٣) سورة آل عمران: ٥٢، ٥٣.

(٤) سورة المائدة: ١١١.

(٥) سورة الصف: ١٤.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ... ﴾(١).

لا يدل على النبوة، فإنه قال -تعالى-:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ... ﴾(٢).

وأم موسى لم تكن نبية، بل ليس فى النساء نبية كما تقوله عامة النصارى والمسلمين.

وقد ذكر إجماعهم على ذلك غير واحد، مثل القاضيين: أبى بكر بن الطيب، وأبى يعلى بن أبى الفراء، والأستاذ أبى المعالى الجوينى، وغيرهم. ويدل على ذلك قوله -تعالى-:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾(٣).

وقوله -تعالى-:

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ... ﴾(٤).

فجعل غاية مريم الصديقية كما جعل غاية المسيح الرسالة.

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم**»(٥) يعنى من نساء الأمم قبلنا، وهذا يدل على أن أم موسى ليست ممن كمل من النساء فكيف تكون نبية؟ وقوله -تعالى-: ﴿ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾(٦).

والكتاب اسم جنس كما تقدم يتناول كل كتاب أنزله الله -تعالى-. وقال -تعالى-:

---

(١) سورة المائدة: ١١١.

(٢) سورة القصص: ٧.

(٣) سورة يوسف: ١٠٩.

(٤) سورة المائدة: ٧٥.

(٥) صحيح بنحوه: أخرجه البخارى (٥٤١٨)، ومسلم (٢٤٣١)، والترمذى (١٨٤١)، وفى «الشمائل» له (١٧٣)، وابن ماجه (٣٢٨٠)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٦٥٣١)، من حديث أبى موسى الأشعرى.

(٦) سورة آل عمران: ١٨٤.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾(١).

وقوله: ولا كتاب منير، نكرة فى سياق المعنى فيعم كل كتاب منير. ولو لم يكن إلا الإنجيل، لقيل ولا الكتاب المنير. وأيضًا فالتوراة أعظم من الإنجيل وقد بين الله أنه لم ينزل كتابًا أهدى من التوراة والقرآن. فقال -تعالى-:

﴿ قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ -وقرئ «ساحران»- تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ۝٤٨ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٢).

وهذا تعجيز لهم أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما كقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ... ﴾(٣).

وهذا يبين أنه ليس الإنجيل ولا الزبور أهدى من التوراة والقرآن فكيف يجعل الكتاب المنير هو الإنجيل دون التوراة والزبور؟

وأيضًا فإن الله -تعالى- إنما يخص بالذكر من الكتب المتقدمة التوراة دون غيرها، فهى التى يقرنها بالقرآن كقوله -تعالى-:

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾(٤).

وقد وصف التوراة بأن فيها نورًا وهدى للناس، فكيف يجعل النور فى الإنجيل دونها؟ وقال -تعالى-:

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝١٥٤ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ

---

(١) سورة الحج: ٨.

(٢) سورة القصص: ٤٨، ٤٩.

(٣) سورة يونس: ٣٨.

(٤) سورة الأنعام: ٩١، ٩٢.

تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾(١).

فقد ذكر التوراة والقرآن، وقولهم أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا فبين أن الكتاب اسم جنس يتناول هنا التوراة والإنجيل كقوله -تعالى-: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾(٢).

وقوله -تعالى-:

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٣).

فذكر الكتاب بلفظ المنفرد، ومعلوم أنه أراد بالذين أوتوا الكتاب من قبلنا اليهود والنصارى لا يختص ذلك بالنصارى كما قال: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾(٤).

وقد تبين بطلان قول هؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويفسرون كلام الله ورسوله بما يعلم كل من عرف حاله من مؤمن وكافر أن لم يرده.

وبيَّنَ أن الله لم يرد بالكتاب الإنجيل وحده كما لم يرد بالرسل الحواريين، بل أراد بالكتاب المنير ما أنزله الله من الكتب كالتوراة والإنجيل، كما أراد بالرسل من أرسله الله مطلقًا كنوح وإبراهيم وموسى والمسيح ابن مريم -صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين-.

• • •

(١) سورة الأنعام: ١٥٤-١٥٦.
(٢) سورة آل عمران: ٦٤.
(٣) سورة المائدة: ٥.
(٤) سورة الأنعام: ١٥٦.

فصل

[بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدق النبوة]

قالوا: وقال أيضًا:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾(١).

فيقال لهم: من المعلوم بالاضطرار، أنه ليس المراد بهذا النصارى فقط كما تقدم، بل اليهود يقرءون الكتاب من قبلنا، والنصارى يقرءون الكتاب من قبلنا. والكتاب اسم جنس كما تقدم نظائره فى قوله: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا﴾، وقوله: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب﴾، وقوله: ﴿يا أهل الكتاب﴾، فى غير موضع، وقوله:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾(٢).

وقوله -تعالى-:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(٣).

وقد قال -تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ

---

(١) سورة يونس: ٩٤.

(٢) سورة البينة: ١.

(٣) سورة آل عمران: ١٨-٢٠.

وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾(١).

وتناول لفظ أهل الكتاب هنا لليهود أظهر من تناوله للنصارى، لذكره لعنة أصحاب السبت وكذلك قوله -تعالى-:

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٢).

فهذا خبر عن طائفة من اليهود قالوا ذلك وقال -تعالى-:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾(٣).

وسبب نزولها أنه أراد طائفة من اليهود إلقاء الفتنة بين المسلمين. فهم داخلون قطعًا، وإن كان الخطاب مطلقًا يتناول الطائفتين.

وأمره -تعالى- بسؤال الذين يقرءون الكتاب من قبله على تقدير الشك، لا يقتضي أن يكون الرسول شك ولا سأل، إن قيل الخطاب له، وإن قيل لغيره فهو أولى وأحرى، فإن تعليق الحكم بالشرط لا يدل على تحقيق الشرط، بل قد يعلق بشرط ممتنع لبيان حكمه.

قال -تعالى-:

﴿ ... وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(٤).

فأخبر أنهم لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون، مع انتفاء الشرك عنهم بل مع امتناعه لأنهم قد ماتوا، لأن الأنبياء معصومون من الشرك به.

وقال -تعالى-:

---

(١) سورة النساء: ٤٧.
(٢) سورة آل عمران: ٧٢.
(٣) سورة آل عمران: ١٠٠.
(٤) سورة الأنعام: ٨٤-٨٦.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾(١).

فهذا خطأ للجميع. وذكر هنا لفظ «إن» لأنه خطاب لموجود.

وهناك خبر عن ميت وكذلك قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ﴾(٢). لا يدل على قوع الشك، ولا السؤال. بل النبى ﷺ لم يكن شاكًا ولا سأل أحدًا منهم. بل روى عنه أنه قال: «**والله لا أشك ولا أسأل**»(٣).

ولكن المقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون.

كما قال -تعالى- فى الآية الأخرى:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٥).

وقال -تعالى-:

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٦).

وقال -تعالى-:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾(٧).

---

(١) سورة الزمر: ٦٤-٦٦.
(٢) سورة يونس: ٩٤.
(٣) رواه قتادة بن دعامة مرسلاً كما فى «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٢).
(٤) سورة الرعد: ٤٣.
(٥) سورة الأحقاف: ١٠.
(٦) سورة الشعراء: ١٩٧.
(٧) سورة القصص: ٥٢، ٥٣.

وقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ...﴾(٥).

فالمقصود: بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون وذلك من وجوه:

أحدها: أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة الله وحده، ونهوا عن الشرك فكان في هذا حجة على من ظن أن الشرك دين.

ومثل هذا -قوله- تعالى-:

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة الإسراء: ١٠٧-١٠٩.

(٢) سورة المائدة: ٨٣.

(٣) سورة النساء: ١٦٢.

(٤) سورة الأنبياء: ٧.

(٥) سورة الأنعام: ٢٠.

(٦) سورة الزخرف: ٤٥.

وقوله -تعالى-:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(١).

وقوله -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾(٢).

الوجه الثاني: أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلى الناس بشرًا مثلهم، لم يرسل إليهم ملكًا، فإن من الكفار من كان يزعم أن الله لا يرسل إلا ملكًا أو بشرًا معه ملك، ويتعجبون من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر كما قال -تعالى-:

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴾(٥).

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٥.

(٢) سورة النحل: ٣٦.

(٣) سورة الإسراء: ٩٤، ٩٥.

(٤) سورة المؤمنون: ٢٣-٢٥.

(٥) سورة القمر: ٢٣، ٢٤.

وكذلك قال الذين من بعدهم:

﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾(١).

وكذلك قال قوم فرعون لموسى وهارون:

﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾(٢).

وقال فرعون:

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾(٣).

وكذلك قالوا لمحمد ﷺ وقال -تعالى-:

﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(٥).

فبيَّن -سبحانه- أنكم لا تطيقون التلقى عن الملك، فلو أنزلناه ملكًا لجعلناه فى صورة بشر. وحينئذ كنتم تظنونه بشرًا فيحصل اللبس عليكم. فأمر الله -تعالى- بسؤال أهل الكتاب عمن أرسل إليهم أكان بشرًا أم كان ملكًا ليقيم الحجة بذلك على من أنكر إرسال بشر، كما قال -تعالى-:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا

(١) سورة المؤمنون: ٣٣، ٣٤.
(٢) سورة المؤمنون: ٤٧.
(٣) سورة الزخرف: ٥٢، ٥٣.
(٤) سورة يونس: ١، ٢.
(٥) سورة الأنعام: ٨، ٩.

تعلمون ﴿٧﴾ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴿٨﴾ ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين﴾(١).

وأهل الذكر هم أهل الذكر الذى أنزله الله -تعالى-.

الوجه الثالث: أنهم يسألون أهل الكتاب عما جرى للرسل مع أممهم، وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم، وعاقبة المكذبين لهم.

الوجه الرابع: يسألون أهل الكتاب عن الدين الذى بعث الله به رسله، وهو دين الإسلام الذى اتفقت عليه الرسل، كالأمر بالتوحيد، والصدق، والعدل، وبر الوالدين، وصلة الرحم، والنهى عن الشرك، والظلم والفواحش.

الوجه الخامس: يسألونهم عما وصفت به الرسل ربهم، هل هو موافق لما وصفه به محمد أم لا؟ وهذه الأمور المسؤول عنها متواترة عند أهل الكتاب معلومة لهم ليست مما يشكون فيه، وليس إذا كان مثل هذا معلومًا لهم بالتواتر فيسألون عنه يجب أن يكون كل ما يقولونه معلومًا لهم بالتواتر.

وأيضًا فإنهم يسألون أيضًا عما عندهم من الشهادات والبشارات بنبوة محمد ﷺ.

وقد أخبر الله بذلك فى القرآن فقال -تعالى-:

﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴿١٥٦﴾ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾(٣).

(١) سورة الأنبياء: ٧-٩.
(٢) سورة الأعراف: ١٥٦، ١٥٧.
(٣) سورة الصف: ٦.

فقـد أخبر عن عـيسى أنه صدق بالرسـول والكتاب الذى قـبله وهو التوراة وبشر بالرسول الذى يأتى بعده وهو أحمد. قال -تعالى-:

﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾.

إلى قوله:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ... ﴾(١).

وقال -تعالى:

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٢).

وقال -تعالى- عن من أثنى عليه من النصارى:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا... ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

---

(١) سورة البقرة: ١٤٤-١٤٦.

(٢) سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٧.

(٣) سورة المائدة: ٨٣.

(٤) سورة الإسراء: ١٠٦-١٠٩.

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(٢).

وقال -تعالى- فى سورة الأنعام:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(٤).

والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم فى الكتب المتقدمة متواترة عنهم.

وكان قبل أن يبعث النبى ﷺ تجرى حروب وقتال بين العرب وبين أهل الكتاب فتقول أهل الكتاب: قد قرب مبعث هذا النبى الأمى الذى يبعث بدين إبراهيم، فإذا ظهر اتَّبعناه، وقتلناهم معه شر قتلة، فلما بعث النبى ﷺ، كان منهم من آمن به، ومنهم من كفر به فقال -تعالى-:

﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ ﴾(٥).

أى: يستنصرون بمحمد ﷺ على الذين كفروا:

---

(١) سورة الأنعام: ١١٤.
(٢) سورة القصص: ٥١-٥٤.
(٣) سورة الأنعام: ٢٠.
(٤)، -(٥) سورة البقرة: ٨٩.

﴿ ... فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(١).

ولهذا كان النبى ﷺ فى خطابه لأهل الكتاب يقول لهم: «**والله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمـون أنى رسول الله**»(٢)، وكذلك من أسـلم منهم كعـبد الله بن سلام كان يقول لغيره من أهل الكتاب: «**والله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله**»(٣)، وهذا أمر معروف فى الأحاديث الصحـاح المخرجة فى الصحيحين وغيرهـما، فظهر بما ذكرناه تحـريف هؤلاء لكلام الله وأنه لا حجة لهم فيـما أنزل على محمد ﷺ كما تقدم نظائر ذلك.

• • •

(١) سورة البقرة: ٨٩.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٣٩١١) من حديث أنس بن مالك فى مقدم النبى ﷺ المدينة.

(٣) صحيح: هو جزء من الحديث السابق.

فصل

[الجواب عن ادعائهم تصديق القرآن للإنجيل الذى بين أيديهم]

قالوا: فثبت بهذا ما معنا نعم، ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التى فى أيدينا التهم والتبديل لها، والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

فيقال: كلامكم الذى تحتجون به فى هذا الموضع وغيره، إما أن يكون باطلاً محضًا، وإما أن يكون مما لبستم فيه الحق بالباطل، فإن قولكم بتصديقه إياها، إن أردتم أنه صدق التوراة والإنجيل والزبور التى أنزلها الله على أنبيائه، فهذا لا ريب فيه، فإن هذا مذكور فى القرآن فى غير موضع وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله وكل نبى من الأنبياء، مع إخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن وأنزل القرآن مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه.

وقال -تعالى-:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ...﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾(٢).

وقال -تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران: ١-٤.

(٢) سورة المائدة: ٤٨.

(٣) سورة النساء: ٤٧.

وقال:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾(١).

وقال:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾(٢).

وقال:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿... آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم...﴾(٤).

وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله، وحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض، فقال -تعالى-:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٥).

وقال -تعالى-:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾(٦).

---

(١) سورة المائدة: ٤٨.
(٢) سورة فاطر: ٣١.
(٣) سورة البقرة: ١٠١.
(٤) سورة النساء: ٤٧.
(٥) سورة البقرة: ١٣٦، ١٣٧.
(٦) سورة البقرة: ٢٨٥.

وقال -تعالى-:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(١).

فذم المفرّق بينهم بأن يؤمن ببعض دون بعض، وبيَّن أنه فضل بعضهم على بعض، فقال -تعالى-:

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ... ﴾(٢).

فبيَّن أنه فضل بعضهم على بعض، وقال -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ... ﴾(٣).

وقد اتفق المسلمون على ما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وبجميع ما أنزله الله من الكتب، فمن كفر بنبي واحد تعلم نبوته مثل إبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان ويونس وعيسى فهو كافر عند جميع المسلمين حكمه حكم الكفار، وإن كان مرتداً استتيب فإن تاب وإلا قتل.

ومن سب نبيًّا واحداً من الأنبياء قتل أيضًا باتفاق المسلمين وما علم المسلمون أن نبيًّا من الأنبياء أخبر به فعليهم التصديق به كما يصدقون بما أخبر به محمد ﷺ وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا تتناقض ولا تختلف، وما لم يعلموا أن النبي أخبر به فهو كما لم يعلموا أن محمداً أخبر به -صلى الله عليهم أجمعين- ولكن لا يكذبون إلا بما علموا أنه كذب كما لا يجوز أن يصدقوا إلا بما علموا أنه صدق، وما لم يعلموا أنه كذب ولا صدق لم يصدقوا به ولم يكذبوا به كما أمرهم نبيهم محمد ﷺ وبهذا أمرهم المسيح عليه السلام فقال: «الأمور ثلاثة: أمر تبين رشده، فاتبعوه، وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه».

---

(١) سورة النساء: ١٥٠-١٥٢.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٣.

(٣) سورة الإسراء: ٥٥.

فصل

وإن أرادوا بتصديقه كتبهم أنه صدق ما هم عليه من العقائد والشرائع التى ابتدعوها بغير إذن من الله وخالفوا بها ما تقدمه من شرائع المسلمين أو خالفوا بها الشرع الذى بعث به مثل القول بالتثليث والأقانيم، والقول بالحلول والاتحاد بين اللاهوت والناسوت، وقولهم أن المسيح هو الله وابن الله وما هم عليه من إنكار ما يجب الإيمان به من الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن تحليل ما حرمه الله ورسله كالخنزير وغيره وبين أنهم لا يدينون بدين الحق الذى أنزل به كتابه وأرسل به رسوله بل بدين مبتدع ابتدعه لهم أكابرهم كما قال -تعالى-:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ...﴾(١).

وقد بين النبى ﷺ ذلك لعدى بن حاتم وكان نصرانيًا لما جاءه ليؤمن به وقد آمن به عدى وكان من خيار الصحابة فسمعه يقرأ هذه الآية:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢).

قال عدى: قلت: يا رسول الله ما عبدوهم.

قال: «**إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فكانت تلك عبادتهم إياهم**»(٣).

فإن أرادو بتصديقهم فى هذه الأمور أو أن محمداً ﷺ صدق ما عندهم مما لم يأت به الأنبياء عن الله فقد كذبوا على محمد ﷺ كذبًا ظاهرًا معلومًا بالاضطرار من دينه وإنما صدق ما جاءت به الأنبياء قبله.

---

(١) سورة التوبة: ٣١.

(٢) سورة التوبة: ٣١.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذى (٣١٠٦). وابن جرير الطبرى فى «تفسيره» (١٠/ ٨٠، ٨١). وقال الترمذى: غريب. وحسنه المصنف كما فى «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٧)، وصححه أيضًا الألبانى فى «صحيح سنن الترمذى».

وأما ما أحدثوه وابتدعوه فلم يصدقوه كما أنه لم يشرع لهم أن يستمروا على ما هم عليه من الشرع الأول ولو لم يكن مبدلاً بل دعاهم وجميع الإنس والجن إلى الإيمان به وبما جاء به واتباع ما بعث به من الكتاب والحكمة، وحكم بكفر كل من لم يتبع كتابه المنزل عليه، وأوجب مع خلودهم فى عذاب الآخرة جهادهم فى الدنيا حتى يكون الدين كله لله وحتى تكون كلمة الله هى العليا.

وقد دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى عمومًا ثم كلا من الطائفتين خصوصًا فى غير موضع مع دعائه الناس كلهم: أهل الكتاب، وغيرهم كقوله -تعالى-:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١).

وقال -تعالى- يخاطب النصارى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾(٢).

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٦-١٥٨.

(٢) سورة النساء: ١٧٠-١٧٣.

وقال -تعالى-:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(٢).

أخبر -سبحانه - أن النصارى تركوا حظًّا مما ذكرهم به، وبسبب ذلك أغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، فعلم أنه -سبحانه- بين أنهم تركوا بعض ما جاء به المسيح ومن قبله من الأنبياء، واستحقوا لذلك أن يغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

وقال -تعالى-:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(٣).

فنهاهم عن الغلو فى دينهم وعن اتباع أهواء الذين ابتدعوا بدعًا غيروا بها شرع المسيح، فضلوا من قبل هؤلاء الأتباع وأضلوا كثيراً من هؤلاء الأتباع وغيرهم، وضلوا عن سواء السبيل وهو وسط السبيل بين الضلال وقيده بعد أن أطلقه وأجمله.

وقال -تعالى-:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(٤).

وقد خرج النبى ﷺ لقتالهم بنفسه عام تبوك واستنفر لقتالهم جميع المؤمنين، ولم يأذن لأحد من القادرين على الغزو فى التخلف، ومن تخلف لأنه

(١) سورة المائدة: ١٧.
(٢) سورة المائدة: ١٤.
(٣) سورة المائدة: ٧٧.
(٤) سورة التوبة: ٢٩.

لم ير قتالهم واجبًا كان كافرًا، وإن أظهر الإسلام كان منافقًا ملعونًا، بين الله أنه لا يغفر لهم ونهى نبيه عن الصلاة عليهم وأنزل في ذلك جمهور سورة براءة بالنقل المتواتر حتى بين كفر الذين استأذنوه في ترك الخروج معه لقتال النصارى:

قال -تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾(١).

• • •

---

(١) سورة التوبة: ٣٨-٤٨.

فصـل

فتبـيَّن أن قولهم: فثبت بهـذا ما معنا نعم ونفى عن إنجيلنا وكـتبنا التى فى أيدينا التهم والتبديل لها والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

إن أرادوا به أنه ثبت ما جاءت الأنبياء قبله عن الله، فهذا حق.

وإن أرادوا به أنه ثبت ما هم عليه بعـد مبعثه من الشرع الذى خـالف شرعه أو ما ابتدعوه مما لم يأت به الأنبياء -عليهم السلام- قبله فهذا باطل.

وإن أرادوا بذلك أنه صدَّق ألـفاظ الكتب التى بأيدينا: أى التـوارة والإنجيل فهذا مما يـسلمه لهم بعض المسلمين، وينازعهم فـيه أكثر المسلمين، وإن كـان أكثر ذلك مما يسلمه أكثر المسلمين.

فأما تحـريف معانى الكتب بالتـفسير، والتأويـل، وتبديل أحكامها فـجميع المسلمين واليهود، والنصارى يشهدون عليهم بتحـريفها وتبديلها، كما يشهدون هم والمسلمون على اليهود، بتـحريف كثير من معانى التـوراة، وتبديل أحكامها، وإن كانوا هم واليهود يقولون: إن التوراة لم تحرف ألفاظها.

وحينئذ فلا ينفعهم بقاء حروف الكـتب عندهم مع تحريف معانيها، إلا كما ينفع اليهـود بقاء حروف التـوراة والنبوات عندهم مع تحريف مـعانيها، بل جـميع النبوات التى يقرون بها هى عند اليهود، وهم مع اليهود ينفون عنها التهم والتبديل لألفاظها مـع أن اليهود عندهم من أعظم الخلق كفـرًا، واستحقـاقًا لعذاب الله فى الدنيـا والآخرة وهم عند النصـارى الذين يكفرون المسلمـين أكثر من هـؤلاء وشر منهم، فإن النصـارى متفـقون على أن المسلمين خيـر من اليهود، وكذلك اليـهود متفقـون على أن المسلمين خير من النصارى، بل جمـيع الأمم المخالفين للمسلمين يشـهدون أن المسلمين خـيـر من سائر الأمم والطوائف إلا أنـفسـهم، وشهـادتهم لأنفسهم لا تقبل فصار هذا اتفاق أهل الأرض على تفضيل دين الإسلام.

فعلم أن بقاء حروف الكتـاب مع الإعراض عن اتباع معانيهـا، وتحريفها لا يوجب إيمان أصحابها ولا يمنع كفرهم.

وحينئذ فليس شهادة محمد ﷺ وأمته للمسيح عليه السلام ولما أنزل عليه من الإنجيل فى تثبيت ما عند النصارى بأعظم من شهادة المسيح عليه السلام، والحواريين، وسائر من اتبعه لموسى ولما أنزل عليه من التوراة فى تثبيت ما عند اليهود، فإن المسيح أمر أتباعه باتباع التوراة إلا القدر اليسير الذى نسخه منها.

وأما محمد ﷺ فبعث بكتاب مستقل، وشرع مستقل كامل تام لم يحتج معه إلى شرع سابق تتعلمه أمته من غيره، ولا إلى شرع لاحق يكمل شرعه، ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح: «**أنه قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر**»(١).

فجزم أن من كان قبله كان فيهم محدثون وعلق الأمر فى أمته، وإن كان هذا المعلق قد تحقق لأن أمته، لا تحتاج بعده إلى نبى آخر، فلأن لا تحتاج معه إلى محدث ملهم أولى وأحرى.

وأما من كان قبله فكانوا يحتاجون إلى نبى بعد نبى فأمكن حاجتهم إلى المحدثين الملهمين ولهذا إذا نزل المسيح ابن مريم فى أمته لم يحكم فيهم إلا بشرع محمد ﷺ، وإذا كان مع هذا فشهادة المسيح، والحواريين، وكل من آمن بالمسيح للتوراة بأنها حق، ولموسى بأنه رسول لا يمنع كفر اليهود لكونهم بدلوا شرع التوراة، وكذبوا بالمسيح وبالإنجيل.

فكيف تكون شهادة محمد وأمته للإنجيل بأنه منزل من عند الله، وللمسيح بأنه رسول الله مانعة من كفر النصارى مع تبديلهم شرع الإنجيل وتكذيبهم بمحمد ﷺ، وشرع القرآن؟.

وأما إيمان من يؤمن منهم بأن محمدًا رسول الله إلى العرب أو بكثير مما جاء به القرآن، فلا يمنع كفرهم إذا كفروا ببعض ما جاء به، بل من كذب بشىء مما

---

(١) صحيح: ورد من حديث كلٍ من:
١- أبى هريرة: أخرجه البخارى (٣٦٨٩).
٢- عائشة: أخرجه مسلم (٢٣٩٨) والترمذى (٣/ ٣٧).
قال النووى فى «شرح مسلم» (١٥/ ١٤٠).
اختلف تفسير العلماء للمراد بـ «محدثون» فقال ابن وهب: ملهمون. وقيل: مصيبون، وإذا ظنوا فكأنهم حدثوا بشىء فظنوا، وقيل: تكلمهم الملائكة. وجاء فى رواية: «متكلمون». وقال البخارى: يجرى الصواب على ألسنتهم اهـ.

جاءت به الرسل على الله فهـو كافر، وإن آمن بأكثر ما جاءت بـه الرسل كما قال -تعالى-:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٢).

وقد صرح بكفر النـصارى فى غير موضع وأمر بجهـادهم وقتالهم، وحكم بكفر من لا يوجب جهادهم وقتالهم أو لا يرى ذلك عـبادة لله وطاعة له كما تقدم التنبيه على ذلك، فـإذا كان من لا يرى جهادهم عبادة لله، كافـراً عند محمد ﷺ فكيف حالهم عنده ﷺ ؟.

• • •

(١) سورة النساء: ١٥٠، ١٥١.

(٢) سورة البقرة: ٨٥.

فصل

[الجواب عن ادعائهم تناقض النبي ﷺ مع الأنبياء قبله]

وإذا تبيَّن للخاصة والعامة ممن آمن بمحمد ﷺ ومن كفر به أنه كان مصدقًا لما بين يديه من الكتب، والأنبياء، مصدقًا للتوراة والإنجيل شاهدًا بأن موسى عليه السلام، ومن كان متبعًا له على الحق، وأن المسيح عليه السلام ومن اتبعه على الحق، وإن كان يكفر جميع اليهود، والنصارى، وغيرهم ممن بلغته رسالته، ولم يؤمن به، وشهد عليهم بأنهم حرفوا كثيرًا من معاني التوراة والإنجيل قبل نبوته، وأن أهل الكتاب كلهم مع المسلمين يشهدون أيضًا بأن كثيرًا من معاني التوراة، والإنجيل حرفها كثير من أهل الكتاب، لم يجز لأحد من أهل الكتاب أن يحتج بقول محمد ﷺ على صحة دينهم الذى شهد محمد ﷺ بأنه باطل مبدل منسوخ وأهله من أهل النار كما تقدم بسطه.

وإذا قالوا: نحن نذكر ذلك لنبين تناقضه حيث صدقها، وهى تناقض بعض ما أخبر به، أو لنبين أن ما أخبرت به الأنبياء قبله يناقض خبره فيكون ذلك قدحًا فيما جاء به.

أجاب المسلمون عن هذا بعدة طرق:

أحدها: أن يقولوا: أما مناقضة بعض خبره لبعض كما يزعمه هؤلاء من أن كتابه يمدح أهل الكتاب مرة ويذمهم أخرى وأنه يصدق الكتب المنزلة تارة، ويذمها أخرى، فهذا قد ظهر بطلانه، فإنه إنما مدح من اتبع موسى، والمسيح على الدين الذى لم يبدل ولم ينسخ.

وأما من اتبع الدين المبدل المنسوخ فقد كفره.

فأما دعواهم مناقضة خبره لخبر غيره فيقال: هو مصدق للأنبياء فيما أخبروا به.

وأما ما بدل من ألفاظهم أو غيرها بالترجمة أو فسر بغير مرادهم فلم يصدقه. ويقال أيضًا: إن نبوة محمد ﷺ تثبت بمثل ما تثبت به نبوات الأنبياء قبله

وبأعظم من ذلك، كـما قـد بسط فـى مـوضـع آخـر، وبُـيِّن أن التكـذيب بنبـوة محمد ﷺ مع التصديق بنبوة غيـره فى غاية التناقض والفساد، وأنه ما من طريق يعلم بها نبوة غيـره إلا ونبوته تعلم بمثل تلك الطريق، وبأعظم منها. فلو لم تكن نبوته وطريق ثبوتهـا إلا مثل نبوة غيره وطرق ثـبوتها لوجب التصديق بنبـوته كما وجب التصديق بنبوة غيره، ولكان تكذيبـه كتكذيب إبراهيم وموسى وغيرهما من الرسل. فكيف إذا كان ذلك أعظم من وجوه متعددة؟

وحينئذ فالأنبياء كلهم صادقون مصدقون معصومون فيما يخبرون به عن الله لا يجوز أن يَثبت فى خبرهم عن الله خبر باطل، لا عمدًا ولا خطأً، فلا يجوز أن يخبر أحدهم بخلاف ما أخبر به غيـره، بل ولا يفترقون فى الدين الجامع كما قال -تعالى-:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(٢).

وإنما يقع النسخ فى بعض الشرائع كما يقع النسخ فى شريعة الرسول الواحد وحينئذ فـيعلم أن كل ما ينقل عن الأنبـياء المتقدمين مما يناقض مـا علم من أخبار محمد ﷺ فهو باطل.

سـواء كان اللفظ نـفسـه باطلاً لم يقله ذلك النبى أو قـد قـال لفظًا وغلط المترجمون له من لغة إلى لغة، أو كان اللفـظ وترجمته صحيحين لكن وقع الغلط فى معرفة مراد ذلك النبى بذلك الكلام.

فإن كل مـا يحتج به مـن الألفاظ المنقولـة عن الأنبياء أنـبياء بنى إسـرائيل وغيرهم ممن أرسل بغير اللغة العربيـة لابد فى الاحتجاج بألفاظه من هذه المقدمات أن يعلم اللفظ الذى قاله ويعلم ترجمته ويعلم مراده بذلك اللفظ.

---

(١) سورة الشورى: ١٣.

(٢) سورة المؤمنون: ٥١-٥٣.

والمسلمون وأهل الكتاب متفقـون على وقوع الغلط فى تفسير بعض الألفاظ وبيان مراد الأنبياء بهـا وفى ترجمة بعضها، فإنك تجد بالتوراة عـدة نسخ مترجمة وبينها فروق يختلف بها المعنى المفهوم، وكذلك فى الإنجيل وغيره فهذا الطريق فى الجواب طريـق عام لكل من آمن بمحـمد ﷺ وشهـد أنه رسول الله باطنًا وظاهرًا يخاطب بـه كل يهودى ونصرانى عـلى وجه الأرض. وإن لم يكن عارفًـا بما عند أهل الكتاب فإنه لا يقدر أحد من أهل الأرض يقيم دليلاً صحيحًا على نبوة موسى وعيسى وبطلان نبوة محمد ﷺ، فإن هذا ممتنع لذاته. بل ولا يمكنه أن يقيم دليلاً صحـيحًا على نبـوة أحدهما إلا وإقـامة مثل ذلك الدليل أو أعظـم منه على نبوة محـمد ﷺ أولى. وحينئـذ فلا يمكن أحداً من أهل الكتـاب أن يحتج بشىء من المنقولات عن الأنبياء المخالفة لما ثبت عن محمد ﷺ، سواء أقر بنبوته أو أنكرها، بل إن احتج بشىء مما نقل عن محمد ﷺ، بيّن له بطلان احتجاجه به وأنه حجة عليه، لا له.

وإن احتج بشىء من المنقـول عن غيره من الأنبياء -عليـهم السلام- طولب بتقدير نبوة ذلك النبى مع تكذيب محمد ﷺ وإلا فبتقدير أن ينقل عن اثنين ادعيا النبوة وأتيـا بالآيات التي تثبت بها النبوات خـبران مناقضان لا يجـوز تصديق هذا وتكذيب ذاك إن لم يتبيّن ما يدل على صدق هذا وكذب هذا، وكذلك إذا عورض أحدهما بجنس ما يعارض الآخر.

وهذا لا يرد على المسلمين إذا ردوا ما يحـتج به أهل الكتاب مما ينقلونه عن الأنبيـاء مخالفًـا لخبر -محـمد- ﷺ، فإن المسلمين لا يطعنون فى نبـوة أحد من الأنبياء المعروفين، وإنما يطعنون في أنهم أخبروا بما يـخالف خبر محمد ﷺ، فإن ذلك لا يثبت. أى لم يثبت اللفظ والترجمة، وتفسير اللفظ. وهذه المقدمات يمتنع أن تقوم على شىء يخالف خبر محمد ﷺ لا جملة ولا تفصيلاً.

فأهل الكتاب يطالبون فيما يعارضون به بثلاث مقدمات:

أحدها: تقدير أن أولئك صادقون، ومحمد ﷺ كاذب.

والثاني: ثبوت ما أتوا به لفظًا.

والثالث: معرفـة المراد باللفظ ترجمة وتفـسيرًا. وإن قال الكتـابى للمسلم: أنت توافقنى على نبوة هؤلاء المتقدمين. إجابة المسلم بوجوه:

منها أن يقـول: إنـي لـم أوافقـك عـلى نبـوة واحـد منهـم مـع التكـذيب بمحمد ﷺ بل دين المسلمين كلهم، أنه من آمن ببعض الأنـبياء وكفر ببـعض فهو كافر، فكيف بمن كفر بمن هو عند المسلمين أفضل الأنبياء وخاتمهم، بل قد يقول له أكثر المسلمين: نحن لم نعلم نبوة أولئك إلا بإخبار محمد، أنهم أنبياء، فلو قدحنا فى الأصل الذى قد علمنا به نبـوتهم لزم القدح في نبوتهم، والفـرع إذا قدح فى أصله دل على فساده فى نفســه، سواء قدر أصله صحيحًا أو فـاسدًا، فإنه إن كان أصله فاسـدًا فسد هو، وإن كـان أصله صحيحًـا وهو يناقضه بطل هو، فـهو إذًا ناقض أصله باطل على كل تقدير.

وكذلك إذا قال له الكتابى: قد اتفقنا على تصديق موسى والتوراة، والمسيح والإنجيل.

قال له المسلم: إنما وافـقتك على تصـديـق موسـى وعيسـى اللذيـن بشَّرا، بمحمد ﷺ، كما أخبرنا به محمد ﷺ عن الله حيث قال الله -تعالى-:

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّـذِي يَجِـدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ... ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُـولُ اللَّهِ إِلَيْكُـم مُّصَـدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ... ﴾(٢).

إلى أمثال ذلك.

فأمـا الإيمان بموسى، الذى ذكر أن شريعـته مؤيدة لا يـنسخ منها شيء، أو بمسيح ادعى أنه الله أو أن الله اتحد بـه أو حل فيـه، ونحـو ذلك مما يدعيـه أهل الكتاب فى الرسولين، والكتابين، ويخالفهم فيه المسلمون، فهذا من موارد النزاع، لا من مـواقع الإجمـاع، فليس لأحـد من أهل الكتـاب أن يحتج على أحـد من المسلمين بموافقته له على ذلك.

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٦، ١٥٧.

(٢) سورة الصف: ٦.

ومن تمام ذلك أن يقول المسلم: نعـم أقر بنبوة موسى والمسـيح، وإن التوراة والإنجيـل كـلام الله، لـكن يمتـنع عقلاً الإقـرار بنبوة واحـد من هؤلاء، دون نبوة محـمد ﷺ، فإن البـراهين، والآيات، والأدلة الدالة على صدق مـوسى والمسيح تدل على نبوة مـحمد ﷺ بطريق الأولى، فلو انتقـضت تلك الأدلة لزم فسادها، وأن لا أصدق بأحد من الأنبياء، وإن كانت حقًّا لزم تصديقهم كلهم، فلزم إما أن نصدقهم كلهم، وإما أن نكذبهم كلهم، ولهذا كان من آمن ببعض، وكذب ببعض كافرًا.

ومن الأجوبة للمسلمين أن يقولوا: نحن نصدق الأنبـياء المتقدمين فى كل ما أخبروا به لكن من نقل عنهم أنهم أخبروا بما يـناقض خبر محمد ﷺ فلابد له من مقـدمتـين، ثبوت ذلك اللفظ عن الأنبـياء، والعلم بمـعناه الذى يعلم أنه مناقض للمعنى الذى علم أن محمداً ﷺ عناه، ثم العلم باللفظ يحتـاج مع الخطاب بغير ألسن الأنبياء العربية سواء كانت عربـية، أو رومية، أو سريانية، أو قبطية، إلى أن يعـرف أن هذا اللفظ الذى ترجم به لفظه مطابق للفظه، ويمتنع ثـبوت المقدمـتين، لأن فى ثبوتهما تناقض الأدلة العلمية، والأدلة العلمية لا تتناقض.

الطريق الثانى: أن يقـول المسلمون: مـا تذكرونه من المنقـول عن الأنبـياء، مناقضة لما أخبـر به محمد ﷺ أمور لم تعلم صحـتها، فلا يجوز اعتقـاد ثبوتها، والجزم بها، ولو لم يعلم أن محمداً ﷺ، أخبر بخلافـها فكيف إذا علم أنه أخبر بخلافها؟ وذلك أن العلم بثبوتها مبنى على مقدمات:

أحدها: العلم بنبوتهم وهذا ممتنع مع تكذيب محمد ﷺ.

والثانـية: أنهم قـالوا: هذه الألفـاظ وهذا لا يحتـاج إلى إثبـات تواتر هذه الألفاظ عن الأنبياء، ولم يثبت أنها تواترت عنهم.

والثالثة: أن معناها، هو المعنى المناقض لخبر محمد ﷺ، ولم يعلم ذلك.

وكل واحدة من هذه المقـدمات تمنع العلم بثبـوت هذه المعانى المناقضة لخـبر محمد ﷺ فكيف إذا اجتمعت؟

وهى تمنع العلم بصـحـتهـا، ولو لم تناقض خـبر مـحمـد ﷺ فكيف إذا ناقضته؟

الطريق الثالث: طريق من يبـيِّن أن ألفاظ هذه الكتب لم تتـواتر، ويثبـتون ذلك بانقطاع تواتر التوراة، لما خرب بـيت المقدس، وانقطاع تواتر الإنجيل في أول الأمر.

الطريق الرابع: طريق من يبيِّن أن بعض ألفـاظ الكتب حرفت، ويقيم الأدلة الشرعية، والعقلية على تبديل بعض ألفاظها.

الطريق الخـامس: أن يبـيِّن أن الألفاظ التى بأيديهم لا تناقـض ما أخبـر به محـمد ﷺ بل تدل على صـدق محـمد ﷺ ويتكلم على تفـسير تـلك الألفاظ بأعيانها.

وهذه الطريق يسلكها من لا ينازع فى ثبوت الألفاظ من المسلمين.

وأما الجـمهور الذين يقـولون بتبـديل هذه الألفاظ فيـسلكون هذه الطريق، ويسلكون أيضًا بيان عدم تواتر الألفاظ، بل بيان التبديل فى ألفاظها.



فصل

[بيان وقوع التبديل فى ألفاظ الكتب المتقدمة]

ومن حجة الجمهور الذين يمنعون أن تكون جميع ألفاظ هذه الكتب المتقدمة الموجودة عند أهل الكتاب منزلة من عند الله، لم يقع فيها تبديل، ويقولون: إنه وقع التبديل فى بعض ألفاظها، ويقولون: إنه لم يعلم أن ألفاظها منزلة من عند الله، فلا يجوز أن يحتج بما فيها من الألفاظ فى معارضة ما علم ثبوته أنهم قالوا: التوراة والإنجيل الموجودة اليوم بيد أهل الكتاب لم تتواتر عن موسى، وعيسى -عليهما السلام- أما التوراة فإن نقلها انقطع لما خرب بيت المقدس أولا، وأجلى منه بنو إسرائيل، ثم ذكروا أن الذى أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد يقال له عزرا، وزعموا أنه نبى.

ومن الناس من يقول: إنه لم يكن نبيًّا، وإنها قوبلت بنسخة، وجدت عتيقة.

وقد قيل: إنه أحضرت نسخة كانت بالمغرب، وهذا كله لا يوجب تواتر جميع ألفاظها، ولا يمنع وقوع الغلط فى بعضها كما يجرى مثل ذلك فى الكتب التى يلى نسخها ومقابلتها، وحفظها القليل الاثنان والثلاثة.

وأما الإنجيل الذى بأيديهم فهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح ﷺ ولا أملاه على من كتبه، وإنما أملوه بعد رفع المسيح «متى» و«يوحنا» -وكانا قد صحبا المسيح، ولم يحفظه خلق كثير يبلغون عدد التواتر- و«مرقس» و«لوقا» ، وهما لم يريا المسيح ﷺ ، وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح، وبعض أخباره، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله، وأفعاله.

ونقل اثنين، وثلاثة، وأربعة يجوز عليه الغلط، لاسيما، وقد غلطوا فى المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب، ولكن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله مثل عيسى ابن مريم، وموسى -عليهما السلام-، وأنم معصومون، وأنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل، وأن لهم معجزات، وقالوا لهم هذه التوراة

وهذا الإنجيل، ويقـرون مع هذا بأنهم ليسـوا بأنبياء، فـإذا لم يكونوا أنبيـاء، فمن ليس بنبى ليس بمعـصـوم من الخطأ، ولو كان مـن أعظم أولياء الله، ولو كـان له خوارق عادات. فأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وغيرهم من أفاضل الصحابة عند المسلمين أفضل من الحواريين، ولا معصوم عندهم إلا من كان نبيًّا.

ودعوى أنهم رسل الله مع كـونهم ليسوا بأنبيـاء تناقض، وكونهم رسل الله هو مبنى على كون المسـيح هو الله، فإنهم رسل المسيح، وهذا الأصل باطل ولكن فى طريق المناظرة، والمجـادلة بالتى هى أحـسن نمنعـهم فى هذا المقـام ونطالبـهم بالدليل على أنهم رسل الله، وليس لـهم على ذلك دليل فإنه لا يثـبت أنهم رسل الله إن لم يثبت أن المسيح هو الله، وإثباتهـم أن المسيح هو الله إما أن يكون بالعقل أو بالسمع.

والعقل لا يثبت ذلك، بل يحيله وهم لا يدعون ثبوت ذلك بالعقل.

بل غاية ما يدعـون إثبات إمكانه بالعقل لا إثبـات وجوده مع أن ذلك أيضًا باطل وإنما يدعون ثبـوت وجوده بالسمع، وهو مـا ينقلونه عن الأنبيـاء من ألفاظ يدعون ثبوتها عن الأنبياء، ودلالتها على أن المسيح هو الله كسائر من يحتج بالحجة السمعية. فإن عامة بيان صحة الإسناد دون بيان دلالة المتن، وكلا المقدمتين باطلة.

ولكن يقال لهم فى هذا المقام: أنتم لا يمكنكم إثبات كون المسيح هو الله إلا بهذه الكتب، ولا يمكنكـم تصحيح هذه الكتب إلا بإثبـات أن الحواريين رسل الله معصـومون، ولا يمكنكم إثبات أنهم رسل الله إلا بإثبات أن المسـيح هو الله فصار ذلك دورًا ممتنعًا.

فإنه لا تعلم إلهية المسـيح إلا بثبوت هذه الكتب، ولا تثبت هذه الكتب إلا بثبـوت أنهم رسل الله، ولا يثبت ذلك إلا بثـبوت أنه الله، فصـار ثبوت الإلهـية متوقفًا عـلى ثبوت إلهيته، وثبوت كونهم رسل الله متـوقفًا على كونهم رسل الله، فصار ذلك دورًا ممتنعًا.

قد يدعون عـصمة الحواريين، وعـصمة أهل المجامع بعـد الحواريين، كأهل المجمع الأول الذى كـان بحضرة قـسطنطين الذى حضره ثلاثمـائة وثمانية عـشر، ووضعـوا لهم الأمانة التى هى عقـيدة النصارى، التى لا يصح لهم قـربان إلا بها فيزعمون أن الحواريين أو هؤلاء جرت على أيديهم خوارق، وقد يذكرون أن منهم من جرى إحياء الموتى على يديه، وهذا إذا كان صحـيحًا -مع أن صاحبه لم يذكر أنه نبى- لا يدل على عـصمـته، فـإن أولياء الله مـن الصحـابة والتابعين بعـدهم

بإحسان وسائر أولياء الله من هذه الأمة وغيرها لهم من خوارق العادات ما يطول وصفه، وليس فيهم معصوم، يجب قبول كل ما يقول، بل يجوز الغلط على كل واحد منهم، وكل أحد يؤخذ من قوله، ويترك إلا الأنبياء -عليهم السلام-.

ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتيه الأنبياء، ولم يجب الإيمان بكل ما يقوله كل ولى لله.

قال -تعالى-:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ...﴾(٢).

ولهذا وجب الإيمان بالأنبياء جميعهم وما أوتوه كلهم.

ومن كذب نبيًّا واحدًا تعلم نبوته، فهو كافر باتفاق المسلمين، ومن سبه وجب قتله كذلك، بخلاف من ليس بنبى فإنه لا يكفر أحد بمخالفته، ولا يقتل بمجرد سبه إلا أن يقترن بالسب ما يكون مبيحًا للدم.

والذى عليه سلف الأمة كالصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين، وجماهير المسلمين، أن أفضل هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر ثم عمر وليس بعد الأنبياء أفضل منهما، وهذه الأمة أفضل الأمم، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: **«قد كان قبلكم فى الأمم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر»**(٣) والمحدث الملهم: المخاطب.

وكان عمر قد جعل الله الحق على قلبه ولسانه(٤)، وما كان يقول لشىء:

---

(١) سورة البقرة: ١٣٦.

(٢) سورة البقرة: ١٧٧.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٤) أخرج الترمذى (٣٧٠٢)، وأحمد (٢/ ٥٣، ٩٥)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٩٩)، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»**.

قال الترمذى: حسن صحيح غريب. وقال الألبانى فى «صحيح الجامع» (١٨٣٤): صحيح.

إنى لأراه كذا وكذا، إلا كـان كما يقول، وكانـت السكينة تنطق على لسانه، ومع هذا فلم يكن -لا هو ولا غـيره ممن ليس بنبى- مـعصومًـا من الغلط، ولا يجب على المسلم قـبول مـا يقوله إن لـم يدل عـليه الكتـاب والسنَّة، ولا كان يجـوز له العمل بما يلقـى فى قلبه إن لـم يعرضـه على الكتاب والسنة فـإن وافق ذلك قبله، وإن خالف ذلك رده.

وعند المسلمين أنه ليس فى أتباع المسيح عليه السلام مثل أبى بكر وعمر -رضوان الله عليهم- فـإذا قالوا عن الحواريين: أنهم ليسـوا معصومين، فـهم يقولون ذلك فيـمن هو عندهم أفضل من الحـواريين، كما أنهم إذا قـالوا عن المسيح: أنه عـبد مخلوق ليس بإله، فهم يقـولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من المسيح كـمحمد وإبراهيم -عليهما أفضل الصلاة والسلام-.

وفى الملاحدة المنتسـبين إلى الأمة من فيه بدع من الغلو يشـبه غلو النصارى كمن يدعى الإلهيـة من الإسماعيلية كـبنى عبيد القداح، كالحـاكم وغيره، ويدعى الإلهـية فى على بن أبى طالب أو غـيـره كدعـوى النصيـرية، وهؤلاء كفـار عند المسلمين.

وكذلك من يدعى الإلهـية فى بعض المشايخ، كـغلاة العدوية، والحلاجـية واليونسية، وغيرهم، وكذلك من يدعى عصمة بنى عبيد أو عصمة الاثنى عشر أو عصمة بعض المشايخ.

فإن النصارى يدعون عـصمة الحواريين الاثنى عشر، وهؤلاء يدعـون عصمة الأئمة الاثنى عشر.

وهؤلاء يسندون أصل دينهم إلى قول الحواريين المعـصومين عندهم ويقولون أنهم معـصومون فى النقل عن المسيـح وفى الفتيا، وإن مـا قالوه فقد قـاله المسيح -عليه الصلاة والسلام-.

وهؤلاء يقولون عن أولئك: إنهم معصومون فى النقل والفتيا، وإن ما قالوه فقد قاله الرسول -عليه الصلاة والسلام- وهذا مبسوط فى موضع آخر.

والمقـصود هنـا أنه ليس مع النصـارى نقل متـواتر عن المسـيح بألفـاظ هذه الأناجيل ولا نقل لا متواتر ولا آحاد، بأكـثر ما هم عليه من الشرائع. ولا عندهم ولا عند اليهـود نقل متواتر بألفاظ التـوراة ونبوات الأنبياء كـما عند المسلمين نقل

متواتر بالقرآن، وبالشرائع الظاهرة المعروفة للعامة والخاصة، وهذا مثل الأمانة التى هى أصل دينهم، وصلاتهم إلى المشرق، وإحلال الخنزير، وترك الختان، وتعظيم الصليب، واتخاذ الصور فى الكنائس، وغير ذلك من شرائعهم، ليست منقولة عن المسيح ولا لها ذكر فى الأناجيل التى ينقلونها عنه. وهم متفقون علي أن الأمانة التى جعلوها أصل دينهم وأساس اعتقادهم، ليست ألفاظها موجودة فى الأناجيل ولا هى مأثورة عن الحواريين، وهم متفقون على أن الذين وضعوها أهل المجمع الأول الذين كانوا عند قسطنطين الذى حضره ثلاثمائة وثمانية عشر، وخالفوا عبد الله بن أريوس الذى جعل المسيح عبدًا لله كما يقوله المسلمون، ووضعوا هذه الأمانة.

وهذا المجمع كان بعد المسيح بمدة طويلة تزيد على ثلاثمائة سنة وبسط هذا له موضع آخر، وإنما المقصود هنا الجواب عن قولهم: إن محمدًا ﷺ ثبت ما معهم، وأنه نفى عن إنجيلهم، وكتبهم التى بأيديهم التهم، والتبديل لها، والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

وقد تبين أن محمدًا ﷺ، لم يصدق شيئًا من دينهم المبدل، والمنسوخ، ولكن صدق الأنبياء قبله وما جاءوا به، وأثنى على من اتبعهم لا على من خالفهم أو كذب نبيًّا من الأنبياء. وإن كفر النصارى من جنس كفر اليهود، فإن اليهود بدلوا معانى الكتاب الأول، وكذبوا بالكتاب الثانى، وهو الإنجيل، وكذلك النصارى بدلوا معانى الكتاب الأول التوراة، والإنجيل، وكذبوا بالكتاب الثانى، وهو القرآن، وأنهم ادعوا أن محمدًا ﷺ صدق بجميع ألفاظ الكتب التى عندهم.

فجمهور المسلمين يمنعون هذا ويقولون: إن بعض ألفاظها *بدل كما قد بدل كثير من معانيها ومن المسلمين من يقول: التبديل إنما وقع فى معانيها لا فى ألفاظها*، وهذا القول يقر به عامة اليهود والنصارى.

وعلى القولين فلا حجة لهم فى تصديق محمد ﷺ لما هم عليه من الدين الباطل، فإن الكتب الإلهية التى بأيديهم لا تدل على صحة ما كفرهم به محمد ﷺ وأمته.

مثل التثليث، والاتحاد، والحلول وتغيير شريعة المسيح، وتكذيب محمد ﷺ فليس فى الكتب التى بأيديهم ما يدل لا نصًّا ولا ظاهرًا، على الأمانة التى هى أصل دينهم، وما فى ذلك من التثليث، والاتحاد، والحلول، ولا فيها ما يدل على

أكثر شـرائعهم كالصلاة إلى الشرق واسـتحلال المحرمات من الخنزير والميـتة ونحو ذلك، كما قد بسط فى موضع آخر.

ويقال لهم: أين مـا معكم عن محـمد ﷺ، مما يدل على أن ألفاظ الكتب التى بأيديكم لم يغير فيها شىء؟ ومعلوم أن المسلمين، وغيرهم إذا اختلفوا لم يكن قول فريق حجة على الفريق الآخر.

فإذا كان المسلمون قد اختلفوا فى تبديل بعض ألفاظ الكتب المتقدمة لم يكن قول فريق حجة على الأخرى، ولا يجوز لأحد من المسلمين، ولا منكم أن يضيف إلى الرسول قولا إلا بدليل.

فـأين فى القرآن والسنَّة الثـابتة عن مـحمـد ﷺ أن جمـيع ما بأيدى أهل الكتاب من التوراة، والإنجيل، والزبور، ونبوات الأنبياء لم تبدل بشىء من ألفاظها حتى يقولوا: إن محمداً ﷺ نفى عن كتبهم ذلك؟

وهؤلاء بنوا كلامهم عـلى أن ألفاظ كتبهم تدل على صـحة دينهم الذى هم عليه بعـد مبعث محـمد ﷺ وبعد تكذيبـهم لمحمد ﷺ، وأنه لم يبدل شىء من ألفاظها.

وقد تبيَّن فساد ذلك من وجوه متعددة.

ثم زعمـوا أن المسلمين يدعون أن ألـفاظ هذه الكتب حـرفت كلها بجـميع لغاتها بعد مبعث محمد ﷺ، وهذا القول لم يقله أحد من المسلمين -فيما أعلم- وظنوا أنهم بالجواب عن هذا يكونون قد أجابوا المسلمين.



فصل

فقال الحاكى عنهم: فقلت لهم: إن قال قائل: إن التبديل والتغيير يجوز أن يكون بعد هذا القول فقالوا: إنا نعجب من هؤلاء القوم -على علمهم، وذكائهم، ومعرفتهم- كيف يحتجون علينا بمثل هذا القول؟

وذلك أنا أيضًا إذا احتججنا عليهم بمثل هذا القول، وقلنا: إن الكتاب الذى فى أيديهم يومنا هذا قد غيروه وبدلوه وكتبوا فيه ما أرادوا واشتهوا هل كانوا يجوِّزون كلامنا؟ قال الحاكى عنهم: فقلت لهم: هذا مما لا يجوز ولا يمكن أحدًا أن يقوله، ولا يمكن أن يتغير منه إلى آخر الفصل، وسيأتى بألفاظ بعد هذا.

والجواب أن هذا السائل النصرانى الذى ذكر عن المسلمين سؤالاً لا يقولونه، وعن علماء النصارى جوابه، هو وهم بنوا كلامهم على أصلين فاسدين:

أحدُهما: أن الرسول ثبت ما معهم، ونفى عن كتبهم التى بين أيديهم التهم، والتبديل، والتغيير لها. ومقصودهم بذلك لا يتم إلا إذا نفى التبديل عن لفظها، ومعناها، وهذا مما يعلم كل عاقل أن الرسول لم ينفه عنها بل النقل المتواتر عنه بنقيض ذلك. وهم أيضًا، وكل عاقل يعلم أن الكتب التى بأيديهم فى تفسيرها من الاختلاف والاضطراب بين فرق النصارى، وبين النصارى واليهود ما يوجب القطع بأن كثيراً من ذلك مبدل محرف، وكذلك وقع فى تغيير شرائع هذه الكتب، فإن الكتب تضمنت أصلين: الإخبار، والأمر. والإيمان بها لا يتم إلا بتصديقها فيما أخبرت، وإيجاب طاعتها فيما أوجبته.

وأهل الكتاب يكذبون بكثير مما أخبرت ولا يوجبون طاعتها فى كثير مما أوجبته وأمرت به، وكل فرقة منهم تشهد على الفرقة الأخرى بمثل ذلك.

والنصارى لهم سبع مجامع مشهورة عندهم، وهم فى كل مجمع يلعنون طائفة منهم كبيرة ويكفرونهم ويقولون عنهم: إنهم كذبوا ببعض ما فى تلك الكتب، ولم يوجبوا طاعة بعض أمرها. وتلك الطائفة تشهد على الأخرى بأنها كذبت ببعض ما فيها. ثم فرقهم الثلاثة المشهورة النسطورية، والملكية، واليعقوبية، كل طائفة تكفر الأخرى وتلعنها وتشهد عليها أنها مكذبة ببعض ما فى النبوات غير

موجبة لطاعة بعض ما فيها. بل اختـلافهم فى نفس التوحيد والرسالة، فزعم كل فريق منهم أن المسيح جـاء بما هم عليه. والمسيح عليه السلام وجميع الرسل بريئون من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًـا وبريئون ممن يقول على الله غير الحق أو يقول على الله ما لا يعلم. وبريئـون من كل قول باطل يقال على الله -عـز وجل- وإن كان قائله مخطئًا لم يتعمد الكذب.

وفى مقالات النصـارى من هذه الأنواع ما يطول وصفه. وقـد بسط فى غير هذا الموضع.

وإذا عرفت أن جمـيع الطوائف: من المسلمين واليهود والنصـارى، يشهدون أنه قد وقع فى هذه الكتب تحريـف وتبديل فى معانيها وتـفاسيرها وشرائعهـا فهذا القدر كـاف. وهم من حين بعث محـمد ﷺ صار كل من لم يؤمن به كـافرًا، بخلاف حال النصـارى قبل مبعث مـحمد ﷺ فإنه كان فيـهم من هو متبع لدين المسيح. والمسلمـون -وإن كان فيهم من حـرَّف الدين وبدله- فجمهـورهم خالفوا هؤلاء، فلا يزال فيـهم طائفة ظاهرة على الحق لا يضرهم من خـالفهم، وخذلهم حتى تقوم الساعة، بخـلاف النصارى، فإنهم كفروا جميعهم، كمـا كفرت اليهود بتكذيب المسيح.

والمسلمون يثـبتـون بالدلائل الكثيرة أنهم بدلـوا معانى التـوراة، والإنجيل، والزبور، وغـيرهم من نبـوات الأنبياء، وابـتدعوا شـرعًا لم يأت به المـسيح، ولا غيره، ولا يـقوله عاقل، مثل زعـمهم: أن جميع بنى آدم من الأنبـياء، والرسل، وغـيرهم كـانوا فى الجـحيم فى حـبس الشيـطان، لأجل أن أباهم آدم أكل من الشجرة، وأنهم إنما تخلصوا من ذلك لما صلب المسيح.

فإن هذا الكلام لو نقله ناقل عن بعض الأنبيـاء لقطعنا بكذبه عليهم، فكيف وهذا الكلام ليس منقولاً عندهم عن أحد من الأنبياء؟ وإنما ينقلونه عمن ليس قوله حجة لازمة، فإن كثيرًا من دينهم مأخوذ عن رءوسهم الذين ليسوا بأنبياء.

فإذا قطعنا بكذب من ينقله عن الأنبـياء فكيف إذا لم ينقله عنهم؟ وذلك أن الأنبيـاء -عليهم السلام- يخـبرون الناس بما تقـصر عقـولهم عن معرفـته، لا بما يعرفون أنه باطل ممتـنع، فيخبرونهم بمحـيرات العقول لا محـالات العقول، وآدم عليه السلام وإن كان أكل من الشجرة -فقد تاب الله عليه واجتباه وهداه.

قال -تعالى-:

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(٢).

وليس عند أهل الكتاب في كتبهم ما ينفى توبته وإنما قد يقول قائلهم إنا لا نعلم أنه تاب، أو ليس عندنا توبته، وعدم العلم بشيء ليس علمًا بعدمه، وعدم وجود الشيء فى كتاب من كتب الله لا ينفى أن يكون فى كتاب آخر، ففى التوراة ما ليس فى الإنجيل. وفيهما ما ليس فى الزبور، وفى الإنجيل والزبور ما ليس فى التوراة، وفى سائر النبوات ما لا يوجد فى هذه الكتب، والقرآن لو كان دون التوراة والإنجيل والزبور والنبوات أو كان مثلها لأمكن أن يكون فيه ما ليس فيها. فكيف إذا كان أفضل وأشرف وفيه من العلم أعظم مما فى التوراة والإنجيل وقد بين الله -تعالى- فضله عليهما فى غير موضع، كقوله -تعالى-:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ... ﴾(٣).

وقال -تعالى-:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾(٤).

وقال -تعالى-:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ... ﴾(٥).

وسواء تاب آدم أو لم يتب فكيف يجوز أن يكون رسل الله الذين هم أفضل منه محبوسين فى حبس الشيطان فى جهنم بذنبه؟ وإبراهيم خليل الرحمن كان أبوه كافرًا ولم يؤاخذه الله بذنبه فكيف يجعله فى جهنم فى حبس الشيطان بسبب ذنب أبيه الأقصى آدم، مع أنه كان نبيًّا؟

---

(١) سورة طه: ١٢١، ١٢٢.

(٢) سورة البقرة: ٣٧.

(٣) سورة الزمر: ٢٣.

(٤) سورة يوسف: ٣.

(٥) سورة المائدة: ٤٨.

ونوح عليه السلام قد مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته وجعل ذريته هم الباقين فكيف يكون في جهنم في حبس الشيطان لأجل ذنب آدم؟.

وموسى بن عمران الذى كلمه الله تكليمًا، وأظهر على يديه من البراهين، والآيات ما لم يظهر مثله على يدى المسيح، وقتل نفسا لم يؤمر بقتلها، فغفر الله له ذلك، وله من المنزلة عند الله والكرامة، ما لا يقدر قدره، فكيف يكون فى جهنم فى حبس الشيطان.

ثم أى مناسبة بين الصلب الذى هو من أعظم الذنوب، سواء صلبوا المسيح، أو المشبه به، وبين تخليص هؤلاء من الشيطان؟ فإن الشيطان إن فعل ذلك بالذرية كان ظالـمًا معتديًا والله -عز وجل- قادر على منعه من ظلمهم، بل وعلى عقوبته إذا لم ينته عن ظلمهم.

* فلماذا أخر منعه من ظلمهم* إلى زمن المسيح؟ وهو -سبحانه- ولى المؤمنين وناصرهم، ومؤيدهم، وهم رسله الذين نصرهم على من عاداهم، بل أهلك أعداءهم الذين هم جند الشيطان.

فكيف لا يمنع الشيطان بعد موتهم أن يظلمهم، ويجعل أرواحهم فى جهنم؟ هذا إن قدر أن الشيطان كان قادرًا على ذلك، وكيف يجوز أن يجعل الشيطان بعد موت أنبيائه، وأوليائه، وسقوط التكليف عنهم، واستحقاقهم كرامته، وإحسانه، وجنته بحكم وعده، ومقتضى حكمته، فجعله مسلطًا على حبسهم فى جهنم؟!.

وإن قالوا: الرب -عز وجل- ما كان يقدر على تخليصهم من الشيطان، مع علمه بأنه ظالم معتد عليهم بعد الموت إلا بأن يحتال عليه بإخفاء نفسه ليتمكن الشيطان منه كما يزعمون -فهذا مع ما فيه من الكفر العظيم، وجعل الرب -سبحانه- عاجزًا كما جعلوه أولاً ظالـمًا- فيه من التناقض ما يقتضى عظيم جهلهم الذى جعلوا به الرب جاهلاً، فإنهم يقولون: إنه احتال على الشيطان ليأخذه بعدل، كما احتال الشيطان على آدم بالحية، فاختفى منه لئلا يعلم أنه ناسوت الإله، وناسوت الإله لم يعمل خطيئة قط بخلاف غيره.

فلما أراد الشيطان أخذ روحه ليحبسه فى جهنم كسائر من مضى، وهو لم يعمل خطيئة. استحق الشيطان أن يأخذه الرب، ويخلص الذرية من حبسه.

وهذا تجهيل منهم للرب -سبحانه وتعالى- عما يقولون مع تعجيزه وتظليمه. فإنه إن كان هو سلط الشيطان على بنى آدم كما يقولون: فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره، إذ الجميع بني آدم، وأيضًا فإذا قدر أن الناسوت يدفع الشيطان عن نفسه بحق، فإنهم يقولون: إنه دخل الجحيم، وأخرج منه ذرية آدم.

فيقال: إن كان تسلط الشيطان على حبسهم فى الجحيم بحق لأجل ذنوبهم مع ذنب أبيهم، لم يجز إخراجهم لأجل سلامة ناسوت المسيح من الذنب، وإن كانوا مظلومين مع الشيطان، وجب تخليصهم قبل صلب الناسوت ولم يجز تأخير ذلك فليس فى مجرد سلامة المسيح من الذنوب ما يوجب سلامة غيره، وإن قالوا أنه كان بدون تسلطه على صلبه عاجزًا عن دفعه، فهو مع تسلطه على صلبه أعجز وأعجز.

الأصل الثانى الفاسد: الذى بنوا عليه سؤالهم الذى جعلوه من جهة المسلمين وجوابهم، ظنهم أن المسلمين يقولون: إن هذه الكتب حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة منها بعد مبعث محمد ﷺ.

وهذا مما لا يقوله المسلمون، ولكن قد يقول بعضهم: إنه حرف بعد مبعث محمد ﷺ، ألفاظ بعض النسخ، فإن الجمهور الذين يقولون: إن بعض ألفاظها حرفت، منهم من يقول: كان هذا قبل المبعث.

ومنهم من يقول: كان بعده، ومنهم من يثبت الأمرين أو يجوزهما، ولكن لا يقول: إنه حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة فى مشارق الأرض ومغاربها، كما حكاه هذا الحاكى عنهم، ولكن علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع التحريف فى المعانى والتفسير.

وإن كانت كل طائفة تزعم أن الأخرى هى التى حرفت المعانى.

وأما ألفاظ الكتب، فقد ذهبت طائفة من علماء المسلمين إلى أن ألفاظها لم تبدل، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكتاب.

وذهب كثير من علماء المسلمين وأهل الكتاب إلى أنه بدل بعض ألفاظها.

وهذا مشهور عند كثير من علماء المسلمين، وقاله أيضًا كثير من علماء أهل الكتاب.

حتى فى صلب المسيح، ذهبت طائـفة من النصارى إلى أنه إنما صلب الذى شبه بالمسيح، كما أخبر به القرآن، وإن الذين أخبروا بصلبه كانوا قد أخبروا بظاهر الأمر، فإنه لما ألقى شبهـه على المصلوب ظنوا أنه هو المسيح أو تعمدوا الكذب ثم هؤلاء منهم الذين يقولون: إن فى ألفاظ الكتب ما هو مبدل.

وفيهم من يجعل المبدل من التوراة والإنجيل كثيراً منهما. وربما جعل بعضهم المبدل أكثرهما، لاسيما الإنجيل، فإن الطعن فيه أكثر وأظهر منه فى التوراة.

ومن هؤلاء من يسرف حـتى يقول: أنه لا حـرمة لشيء منهمـا، بل يجوز الاستنجاء بهما.

ومنهم من يقول: الذى بدلت ألفاظه قليل منهما، وهذا أظهر.

والتبديل فى الإنجـيل أظهر، بل كثير من النـاس يقول: هذه الأناجيل ليس فيها من كلام الله إلا القليل.

والإنجيل الذى هو كلام الله ليس هو هذه الأناجيل.

والصحيح أن هذه الـتوراة التى بأيدى أهل الكتاب، فيـها ما هو حكم الله، وإن كان قد بدل وغير بعض ألفاظهما كقوله -تعالى-:

﴿ يَا أَيُّـهَا الرَّسُـولُ لا يَحْزُنـكَ الَّذِيـنَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُـفْرِ مِنَ الَّذِيـنَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ ﴾.

إلى قوله: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾(١).

فعلم أن التوراة التى كـانت موجودة بعد خراب بيت المقـدس، وبعد مجيء بختنصر وبعد مبعث المسيح، وبعد مبعث محمد ﷺ، فيها حكم الله.

والتوراة التى كانت عند يهود المدينة على عهد رسول الله ﷺ وإن قيل: إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه، فلا نشهد على كل نسخة في العالم بمثل ذلك، فإن هذا غير مـعلوم لنا، وهو أيضًا متعذر، بل يمكن تغـيير كثيـر من النسخ، وإشاعة ذلك عند الأتباع حتى لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غير بعد ذلك، ومع هذا فكثيـر من نسخ التوراة والإنجـيل متفـقة فى الغالب، إنما تخـتلف فى اليسـير من

(١) سورة المائدة: ٤١، ٤٢.

ألفاظها، فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ بعد مبعث الرسول ممكن لا يمكن أحد أن يجزم بنفيه، ولا يقدر أحد من اليهود والنصارى أن يشهد بأن كل نسخة فى العالم بالكتابين متفقة الألفاظ، إذ هذا لا سبيل لأحد إلى علمه والاختلاف اليسير في ألفاظ هذه الكتب موجود فى الكثير من النسخ، كما قد تختلف نسخ بعض كتب الحديث، أو تبديل بعض ألفاظ بعض النسخ، وهذا خلاف القرآن المجيد الذى حفظت ألفاظه فى الصدور، بالنقل المتواتر لا يحتاج أن يحفظ فى كتاب كما قال -تعالى-:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١).

وذلك أن اليهود قبل النبى ﷺ وعلى عهده، وبعده منتشرون فى مشارف الأرض ومغاربها، وعندهم نسخ كثيرة من التوراة.

وكذلك النصارى عندهم نسخ كثيرة من التوراة، ولم يتمكن أحد من جمع هذه النسخ وتبديلها، ولو كان ذلك ممكنًا لكان هذا من الوقائع العظيمة التى تتوفر الدواعى على نقلها، وكذلك فى الإنجيل قال -تعالى-:

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ...﴾(٢).

فعلم أن فى هذا الإنجيل حكمًا أنزله الله -تعالى-، لكن الحكم هو من باب الأمر والنهى. وذلك لا يمنع أن يكون التغيير فى باب الإخبار، وهو الذى وقع فيه التبديل لفظًا، وأما الأحكام التى فى التوراة، فما يكاد أحد يدعى التبديل فى ألفاظها.

وقد ذكر طائفة من العلماء أن قوله -تعالى- فى الإنجيل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾(٣). هو خطاب لمن كان على دين المسيح قبل النسخ والتبديل، لا الموجودين بعد مبعث محمد ﷺ.

وهذا القول يناسب مناسبة ظاهرة لقراءة من قرأ: ﴿وَلِيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ﴾ بكسر اللام كقراءة حمزة فإن هذه لام كى، فإنه -تعالى- قال:

(١) سورة الحجر: ٩.
(٢) سورة المائدة: ٤٧.
(٣) سورة المائدة: ٤٧.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

فإذا قرئ «وَلِيَحْكُم»، كان المعنى وأتيناه الإنجيل لكذا وكذا، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، وهذا يوجب الحكم بما أنزل الله فى الإنجيل الحق، لا يدل على أن الإنجيل الموجود فى زمن الرسول هو ذلك الإنجيل.

وأما قراءة الجمهور: «وَلْيَحْكُم أَهْلُ الإِنْجِيلِ» فهو أمر بذلك. فمن العلماء من قال: هو أمر لمن كان الإنجيل الحق موجوداً عندهم أن يحكموا بما أنزل الله فيه، وعلى هذا يكون قوله -تعالى-: «وَلْيَحْكُم» أمر لهم قبل مبعث محمد ﷺ. وقال آخرون: لا حاجة إلى هذا التكلف، فإن القول فى الإنجيل كالقول فى التوراة. وقد قال -تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ﴾(٢).

---

(١) سورة المائدة: ٤٦، ٤٧.

(٢) سورة المائدة: ٤١-٤٦.

فهـذا قد صرح بأن أولئك الذين تحاكـموا إلى النبى ﷺ من اليهود عندهم التوراة فيها حكم الله، ثم تولوا عن حكم الله وقال بعد ذلك: ﴿ ... وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ ﴾[١]. وهذه لام الأمر، وهو أمر من الله أنزله على لسان محمد، وأمر من مات قبل هذا الخطاب ممتنع، وإنما يكـون الأمر أمرًا لمن آمن به من بعد خطاب الله لعباده بالأمر، فعلم أنه أمر لمن كان موجودًا حينئذ أن يحكموا بما أنزل الله فى الإنجيل، والله أنزل فى الإنجيل الأمر باتبـاع محمد ﷺ، كما أمر به فى التوراة، فليحكموا بما أنزل الله فى الإنجيل مما لـم ينسخه محمد ﷺ، كما أمر أهل التوراة أن يـحكموا بما أنزله مما لم ينسخه المسـيح، وما نسخه فـقد أمروا فيها باتبـاع المسيح، وقد أمروا في الإنجيل باتبـاع محمد ﷺ، فمن حكم من أهل الكتاب -بعـد مبعث محـمد- ﷺ بما أنزل الله فى التوراة والإنجـيل لم يحكم بما يخالف حكم محمد ﷺ، إذ كانوا مأمورين فى التوراة والإنجيل باتباع محمد ﷺ كما قال -تعالى-:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ... ﴾[٢].

وقال -تعالى-:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾[٣].

فجعل القرآن مهيمنًا. والمهيـمن: الشاهد الحاكم المؤتمن، فهو يحكم بما فيها مما لم ينسخه الله ويشهد بتصديق ما فيها مما لم يبدل ولهذا قال:

﴿ ... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا... ﴾[١].

وقد ثبت فى الصحـاح والسنن والمسانيد هذا. ففى الصحيحـين عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إن اليـهود جاءوا إلي رسول الله ﷺ، فذكروا له أن امرأة منهم ورجـلاً زنيا فـقال لهم رسـول الله ﷺ: «**مـا تجدون فى الـتوراة فى شـأن**

---

(١) سورة المائدة: ٤٧.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٣) سورة المائدة: ٤٨.

(٤) سورة المائدة: ٤٨.

الرجم؟». قالوا: نفضحـهم ويجلدون. فقال عبد الله بن سلام: كـذبتم. إن فيها الرجم: فأتوا بالتوراة، فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعـدها. فقـال له عبد الله بن سـلام: ارفع يدك، فرفع يده، فـإذا فيـها آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد. فأمر بهما النبى ﷺ، فرجما(١).

وأخرج البخارى عن عبد الله بن عمر أنه قال: أُتى رسول الله ﷺ بيهودى ويهودية قد زنيـا، فانطلق حتى جاء يهـود. فقال: **«ما تجدون في التوراة على من زنى؟»** قالوا: نسود وجوههما، ويطاف بهما. قال: **﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**(٢). قال: فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ مـا بين يديها وما وراءها، فقال عـبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ: مره فليـرفع يده فرفعهـا، فإذا تحتهـا آية الرجم. قالوا: صدق فيها آية الرجم، ولكننا نتكاتمه بيننا، وأن أحبارنا أحـدثوا التحميم والتجبية. فأمر رسول الله ﷺ برجمهما فرجما(٣).

وأخرج مسلم عن البراء بن عـازب ﷺ أنه قال: «مر على رسول الله ﷺ بيهودى محمم مجلود فدعاهم. فقال: **«هكذا تجدون حد الزنى فى كتابكم؟ قالوا: نعم»**.

فـدعى رجلاً مـن علمائهـم، فقـال: **«أنشـدك الله الذى أنزل التـوراة على موسى، أهكذا تجدون حـد الزنى فى كتابكم؟»** قال: لا، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك، نجـد الرجم، ولكنه كثر فى أشرافنا، فكنا إذا أخـذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فـقلنا: تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التـحميم والجلد مكان الرجم. فقال: رسول الله ﷺ: **«اللّهم إنى أول من أحيا أمرك إذا أماتوه»**، فأمر به فرجم.

فأنزل الله -تعالى-:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ...﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٦٨٤١)، ومسلم (١٦٩٩)، وأبو داود (٤٤٤٦).

(٢) سورة آل عمران: ٩٣.

(٣) صحيح بنحوه: أخرجه البخارى (٤٥٥٦) بنحوه.

إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ -إلى- الظَّالِمُونَ -إلى- الْفَاسِقُونَ﴾(١).

قال: هي في الكفار كلها(٢).

وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه قال: «رجم النبى ﷺ رجلاً من أسلم، ورجلاً من اليهود»(٣).

وأما السنن ففى سنن أبى داود عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر ﷺ أنه قال: أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى القف فأتاهم فى بيت المدارس.

فقالوا: يا أبا القاسم إن رجلاً منا زنى بامرأة فاحكم بينهم، فوضعوا لرسول الله ﷺ وسادة فجلس عليها ثم قال: «**ائتونى التوراة**» فأتى بها فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها، وقال: «**آمنت بك وبمن أنزلك**». ثم قال: «**ائتونى بأعلمكم**» فأتى بشاب، ثم ذكر قصة الرجم(٤).

وأخرج أيضًا أبو داود وغيره عن أبى هريرة ﷺ أنه قال: »«زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبى، فإنه نبى بعث بالتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله، فقلنا: نبى من أنبيائك، قالوا: فأتوا النبى ﷺ، وهو جالس فى المسجد فى أصحابه فقالوا: يا أبا القاسم ما ترى فى رجل وامرأة -منهم- زنيا، فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدارسهم، فقام على الباب فقال: «**أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أحصن؟**».

قالوا: نحممه ونجبيه، ونجلده -والتجبية: أن يحمل الزانيان على حمار، ويقابل أقفيتهما، ويطاف بهما- قال: وسكت شاب منهم، فلما رآه النبى ﷺ *ساكتًا، أنشده*. فقال: اللَّهم إذ نشدتنا فإنَّا نجد فى التوراة الرجم. فقال النبى ﷺ: «**فما أول ما ارتخصتم أمر الله؟**» قال: زنى ذو قرابة ملك من ملوكنا

---

(١) سورة المائدة: ٤١-٤٧.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٠٠)، وأبو داود (٤٤٤٨)، والواحدى فى «أسباب النزول» (٢١١).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٠١)، وأبو داود (٤٤٥٢-٤٤٥٥).

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٤٤٩) وذكره الألبانى فى «صحيح سنن أبى داود».

فأخر عنه الرجم ثم زنى رجل فى أسـرة من الناس فأراد رجمه فحـال قومه دونه، وقالوا: لا يرجم صاحـبنا حتى تجيء بصاحبك فـترجمه فاصطلحـوا هذه العقوبة بينهـم. قال النبى ﷺ : «**فإنى أحكم بما فى التوراة، فأمر بهما فرجما**».

قال الزهرى: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم:

﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا...** ﴾(١).

فكان النبى ﷺ منهم(٢).

وأيضًا فـقد تحاكمـوا إليه فى القود الذى كـان بين بنى قريظة والنضيـر، وكان النضيـر أشرف من قريظة، فكان إذا قـتل بعض إحدى القبـيلتين قتيـلاً من الأخرى فيقتلونه، ولم يضعفوا الدية، وإذا قتل من القبيلة الشريفة قتلوا به، وأضعفوا الدية.

قال أبو داود سليمان بن الأشعث فى سننه: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا عبيد الله بن موسى عن على بن صـالح، عن سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كـان قريظة، والنضير، وكان النضيـر أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قـتل به وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة ودىماية وسق من تمر.

فلما بعث النبى ﷺ قتل رجل من النضـير رجلاً من قريظة فقـالوا: ادفعوه إلينا نقتله. فقالوا: بيننا وبينكم محمد فأتوه فنزلت.

﴿ **وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ...** ﴾(٣).

والقسط: النفس بالنفس، ثم نزلت:

﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ...** ﴾(٤).

قال أبو داود: قريظة والنضير من ولد هارون.

---

(١) سورة المائدة: ٤٤.

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٤٥٠)، وابن جرير الطبرى فى «تفسيره» (٦/ ١٥٠، ١٥١)، والواحـدى فى «أسبـاب النزول» (٢١٣)، وقـال الألبانى فـى «ضعـيف سنن أبى داود» (٩٥٩): ضعيف.

(٣) سورة المائدة: ٤٢.

(٤) سورة المائدة: ٥٠.

والخـبر أخـرجـه أبو داود (٤٤٩٤)، والنسائى (٨/ ١٨-١٩)، وابن جـرير الطبـرى فى «تفسيره» (٦/ ١٥٧)، وصححه الألبانى فى «صحيح سنن أبى داود».

وبسط هذا له موضع آخر، وعلى كل قول، فقد أخبر الله -عز وجل- أن فى التوراة الموجودة بعد المسيح عليه السلام حكم الله، وأن أهل الكتاب اليهود تركوا حكم الله الذى فى التوراة مع كفرهم بالمسيح، وهذا ذم من الله لهم على ما تركوه من حكمه الذى جاء به الكتاب الأول، ولم ينسخه الرسول الثانى.

وهذا من التبديل الثانى الذى ذموا عليه، ودل ذلك على أن فى التوراة الموجودة بعد مبعث المسيح حكمًا أنزله الله، أمروا أن يحكموا به، وهكذا يمكن أن يقال فى الإنجيل.

ومعلوم أن الحكم الذى أمروا أن يحكموا به من أحكام التوراة، ولم ينسخه الإنجيل ولا القرآن، فكذلك ما أمروا أن يحكموا به من أحكام الإنجيل هو مما لم ينسخه القرآن، وذلك أن الدين الجامع أن يعبد الله وحده، ويأمر بما أمر الله به ويحكم بما أنزله الله فى أى كتاب أنزله ولم ينسخه فإنه يحكم به.

ولهذا كان مذهب جماهير السلف والأئمة، أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه. ومن حكم بالشرع المنسوخ فلم يحكم بما أنزل الله، كما أن الله أمر أمة محمد ﷺ أن يحكموا بما أنزل الله فى القرآن، وفيه الناسخ، والمنسوخ. فهكذا القول فى جنس الكتب المنزلة.

قال -تعالى-:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ

أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(١).

فقد أمر نبيه محمداً ﷺ، أن يحكم بما أنزل الله إليه، وحذره اتباع أهوائهم، وبين أن المخالف لحكمه هو حكم الجاهلية، حيث قال -تعالى-:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٢).

وأخبره -تعالى- أنه جعل لكل من أهل التوراة، والإنجيل، والقرآن، شرعة ومنهاجًا، وأمره -تعالى- بالحكم بما أنزل الله أمر عام لأهل التوراة والإنجيل والقرآن، ليس لأحد فى وقت من الأوقات أن يحكم بغير ما أنزل الله، والذى أنزله الله هو دين واحد اتفقت عليه الكتب والرسل، وهم متفقون فى أصول الدين وقواعد الشريعة، وإن تنوعوا فى الشرعة والمنهاج، بين ناسخ ومنسوخ، فهو شبيه بتنوع حال الكتاب الواحد، فإن المسلمين كانوا أولا مأمورين بالصلاة لبيت المقدس، ثم أمروا أن يصلوا إلى المسجد الحرام، وفى كلا الأمرين إنما اتبعوا ما أنزل الله -عز وجل-.

وكذلك موسى عليه السلام، كان مأموراً بالسبت محرمًا عليه ما حرمه الله فى التوراة، وهو متبع ما أنزله الله -عز وجل-، والمسيح ﷺ أحل بعض ما حرمه الله، فى التوراة، وهو متبع ما أنزل الله -عز وجل- فليس فى أمر الله لأهل التوراة والإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ، كما أنه ليس فى أمر أهل القرآن أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ، بل إذا كان ناسخ ومنسوخ فالذى أنزل الله هو الحكم بالناسخ دون المنسوخ. فمن حكم بالمنسوخ فقد حكم بغير ما أنزل الله -عز وجل-. ومما يوضح هذا قوله -تعالى-:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم

---

(١) سورة المائدة: ٤٨-٥٦.

(٢) سورة المائدة: ٥٠.

مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(١).

فإن هذا يبين أن هذا أمر لمحمد ﷺ أن يقول لأهل الكتاب الذى بعث إليهم: إنهم ليسوا على شىء، حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم. فدل ذلك على أنهم عندهم ما يعلم أنه منزل من الله، وأنهم مأمورون بإقامته إذ كان ذلك مما قرره محمد ﷺ، ولم ينسخه. ومعلوم أن كل ما أمر الله به على لسان نبى، ولم ينسخه النبى الثانى بل أقره كان الله آمراً به على لسان نبى بعد نبى، ولم يكن فى بعثة الثانى ما يسقط وجوب اتباع ما أمر به النبى الأول، وقرره النبى الثانى.

ولا يجوز أن يقال: إن الله ينسخ بالكتاب الثانى جميع ما شرعه بالكتاب الأول، وإنما المنسوخ قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب، والشرائع.

وأيضًا ففى التوراة والإنجيل ما دل على نبوة محمد ﷺ، فإذا حكم أهل التوراة والإنجيل بما أنزل الله فيهما، حكموا بما أوجب عليهم اتباع محمد ﷺ.

وهذا يدل على أن فى التوراة والإنجيل ما يعلمون أن الله أنزله، إذ لا يؤمرون أن يحكموا بما أنزل الله، ولا يعلمون ما أنزل الله، والحكم إنما يكون فى الأمر والنهى. والعلم ببعض معانى الكتب لا ينافى عدم العلم ببعضها، وهذا متفق عليه فى المعانى، فإن المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن فى الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وأنه أرسل إلى الخلق رسلاً من البشر، وأنه أوجب العدل وحرم الظلم والفواحش والشرك، وأمثال ذلك من الشرائع الكلية وأن فيها الوعد بالثواب، والوعيد بالعقاب، بل هم متفقون على الإيمان باليوم الآخر، وقد تنازعوا فى بعض معانيها، واختلفوا فى تفسير ذلك كما اختلفت اليهود والنصارى فى المسيح المبشر به النبوات، هل هو المسيح ابن مريم عليه السلام أو مسيح آخر ينتظر؟

والمسلمون يعلمون أن الصواب فى هذا مع النصارى، لكن لا يوافقونهم على ما أحدثوا فيه من الإفك والشرك.

وكذلك يقال إذا بدل قليل من ألفاظها الخبرية لم يمنع ذلك أن يكون أكثر ألفاظها لم يبدل، لاسيما إذا كان فى نفس الكتاب ما يدل على المبدل. وقد يقال

(١) سورة المائدة: ٦٨.

أن مـا يدل من ألفاظ التـوراة والإنجيل فـفى نفس التـوراة والإنجيل مـا يدل على تبديله، فبهذا يحصل الجواب عن شـبهة من يقول: إنه لم يبدل شيء من ألفاظها، فإنهم يقـولون: إذا كان التبديل قـد وقع فـى ألفاظ التـوارة والإنجيل قبل مـبعـث محمد ﷺ لم يعلم الحق من الباطل، فسقط الاحتجاج بهما ووجوب العمل بهما على أهل الكتاب، فلا يذمون حينئذ على ترك اتباعهما.

والقرآن قد ذمهم على ترك الحكم بما فيهما، واستشهد بهما فى مواضع.

وجواب ذلك أن ما وقع من التبديل قلـيل والأكثر لم يبدل، والذى لم يبدل فيـه ألفاظ صـريحة تبـين بها المقـصود من غلط مـا خالفـها ولها شـواهد ونظائر متعـددة، يصدق بعضها بعـضًا، بخلاف المبدل فإنه ألفـاظ قليلة، وسائر نصوص الكتب يناقضـها، وصار هذا بمنزلة كتب الحـديث المنقولة عن النبى ﷺ، فإنه إذا وقع فى سنن أبى داود والتـرمذى أو غـيرهمـا أحاديث قليلة ضـعيـفة، كـان فى الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبى ﷺ ما يبين ضعف تلك.

بل وكـذلك صحـيح مسلم فـيه ألفـاظ قليلة غلط، وفى نفس الأحـاديث الصحيحـة مع القرآن ما يبين غلطها، مثل مـا رُوى أن الله خلق التربة يوم السبت وجعل خلق المخلوقات فى الأيام السبعة(١)، فإن هذا الحديث قد بين أئمة الحديث كيحيى بن معين وعبد الرحمن بن مهدى، والبخارى وغيرهم أنه غلط، وأنه ليس فى كلام النبى ﷺ، بل صرح الـبخارى فى تـاريخه الكبـير أنه من كـلام كعب الأحبار، كما قد بسط فى موضعه. والقرآن يدل على غلط هذا ويبين أن الخلق فى ستـة أيام، وثبت فى الصحيح أن آخر الخـلق كان يوم الجمعـة، فيكون أول الخلق يوم الأحد.

وكذلك ما رُوى أنه ﷺ، صلى الكسوف بركوعين أو ثلاثة(٢).

---

(١) أخرجه مسلم(٢٧٨٩) عن أبـى هريرة قال: «أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال: خلق الله -عز وجل- التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثـلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فـيها الدواب يوم الخـميس وخلق آدم عليه السلام بعد العـصر من يوم الجمـعة فى آخر الخلق فى آخـر ساعة من سـاعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل».

(٢) أخرج مسلم (٩٠١) عن عـائشة: «أن الشمس انكسفت على عـهد رسول الله ﷺ فقام قيامًا شديدًا يقوم قائمًا ثم يركع، ثم يقوم ثم يركع، ثم يقوم ثم يركع، ركعتين فى ثلاث ركـعات وأربـع سجـدات» الحـديث، وأخـرجه أبو داود (١١٧٧)، وقـال الألبـانى فى «ضعـيف سنن أبى داود» (٢٥٦): صحيح، لكن قـوله «ثلاث ركوعات شاذ والمحـفوظ «ركوعان».

فإن الثابت المتواتر عن النبى ﷺ، فى الصحيحين، وغيرهما من حديث عائشة، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو، وغيرهم أنه «صلى كل ركعة بركوعين»[(١)] ولهذا لم يخرِّج البخارى إلا ذلك. وضعف الشافعى، والبخارى، وأحمد فى أحد الروايتين عنه، وغيرهم حديث الثلاث، والأربع، فإن النبى ﷺ إنما صلى الكسوف مرة واحدة، وفى حديث الثلاث والأربع، أنه صلاها يوم مات إبراهيم ابنه، وأحاديث الركوعين كانت ذلك اليوم فمثل هذا الغلط إذا وقع كان فى نفس الأحاديث الصحيحة ما يبين أنه غلط، والبخارى إذا روى الحديث بطرق فى بعضها غلط فى بعض الألفاظ، ذكر معه الطرق التى تبين ذلك الغلط كما قد بسطنا الكلام على ذلك فى موضعه.

فكذلك إذا قيل: إنه وقع تبديل فى بعض ألفاظ الكتب المتقدمة كان فى الكتب ما يبين لك الغلط، وقد قدمنا أن المسلمين لا يدعون أن كل نسخة فى العالم من زمن محمد ﷺ بكل لسان من التوراة والإنجيل والزبور بدلت ألفاظها، فإن هذا لا أعرف أحداً من السلف قاله، وإن كان من المتأخرين من قد يقول ذلك، كما فى بعض المتأخرين من يجوِّز الاستنجاء بكل ما فى العالم من نسخ التوراة والإنجيل، فليست هذه الأقوال ونحوها من أقوال سلف الأمة وأئمتها. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما رأى بيد كعب الأحبار نسخة من التوراة قال: «يا كعب إن كنت تعلم أن هذه هى التوراة التى أنزلها الله على موسى بن عمران فاقرأها»، فعلق الأمر على ما يمتنع العلم به، ولم يجزم عمر رضي الله عنه بأن ألفاظ تلك مبدلة لما لم يتأمل كل ما فيها.

والقرآن والسنة المتواترة يدلان على أن التوراة والإنجيل الموجودين فى زمن

---

(١) صحيح:
١- أما حديث عائشة فأخرجه البخارى (١٠٥٠)، ومسلم (٩٠١)، وأبو داود (١١٨٠)، والترمذى (٥٦١)، والنسائى (٣/ ١٣٠-١٣٢)، وابن ماجه (١٢٦٣) والشافعى فى «الأم» (٤٩٢، ٤٩٣، ٢٢٢٩، ٢٢٣٠، ٢٤٧٥، ٣١٤٢)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١١٨٣١).
٢- وأما حديث ابن عباس: فأخرجه البخارى (١٠٥٢) ومسلم (٩٠٧).
٣- وأما حديث عبد الله بن عمرو: فأخرجه البخارى (١٠٥١) ومسلم (٩١٠).
وأيضًا عن:-
٤- جابر بن عبد الله: أخرجه مسلم (٩٠٤).

النبى ﷺ فيهمـا ما أنزله الله -عز وجل-، والجزم بتبـديل ذلك فى جميع النسخ التى فى العالـم متعـذر، ولا حاجة بنا إلى ذكـره، ولا علم لنا بذلك، ولا يمكن أحدًا من أهل الكتاب أن يدعى أن كل نسخـة فى العالم بجميع الألسنة من الكتب متـفقة على لفظ واحد، فـإن هذا مما لا يمكن أحدًا من البشـر أن يعرفه باختـباره وامتحانه، وإنما يعلم مثل هذا بالوحى وإلا فلا يمكن أحدًا من البشر أن يقابل كل نسخة موجودة فى العالم بكل نسخة من جميع الألسنة بالكتب الأربعة والعشرين، وقد رأيناها مختلفة فى الألفاظ اخـتلافًا بينًا، والتوراة هى أصح الكتب، وأشهرها عند اليـهود، والنصـارى، ومع هذا فنسـخة السـامـرة مخـالفة لـنسخـة اليهـود والنصارى، حتى فى نفس الكلمـات العشر، ذكر فى نسخة السـامرة منها من أمر استقبال الطور ما ليس فى نسخـة اليهود والنصارى، وهذا مما يبين أن التبديل وقع فى كثير من نسخ هذه الكتب، فإن عند السامرة نسخًا متعددة.

وكذلك رأينا فى الزبور نسخًا متـعددة تخالف بعضها بعضًا، مخـالفة كثيرة فى كثيـر من الألفاظ والمعانى، يقطـع مـن رآهـا أن كثيـرًا منـها كذب على زبور داود عليه السلام، وأما الأناجيل فالاضطراب فيها أعظم منه فى التوراة.

فإن قيل: فإذا كـانت الكتب المتقدمة منسوخـة، فلماذا ذم أهل الكتاب على ترك الحكم بما أنزل الله منها؟ قـيل: النسخ لم يقع إلا فى قليل من الشرائع، وإلا فالإخبار عن الله، وعن اليوم الآخر، وغير ذلك لا نسخ فيه.

وكذلك الدين الجامع والشـرائع الكلية لا نسخ فيها، وهو -سبـحانه- ذمهم على ترك اتبـاع الكتاب الأول، لأن أهل الكتـاب كفـروا من وجهـين: من جـهة تبـديلهم الكتاب الأول، وترك الإيمـان، والعـمل ببعـضه. ومن جـهة تكذيبـهم بالكتاب الثانى وهو القرآن، كما قال -تعالى-:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

فبيَّن أنهم كـفروا قبل مبعثه بما أنزل عـليهم وقتلوا الأنبياء كمـا كفروا حين مبعثه بما أنزل عليه، وقال -تعالى-:

---

(١) سورة البقرة: ٩١.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

وقال -تعالى-:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾(٢).

وقال -تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣).

وإذا كان الأمر كذلك فهو -سبحانه- يذمهم على ترك اتباع ما أنزله فى التوراة والإنجيل وعلى ترك اتباع ما أنزله فى القرآن ويبين كفرهم بالكتاب الأول، وبالكتاب الثانى، وليس فى شىء من ذلك أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ من الكتاب الأول، كما ليس فيه أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ فى الكتاب الثانى.

• • •

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٣.
(٢) سورة آل عمران: ١٨٤.
(٣) سورة القصص: ٤٨، ٤٩.

فهرس [الجزء الثانى]

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة


Bibliotheca Alexandrina
06802254
